جون بوكان

الرهائن الثلاث

ترجمة أحمد عبد المنعم

الرهائن الثلاث

تأليف
جون بوكان

ترجمة
أحمد عبد المنعم

مراجعة
محمد حامد درويش

هنـــداوي

الرهائن الثلاث

جون بوكان

The Three Hostages

John Buchan

الناشر مؤسسة هنداوي
المشهرة برقم ١٠٥٨٥٩٧٠ بتاريخ ٢٦ / ١ / ٢٠١٧

يورك هاوس، شييت ستريت، وندسور، SL4 1DD، المملكة المتحدة
تليفون: ١٧٥٣ ٨٣٢٥٢٢ (٠) ٤٤ +
البريد الإلكتروني: hindawi@hindawi.org
الموقع الإلكتروني: https://www.hindawi.org

إنَّ مؤسسة هنداوي غير مسئولة عن آراء المؤلف وأفكاره، وإنما يعبِّر الكتاب عن آراء مؤلفه.

تصميم الغلاف: ولاء الشاهد

الترقيم الدولي: ٩٧٨ ١ ٥٢٧٣ ٣٦٨٤ ١

صدر الكتاب الأصلي باللغة الإنجليزية عام ١٩٢٤.
صدرت هذه الترجمة عن مؤسسة هنداوي عام ٢٠٢٤.

جميع حقوق النشر الخاصة بتصميم هذا الكتاب، وتصميم الغلاف، والترجمة العربية لنص هذا الكتاب مُرَخَّصة بموجب رخصة المشاع الإبداعي: نَسْبُ المُصنَّف، الإصدار ٤,٠. جميع حقوق النشر الخاصة بنص العمل الأصلي خاضعة للملكية العامة.

المحتويات

إهداء	٧
١- نظريات الطبيب جرينسليد	١١
٢- معرفتي بأمر الرهائن الثلاث	٢١
٣- بحث في العقل الباطن	٣٧
٤- تعارُفي مع رجلٍ شهير	٥١
٥- نادي الخميس	٦٥
٦- المنزل في جوسبِل أوك	٨١
٧- بعض تجارب التلميذ	٩٧
٨- الراقصة الغامضة	١٠٩
٩- حينما تعرفت على ساحر قوي	١٢١
١٠- تبادل الأسرار في نُزُلٍ على الطريق	١٣٣
١١- رأيُ مهندسٍ ألماني في أساليب الصيد الغريبة	١٤٩
١٢- عودتي إلى العبودية	١٦٥
١٣- زيارتي لحقول عدن	١٧٧
١٤- السير أرتشيبالد رويلانس يشارك في المهمة	١٩٥
١٥- اكتشاف نبيل فرنسي للخوف	٢٠٧
١٦- أصبح وقتنا ضيقًا	٢١٧
١٧- مساعدة كاهن ميدان بالميرا	٢٣١
١٨- ليلة الأول من يونيو	٢٣٩
١٩- ليلة الأول من يونيو، في وقتٍ لاحق	٢٥٥

٢٠- ماتشراي ٢٧١
٢١- كيف لاحقتُ طريدةً أكثر بريةً من الغزلان ٢٨٥

إهداء

إلى طالبٍ شابٍّ في كلية إيتون.

سيدي المبجل

في ذكرى ميلادك السابقة، أهداك والدك، بحسن نية، نسخة من أحد أعمالي؛ لأنه كان قد سمعك ذات مرة تُبدي إعجابك بأعمالي. ولكن، كان الكتاب يتناول فرعًا مُملًّا من بحثٍ تاريخي، ومن ثَم لم يعجبك. وحسبما أتذكر، راسلتَني شاكيًا أني «خذلتك»، وداعيًا إياي، وأنا مُمتن كثيرًا لأسلوبك المحترم، أن «أُلَملِم شتاتَ نفسي.» وطلبت منِّي بشكلٍ خاص أن تقرأ المزيد من مغامرات ريتشارد هاناي، الرجل النبيل الذي أبديتَ إعجابًا به. أنا أيضًا معجبٌ بالسير ريتشارد، وعندما التقيتُه مؤخرًا (فنحن الآن جيران)، لاحظتُ أن يده اليُسرى مشوهة بشدة، وهي إصابة أعلم جيدًا أنه لم يُصب بها خلال الحرب. وتكرَّم عليَّ وقصَّ قصةً مهمة عصيبة انخرط فيها مؤخرًا، وسمح لي بأن أعيد روايتها عليك. كان السير ريتشارد فخورًا بمشاركته في هذه المهمة؛ فقد كانت منذ بدايتها وحتى نهايتها معركة ذكاء، من دون اللجوء إلى أساليب المواجهة المباشرة التي يألفها. وها أنا أُقدِّمها لك على أمل أن ترى وأصدقاؤك أنها تصلح للتكفير عن بعض كتاباتي الأخرى التي فرضها عليكم المسئولون عنكم.

جون بوكان

يونيو، ١٩٢٤

الفصل الأول

نظريات الطبيب جرينسليد

أتذكر أنني كنت، في ذلك المساء، أشعر بالسعادة والغبطة بالذات أثناء عبوري ميل ميدو. كنا لا نزال في منتصف شهر مارس، في أحد أيام الربيع تلك التي تشعر فيها عند الظهيرة أنك في شهر مايو، ولا يُذكِّر المرء أن الشتاء لم ينتهِ بعدُ إلا ذلك الضباب اللؤلؤي البارد الذي ينتشر عند غروب الشمس. كان الموسم لا يزال في بدايته، فكانت أشجار الخوخ الشوكي لا تزال مزهرةً والشجيرات ملأى بأزهار الربيع. كانت طيور السمان في موسم التزاوج، والغربان أعدَّت أعشاشها بالفعل، وكانت المروج تعجُّ بأسراب رمادية لامعة من طيور دُج الحقول المُتجهة شمالًا. وضعت نصف دزينة من طيور الشنقب على الضفة السبخة للجدول، وتخيلت أني رأيت طائرًا من دجاج الأرض في جُمَّة في غابة ستيرن، وأملتُ أن تُعشش هذه الطيور في أرضنا هذا العام مثلما كانت مُعتادة منذ أمدٍ بعيد. كان من الرائع رؤية العالم يعود إلى الحياة مجددًا، وأن أستحضر أنَّ هذه البقعة من إنجلترا ملك لي، وأن جميع هذه الكائنات البرِّية هي، إن صح التعبير، أُسرتي الصغيرة.

كما ذكرت سابقًا، كنت مسرورًا للغاية؛ إذ كنت قد عثرت على شيءٍ كنت أتوق إليه طوال حياتي. كنت قد اشتريت ضيعة فوسي بعد انتهاء الحرب مباشرةً هدية زفاف لزوجتي ماري، واستقررنا فيها طوال عامَين ونصف منذ ذلك الحين. بلغ ابني بيتر جون الشهر الخامس عشر من عمره، غلام نبيه، صحيح البدن كمُهر صغير، ومُضحك كجرو كلب تِرْيَر. ولم تتمكن عين ماري القلِقة من رصد أي أعراضٍ تدل على وجود مشكلة به. ولكن كان المكان يحتاج إلى الكثير من الرعاية؛ إذ كان قد أصبح في حالٍ سيئة خلال الحرب، وأصبح من الضروري التقليل من كثافة أشجار الغابة، وإصلاح البوابات والأسوار، ووضع أغطية جديدة للبلاعات، وتركيب مضخة مياه لتُعوض نقص المياه في الآبار، وإصلاح قشِّ الكثير من الأسقف، وإعادة استزراع حواف الحديقة. كنتُ قد أنجزت القسم الأسوأ من هذه

الأمور، وأثناء خروجي من غابة هوم وود وصولًا إلى المروج الأقل منها ارتفاعًا ورؤيتي للجملونات الحجرية التي بناها الرهبان، شعرتُ وكأني قد رسوت أخيرًا في أبهج مرفأ على الإطلاق.

كانت ثمة كومة من الخطابات موضوعة على منضدة في ردهة المنزل، ولكني تركتها في مكانها، فلم تكن لديَّ رغبة في التواصُل مع العالم خارج جدران منزلي. بينما كنت آخُذ حمَّامًا ساخنًا، استمرت ماري في سرد الأخبار على سمعي عبر باب غرفة نومِها. كان بيتر جون يُحدِث جلبةً كبيرة بسبب نمو سنِّه الأولى، وجفَّ ضرع البقرة الجديدة القصيرة القرن، واستعاد العجوز جورج وادون حفيدته من الخدمة الإلزامية، وثمة سرب جديد من البط العدَّاء، وكان طائر من طيور سمنة الدبق يبني عشًّا في السياج المربع بجوار البحيرة. قد تقول إنه حديث تافه، ولكني كنت مهتمًّا به أكثر بكثير مما كان يدور في البرلمان أو في روسيا أو في هندوكوش. في واقع الأمر، أصبحت مُسنًّا لدرجة أني توقفت عن قراءة الصحف. لم تَعُد جريدة التايمز تُفتَح لأيام، لأن ماري لم تكن تقرأ أي أخبار سوى الصفحة الأولى لتعرف مَن مات أو مَن تزوج. لا يعني ذلك أني لم أعُد أقرأ؛ فقد كنت معتادًا على تمضية أمسياتي في قراءة تاريخ المقاطعة، والتعرُّف على كل ما تقع عليه يداي عن القُدامى الذين كانوا أسلافي. أحببتُ فكرة أني أصبحت أعيش في مكانٍ ظلَّ مأهولًا دون انقطاع طوال ألف عام. تقاتَل كافالييه وراوندهيد على هذه المنطقة الريفية، وأصبحتُ أنا مَن يحكُم على معاركهما الصغيرة. كان هذا هو الاهتمام الوحيد الذي تبقَّى لي من الجُندية.

أذكر أننا أثناء هبوطنا إلى الطابق السفلي، توقفنا أمام نافذة الدَّرَج الطويلة التي تُطل على جزء من المرج الأخضر، وأحد أركان البحيرة، ومشهدًا للسهول الخضراء عبر فُرجةٍ في أشجار الغابة. ضغطَت ماري على ذراعي. وقالت: «يا له من بلدٍ جميل. هل حلمتَ بِمثل هذا الهدوء يا ديْك؟ إننا محظوظون، محظوظون للغاية.»

ثم انقلبت قسمات وجهها بطريقتها المُعتادة وأصبحت جادةً جدًّا. وشعرتُ برجفةٍ خفيفة تسري في ذراعِها.

وهمسَت قائلة: «إن حياتنا جميلة ومُبهجة لدرجةٍ لا أُصدق معها أنها ستستمر. وأشعر بالخوف أحيانًا.»

ضحكتُ قائلًا: «غير معقول. ما الذي يمكن أن يحدُث ويعكر صفو حياتنا؟ لا أومن بالخوف من السعادة.» كنتُ أعرف تمام المعرفة أن لا شيء يمكن أن يُخيف ماري.

فضَحِكَت أيضًا. وقالت: «لديَّ تلك الخَصلة التي يُطلق عليها الإغريق اسم أيدوس. أنت لا تعرف ما تَعنيه هذه الكلمة، أيها البدائي المُسن. إنها تعني أن يشعر المرء بأنه يجب عليه أن يمشي على الأرض هونًا ويتواضَع ويرضى بما قُدِّر له. أتمنَّى أن أعرف كيف أفعل ذلك.»

مشت آنَّا على الأرض هونًا أكثر من اللازم؛ فقد زلَّت قدمُها عن درجة السُّلَّم الأخيرة وانتهى نزولنا بعرقلة مُخجلة أودت بها بين ذراعَي الطبيب جرينسليد مباشرةً.

كان بادوك، الذي كنتُ قد استعنت بخدماته بعد انتهاء الحرب وأصبح الآن رئيس خدَمي، يساعد الطبيب على خلع معطفه الفضفاض، وأدركت من النظرة الراضية المُرتسِمة على وجه الأخير أنه أنهى عمل يومِه، وأنه ينوي أن يبقى ليتناول العشاء معنا. الفرصة سانحة الآن لأن أُعرفكم بتوم جرينسليد، فمن بين جميع معارفي الجدد، كان هو أكثر من انجذبتُ إليه. كان رجلًا نحيلًا طويل القامة مَحنيَّ الظهر بسبب الانحناء للإمساك بمقبضَي دراجته النارية، أحمر الشعر ذا عينين زرقاوين يتخللهما اللون الأخضر، وبشرة ينتشر فيها النمش عادةً ما تُصاحب لون الشعر الأحمر. من عظام وجنته البارزة وألوان شعره وعينَيه وبشرته، قد تحسب أنه اسكتلندي، ولكنه في الحقيقة من ديفونشاير-إكسمور، على ما أظن، على الرغم من أنه طاف العالم كثيرًا لدرجة أنه كاد ينسى مكان نشأته. لقد سافرت كثيرًا، ولكني لا أُقارَن بجرينسليد. بدأ مسيرته المهنية كطبيبٍ على متن سفينة صيد حيتان. ثم شارك في الحرب الجنوب أفريقية، ثم قاضيًا مؤقتًا في مكانٍ ما شمالي ليدنبرج. وسرعان ما سَئِم من كل ذلك، فخرج في رحلةٍ طويلة في أوغندا وشرق أفريقيا الألماني، حيث أصبح خبيرًا في الأمراض الاستوائية، وكاد أن يقضي نحبَه عندما جرَّب اللقاحات على نفسه. ثم ذهب إلى أمريكا الجنوبية، حيث مارس الطب في مدينة فالباريسو، ثم ذهب إلى اتحاد ولايات الملايو، حيث جمع بعض المال من ازدهار تجارة المطاط. كانت ثمة فترة انقطاع عن العمل تبلغ ثلاث سنوات عندما كان يَهيم على غير هُدًى في آسيا الوسطى، فتارةً يصطحب رجلًا يُدعى دوكيت في استكشاف منغوليا الشمالية، وتارةً أخرى يذهب إلى التِّبت الصينية لاكتشاف أنواع جديدة من الزهور؛ فقد كان مهووسًا بعلم النبات. ثم عاد إلى وطنه في صيف عام ١٩١٤، منتويًا إنشاء مُختبرٍ بحثي، إلا أن الحرب دمَّرت خُططه، فاستُدعي إلى فرنسا برتبة ضابط طبي في إحدى الكتائب الإقليمية. وبالطبع تعرض لإصابة، وبعد فترة مؤقتة في المستشفى، ذهب إلى بلاد ما بين النهرين وظلَّ فيها حتى كريسماس عام ١٩١٨، وكان مُجدًّا في عملِه للغاية، ولكن لم يمنعه ذلك من المشاركة في الكثير من المغامرات

المتنوِّعة؛ فقد كان في باكو رفقة الجنرال دونستيرفيل، ووصل حتى طشقند حيث حبسه البلشفيون لأسبوعين في حمام عمومي. وأُصيب خلال الحرب بالكثير من الأمراض، ومن ثَم اختبر كل شيء، ولكن يبدو أنها لم تترك تأثيرًا دائمًا على جسدِه القوي كالسوط. أخبرني ذات مرة أن قلبه ورئتَيه وضغط دمه في حالة جيدة وكأنه في الحادية والعشرين من عمره، رغم أنه في ذلك الوقت كان قد تخطى الأربعين من عمره.

ولكن بعدما وضعت الحرب أوزارها، أصبح يتوق لحياةٍ هادئة، فاشترى عيادة في المنطقة الوسطى من إنجلترا والأكثر خضرة. قال إن دافعه هو الدافع نفسه الذي حمل الرجال في العصور الوسطى الصاخبة على الانعزال في الأديرة؛ كان يحتاج إلى الهدوء والراحة لينظر في داخل روحه. ربما عثر على الهدوء، ولكن الراحة نادرة، فلم أرَ في حياتي طبيبًا حكوميًّا يكدح في عمله مثله. كان يزور المرضى التابِعين للتأمين الصحي ثلاث مرات كل يوم، ما يكشف لك أي نوعٍ من الرجال كان، وكان يُهرع من بيته في ساعات الصباح الأولى إذا ما أُبلِغ بأن امرأة غجرية تضع طفلها في العراء. كان طبيبًا من الطراز الأول، وكان مواكبًا لجميع مستجدَّات المهنة، إلا أن الطب كان واحدًا من بين اهتماماته العديدة. لم أرَ في حياتي رجلًا نهمًا لمعرفة كل ما على الأرض وفي السماء مثله. كان يسكن في بيت ريفي من غرفتَين يبعد عن منزلنا مسافة أربعة أميال أو نحوها، وكان يمتلك عدة آلاف من الكتب. كان يقضي النهار بأكمله، ونصف الليل تقريبًا، يجوب الريف في سيارته الخفيفة، ولكن عندما كان يأتي لزيارتي وتناوُل مشروب معي بعد حوالي عشرين زيارة، كان لا يزال مُفعمًا بالحيوية كما كان قد استيقظ من النوم لتوِّه. كان بارعًا في الحديث عن كل شيء — الطيور، والحيوانات، والزهور، والكتب، والسياسة، والدين — كل شيء في العالم ما عدا نفسه. كان أفضل صحبة قد يحصل المرء عليها، فبِغضِّ النظر عن ذكائه وألمعيَّته، ستشعر وكأنك قد عثرت على كنز. لولاه كنتُ سأصبح ساكنًا كنبتةٍ مغروسة في الأرض، وأنا أميل بطبيعتي إلى تلك الحياة الساكنة. أُعجبَت به ماري كثيرًا، وكان بيتر جون يعشقُه.

كانت روحه المعنوية عالية للغاية في تلك الأمسية، وكانت تلك من المرَّات النادرة التي يُخبرنا فيها لمحاتٍ عن ماضيه. أخبرنا عن الأشخاص الذين تمنَّى من كل قلبه أن يراهم مرة أخرى؛ رجل أيرلندي من أصل إسباني يعيش في شمال الأرجنتين يوظف أخطر رعاة الأبقار من أهل المنطقة الذين يعيشون في الجبال، والذين يحافظ على سعادتهم عبر تنظيم مباريات ملاكمةٍ كلَّ يومِ أحد، وكان يُلاكم الرجل الذي ينتصِر على الجميع بنفسه، وكان دائمًا ما ينتصر عليه، وتاجر اسكتلندي من هانكو تحول إلى كاهنٍ بوذي أضفى لكنةَ أهل

جلاسجو الحادة على صلواته، وكان أكثر من يتمنَّى رؤيته قرصان من الملايو والذي، كما قال، كان مُحبًّا للحيوانات كما لو كان القديس فرانسيس مع وحوشِ البرِّية، على الرغم من مُعاملته القاسية مع البشر كما لو كان نيرون. ثم انتقل للتحدث عن وسط آسيا، وقال إنه إذا ما غادر إنجلترا مرة أخرى، فسيذهب إلى هناك، فهذه المنطقة هي ملاذ جميع الأوغاد. وكان يعتقد أن ثمة أمرًا غريبًا للغاية قد يحدث هناك على المدى الطويل. صاح قائلًا: «فكر في الأمر! جميع تلك الأماكن التي تشبه أسماؤها التعويذات السحرية — بُخارى، وسمرقند على سبيل المثال — تديرها عصابات صغيرة قذرة من اليهود الشيوعيين. ولكن لن يستمر الحال على هذا المنوال إلى الأبد. ذات يوم، سيُولَد من رحِم هذه الفوضى جنكيز خان أو تيمور لنك جديد. إن أوروبا مُضطربة بما فيه الكفاية، أما آسيا ففي فوضى منذ القِدَم.»

جلسنا بعد العشاء حول نار المِدفأة في غرفة المكتبة، التي صممتُها على غرار غرفة السير والتر بوليفانت في منزله في كينيت، بارًّا بالوعد الذي كنتُ قد قطعتُه على نفسي منذ سبع سنوات. عندما أنشأتُ هذه الغرفة، كنتُ أنوي أن أجعلها مساحتي الخاصة للكتابة والقراءة والتدخين، إلا أن ماري احتلَّتها ومنعتني عن فعل ذلك. لدى ماري غرفة جلوس معروشة رائعة في الطابق العلوي نادرًا ما تدخلها؛ ورغم أني كنتُ أطردها من غرفة المكتبة، فإنها كانت تعود دائمًا كما لو كانت دجاجةً في حديقة، ومِن ثَم، اغتصبَت لنفسها مساحةً على الجانب الآخر من مكتبي. كنتُ دومًا مهووسًا بالنظام، ولكن كانت محاولةُ إقناع ماري بالنظام بلا طائل، ومن ثَم أصبحت خطاباتها وأعمال حياكتها مُتناثرة على مكتبي، وأصبحت ألعاب بيتر جون وكتبه المصورة مكدسةً في الخزانة التي كنتُ أحتفظ فيها بصناديق طعوم صيد الأسماك، وكان بيتر جون نفسُه يتظاهر كلَّ صباحٍ بأنه داخل قفصٍ في كرسي بلا ظهرٍ مقلوب على سجادة المدفأة.

كانت ليلة باردة، وكان من الرائع الجلوس بالقُرب من المدفأة التي كانت تُصدِر رائحةً عطرةً بسبب أخشاب شجرة الكُمثرى القديمة التي تحترق فيها. أمسك الطبيب روايةً بوليسيةً كنتُ أقرأها، ونظر إلى عنوانها.

وقال: «أحِبُّ قراءة أغلب الموضوعات، ولكني لا أعلم لِمَ تُضَيِّع وقتك على مثل هذه الكتب. تلك الألغاز سهلة الحل للغاية يا ديك. يُمكنك أن تبتكر بعضها بنفسك.»

«لا، ليس أنا. أرى أنها حبكةٌ روائية رائعة. لا أعلم كيف يتمكن المؤلِّف من ابتكارها.»

«الأمر بسيط. يكتب المؤلِّف القصة استقرائيًّا، ويتتبعها القارئ استدلاليًّا. هل تفهم ما أعنيه؟»

أجبته قائلًا: «لم أفهم أي شيء.»

«اسمع. أُريد أن أؤلف لغزًا، فأبدأ بتثبيت بضع حقائق لا يُوجَد رابط واضح بينها.»

«هل يُمكنك أن تُعطيني مثالًا على ذلك؟»

«حسنًا، تخيل أي شيءٍ يحلو لك. دعنا نتناول ثلاثة أمور لا يُوجَد أي رابط بينها ...» صمت للحظاتٍ مفكرًا، ثم قال: «مثلًا، امرأة عجوز كفيفة تغزل في منطقة المرتفعات الغربية، وحظيرة في أحد المراعي النرويجية الخضراء، ومتجرًا صغيرًا للتُّحَف في شمال لندن يديره يهودي ذو لحيةٍ مصبوغة. لا تُوجَد أي صِلة بين الأمور الثلاثة، أليس كذلك؟ ثم تبتكر صِلة؛ الأمر بسيط للغاية إذا كانت لدَيك مخيلة، ومن ثَم تَحبِك الأمور الثلاثة في حبكةٍ روائية واحدة. فيشعر القارئ بالحيرة والافتتان لأنه في البداية لا يعرف شيئًا عن الأمور الثلاثة، وإذا كانت القصة مُنسقةً على الوجه الأمثل، يشعر بالرضا في النهاية. ويُسَر بعبقرية حلِّ اللغز، لأنه لا يُدرك أن المؤلف قد أعدَّ الحلَّ منذ البداية، ثم ابتكر مُعضلةً تُلائمه.»

قلت: «فهمت. لقد أزلتَ المتعة من كتُبي الخفيفة المُفضلة. لن أنبهر مجددًا ببراعة المؤلِّف.»

«لديَّ اعتراض آخَر على هذه الكتب؛ أنها ليست ألمعيَّة بما يكفي، أو لا تراعي تعقيدات الحياة. ربما كان لا بأس بها منذ عشرين عامًا، عندما كان أغلب الناس يتناقشون ويتصرفون بمنطقية. ولكنهم لا يفعلون ذلك الآن. هل تُدرك يا ديك الجنون الصارخ الذي خَلَّفته الحرب في العالم؟»

رفعت ماري، التي كانت جالسةً تَحيك في ضوء المصباح، رأسها وضحكت.

ارتسمت الجدية على وجه جرينسليد. وقال: «يُمكنني التحدُّث بانفتاح معكما، فأنتما الشخصان العاقلان الوحيدان اللذان أعرفهما. حسنًا، بصفتي مُختصًّا في علم الأمراض، أنا مصدوم. لم ألتقِ أحدًا لم يُصَب بتغيُّرٍ ولو بسيطًا في عقلِه نتيجةً لما حدث خلال السنوات السبع الأخيرة. في حالة أغلب الناس، كان هذا التغيُّر جيدًا؛ فلم يعُدِ الناس راضِين بأوضاعهم الراهنة، وأصبحوا يرَون الجانب المرح من الأمور بسرعة أكبر، وأصبحوا أكثر استعدادًا لخَوض المغامرات. ولكنه، في حالة بعض الناس، جاء في صورة جنونٍ صارخ، وهذا يعني ارتكاب جرائم. والآن، كيف يُمكنك أن تؤلِّف قصصًا بوليسية عن هذا العالم الجديد بناءً على النهج القديم نفسه؟ لم تعُدِ المُسَلَّمات الحالية هي نفسها التي كانت في

الماضي، ولم يعُد ذلك المؤلِّف الخبير ذو العين الثاقبة والعقل المتوقِّد يملك أرضًا راسخة يُرسي عليها دعائمه.»

لاحظتُ أن اللَّوم، في الكثير من تلك الأمور التي تعلمتُ في صغري أنها ترجع إلى الخطيئة الأصلية، أصبح يُلقى على الحرب المسكينة.

«أوه، أنا لا أشكك في اتِّباعِك للمذهب الكالفيني. الخطيئة الأصلية دائمة الوجود، وجاءت الحضارة لكي تُجبِرها على طأطأة رأسها، ولكنها عادت الآن لترفعها من جديد. ولكنها ليست الخطيئة الوحيدة. إنه تَفَكُّك آلية المنطق البشري، تفسخٌ عامٌّ لجميع أوصاله. الغريب في الأمر أنه على الرغم من تكرار الأحاديث عن صدمة القصف، فإن نسبة الإصابة بها بين الرجال الذين شاركوا في الحرب تقِلُّ عن غيرهم. وأكثر مَن يُعانون من هذه الصدمة هم أبناء الطبقات الاجتماعية التي تهربت من المشاركة في الحرب — وترى ذلك جليًّا في أيرلندا. أصبح على جميع الأطباء حاليًّا أن يكونوا مُلمِّين بالأمراض العقلية ولو قليلًا. وكما قلتُ سابقًا، لم تعُدِ المُسَلَّمات هي نفسها، وإذا كنتَ تريد قراءة قصص بوليسية لا تبدو كخيالٍ طفولي، سيكون عليك أن تبتكِر نوعًا جديدًا. لا ضَير من أن تكتب قصصك الخاصة يا ديك.»

«لا، ليس أنا. أنا من هواة الحقائق دون تجميل.»

«مهلًا يا رجل، لم تعُدِ الحقائق تُعرَض كما هي. يُمكنني أن أقول لك إن ...» صمت للحظات توقعتُ خلالها أن يقصَّ عليَّ قصة، ولكنه عدل عن ذلك.

وقال: «خذ كلَّ هذه الأحاديث عن التحليل النفسي مثالًا. لم يدخل عليه أي شيء جديد، ولكن بدأ الناس يهتمُّون أكثر بالتفاصيل، وأصبحوا يُجْرون الكثير من التقييمات لأنفسِهم خلال ذلك. من المؤسِف أن تُصبح الحقائق العلمية مَرتعًا للجُهلاء. ولكني أؤكد أن الذات الباطنة حقيقة مؤكدة مثل وجود الرئتَين والشرايين.»

قالت ماري: «لا يُمكنني تصديق أن ديك يملك ذاتًا باطنية.»

«بل لدَيه واحدة. إلا أن الناس الذين عاشوا حياةً كحياته تكون ذواتهم العادية خاضعة للسيطرة والالتزام بشكلٍ كامل — يزدهرون في المواقف العصيبة، كما يُقال — حتى إنه نادرًا ما يظهر العقل الباطن للعلن. ولكن، إذا تأمَّل ديك ذاته، الأمر الذي لا يفعله مُطلقًا، فسيجد بعض الجوانب الغريبة. فلنأخُذ حالتي مثالًا.» استدار ليُواجهني حتى أتمكن من رؤية عينَيه الصادقتَين ووجنتَيه البارزتَين بوضوحٍ تامٍّ في ضوء نار المدفأة الذي جعلها تبدو هائلة الحجم. «كنتُ مثلك في الماضي، ولكني أدركتُ منذ أمدٍ بعيد أني أمتلك

عقلًا باطنًا من نوعٍ شديد الغرابة. لديَّ ذاكرة قوية وقدرات ملاحظة معقولة، ولكنها لا تُقارن بقدرات ذاتي الباطنة. فلنأخذ أي حدثٍ يَومي مثالًا. أرى وأسمع نحو واحدٍ على عشرين من التفاصيل، ويمكنني تذكُّر نحو واحدٍ على مائة منها، بفرض عدم وجود أي شيءٍ مُميز يُثير اهتمامي. ولكن ذاتي الباطنة ترى وتسمع كلَّ شيء، وتتذكَّر أغلبَه. كل ما في الأمر أني لا أستطيع استخدام هذه الذاكرة، لأنني لا أعلم أني أمتلِكها، ومن ثَم لا يُمكنني استدعاؤها وقتما أريد. ولكن من وقتٍ لآخر يحدُث شيء يفتح سدادة العقل الباطن، وتسيل منه بعض الذكريات. أجد نفسي أحيانًا أتذكر أسماءً لم أكن أُدرك أنني سمعتُها، وأحداثًا وتفاصيل دقيقة لم أُدرك أنني لاحظتُها بعقلي الواعي. قد تقول إنها تهيُّؤات، ولكنها ليست كذلك، فكلُّ ما تعرضه الذاكرة الباطنة حقيقي تمامًا. لقد اختبرتُ الأمر. وإذا استطعتُ أن أعثر على طريقةٍ تُمكنني من تشغيلها متى شئت، فسأكون خارقًا للطبيعة. وربما أُصبِح أفضلَ علماء العصر، فمشكلة البحث والاختبار تكمُن في أن العقل العادي لا يلاحظ بالدقة الكافية ولا يتذكَّر البيانات بالدقة الوافية.»

قلت: «مذهل. لا أظن أني لاحظتُ ذلك في نفسي. ولكن ما علاقة ذلك بالجنون الذي تقول إنه ينتشر في العالم كالوباء؟»

«الأمر بسيط. دائمًا ما كانت الحواجز بين العقل الواعي والعقل الباطن قويةً لدى البشر العاديين. ولكن الآن مع تزعزُع دعائمها، أصبحت واهية وصار العالَمان يختلطان. يُشبه الأمر حاويتَين تحتويان على سائلَين، وأصبح الجدار الفاصل بينهما باليًا ومليئًا بالثقوب ما جعل السائلَين يختلطان. والنتيجة هي الارتباك، وإذا كان السائلان من نوعٍ مُعين، تحدث انفجارات. لهذا السبب أقول إنه لم يعُد مُمكنًا أخذ علم النفس المعروف لأكثر البشر تحضرًا على أنه من المُسلَّمات. فثمة شيء ما يصعد من أعماق البدائية ليُلطخه.»

قلت: «لا أُعارضك في ذلك. لقد بالغْنا في التحضُّر، وأنا من أكبر المناصِرين لوجود بعض الهمجيَّة. أرغب في عالمٍ أبسط.»

قال جرينسليد: «لن تحصل عليه إذن.» كان حينئذٍ قد بدا جادًّا للغاية، وكان ينظر نحوَ ماري وهو يتحدَّث. «إن العالَم المُتحضر أبسط بكثير من العالم البدائي. ما التاريخ برمَّته إلا مُحاولات لتعريف الأمور، ووضع قواعد فكرية واضحة، وقواعد تعامُل واضحة، وعقوبات صارمة، يُمكننا أن نتعايش وفقًا لها. هذا من أعمال الذات الواعية. أما الذات الباطنة فشيء بدائي لا يتقيَّد بأي قواعد. وإذا ما غزا حياةً، فثمة نتيجتان حتميتان. ضعف في القوى العقلية، التي تجعل مرتبة البشر تدنو من مرتبة الآلهة. وانهيار عصبي.»

نهضتُ لأتنشَّق بعض الهواء؛ إذ كنتُ قد بدأتُ أشعر بالاكتئاب من تشخيص الطبيب لعصرِنا الحالي. لم أكن أعلم إذا ما كان جادًّا تمامًا فيما كان يقوله؛ فقد بدأ كلامَه بالحديث عن صيد الأسماك الذي كان إحدى هواياته الكثيرة. كان النهر الصغير في أرضِنا مناسبًا تمامًا للصيد بالشراشيب، ولكني استأجرتُ وآرتشي رويلانس غابة غزلان لموسم صيد الغزلان، وسيَصحبني جرينسليد ليُجرب صيد أسماك السلمون. لم تكن ثمة أسماك سلمون بحْري العامَ السابق في منطقة المُرتفعات الغربية، وبدأنا نتناقش في أسباب حدوث ذلك. كان لدَيه الكثير من النظريات، ونسِينا كلَّ شيءٍ عن عِلم النفس البشري أثناء بحثنا في عِلم نفس الأسماك الغريب. بعد ذلك، غنَّت لنا ماري؛ إذ كنتُ أعتبِر أن أي أمسيةٍ لا تُغنِّي فيها أمسية فاشلة، وفي العاشرة والنصف، ارتدى الطبيب مِعطفه الفضفاض وانصرف.

بينما كنتُ أدخن غليوني للمرة الأخيرة ذلك اليوم، جلست أفكر في حديث جرينسليد. شعرت وكأني عثرت على مرفأ مُريح، إلا أن البحر خارجه بدا ثائرًا وأمواجه مُتقلبة! تساءلت عما إذا كان التنعُّم بالراحة في هذا العالم غير المُريح يُعَد هروبًا من الواقع. ثم فكَّرتُ في أني أستحِقُّ القليل من السَّكينة؛ فقد عشتُ حياةً صاخبة. ولكن عادت كلمات ماري عن «المشي هونًا» تغزو أفكاري. واعتبرتُ أن أحوالي الحالية خير مثال على ذلك؛ فقد كنتُ راضيًا شاكرًا على نِعَمي، ولم أكن أنوي اختبار صبر القدَر بتقاعسي.

رأيتُ الخطابات التي لم أرُد عليها بعدُ موضوعةً على طاولة الردهة وأنا في طريقي إلى غرفة نومي. قلَّبتُ الخطابات بين يدَي ورأيتُ أن أغلبها فواتير وإيصالات أو منشورات دعائية. كان عنوان أحدِها مكتوبًا بخطٍّ أعرفه، وعندما نظرتُ إليه سقط قلبي فجأةً في هوةٍ سحيقة. كان الخطابُ من اللورد أرتينسويل — السير والتر بوليفانت سابقًا — الذي كان قد تقاعد من عملِه في وزارة الخارجية، ويَعيش حاليًّا في منزله في كينيت. كنا نتراسَل أحيانًا للحديث عن الزراعةِ وصيد الأسماك، ولكنِّي انتابني هاجس بأن هذا الخطاب مُختلف. انتظرتُ بضعَ ثوانٍ قبل أن أفتح الخطاب.

عزيزي ديك

أُرسِل إليك هذه الرسالة على سبيل التحذير. في خلال يومٍ أو يومَين، سيُطلَب منك، بل ستُجبَر على أن تتولَّى مهمةً عسيرة. لستُ مسئولًا عن هذا الطلب ولكنِّي على عِلم به. إذا وافقتَ على الطلب، فسيعني هذا نهاية حياتك السعيدة كمُزارع.

لا أُريد أن أؤثِّر عليك بأي شكلٍ كان؛ فكل ما أُريده هو أن أُنبهك لما هو قادم حتى تكونَ مُستعدًّا ذهنيًّا وألا تؤخَذ على حين غرة. مع خالص حُبي لماري وابنكما.

المخلص دائمًا

«إيه»

كان هذا كل شيء. تحول الذعر الذي كنتُ قد شعرتُ به إلى غضب عارم. لماذا لا يتركني هؤلاء الأغبياء وشأني؟ وأثناء صعودي إلى الطابق العلوي، قطعتُ على نفسي عهدًا ألا أنحرِف عن المسار الذي حددتُه لنفسي قيد أنملة أيًّا كانت المُغريات. لقد أديتُ ما عليَّ للخدمة العامة ومصالح الآخرين، وحان الوقت لأن أهتمَّ بمصالحي الخاصة.

الفصل الثاني

معرفتي بأمر الرهائن الثلاث

ثمة رائحة تعبق المنازل الريفية أُحبها أكثر من أي رائحة أخرى في العالَم. اعتادت ماري أن تصِف هذه الرائحة بأنها مزيج من روائح زيت المصباح والكلب ودخان الحطَب، ولكن في فوسي، حيث الإضاءة الكهربية وعدم وجود كلاب داخل المنزل، أعتقِد أن مزيج الروائح مُكون من دخان الحطب والتبغ والجدران العتيقة ونسائم الريف التي تهب عبر النوافذ. الصباح هو أكثر وقتٍ تُعجبني فيه هذه الرائحة، عندما تختلِط برائحة طهي طعام الإفطار، وكم من مرةٍ وقفتُ عند قمَّة الدرج أتنشَّقها أثناء ذهابي إلى الحمَّام. ولكن في صباح اليوم الذي أكتبُ عنه، لم أستطِع الاستمتاع بهذه الرائحة، بل بدا وكأنها تُعذبني بصورةٍ عن هدوء الريف الذي عُكِّر صفوه. لم أتمكَّن من إخراج هذا الخطاب البغيض من ذهني. بعدما قرأته، مزَّقته مُشمئزًّا، ولكني وجدتُ نفسي أهبط الدرج مُرتديًا منامتي، الأمر الذي فاجأ الخادمة، وأجمع قصاصات الورق المُمزقة من سلة الورق التالِف، وأقرؤه مُجددًا. وألقيتُ القصاصات هذه المرة في نارٍ حديثة الإشعال.

كنتُ قد قررتُ أن لا شأن لي ببوليفانت أو أيٍّ من خُططه، ولكني لم أستطع العودة إلى السكينة التي غلَّفتني بالأمس كثيابي. هبطتُ إلى الطابق السفلي لتناول الإفطار قبل ماري، وانتهيتُ منه قبل أن تظهر. ثم أشعلتُ غليوني وبدأتُ جولتي المُعتادة حول أملاكي، ولكن لم يبدُ أيُّ شيءٍ على حاله في نظري. كان صباحًا مُنعشًا دون صقيع، وكانت أزهار الخُزيمة الزرقاء النامية على طول حواف البحيرة وكأنها أجزاء من سماء الصيف الزرقاء. كانت دجاجات الماء تبني أعشاشها، وبدأتْ أُولى براعم النرجس تتفتَّح في العشب الخشن الذي تفترِشه أجمات أشجار السرو الاسكتلندي، وكان جورج وادون العجوز يُثبِّت بالمسامير أسلاك صيد الأرانب وهو يصفر من بين سِنَّيه المُتبقيتَين في فمه، كان العالم بوجهٍ عامٍّ أصفى وأبهج ما يمكن للربيع تقديمه. ولكني لم أشعر بأن هذا

العالم حقًّا عالَمي، بل شعرتُ وكأني أنظر إلى لوحةٍ جميلة. كان شيءٌ ما قد حدث وأفسد التناغُم بين هذا العالم وعقلي، ولعنتُ بوليفانت وتدخُّلاته.

عدتُ إلى المنزل عبر مدخلِه الرئيسي، وأصابتني الدهشة عندما رأيتُ سيارة رولز رويس كبيرةً مكشوفةً تقف أمام الباب. استقبلني بادوك في ردهة المنزل وسلَّمَني بطاقةً كُتِب عليها اسم السيد جوليوس فيكتور.

كنت أعرف الاسم بالطبع، فهو اسم أحد أثرى أثرياء العالم، المصرفي الأمريكي الذي تولَّى الكثيرَ من أعمال بريطانيا المالية خلال الحرب، وكان متواجدًا في أوروبا حاليًّا لحضور مؤتمر دولي. أتذكَّر أن بلنكيرون، الذي لم يكن يُحب أبناءَ جِلدته، قد وصفه ذات مرة بأنه «أكثر اليهود بياضًا منذ القديس بولس.»

دخلتُ إلى غرفة المكتبة ووجدتُ رجلًا طويل القامة واقفًا بجوار النافذة ويُطِل عبرها على المشهد في الخارج. ما إن دخلتُ حتى التفت نحوي، ورأيتُ وجهًا نحيلًا ذا لحيةٍ رمادية مُهذبة بعناية، وعينَين يشوبهما قلقٌ لم أرَ مِثله في عينَي إنسانٍ من قبل. كانت كل قطعة من ملابسه أنيقة ومهندمة؛ حلته الرمادية ذات الصناعة المُتقنة، وربطة عنقِه السوداء ودبوسها المصنوع من لؤلؤة وردية، ومعطفه الكتاني باللونَين الأزرق والأبيض، وحذائه اللامع الأنيق. ولكن كانت تطل من عينَيه نظرة وحشية قلقة جعلته يبدو أشعث.

قال وهو يخطو نحوي: «سيدي الجنرال.»

تصافحنا ودعوته للجلوس.

قلت: «لم أعد «جنرالًا»، إذا سمحتَ. بادئ ذي بدء، هل تناولت إفطارك؟»

هز رأسه نفيًا. وقال: «شربت قدحًا من القهوة وأنا في طريقي إلى هنا. أنا لا آكل في الصباح.»

سألته. «من أين أتيت يا سيدي؟»

«من لندن.»

تبعُد لندن عنا مسافة ٧٦ ميلًا، فلا بد أنه بدأ رحلته مبكرًا. نظرت إليه في فضول، فنهض من مقعدِه وبدأ يتجول في الغرفة.

قال بصوتٍ خفيض رخيم رأيتُ أنه قادرٌ على إقناع أي شخصٍ يسمعه: «سير ريتشارد، أنت جندي، وخبير في أمور الحياة، وسوف تعذرني على أسلوبي غير التقليدي. ولكن الأمر الذي جئت إليك من أجله عاجل للغاية ولا يحتمِل إضاعة الوقت على الأعذار.

أخبرَني أصدقاء مُشتركون بيننا أنك رجل واسع الحيلة وبالِغ الشجاعة. ورُوي لي خلف الأبواب المُغلقة شيء عن ماضيك. أتيتُ إليك لأستجديك مساعدتك في أمر طارئ للغاية.»

قدمت له صندوق السيجار، فأخذ واحدًا وأشعله بحرص. رأيت أصابعه الطويلة النحيلة ترتجف وهو يُمسك بعود الثقاب.

ثم استطرد حديثه قائلًا: «لعلك سمعتَ عني. أنا رجل فاحش الثراء، ومنحتني ثروتي سلطةً واسعة؛ لذا تأتمِنني الحكومات على أسرارها. أنا مشارك في الكثير من الشئون المهمة، وسيكون تواضُعًا زائفًا منِّي لو أنكرت أن كلمتي لها ثِقَل أكبر من الكثير من رؤساء الوزراء. هدفي يا سير ريتشارد هو ضمان السِّلم العالمي، لهذا السبب لديَّ أعداء، جميع من يرغبون في استمرار الفوضى والحروب إلى الأبد. وتعرضَتْ حياتي للخطر أكثر من مرة، ولكن هذا لا يُهم. أنا مَحميٌّ جيدًا. وأظن أنني لستُ أكثر جبنًا من بقية الناس، وأنا على استعدادٍ لمواجهة المخاطر. ولكني تعرضتُ للهجوم حاليًّا بسلاح أكثر خطورة، وأُقر بأني لا أملك دفاعًا ضدَّه. رزقني الله بابنٍ تُوفي منذ عشر سنوات في الجامعة. ولم يَرزقني الله بأطفالٍ آخرين سوى ابنتي أديلا التي تبلُغ التاسعة عشرة من عمرها. جاءت ابنتي إلى أوروبا قبل الكريسماس مباشرة، فهي ستتزوَّج في باريس في شهر أبريل المُقبل. ومنذ أسبوعَين، كانت تصطاد مع أصدقائها في نورثهامبتونشاير، في مكانٍ يُدعى رشفورد كورت. في صباح الثامن من مارس، ذهبَت في جولة سيرًا على الأقدام إلى قرية رشفورد لتُرسِل برقية، وآخِر مرة شوهدَت فيها كانت تعبر بوابات المنزل في الحادية عشرة وعشرين دقيقة. ولم يرَها أحد منذ ذلك الحين.»

هببتُ من مقعدي واقفًا، وصِحت: «يا إلهي!» كان السيد فيكتور يتطلع إلى المشهد خارج النافذة، فسِرتُ إلى الطرف الآخر من الغرفة وألهيتُ نفسي بالكتب المرصوصة على الرف. خيم الصمت لبضع لحظاتٍ حتى كسرته أنا.

سألته: «هل تظن أنها فقدت ذاكرتها؟»

قال: «لا. ليس الأمر مُتعلقًا بفقدان الذاكرة. أعلم يقينًا أنها اختُطِفَت على يد من قلتُ عنهم إنهم أعدائي، ولدينا دليل على ذلك. وهي الآن محتجزة رهينةً.»

«هل تعلم أنها على قيد الحياة؟»

أومأ برأسه أن نعم؛ فقد اختنق صوته في صدره مجددًا. «ثمة دليل يشير إلى مؤامرة شديدة الخطورة والشر. قد يبدو الأمر انتقامًا، ولكني أظن أن الأرجح أنهم اختطفوها كبوليصة تأمين. يحتفظ بها مختطفوها لتأمين أنفسهم.»

«ألم تفعل شرطة سكوتلاند يارد أي شيء؟»

«فعلت كلَّ ما في إمكانها، ولكن ذلك لم يمنع الظلام من الانتشار.»

«لا شك في أن هذا الخبر لم يُنشر. أنا لا أقرأ الصحف بتمعُّن شديد، ولكني أعلم أني لن أُفوِّت خبرًا مثل هذا.»

«حافظْنا على سرية الخبر بعيدًا عن أعيُن الصحف لسببٍ سأخبرك به لاحقًا.»

قلت: «سيد فيكتور، أشعر بأسفٍ شديد تجاهك. فأنا مثلك، لديَّ طفل وحيد، وإذا مسَّه خطر مثل هذا، فسيُجَن جنوني. ولكني لن أنظر إلى الأمر من منظورٍ سوداوي. ستعود الآنسة أديلا إليك سالمة، ولن يُصيبها سوء، ولكنك قد تُضطر لدفع أموالٍ طائلة. أظن أن الأمر عملية ابتزاز وفِدية عادية.»

قال بهدوء شديد: «لا. لا يتعلَّق الأمر بالابتزاز، وحتى إن كان كذلك، لن أدفع الفدية التي سيطلبونها. صدِّقني يا سير ريتشارد، الأمر ميئوس منه تمامًا. ينطوي الأمر على أشياء أكبر بكثيرٍ من مصير فتاةٍ صغيرة. لن أخوض في هذا الآن، فسوف يحكي لك شخصٌ، أقدر منِّي على فعل ذلك، القصةَ كاملةً فيما بعد. ولكن الرهينة ابنتي، طفلتي الوحيدة. أتيت لأتوسل إليك أن تساعدني في البحث عنها.»

تلعثمتُ قائلًا: «ولكني لستُ بارعًا في البحث عن الأشياء. أعتذِر لك بشدة، ولكني لا أعرف كيف يُمكنني مساعدتك. إن لم تتمكن سكوتلاند يارد من فِعل شيء، فمن غير المُرجَّح أن ينجح غِر مثلي في فعل شيء.»

«ولكنك تمتلك مخيلةً مختلفة، وشجاعة نادرة. أعلم ما فعلتَه في الماضي يا سير ريتشارد. أنت أملي الأخير.»

ألقيت نفسي على مقعدي صائحًا. «لا يسعني أن أُوضح لك مدى عدم جدوى فكرتك. صحيح أني توليتُ بعض المهام العصيبة خلال الحرب، وكنتُ محظوظًا بما يكفي لأن أُنجز بعضها. لكني، كما تعلم، كنتُ جنديًّا حينئذ، وكنت أُنفذ الأوامر، ولم يكن موتي جرَّاء قصفٍ على الخنادق أو جرَّاء طلقة رصاص في مهمةٍ سِرية يشكل فارقًا كبيرًا. كنتُ حينئذٍ على استعداد لمواجهة أي مخاطر، وكانت حواسِّي جميعها مُستنفرَة ويقِظة بصورةٍ غير طبيعية. ولكن كل هذا انتهى الآن. لم أعُد على نفس الدرجة من الاستعداد، وأصبح ذهني هزيلًا وأفكاري مُشوشة. لقد تغلغل الريف في نفسي لدرجة أني أصبحتُ ريفيًّا بسيطًا. وإذا ما شاركتُ الأمر، سأُفسِده، وهذا ما لا أنوي فعله بالتأكيد.»

وقف السيد فيكتور يُحدق في وجهي بثبات. وظننتُ للحظة أنه سيعرض عليَّ مالًا، وتمنيتُ أن يفعل؛ إذ كان هذا سيمنحني مُبررًا لأن أتمسَّك برأيي وألا أتنازل أبدًا، على الرغم من أن هذا الفعل كان سيُفسد الفكرة الجيدة التي كونتُها عنه. ربما مرَّت الفكرة بخاطره، ولكنه كان ذكيًّا بما يكفي لينفضها عن رأسه.

قال: «لا أتفق معك فيما قُلتَه عن نفسِك، وأنا مُعتاد على تقييم الرجال بنفسي. أتوسَّل لك بصفتك رجلًا مَسيحيًّا نبيلًا أن تُساعدني في استعادة ابنتي. ولن أُكرِّر هذا التوسُّل مجددًا؛ فقد أضعتُ الكثير من وقتك بالفعل. عنواني في لندن مكتوبٌ على بطاقتي. إلى اللقاء يا سير ريتشارد، وصدِّقني، أنا مُمتن للغاية على احتفائك بي.»

في غضون خمس دقائق كان قد ركِب سيارته الرولز رويس وانصرف تاركًا إياي في حالة من التعاسة والخِزي. أدركتُ كيف اكتسب السيد جوليوس فيكتور شُهرته. كان يُجيد العزف على الأوتار الصحيحة لدى الناس، فلو واصلَ التوسُّل لي، لكنتُ نفرتُ من الأمر برمَّته، ولكنه نجح بشكلٍ ما في ترك الأمر برمَّته لحُكم شرفي، الأمر الذي شتَّت أفكاري بشدة.

خرجتُ في نزهةٍ قصيرةٍ ساخطًا على العالَم بأكملِه، فكنتُ تارةً أشعر بالأسف الشديد على هذا الأب المِسكين، وتارةً أخرى كنتُ أشعر بالغضب لأنه حاولَ توريطي في شئونه. لن أشارك في هذا الأمر بلا أدنى شك، لا يُمكنني أن أفعل، بل مُستحيل أن أفعل، فأنا لا أملك القدرة أو الدافع لذلك. لستُ منقذًا مُحترفًا للنساء المَنكوبات اللاتي لا أعرفهن.

قلتُ لنفسي إنه على المرء أن يقصر واجباته على دائرة أصدقائه المُقربين فقط، إلا إذا كان بلدُه في حاجة إليه. كنت قد تخطيتُ الأربعين من عمري، ورُزقت بزوجة وطفل صغير، وعلاوةً على ذلك، كنتُ قد اخترتُ حياة التقاعُد، ولديَّ كل الحق في أن يُحترَم اختياري. ولكني لن أتظاهر بأني مرتاح. لقد أتت موجة موحِلة قذرة من العالَم الخارجي لتعكر صفو بِركَتي الصغيرة التي أخفيتُها عن الأنظار. وجدت ماري وبيتر جون يُطعمان البجع، ولم أستطع التوقُّف واللعب معهما. كان البستانيون يحفرون خندقًا حول أشجار التين عند الجدار الجنوبي ليضعوا فيه سماد الكبريتات، وكانوا ينتظرون تعليماتي فيما يتعلق بأشجار الكستناء الصغيرة في المشتل، وكان الحارس يجلس في ساحة الإسطبل مُنتظرًا تعليماتي فيما يتعلق بالدفعة الجديدة من بيض طيور الدرَّاج البرية، وكان مُروِّض الخيل يُريدني أن أُلقي نظرةً على عرقوب مُهرِ ماري. ولكني لم أستطع التحدُّث

إلى أيٍّ منهم. كنتُ أُحب كل هذه الأشياء، ولكنها فقدت قيمتها في نظري للحظات، وكنت سأدعها تنتظر حتى أشعر أنني في حالٍ أفضل. عدتُ إلى المكتبة يتملَّكني مزاج سيِّئ جدًّا.

ولم يَمر عليَّ في الغرفة سوى دقيقتَين حتى سمعتُ صوتَ عجلات سيارة تسير على الحصى. صِحت قائلًا: «فليأتوا جميعهم»، ولم يُفاجئني دخول بادوك عليَّ يتبعه ماكجيليفراي بجسده النحيل ووجهه الحليق الحادِّ القسمات.

لا أذكر أني مددتُ يدي نحوَه لأُصافحه. كنا صديقَين مقربَين، ولكنه كان حينئذٍ أكثر شخصٍ في العالَم لا أتمنَّى رؤيته.

صحتُ قائلًا: «أنت أيها المُزعج، أنت ثاني زائر يأتي من المدينة هذا الصباح. سينفد وقود السيارات من البلاد قريبًا.»

سألني ماكجيليفراي: «هل وصلك خطاب من اللورد أرتينسويل؟»

قلت: «نعم، مع الأسف.»

«إنك تعرِف إذن سبب حضوري. ولكن يُمكن للأمر أن ينتظر لما بعد الغداء. هيا أسرع يا ديك، كن كريمًا، فأنا جائع كصقر في مجاعة.»

كان يبدو كذلك بالفعل بأنفه المعقوف ورأسه الصغير. كان من المُستحيل معارضة ماكجيليفراي لفترةٍ طويلة، فذهبنا نبحث عن ماري. قلتُ له: «يتعين عليَّ أن أُخبرك بأنك قطعتَ كل هذه المسافة بلا طائل. فأنا لن أُتبعك أو أتبع أي أحدٍ آخر لأجعل من نفسي أضحوكة. لا تذكر الأمر أمام ماري على أية حال. لا أُريدها أن تقلق بسبب هرائك.»

تحدثنا أثناء الغداء عن فوسي وسكان كوتسوولد، وعن غابة الغزلان التي استأجرتها — يُطلقون عليها اسم ماتشراي — وعن السير أرتشيبالد رويلانس، شريكي في استئجار الغابة، الذي كاد أن يُدَق عنقُه مرة أخرى خلال سباق للحواجز. كان ماكجيليفراي ملاحقًا عظيمًا للطرائد وأخبرني بالكثير عن غابة ماتشراي. بدا أن الجانب السيِّئ للموقع هو مُحيطها، فغابة هاريبول التي تحدُّها من الجنوب ذات مُنحدرات شديدة تُعيق المستأجر الحالي، الذي كان رجلَ صناعةٍ في منتصف العمر، وكانت غابة جلينايسل الضخمة التي تحدُّها من الشرق كبيرةً للغاية ولا يمكن لمستأجر وحيد أن يصطاد فيها بمُفرده، وكان طرف غابة ماتشراي المُجاور لها يبعُد حوالي ثلاثِين ميلًا من المنزل. قال ماكجيليفراي إن المحصلةَ النهائية هي أن غابة ماتشراي مُحاطة بملاجئ غير مُصرَّح بها جعلت انتقال الغزلان سهلًا. وقال إن أفضل وقتٍ للصيد هو في بداية الموسم عندما تكون الأيائل في الأراضي المُرتفعة، فغابة ماتشراي تحتوي على مراعٍ مُرتفعة رائعة للغاية. كانت ماري

سعيدة للغاية أن أحدًا أطرى على بيتر جون، وكانت راضيةً في الوقت الحالي أنه لن يموت صغيرًا بسبب الدرن. كان لدى ماري الكثير من التساؤلات المُتعلقة بالأعمال المنزلية عن ماتشراي، وكشفت النقاب عن الكثير من الخطط لدرجة أن ماكجيليفراي قال إنه سيفكر في زيارتنا؛ فقد اطمأنَّ إلى أنه لن يُسمَّم مثلما يحدُث عادةً في منازل الصيد الاسكتلندية المُستأجرة. كان الحوار الدائر من الحوارات التي أستَمتِعُ بها عادةً لو لم أكن مررتُ بهذا الصباح المُقلِق وتلك المُقابلة التي لم أستطع تخطِّيها.

انهمر مطر غزير بعد الغداء، فجلستُ وماكجيليفراي في غرفة المكتبة. قال: «يجدُر بي أن أنصرف في الثالثة والنصف، وهذا يعني أن أمامي أكثر قليلًا من ساعةٍ واحدة أُخبرك فيها بكل ما أريد.»

سألته. «هل يستحق الأمر ذلك؟ أريد أن أوضح لك أني لستُ منفتحًا بأية حالٍ من الأحوال على قبول أي عرضٍ بتولي مهمةٍ من أي نوع. أنا في فترة راحة وعطلة. سأقضي الصيف هنا ثُم سأذهب إلى ماتشراي.»

قال ماكجيليفراي وقد اتسعتْ عيناه: «لن يمنعك شيءٌ عن الذهاب إلى ماتشراي في أغسطس. المهمة التي سأقترحها عليك يجب أن تنتهي قبل هذا الموعد بفترةٍ طويلة.»

أظنُّ أني فوجئتُ بهذا الرد، فلم أنجح في إيقافه بالطريقة التي كنت أعنِيها. تركته يستمر في حديثه، ولم يمرَّ وقت طويل حتى وجدتُ نفسي أهتم بالأمر. كنتُ ضعيفًا أمام القصص كغلامٍ صغير، وكان ماكجيليفراي يعلم ذلك وأحسَنَ استغلاله.

بدأ حديثه بتكرار أغلب ما أخبرني به الطبيب جرينسليد الليلة الماضية. لقد جُنَّ جانبٌ كبير من العالَم، الأمر الذي أدَّى إلى نموٍّ غير مفسَّر وغير مُتوقَّع للجريمة. انتُهكت جميع المُحرَّمات القديمة، وأصبح البشر مُعتادين على الموت والألم. كان هذا يعني أن الموارد المتوفرة للمُجرم أصبحت أكثر بكثيرٍ من ذي قبل، وإذا كان المُجرم قديرًا، فسيكون بإمكانه أن يتحرك بقدْر كبير من الجرأة والبراعة. وقال إن البلادة الأخلاقية كانت أمرًا شاذًّا قبل الحرب، ولكنها الآن أصبحت مُنتشرةً كالنار في الهشيم، وازدهرت بين جماعات البشر وفِرَقِهم. نتجت عن ذلك سلالة بشِعة غير قابلة للترويض تتَّسِم بالقسوة وثقل الظل والشراسة والافتقار إلى التعقل، ولكنهم عادةً ما يَملكون حسًّا شعريًّا مُنحرفًا ويثملون بكل ما هو بليغ. يُمكنك أن ترى ذلك بوضوح بين اليهود البلشفيين الشبان، وبين شبان الطبقات الراقية من الطوائف الشيوعية الأكثر تطرفًا، وتظهر بوضوح أكبر لدى المُراهِقين الغاضبِين الدمويين في أيرلندا.

عاد ماكجيليفراي يقول: «يا للمساكين. فلندَع الخلق للخالق، ولكن يجدُر بنا نحن من نُحاول إصلاح الحضارة أن نعمل على اجتثاثهم من العالم. لا تتصوَّر أنهم يكرسون أنفسهم لأية حركة إنسانية، جيدةً كانت أو سيئة. إنهم كما أطلقتُ عليهم، شواذٌّ أخلاقيًّا، يُمكن اجتذابهم لاتباع أي حركة بواسطة أولئك الذين يفهمون طبائعهم. إنهم مُبتدئو عالَم الجريمة وخبراؤه، وهم مِثل المجرمِين الذين يجب عليَّ التعامُل معهم. حسنًا، كل هؤلاء الفاسدين اليائسين يتعرضون للاستغلال بواسطة قلَّةٍ من الرجال الماهرين غير الفاسدِين أو أي شيء من هذا القبيل، ولكنهم أشرار فحسب. لم تتوفر فرصة للشر أفضل من تلك منذ بدءِ الخليقة.»

ثم أخبرني بحقائق مُعينة لا يجب الإفصاح عنها للعامة خلال حياتنا على أية حال. مُلخص هذه الحقائق هو أن ثمة عقولًا شريرة تعمل على تنظيم تلك الحشود الخطرة غير المُنظمة من أجل مصالحها الخاصة. قال إن ثمة صلة تربط جميع الفوضويين المُعاصرين، ويتربح بعض روَّاد الأعمال المُتعجرفين من تعاسة الأناس الخلوقِين ومن عذاب العبيد البائسين. وقال إنه يتتبع ورجاله، وجميع قوات الشرطة المُتحضرة بلا شك، وذكر الأمريكيين بوجهٍ خاص، خيوطَ واحدة من أسوأ هذه الجماعات، وعبر سلسلةٍ من الصُّدَف الحسنة، تمكنوا من وضع أيديهم عليها. وأصبح بإمكانهم الآن أن يَمدُّوا أيديهم ويجمعوا كل هذه الخيوط في أي لحظة.

ولكن لا تزال تُجابِهُهم عقبة واحدة. عرفت منه أن هذه الجماعة لا تُدرك مدى خطورة موقفها، ولكنها تُدرك أن ثمة خطورة مُحدقة بها، فاتخذت بعض الإجراءات الاحترازية. فاختطفت بعض الرهائن منذ الكريسماس.

قاطعتُه عند هذه النقطة؛ فقد شعرتُ أني لا أفهم الأمر برمَّته. قلت: «أظن أننا أصبحنا منذ اندلاع الحرب نقفز إلى تفسيراتٍ مُبالَغ فيها لأمور بسيطة. سأحتاج إلى الكثير من الإقناع قبل أن أُصدِّق ذلك المركز الدولي لمعلومات عالم الجريمة.»

قال ماكجيليفراي بجدية: «أضمن لك أنك ستقتنع. سأعرض عليك جميع أدلتنا، وبما أنك قد تغيرتَ عما كنتَ عليه في بداية معرفتنا، فلن يختلف استنتاجك عن استنتاجي. ولكن دعنا نتحدَّث أولًا عن الرهائن.»

قاطعته قائلًا: «أعرف أحدهم؛ فقد استقبلتُ السيد جوليوس فيكتور هنا بعد الإفطار.»

صاح ماكجيليفراي. «يا للمسكين! ماذا قلت له؟»

«عبرتُ له عن أسفي الشديد، وقلتُ له أن لا شيء بيدي لأفعله من أجله.»

«هل تقبَّل هذا الرد؟»

«لا يُمكنني أن أقول إنه تقبَّله. ولكنه انصرف. ماذا عن الآخرين؟»

«ثمة اثنان آخران. أحدُهما شاب، وريث عائلة ثرية، آخِر مرة رآه فيها أصدقاؤه كانت في السابع عشر من فبراير في أوكسفورد، قبل العشاء مباشرةً. وهو طالِب في كلية كنيسة المسيح، ويقطن خارج الكلية في منزل في شارع هاي. تناول الشاي في نادي جريديرون وذهب إلى منزله ليُغير ملابسه؛ فقد كان من المُقرر أن يتناول العشاء تلك الليلة في نادي هالسيون. رآه أحد خدمِه بينما كان يصعد سُلَّم منزله مُتجهًا إلى غرفة نومه. ويبدو أنه لم يخرج منها، ولم يرَه أحد منذ ذلك الحين. ربما سمعت اسمه من قبل؛ اللورد ميركوت.»

جفلت عندما سمعت الاسم. كنتُ بالفعل قد سمعتُ هذا الاسم من قبل، وأعرف هذا الصبيَّ معرفة سطحية؛ فقد التقيتُه عدة مرات خلال سباقات الحواجز التي نُنظمها في المنطقة. إنه حفيد الرجل الأكثر توقيرًا بين رجال الدولة الإنجليزية القُدامى ووريثه، دوق ألسيستر المسن.

قلت: «لقد انتقَوا هدفهم بعناية. من الحالة الثالثة؟»

«إنها الأكثر قسوةً على الإطلاق. هل تعرف السير آرثر واركليف؟ رجل أرمل فقدَ زوجته قبل اندلاع الحرب مباشرةً، ولدَيه طفل وحيد، غلام صغير في العاشرة من عمره تقريبًا. كان ذلك الغلام، ديفيد، قرة عينه، وكان يدرس في مدرسةٍ إعدادية بالقُرب من مدينة رِي. استأجر الأب منزلًا في الحي المُجاور للمدرسة، وكان يُسمَح للغلام بالذهاب إلى المنزل كلَّ أحد لتناول الغداء مع والده. في أحد أيام الأحد، حضر لتناول الغداء كالعادة، وركِب حنطورًا للعودة إلى المدرسة. كان الغلام مُهتمًّا جدًّا بالطيور، وكان مُعتادًا على النزول من الحنطور والسير مسافة النصف ميل الأخيرة في طريق مُختصر عبر المستنقعات. ترك الغلام سائق الحنطور عند البوابة المعتادة، ثم سار نحو المجهول مثلما حدث مع الآنسة فيكتور واللورد ميركوت.»

أفزعتني هذه القصة كثيرًا. تخيلتُ السير آرثر واركليف، الرجل العطوف الذي تنمُّ تجاعيد وجهِه عن أنه جندي وإداري عظيم، وكان بوسعي تخيُّل مدى حُزنه وقلقه. كنتُ أعرف ما سأشعر به لو كان بيتر جون هو من اختُطف. إنَّ امرأةً شابَّة كثيرة الترحال ورياضيًّا شابًّا لَقادِران على المقاومة مقارنةً بِصبيٍّ غضٍّ في العاشرة من عمره. ولكني كنتُ لا أزال أشعر بأن الأمر برمَّتِه خيالي بدرجة لا يرقى معها لأن يكون مأساة حقيقية.

سألته. «ولكن ما الذي يجعلك تربط بين حالات الاختطاف الثلاث؟ ثلاثة أشخاص يختفون في خلال بضعة أسابيع ومن مناطق مُتفرقة في إنجلترا. ربما اختُطفت الآنسة فيكتور لتُطلَب من والدها فِدية، وربما فقد اللورد ميركوت ذاكرته، وربما اختطف بعض الصعاليك ديفيد واركليف. ما الذي يجعلهم جميعًا جزءًا من مؤامرةٍ واحدة؟ لماذا افترضت أن أية حالة منهم كانت من أفعال الجماعة الإجرامية التي تحدثتَ عنها؟ هل لدَيك أي دليل يدعم نظرية الرهائن؟»

«نعم.» استغرقت الإجابة من ماكجيليفراي بضع لحظات. «بادئ ذي بدء، ثمة الاحتمالية العامة. إذا أرادت مجموعة من المُجرمين احتجاز ثلاث رهائن، فلا يُوجَد ثلاثة أفضل من هؤلاء؛ ابنة أثرى أثرياء العالم، ووريث أعظم دوقية لدَينا، والابن الوحيد لبطل قومي. كما أن ثمة دليلًا مباشرًا.» ثم تلعثم مرة أخرى.

«هل تعني أن شرطة سكوتلاند يارد لا تملك خيطًا واحدًا يؤدي إلى أي من هؤلاء الخاطفين؟»

«لقد تتبعنا مائة خيط، ولكنها انتهت جميعها عند حائطٍ مسدود. أؤكد لك أن جميع التفاصيل فُحِصَت بدقة متناهية. لا يا عزيزي ديك، لا تكمن المشكلة في أن ثمَّة غباءً من جانبنا، بل تكمُن في أن ثمة مكرًا مفرطًا من الجانب الآخر. لهذا السبب أنا بحاجةٍ لك. لديك موهبة التوصُّل إلى الحقائق التي لا يمكن لأي قدْرٍ من التفكير العادي التوصل إليها. لدي خمسون رجلًا يعملون ليلًا ونهارًا، وتمكنًّا، لحُسن الحظ، من إبعاد أخبار جميع حالات الاختطاف عن الصحافة حتى لا يعوقنا المُبتدئون. ولكننا لم نتوصَّل لأي شيءٍ حتى هذه اللحظة. هل ستُساعدنا؟»

«لا، لن أفعل. ولكن، بفرض أني كنتُ سأساعدك، لا أرى أي دليلٍ على أن ثمة صلة بين حالات الاختطاف الثلاث، أو أن أيًّا منها ارتكبتها العصابة الإجرامية التي تقول إنكم قد وضعتم أيديكم عليها. لم تمنحني إلا فرضيات، بل وفرضيات واهية. أين دليلك المباشر؟»

بدا قليل من الإحراج على وجه ماكجيليفراي. وقال: «لقد بدأت الحديث معك بطريقة خطأ. كان يجدُر بي أن أوضح لك مدى خطورة ويأس الشيء الذي نُواجهه، ومن ثَم ستكون في مزاج أكثر تقبلًا لبقية الحكاية. أنت تعلم مثلما أعلم تمامًا أن هدوء الأعصاب لا يكون دائمًا رفيقًا مفيدًا عند تقييم الأدلة. قلتُ إنني أملك دليلًا مباشرًا على وجود صلة بين حالات الاختطاف، وأنا أمتلكه بالفعل، ومتأكد تمامًا من صحته.»

«حسنًا، دعنا نراه.»

«إنها قصيدة. في يوم الأربعاء من الأسبوع الماضي، بعد يومَين من اختفاء ديفيد واركليف، وصلت إلى كل من السيد جوليوس فيكتور ودوق ألسيستر والسير آرثر واركليف نسخة منها في البريد الصباحي. كانت النسختان مطبوعتَين على ورقٍ من نوع رديء، وكان العنوانان مطبوعين على الظرفَين، وكانا قد أُرسِلا من حي الغرب الأوسط في لندن عصر اليوم السابق.»

أعطاني نسخةً من القصيدة، وكان نصها:

«ابحث حيث تبزغ الشمس في منتصف الليل،
حيث تندر النباتات والمحاصيل؛
حيث ينثر الزارع بذوره في الهواء،
فتسقط في أخاديد حقول جنة عدن الخواء؛
هناك بجوار الشجرة المقدسة،
تغزل العَرَّافة التي لا تَرى.»

انفجرت ضاحكًا، ولم يسعني تمالك نفسي؛ فقد كانت القصيدة كلها منافية للمنطق. بدت لي تلك السطور الستة من الشعر الركيك وكأنها غطاء من العبث اكتنف الأمر برمته. ولكنني كبحتُ جماح نفسي عندما رأيتُ التعبير الظاهر على وجه ماكجيليفراي. فقد احمرت وجنتاه ضيقًا، ولكن بقية قسمات وجهه كانت تنمُّ عن الاهتمام والهدوء والجدية الشديدة. لم يكن ماكجيليفراي غبيًّا، وكان يتعيَّن عليَّ أن أحترِم آراءه. فتماسكتُ وحاولت أن آخُذ الأمر على محمل الجد.

قلت: «هذا دليل على وجود صلةٍ بين حالات الاختطاف الثلاث. معك حق في هذا. ولكن أين الدليل على أنها من صُنع تلك الجماعة الإجرامية الخطرة التي تقول إنكم وضعتُم أيديكم عليها؟»

نهض ماكجيليفراي وبدأ يذرع الغرفة بعصبية. «ما الدليل إلا فرضية في الأساس، ولكنني أراها فرضية مؤكدة. إنك تعلم مثلما أعلَم يا ديك، أن حل القضية قد يكون باديًا أمامك كالشمس، ولكن من الصعب للغاية أن تعرضه في صورة سلسلةٍ من المُعطيات. تقوم رؤيتي للأمر على عددٍ كبير من المؤشرات والمحاور الصغيرة، وأنا على استعداد لأن أُراهن على أنك إذا ما فكرت في الأمر دون تحيُّز، فسوف تصل إلى الرؤية نفسها. ولكني

سأزيدك من الشعر بيتًا فيما يتعلَّق بالدليل المباشر؛ خلال تتبُّعنا للجماعة الإجرامية، صادفنا مراسلات عديدة ذات طبيعة مُماثلة لذلك الشعر الركيك، وأؤكد لك أنها لا تُشبه أي شيءٍ قرأتُ عنه في علم الجريمة. أحد هؤلاء المجرمين يستمتع بإرسال خيوط لا فائدة منها إلى خصومه. وهذا يدلُّ على أن العصابة تظن أنها في مأمنٍ تمامًا.»

«على كلٍّ، لقد توصلتَ إلى العصابة. ولا أعلم لِمَ يزعجك أمر الرهائن. ستصلون إليهم عندما تقبضون على العصابة.»

«يا للعجب. تذكر أننا نتعامل مع أشخاص يتَّسمون بشذوذ أخلاقي. عندما يشعرون بأنهم عرضة للخطر، فلن يتورَّعوا عن فعل أي شيء. سيستغلون رهائنهم، وعندما نرفض التفاوُض معهم، سينالون انتقامهم منهم.»

أظن أنني حدقت في وجهه ذاهلًا؛ إذ واصل حديثه قائلًا: «نعم. سيقتلونهم بدم بارد — ثلاثة أبرياء — ثم سينامون قريري الأعين. أعرف هذا النوع جيدًا. لقد فعلوها من قبل.» وذكر بعض الحوادث الحديثة العهد.

صحت قائلًا: «يا إلهي! يا لبشاعة الفكرة! كل ما يُمكنكم فعله هو التعامُل مع الأمر بمكر، وألا تضربوا ضربتكم إلا بعدما تُخرِجوا الضحايا من بين براثنهم.»

قال في كآبة: «لا يمكننا فعل ذلك. هذه هي المأساة التي نواجهها. يجب أن نضرب ضربتنا في شهر يونيو. لن أُزعجك بذكر الأسباب، ولكن صدقني، جميعها أسباب وجيهة. ثمة فرصة للتوصُّل إلى تسوية في أيرلندا، وثمة أحداث مُعينة على جانب كبير من الأهمية على وشك الحدوث في إيطاليا وأمريكا، وكل شيء يعتمد على القضاء على أنشطة العصابة بحلول منتصف الصيف. هل تفهم؟ يجب أن نصِل إليهم بحلول منتصف الصيف. فبحلول منتصف الصيف، سيكون وضع الرهائن الثلاث ميئوسًا منه، إلا إذا تمكنَّا من تحريرهم قبل ذلك الموعد. إنها معضلة مُخيفة، ولكن من حيث المصلحة العامة، لا يوجد إلا مخرج واحد. يجدُر بي القول إن كلًّا من فيكتور والدوق وواركليف يدركون هذه الحقيقة، ويتقبلَّون الوضع كما هو. إنهم رجال مسئولون، وسيؤدون واجباتهم حتى وإن كانت ستفطر قلوبهم.»

خيم الصمت لبضع دقائق، فلم أعلم ما يجدُر بي قوله. بدت لي القصة برمتها غير معقولة، ولكني لم أستطع التشكيك في حرفٍ منها عندما نظرت إلى وجه ماكجيليفراي الجاد. شعرت بالرعب الذي تنطوي عليه هذه المهمة، ليس لأنها بدت غير حقيقية فحسب، بل لأنها تتَّسم أيضًا بكآبة الكوابيس. الأمر الأهم هو أنني أدركتُ أني لستُ أهلًا للمساعدة،

وبعدما أدركت أنني قادر صدقًا على تبرير رفضي بانعدام الكفاءة وليس بانعدام الرغبة، بدأت أشعر بالمزيد من الراحة.

قال ماكجيليفراي قاطعًا الصمت: «هل ستساعدنا إذن؟»

«لا يوجد ما يمكن فعله بذلك الشِّعر الركيك الذي أطلعتني عليه، والذي يُشبه الأشعار التي تُنشر في صحف أيام الأحد. إنه لغز ليس المراد منه أن يُحل. افترض أنك ستحاول العمل بدءًا بالمعلومات التي جمعتها عن المجموعة حتى تصل إلى خيط يوصلك إلى الرهائن.»

فأومأ برأسه أن نعم.

قلت: «اسمع، يعمل معك في هذه المهمة خمسون من أذكى العقول في بريطانيا. واكتشفوا كمًّا من المعلومات يكفي للفِّ حبلٍ متين حول العدو الذي يُمكنك أن تُحكم وثاقه متى أردت. إنهم مدربون على هذا النوع من العمل، أما أنا فلا. ما النفع الذي سيعود عليك من مشاركة مبتدئ مثلي؟ لن تصل كفاءتي إلى نصف كفاءة أي واحدٍ من الخمسين. أنا لست خبيرًا، ولست سريع البديهة، أنا رجل بطيء متأنٍّ، ويجب أن تؤدَّى هذه المهمة في أسرع وقت ممكن، كما أقررتَ أنت. إذا ما أمعنت التفكير في الأمر، فسترى أن طلبك محض هراء يا صديقي العزيز.»

«لقد حققت نجاحات من قبل بنصف هذه الإمكانات.»

«كنت محظوظًا، وكانت ثمة حرب دائرة حينئذ، وكان ذهني مُتقدًا بالنشاط كما أخبرتك سابقًا. كما أن كل ما فعلته كان في ميدان المعركة، وما تريد منِّي أن أفعله الآن عمل مكتبي. وأنت تعلم أني لستُ بارعًا في الأعمال المكتبية، لطالما قال بلنكيرون ذلك، ولم يستعن بوليفانت بخدماتي في هذا المجال مُطلقًا. أنا لا أرفض لأنني لا أريد المساعدة؛ بل لأنني لا أستطيع المساعدة.»

«أعتقد أنك تستطيع المساعدة. كما أن الأمر خطر للغاية لدرجة أني لا أجرؤ على ترك أي شيءٍ للظروف. هل ستأتي؟»

«لا، لأني لن أتمكَّن من فعل شيء.»

«بل لأنك لا تريد المشاركة.»

«لأني لا أملك العقلية المناسبة لهذا الأمر.»

نظر إلى ساعته ونهض وعلى شفتَيه ابتسامة حزينة.

وقال: «لقد قلت لك ما أريد، وأصبحت تعرف ما أريده منك. لن أعتبر ردك هذا نهائيًّا. فكِّر فيما أخبرتك به، وأرجو أن أسمع منك ردًّا خلال الأيام القليلة المقبلة.»

ولكن لم تعُد ثمة أي شكوك تراوِدني؛ فقد أصبح جليًّا لي أنني اتخذت القرار الصحيح، أيًّا كانت الملابسات.

قلت بينما أُوصله إلى سيارته: «لا توهِم نفسك بأنني سأتراجَع عن قراري. أَصدُقك القول يا صديقي العزيز، إني كنتُ سأنضم إليكم لو شعرت بأني سأضيف لكم ولو مقدار حبةِ خردلٍ من النفع، ولكن من الأفضل لك ألا تضعني في حسبانك هذه المرة.»

ثم خرجتُ لأتنزَّه شاعرًا بالكثير من البهجة. سويتُ مسألة بيض طيور الدرَّاج البرية مع الحارس، وهبطت المنحدَر وصولًا إلى الجدول لأرى إن كانت بيوض الحشرات قد فقست لنبدأ صيد الأسماك التي تتغذَّى عليها. أصبح الجو صافيًا هذا المساء، وحمدت الله على نجاتي من هذه المهمة العصيبة دون أن يُؤنِّبني ضميري كثيرًا، وأني سأتمكَّن من عيش حياتي الهادئة مجددًا. قلت «يؤنِّبني ضميري كثيرًا»، لأنه على الرغم من وجود القليل من الأفكار المُقلِقة لا تزال تدور في ذهني، كل ما كان عليَّ فعلُه هو استعراض المُعطيات من جميع جوانبها لكي أرتضي بصحَّة قراري. نفضت الأمر برمَّته عن ذهني وعدتُ إلى المنزل مُشتهيًا شُرب الشاي.

وجدت رجلًا غريبًا يجلس في غرفة الاستقبال مع ماري، رجل نحيل مُسن، ذو قوام مستوٍ ومُستقيم للغاية، له وجه كَتبت عليه الحياة الكثير من فصولها، يُشبه النظر إليه قراءة كتاب جيد. لم أتعرف عليه في البداية عندما نهض ليُصافحني، إلا أن التجاعيد التي ظهرت عند طرفَي عينَيه أثناء الابتسام، وذلك الصوت العميق المُتأني ذكَّراني بالمُناسبتَين الماضيتَين اللتَين التقيت خلالهما السير آرثر واركليف. اعتراني الأسى وأنا أصافحه، وازداد شعوري هذا عندما رأيتُ الكآبة الشديدة المُرتسمة على مُحيَّا ماري. كانت قد عرفت القصة التي كنتُ آمُل ألا تعرف أي شيءٍ عنها.

رأيت أنه من الأفضل أن أتحدث إليه بصراحة. فقلت: «يمكنني أن أخمن المهمة التي أتيتَ من أجلها يا سير آرثر، وكم يؤسِفني أن تقطع كل هذه المسافة بلا طائل.» ثم أخبرته بزيارة السيد جوليوس فيكتور وماكجيليفراي، وما قالاه، وبِردِّي عليهما. أظن أني وضَّحت عدم قُدرتي على فعل شيءٍ كوضوح الشمس، وبدا أنه يتفق معي. وأتذكر أن ماري ظلت مُطرِقةً طوال الوقت.

كان السير آرثر مُطَأطِئ الرَّأسِ أيضًا بينما أتحدَّث، ولكنه رفع وجهه العجوز الحكيم نحوي الآن، ورأيتُ الآثار التي خلَّفها قلقُه الجديد على ملامحه. لم يكن قد تخطَّى الستِّين إلا بقليل، ولكنه بدا وكأنه بلغ المائة من عمره.

قال: «لا أحاول أن أثنيك عن قرارك يا سير ريتشارد. أعلم يقينًا أنك كنت ستساعدني لو كان هذا مُمكنًا. ولكني أقرُّ بأن ظنِّي قد خاب؛ فقد كنت أنت أملي الأخير. إنك تعلم، إنك تعلم، أن شيئًا لم يتبقَّ لي في هذا العالم سوى دايفي. وأظن أنني ربما كنت سأتحمل الأمر لو أنه كان قد مات، ولكني لا أستطيع تحمُّل ألا أعرِف أي شيءٍ عنه وأن أتخيَّل حدوث أشياء مروعة له.»

لم أمرَّ في حياتي بتجربةٍ مُؤلِمة أكثر من تلك. إن سماع تهدج صوتٍ اعتاد على توجيه الأوامر، ورؤية الدموع تتراكم في أكثر عينَين ثاقبتَين رأيتهما في حياتي، جعَلَاني أرغب في العواء مثل الكلاب. كنت على استعدادٍ لدفع ألف جنيه في مقابل أن يُسمح لي بالدخول إلى غرفة المكتبة وإحكام إغلاق بابها من خلفي.

بدا لي تصرُّف ماري غريبًا للغاية. بدا لي وكأنها مصرَّةٌ على فتق جراح الرجل؛ إذ كانت تحث السير آرثر على التحدُّث عن الصبي. عرض علينا مُجسمًا كان يحمِله معه؛ مُجسم لغلام وسيم للغاية ذي عينَين رماديتَين واسعتَين ونمَّت وضعية رأسه بالنسبة لجسده عن النُّبل. صبي صغير جاد الملامح، بدت عليه الثقة التي يتميَّز بها الأطفال الذين لم يتعرَّضوا لمُعاملة مُجحفة في حياتهم. قالت ماري شيئًا عن رقة الوجه.

فقال والده: «نعم، كان دايفي رقيقًا للغاية. أظنُّ أنه أرقُّ إنسان عرفتُه في حياتي. هذا الغلام الصغير كان مثالًا حيًّا على التهذيب. كما أنه كان صبورًا للغاية. فعندما كان يشعر بالحزن، كان يصمت، ولا يبكي مطلقًا. كنت أشعر وكأنه يؤنِّبني بهذه الطريقة.»

ثم بدأ يُخبرنا بأداء دايفي في المدرسة، حيث لم يكن مميزًا عن أقرانه في شيء، فيما عدا موهبته في رياضة الكريكت. قال السير آرثر وقد ارتسم شبح ابتسامة على شفتَيه: «كنت أخشى عليه من النضوج المبكر. ولكنه كان دائمًا ما يُعلِّم نفسه الأشياء المُفيدة؛ إذ كان يتعلم كيفية الملاحظة والتفكير.» كان يبدو أن الصبي كان مُهتمًّا بالطبيعة للغاية، وكان يقضي ساعاتٍ خارج المنزل مراقبًا الحياة البرية. كان صياد سمك بارعًا أيضًا؛ فقد اصطاد الكثير من أسماك السلمون باستخدام الشراشيب كطعم من جداول التل في جالواي. بينما كان الوالد يتحدث، بدأت فجأةً أحترم هذا الصبي الصغير، وأفكر في أني أتمنَّى لو أُصبح بيتر جون مثله. أعجبتني قصص حُبه للطبيعة وجداول أسماك السلمون. وهبطَت عليَّ كالصاعقة فكرة أنني لو كنتُ في مكانِ والده، كنت سأُجَن دون شك، وأذهلني جَلَد هذا الرجل المُسن.

قال السير آرثر: «أظن أنه امتلك موهبةً فيما يتعلق بالحيوانات. فقد كان يعرف عادات الطيور غريزيًّا، وكان دائم التحدُّث إليها كما يتحدث الناس إلى أصدقائهم. كنا أنا وهو صديقَين حميمَين، وكان يحكي لي قصصًا طويلةً بصوته الطفولي الهادئ عن الطيور والحيوانات التي رآها خلال جولاته. كما أنه كان يُطلق عليها أسماءً غريبة أيضًا.»

كان حاله مُثيرًا للشفقة بدرجةٍ لا تُحتمل. وشعرت وكأني أعرف الصبي طوال عمري. وتخيلته وهو يلعب، وتخيلتُ سماع صوته، أما ماري، فكانت تبكي بحرقة.

كانت دموع السير آرثر قد جفت الآن، ولم يكن ثمة تهدُّج في صوته وهو يتحدَّث. ولكن اجتاحته فجأةً مشاعر أكثر حدةً وتحولت كلماته إلى صيحة جزعة: «أين هو الآن؟ ماذا يفعلون به؟ يا إلهي! ابني الحبيب، ابني اللطيف دايفي!»

أثَّرت هذه الصيحة في نفسي بشدة. وأحاطت ماري عنق الرجل المُسن بذراعَيها، ورأيتُ أنه كان يحاول تمالك نفسه، ولكني لم أكن أرى أي شيء بوضوح. كل ما أتذكَّره أني كنتُ أذرع الغرفة جيئةً وذهابًا، ولم ألحظ أن ضيفنا كان يهم بالمُغادرة. أتذكر تصافُحنا، وسماعه يقول إن حديثه إلينا قد أفاده كثيرًا. كانت ماري هي من صَحِبه إلى سيارته، وعندما عادت وجدتني عند النافذة أسبُّ كالمجنون. كنت قد فتحت النافذة؛ فقد كنتُ أشعر بأني أختنق على الرغم من برودة الجو في المساء. ولكن خنقَني ذلك المزيج من الغضب والاشمئزاز والشعور بالشفقة.

صحت: «لِمَ لا يتركني الناس وشأني؟ أنا لا أطلب الكثير، بعض السكينة فحسب. لِمَ أنجرُّ دائمًا إلى مشكلات الآخرين؟ لِمَ بحق السماء؟»

كانت ماري تقف بجواري وقد شحب وجهها وسالت عليه الدموع.

وقالت: «لا شك في أنك ستُساعد الرجل.»

أوضحت لي كلماتها القرار الذي كان لا بد لي من اتخاذه منذ ربع الساعة، فخرج كامل الغضب من داخلي كما يخرج الهواء الساخن من بالون.

أجبتُها قائلًا: «بالطبع. بالمناسبة، مِن الأفضل أن أرسل برقية إلى ماكجيليفراي، وإلى واركليف أيضًا. ما عنوانه؟»

قالت ماري: «لا حاجة لأن تقلق بشأن السير آرثر. فقبل أن تدخل المنزل، عندما أخبرني بالقصة، أخبرتُه بأنك لن تتخلَّى عنه. ديك، تخيل لو كان المخطوف هو بيتر جون!»

الفصل الثالث

بحث في العقل الباطن

ذهبت إلى فراشي رغم ثقتي التامَّة في أني لن أتمكَّن من النوم. كنت أصاب بهذه الحالة مرةً كلَّ عامٍ تقريبًا عندما يكون ذهني مضطربًا أو غاضبًا، ولم أتوصَّل إلى طريقةٍ تُمكنني من تجنبها. كانت ليلة مُقمرة، وكان ضوء القمر يُنير النوافذ بضوء أزرق هادئ تتخلَّله ظلال خضراء داكنة لفروع الأشجار، وكانت ريح خفيفة تُحرك أفرع النباتات المُتسلقة، والبومات تصيح وكأنها حراس يتبادلون كلمات السر فيما بينهم، ومن وقتٍ لآخر كان غراب يتحدث وهو يحلم، وتسللت من الغابة أصوات غريبة خافتة لصرصرة ودمدمة الحياة البرية، بينما أنا راقد في فراشي أُحدق في السقف تتسابق أفكاري في رأسي في دوائر لا تنتهي. أغاظتني أنفاس ماري الرتيبة، فلم أرَ أحدًا في حياتي موهوبًا في النوم مثلها. كنتُ أقول دائمًا إنه إذا ما تتبعنا أصولها، فسنجد دون شك أنها تنحدِر مباشرة من أحد أصحاب الكهف الذي تزوج من إحدى العذارى الحمقاوات.

كان السبب الرئيسي في عدم قُدرتي على النوم هو التفكير في ذلك الصبي الصغير المسكين، ديفيد واركليف. كنتُ أشعر بالأسف على الآنسة فيكتور واللورد ميركوت، وبأسفٍ أكبر على ذوي المخطوفين الثلاثة، ولكن ما لم أستطِع احتمالَه هو فكرة أن يُسجن هذا الصبي الصغير البريء الذي يهوى الطيور وصيد الأسماك والهواء الطلق في جُحرٍ خانق على يد أسوأ المُجرمين. ظلَّت هذه الفكرة تشغل فكري حتى تحولَت إلى التفكير فيما إذا كان ذلك قد حدث لنا وأن بيتر جون أصبح مفقودًا. فنهضتُ من فراشي وتوجَّهت إلى النافذة مُتطلعًا إلى الليل الهادئ في الخارج، مُتعجبًا من قدرة هذا العالم نفسه على احتواء قدرٍ كبير من المتاعب وقدْر مُماثل من السلام.

غسلت وجهي بماءٍ بارد، وعدتُ لأرقد مُجددًا. لم يكن ترك الحبل على الغارب لأفكاري أمرًا جيدًا، فحاولت أن أحصرها في نقطة واحدة على أمل أن أتمكن من النوم. حاولتُ

أن أُلخص الدليل الذي جعلني ماكجيليفراي أقرأه، ولكني لم أرَ منه سوى حماقته، فلم أكن قادرًا على التركيز. ظللت أتخيَّل وجه صبيٍّ صغير يعضُّ على شفتَيه ليمنع نفسه عن البكاء، ووجهًا آخر مُرعبًا ظل يتحول إلى أحد التماثيل الرئيسية في حديقة الزهور. وظلت قصيدة سخيفة تتكرَّر في ذهني — قصيدة تذكر «شمس تبزغ في منتصف الليل» و«حقول جنة عدن». وتدريجيًّا، بدأَت تستقيم في ذهني على أنها تلك القصيدة الركيكة التي ذكرها ماكجيليفراي. لديَّ ذاكرة قوية فيما يتعلق بالشعر رغم عدم وجود أي سبب يدعوني لتذكُّره، ووجدت أني قادر على تذكر أبيات الشعر الركيك الستة جميعها.

ثم بدأت الأبيات تختلط، وتُبرز الكثير من الصور الغريبة في مخيلتي. بدأت أعيد صياغة الأبيات، «تحت شمس منتصف الليل، حيث يكون الحصاد قليلًا»؛ هذه اسكندنافيا على أية حال، أو ربما آيسلندا أو جرينلاند أو شبه جزيرة لابرادور. مَن ذلك الزارع الذي ينثر بذوره في حقول جنة عدن؟ آدم، ربما، أم هابيل، الذي كان أول الزارعين؟ أم مَلاك في الجنة؟ ارتأيتُ أن المعنى أقرب إلى المَلاك، فالبيت يبدو كأنشودة. إنه هراء لَعِين على أية حال.

بدأت أنسى البيتَين الأخيرَين ما جعلني أجبر ذهني على الخروج من حالة الارتباك المُزعجة التي علقت فيها. آه! تذكرتهما مجددًا:

«هناك بجوار الشجرة المقدسة
تغزل العَرَّافة التي لا تَرى.»

ربما كانت الشجرة المُقدسة هي إجدراسيل، والعرافة واحدة من الآلهة النوردية القديمة. كنتُ مهتمًّا فيما مضى بالأساطير النوردية، ولكني لا أذكر إذا ما كان أيٌّ من الآلهة النوردية القديمة كفيفًا. امرأة كفيفة تغزل. أين سمعتُ من قبل شيئًا من هذا القبيل؟ هل سمعته مؤخرًا أيضًا؟

تكمن مشكلة الأرق في أنك لا تكون يقظًا بشكلٍ كامل. ولكني استعدت فجأةً حواسِّي كاملة، وبدأتُ أهتم بهذا الشِّعر الركيك بشدة كما يهتم الكلب بعظْمته. كنت مُقتنعًا بأنه يتضمن دليلًا في داخله، ولكن من المستحيل التوصل إليه. ومع ذلك بزغت أمامي الآن بارقةُ أمل؛ فقد راودني شعور خافت وغامض بأن الدليل له علاقة بذكرياتٍ ماضية.

المحاصيل الاسكندنافية، حقول جنة عدن، المرأة الكفيفة التي تغزل؛ كان الأمر مثيرًا للجنون، فكلما كررتُ الأبيات، زادت قوة شعوري بأني صادفت شيئًا شبيهًا بذلك مؤخرًا.

في الشمال — النرويج تحديدًا — لا شك في أني صادفته هناك! النرويج، ماذا يميز النرويج؟ أسماك السلمون، الأيائل، غزلان الرنة، شمس منتصف الليل، المراعي الخضراء؛ ملأت هذه الأخيرة تفكيري بالكامل. ثم هناك تلك المرأة الكفيفة التي تغزل!

وجدتُها. إنهما مُعطيان من المُعطيات الثلاثة التي ذكرها الطبيب جرينسليد الليلة الماضية كمثال على «لغزه» الخيالي. ماذا كان المُعطى الثالث؟ متجر صغير للتحف في شمال لندن يُديره يهودي ذو لحية مصبوغة. ولكن، لا توجد صلة واضحة بينه وبين الزارع في حدائق الفردوس. ولكن على أية حال، ذكر الطبيب مُعطيَين يتطابقان مع القصيدة الركيكة. إنه دليل. لا بدَّ من أنه دليل. لا بدَّ أن جرينسليد قد سمع هذه القصيدة أو جزءًا منها بطريقةٍ ما أو في مكانٍ ما، وتوارت في أعماق ذاكرته الباطنة ثم قالها من دون أن يعي ذلك. حسنًا، يجدُر بي أن أجعله يتذكر أين سمعها. فإذا ما اكتشفت أين وكيف سمع هذه القصيدة، سأكون قد أمسكت بطرف خيط.

عندما توصلتُ إلى هذا الاستنتاج، شعرت بذهني يهدأ بشكلٍ غريب، ونِمتُ على الفور تقريبًا. استيقظتُ على صباح ربيعي رائع، وهُرعت إلى البحيرة لكي أستحم. شعرتُ أني بحاجة إلى كامل طاقتي ورباطة جأشي، وعندما ارتديتُ ملابسي بعدما غطست في الماء المُثلج، كنتُ جاهزًا لأي شيء.

نزلَت ماري من غرفتها في موعد الإفطار، وكانت منشغلةً بخطاباتها. لم تقُل الكثير، وكانت تبدو وكأنها تنتظر منِّي أن أبدأ الحديث، ولكني لم أكن راغبًا في أن أُثير الموضوع الذي كان يشغل تفكيرنا حتى يتَّضح لي جليًّا ما سأفعل، فقلت إني أحتاج إلى يومَين لدراسة الأمر. كان اليوم الأربعاء، فأرسلت برقيةً إلى ماكجيليفراي لكي ينتظرني في لندن صباح يوم الجمعة، ودونتُ رسالة إلى السيد جوليوس فيكتور. بحلول التاسعة والنصف، كنت في طريقي نحو منزل جرينسليد.

لحقتُ به وهو على وشك أن يخرج في جولاته اليومِية، وأجبرته على الجلوس والاستماع لي. لخصتُ له القصة التي رواها لي ماكجيليفراي، مع مُقتطفاتٍ من قصتَي فيكتور والسير آرثر. وقبل أن أصل إلى نصف القصة، كان قد خلع معطفه، وقبل أن أنتهيَ منها كان قد أشعل غليونه، الأمر الذي يُعد خرقًا سافرًا لعادته بألا يدخن قبل المساء. عندما انتهيت أخيرًا من قصتي، كانت تبدو في عينيه الفاتحتين تلك النظرة الوحشية التي تراها في عينَي كلب كيرن ترير وهو يحاول حفر الأرض لإخراج حيوان الغرير.

سألني بفظاظة: «هل قبلتَ المهمة؟»

فأومأتُ برأسي أن نعم.

«حسنًا، كان احترامي لك سيقل كثيرًا لو أنك رفضتها. كيف يمكنني أن أُساعدك؟ يمكنك أن تعتمد عليَّ في أي شيء قد أُفيدك به. يا إلهي! لم أسمع في حياتي قصة لَعِينة أكثر من تلك.»

«هل تذكر هذه القصيدة؟» ألقيتُ عليه القصيدة وكرَّرها من خلفي.

«والآن، لعلك تذكر الحديث الذي دار بيننا بعد العشاء الليلة قبل السابقة. لقد شرحت لي كيفية كتابة «لغز»، وذكرت ثلاث حقائق عشوائية كمثال. وكانت كالآتي، لعلك تذكر، امرأة عجوز تغزل في المراعي الخضراء في المُرتفعات الغربية، ومرعى أخضر في النرويج، ومتجر صغير للتُّحَف في شمال لندن يُديره يهودي ذو لحية مصبوغة. حسنًا، ثمة حقيقتان مذكورتان في هذه القصيدة المكونة من ستة أبياتٍ التي ألقيتُها عليك منذ قليل.»

«مصادفة عجيبة. ولكن هل الأمر أكثر من مجرد مصادفة؟»

«أعتقد ذلك. فأنا لا أومن بالمصادفات. فعادة ما تكون ثمة تفسيرات لم نتمكَّن من التوصُّل إليها بعد. كانت حقائقك المُبتكرة غريبة للغاية لدرجة أني لا أظن أنها من ابتكارك. لا بد أنك سمعتها بطريقةٍ ما في مكان ما. لعلك تذكر ما قلته عن ذاكرتك الباطنة. هذه الأبيات موجودة في ذاكرتك الباطنة، وإذا تمكنتَ من تذكر كيفية وصولها إلى هناك، فستمنحني طرف الخيط الذي أريد. أُرسِلت تلك القصيدة المكونة من ستة أبيات من أشخاص واثقين للغاية من أنه لا بأس أن يُعطوا أعداءهم دلائل على مكان تواجُدهم؛ فهم يعتقدون أنها دلائل من المُستحيل اكتشافها. لا يمكن لماكجيليفراي ورفاقه أن يخرجوا بشيءٍ منها، مُحال أن يفعلوا. ولكن إذا ما بدأت أنا من الطرف الآخر، فسيُمكنني التوصل إلى طرف الخيط بطريقةٍ أخرى. هل تفهم ما أعنيه؟ سأجعلك تتذكَّرها بطريقةٍ أو بأخرى.»

هز جرينسليد رأسه. وقال: «لا يمكن فعل ذلك يا ديك. إذا ما سلَّمنا بصدق فرضيتك بأني سمعتُ هذا الهراء ولم أبتكِره، فلا يمكن التعامل مع العقل الباطن وكأنه مشروع عمل. أنا أتذكر القصيدة بعقلي الباطن، ولكني لستُ قادرًا على استحضارها بعقلي الواعي. ولكني لا أقبل فرضيتك. أظن أن الأمر برمَّته محض مصادفة.»

قلت بعناد: «أنا لا أظن ذلك، وحتى لو فعلت، فأنا ملزم بافتراض النقيض، فهذه هي البطاقة الوحيدة التي أملكها. عليك أن تجلس يا صديقي وتبذل أقصى ما في وسعك

لكي تتذكَّر. لطالما حضرت أغرب العروض، وأعتقد أنك سمعت هذا الهراء في أحدِها. نقِّب في ذاكرتك وستلوح لنا فرصة الفوز. فيما عدا ذلك، لا أرى إلا مأساة.»

نهض جرينسليد وارتدى معطف المطر. وقال: «يتعين عليَّ أن أخرج في جولة طويلة من الزيارات المنزلية ستستغرق مني اليوم بأكمله. بالطبع سأحاول، ولكن يجب أن أنبهك إلى أني لا أرى أي بارقة أمل. هذه الأمور لا تتحقق عبر الاهتمام والبحث. ربما كان من الأفضل أن أبيت في ضيعتك الليلة. ما المهلة التي يمكنك أن تمنحني إياها؟»

«يومان، فأنا ذاهب إلى المدينة صباح الجمعة. نعم، يجب أن تأتي لتقيم معنا. ماري مصرة على ذلك.»

كان ثمة صوت صياح حملان صغيرة آتٍ من ناحية المرج، وسمعنا عبر النافذة المفتوحة صوت عربات المزرعة وهي تسرع من الجرن إلى الطريق. لوى جرينسليد وجهه وضحك.

وقال: «انتهاك سافر لهدوء الريف الذي تريده يا ديك. أنت تعرف أنني سأكون إلى جوارك إذا ما حدثت أي متاعب. دعنا نوضح الأمر لأن أمامي الكثير من البحث. المعطيات الثلاثة التي عرضتها أنا كانت امرأة عجوزًا كفيفة تغزل في منطقة المرتفعات الغربية — المرتفعات الغربية، أليس كذلك؟ — وحظيرة في المروج النرويجية، ومتجرَ تحفٍ يديرُه يهودي. وكانت المُعطيات الثلاثة الأخرى هي امرأة تغزل تحت شجرة مقدسة، والمروج نفسها، وزارع في حقول جنة عدن؛ يا إلهي، يا للغباء! ثمة زوجان متطابقان، أما الزوج المُتبقي فلا رابط بينه. حسنًا، فلنأمُل في أن يحالفنا الحظ! سأكسر القاعدة التي وضعتها لنفسي وآخذ غليوني معي، فهذه المسألة تتطلب التبغ.»

كان اليوم مزدحمًا قضيتُه في كتابة خطابات وتنظيم أمور الضيعة؛ فقد بدا أني لن أتواجَد كثيرًا في المنزل خلال الشهر التالي. الغريب في الأمر أني لم أشعر بأي انزعاجٍ أو قلق. قد أشعر بذلك فيما بعد، أما في الوقت الحالي، فكنت أنتظر العناية الإلهية المُتمثلة في شخص توم جرينسليد. كنتُ أثق في حدسي الذي أخبرَني بأن تلك الكلمات العشوائية التي قالها كانت أكثر من مجرد مصادفة، ومع بعض الحظ، قد أستخرج منها طرف خيط قد يؤدي لحل مشكلتنا.

ظهر جرينسليد في حوالي السابعة مساءً، ولكنه كان مُتجهمًا وشاردًا. لم يأكل شيئًا على العشاء، وعندما جلسنا بعد العشاء في غرفة المكتبة، بدا مُهتمًّا بشكلٍ خاص بقراءة إعلانات جريدة التايمز. وعندما سألته «هل حالفنا الحظ؟» نظر لي بوجهٍ تعلوه الكآبة.

وصاح: «إنها أكثر مهمةٍ فاشلة كُلِّفتُ بها. لم أتذكر أي شيءٍ على الإطلاق، ولكني كنت أتَّبِع طريقة خاطئة على أية حال. كنت أحاول أن أجبر نفسي على التذكر، وكما قلت سابقًا، لا يتحقَّق هذا بالبحث، ولا بالصلاة والصوم. وخطر لي أني ربما أتذكر شيئًا ما إذا ما تتبعت الاختلافات بين أزواج المُعطيات الثلاثة. إنها طريقة معروفة في المنطق الاستقرائي، فالاختلافات عادةً ما تكون مُوحية أكثر من التشابهات. فبدأت أفكر في «الشجرة المقدسة» على أنها نقيض «المرتفعات الغربية»، وفي «حقول جنة عدن» على أنها نقيض «متجر التحف». إنه أمر مُحبِط للغاية. فقد أُصبت بصداع وأعتقِد أني سمَّمتُ نصف مرضاي. لا فائدة يا ديك، ولكني سأواصل المحاولة لبقيةِ اليومَين اللذَين اتفقنا عليهما. سأترك عقلي يرتاح الآن، ولنأمُل في أن أتلقَّى أي إلهام. ولديَّ تصوُّران غيرُ أكيدَين. أولهما أني لا أعتقد أني قلت «المرتفعات الغربية».»

«أنا واثق من أنها كانت كلماتك. ماذا قلت، إذن؟»

«ليس لدَي أدنى فكرة، ولكني واثق من أني لم أقل هذه الكلمات. لا يُمكنني تفسير الأمر كما ينبغي، ولكنك تُكَوِّن تصورًا معينًا للأمور في مخيلتك، وتلك العبارة تتَّفِق بشكلٍ ما مع هذا التصور. مفتاح مختلف. نغمة خاطئة. الأمر الثاني هو أن لديَّ شعور غامض بأن هذه القصيدة، إن كانت موجودة في ذاكرتي بالفعل، ممزوجة بطريقةٍ ما بلحن أنشودةٍ ما. لا أعلم ما هو اللحن، والانطباع برمَّته غير واضح المَعالم وكأنه دخان، ولكني أُخبرك بأنه ذو قيمة كبيرة. فإذا تمكنت من تذكر اللحن المنشود، فربما أتذكر شيئًا ما.»

«هل توقفت عن التفكير؟»

«توقفت تمامًا. أنا مثل قيثارة يوليسيس، يُمكن لأي ريحٍ مارة أن تجعلها تُصدر نغمات. لذا، إذا ظللتُ أسمع هذه المُعطيات الثلاثة، فلن أتمكن من التوصل إلى طرف خيط معقول وواعٍ. من المؤكد أنها ليست جزءًا من عقلي الذي أعمل به خلال النهار. تكمُن فرصتنا الوحيدة في أن تتدخَّل ظاهرة مادية ما وتربط نفسها مع المُعطيات الثلاثة ومن ثَم تُعيد بناء المشهد الذي سمعتها فيه. قد تكون أفضل ظاهرة هي الرائحة، ولكنَّ لحنًا قد يؤدي الغرض. ثمة أمل وحيد — رغم أنه أمل واهٍ كخيط عنكبوت بين العُشب — وهو أن اللحن قد يوقِظ شيئًا في ذاكرتي. هل تفهم ما أَعنِيه يا ديك؟ لن يُفيدنا التفكير، فالمشكلة لا تتعلَّق بالعقل، بل تتعلَّق بإحساس عضوي طفيف لأنف أو أذن أو عين من شأنه أن يضغط على الزرِّ الصحيح. قد يكون الأمر برمَّته مجرد هلوسة، ولكني أشعر أن المُعطيات الثلاثة التي حسبتها من ابتكاري ترتبط بشكلٍ غامض للغاية بلحن أنشودة.»

خلد جرينسليد إلى الفراش مبكرًا، بينما ظللتُ أنا مُستيقظًا أكتب خطابات حتى قرب منتصف الليل. في طريقي إلى الطابق العلوي، انتابني شعور قوي بالعجز والإحباط. بدا لي أن تخبُّطي بين هذه الأوهام لن يُوصلني إلى شيء، بينما المأساة، الواضحة وضوح الشمس، مُحْدِقة بنا. كان عليَّ أن أُذكِّر نفسي بأن الأمور البديهية كانت ضروريةً قبل أن أنفض الشكَّ عن وعيي. كنتُ مرهقًا وناعسًا، وبينما كنتُ أجبر نفسي على التفكير في المشكلة التي أحاول حلها، أصبحت أبيات القصيدة الستة مُشوشة في ذهني. بينما كنتُ أخلع عنِّي ملابسي، حاولتُ أن أُكررها، ولكني لم أتمكن من تذكُّرها. كل ما تذكرتُه منها «حقول النرجس»، ثم بعد ذلك «حقول النرجس الخضراء.» ثم أصبحت «حقول جنة عدن الخضراء.»

ثم وجدت نفسي أُدندن لحنًا.

كان لحن نشيدٍ قديم كان جيش الخلاص يَعزفه في شوارع كيب تاون عندما كنت صبيًّا صغيرًا. لم أسمع هذا النشيد أو أُفكر به طوال ثلاثين عامًا. ولكني كنتُ أتذكر اللحن بوضوح تام؛ فقد كان لحنًا جذابًا وجميلًا يُشبه الموسيقى التي كانت تُعزَف في حفلات قاعات الاستقبال الراقصة في بدايات العصر الفيكتوري، وتذكرت الكلمات التي كانت تقولها الجوقة:

«على الضفة الأخرى من نهر الأردن،
حيث الحقول الخضراء لِجنَّة عدن،
حيث تُزهر شجرة الحياة وتسكن،
هناك ستجد لنفسك المَلاذ والمأمَن.»

اتجهت إلى غرفة جرينسليد ووجدته راقدًا مُستيقظًا يُحدِّق في سقف الغرفة والمصباح بجواره مُضاء. لا بدَّ أني قطعت عليه تسلسل أفكاره؛ فقد نظر لي مُتجهمًا.

قلت له: «لقد توصلت إلى اللحن الذي تبحث عنه»، ثم عزفت اللحن بالصفير، ثم ألقيتُ عليه الكلمات التي تذكرتها.

قال: «فليذهب اللحنُ إلى الجحيم. لم أسمعه من قبلُ في حياتي.» ولكنه بدأ يدندن اللحن نفسَه من بعدي، وجعلني أُكرر الكلمات عدة مرات.

«يؤسِفني أنه لا فائدة. لا يبدو أنه يتَّصِل بأي شيءٍ في ذاكرتي. يا إلهي، هذه حماقة. سأنام.»

ولكن، بعد ثلاث دقائق، سمعتُ طرقًا على باب غرفة ملابسي، ودخل جرينسليد. ورأيتُ حماسةً في عينَيه.

«إنه اللحن المنشود. لا يُمكنني تفسير الأمر، ولكن تلك المُعطيات الثلاثة اللعينة التي ذكرتُها تنسجِم معه تمامًا مثل الليمون في الحساء. اعتقد أني بدأتُ أتذكَّر الآن. فكرتُ أن أُخبرك بذلك؛ فقد تحظى بنوم أفضل إذا ما سمعت هذا الخبر.»

نمتُ بالفعل نومًا هانئًا، وهبطتُ إلى الطابق الأرضي لتناوُل الإفطار مبتهجًا كما لم أشعر منذ أيامٍ عدة. ولكن بدا أن الطبيب قضى ليلةً عصيبة. فبدت عيناه متورمتَين ومرهقتَين، وكان شعره أشعث منفوشًا في كل اتجاه طالبًا التصفيف. كنتُ أعرف عاداته، عندما كان شعر مؤخرة رأسه يقف فهذا دليل على أنه ليس على ما يُرام ذهنيًّا أو جسمانيًّا. لاحظت أنه ارتدى سروالًا قصيرًا وحذاءً سميكًا.

ولم يُبد أية رغبة في التدخين بعد تناول الإفطار. ولكنه صاح قائلًا: «أشعر أنك قد انتصرتَ عليَّ. لقد غيرت رأيي بالكامل ليُصبح مثل رأيك يا ديك. لقد سمعت تلك المُعطيات الثلاثة ولم أبتكرها. علاوةً على ذلك، لا شك في أن هذه المُعطيات الثلاثة على صلةٍ وثيقة بالمُعطيات الثلاثة المذكورة في قصيدة المجرمين. ذلك النشيد يؤكد الأمر، فهو يتحدَّث عن «حقول جنة عدن»، ولكنه ارتبط في ذاكرتي بالمعطيات الثلاثة التي لم أذكر من بينها جنة عدن. إنها نقطة مُذهلة وتثبت أننا على المسار الصحيح. ولكني لن أتمكن من التقدُّم خطوة أخرى على الإطلاق. عندما سمعت المُعطيات، سمعت اللحن، ولكني لا أستطيع تذكر أين سمعته. لدي علاقة واحدة، وأحتاج إلى علاقةٍ ثانية لكي أحدد نقطة التقاطع التي أريد، ولا أعلم كيف سأصل إلى هذه العلاقة.»

أصبح جرينسليد الآن أكثر منِّي اهتمامًا بالمشكلة، وأصبح وجهه النحيل القلق يُشبه بشكلٍ غريب وجه كلبٍ عجوز. سألته عما سيفعل.

فقال: «في تمام العاشرة، سأبدأ جولتي، من عند طرف ويندرَش، ثم سأتَّجِه نحو البيت عبر الغابة. سأسير لمسافة ثلاثين ميلًا بسرعةٍ ثابتة تبلغ أربعة أميالٍ ونصفًا في الساعة، فبإضافة نصف ساعة للغداء، هذا يعني أنني سأعود إلى هنا قبل السادسة. سأُخدر جسمي وذهني إلى اللامبالاة عبر إرهاقهما بالمجهود البدَني الشاق. ثم سأحصل على حمام دافئ وعشاء جيد، وبعد ذلك، عندما أحصل على قدرٍ كافٍ من الراحة، سأحصل على الإلهام الذي أحتاج. الخطأ الذي ارتكبتُه بالأمس هو أني كنتُ أحاول التذكر.»

كان صباح ذلك اليوم صباحًا مُشرقًا من أيام شهر مارس، الطقس المثالي للذهاب في جولة سير، وكنتُ سأُحب الخروج برفقته. لكني وقفتُ أُراقب ساقَيه الطويلتَين بينما تعبران الحقل الذي نُطلق عليه اسم المرعى الكبير، ثم قضيت اليوم في وضع صغار أسماك حصلت عليها من بحيرة ليفين في إحدى البرك، وهي مهمةٌ تُسبب البلل والتلطخ بالطين، ولم تترك لي أي وقتٍ فراغ للتفكير في أمور أخرى. وبعد الظهر، قُدتُ عربتي إلى سوق المدينة لألتقي البنَّاء، ولم أعد إلا قبل موعد العشاء بقليلٍ لأعرف أن جرينسليد قد عاد. كان يحصل حينئذٍ على حمَّامٍ دافئ، طبقًا للخطة التي وضعها.

أثناء العشاء بدا أنه يتمتَّع بروحٍ معنوية أفضل. كانت الرياح قد ردَّت النضرة إلى بشرته، ومنحَتْه شهيةً جامحة، ومنحه مشروب كليكوت من إنتاج عام ١٩٠٦، الذي اعتبره أفضل مشروبٍ بعد يوم مرهق، التنشيطَ الذي كان يحتاجه. ظل يتحدَّث مثلما كان يتحدَّث منذ ثلاث ليالٍ، قبل أن نقع بين براثن هذه المشكلة. اختفت ماري بعد العشاء، وجلستُ برفقتِه في مقعدَين وثيرَين أمام مدفأة المكتبة، مثل رجلَين ناعسَين قضيا يومًا مرهقًا في العراء. فكرت أنه من الأفضل ألا أقول شيئًا حتى يُقرر هو أن يتحدَّث.

ظلَّ صامتًا لفترة طويلة، ثم ضحك ضحكةً تخلو من سعادة.

وقال: «لقد أصبحتُ مشتتًا أكثر من ذي قبل. طوال اليوم تركت ذهني يفكر في أمورٍ أخرى ويركز على المسافة التي تقطعها قدماي وكأنهما فرجار. ولكني لم أتذكَّر شيئًا. لم أتذكر نقطة التقاطُع التي أحتاجها. ربما سمعت هذا اللحن في واحدٍ من آلاف الأماكن على كوكب الأرض. إن حياتي الصاخبة ليست ميزة؛ فقد مررتُ بالكثير جدًّا من التجارب. لو كنتُ كاهنًا قضى حياته برمَّتها في قريةٍ واحدة، لكان ذلك أسهل لي.»

لم أردَّ عليه، فواصل حديثه وهو يوَلِّي بصرَه نحو النار، وليس نحوي: «لديَّ انطباع قوي يصِل إلى درجة اليقين بأني لم أسمع عبارة «المرتفعات الغربية» من قبل. ربما سمعت عبارة تُشبهها، ولكني لم أسمعها هي تحديدًا.»

قلت مقترحًا: «الجزر الغربية.»

«ما الجزر الغربية؟»

«أظن أنني سمعتُ هذه العبارة تُستخدَم للإشارة إلى الجُزر المتاخمة للساحل الغربي لأيرلندا. هل يُساعدك هذا؟»

هز رأسَه نفيًا. وقال: «لا فائدة. لم أذهب إلى أيرلندا من قبل.»

عاد بعد ذلك إلى صمتِه يُحدق في النار، وجلست أنا في مقابلِه أُدخن شاعرًا بخواءٍ وإحباط. أدركتُ أني قد وضعت آمالًا عريضةً للغاية على مسار التحقيق هذا الذي يبدو أنه لن يؤدِّي إلى شيء …

ثم حدث فجأةً أحد تلك الأمور النادرة التي تبدو مصادفةً ولكني أعلم يقينًا أنها جزءٌ من تدابير القدَر.

انحنيتُ للأمام لأنفض الرماد من غليوني عبر ضربِه على حافة المدفأة الحجرية. ضربتُ الغليون بقوة أكبر من المُعتاد، فانكسر الغليون، الذي كان قديمًا، من عند وعائه. صِحتُ غاضبًا، فكم أكرَه خسارة غليونٍ قديم، ثم صَمتُّ فجأةً عندما رأيت جرينسليد.

كان يُحدِّق في أجزاء الغليون المكسور في يدي بعينَين شاردتَين فاغرًا فاه. رفع إحدى يدَيه، والتزمتُ أنا الصمت. ثم هدأ توتره، وأسند ظهره إلى ظهر مقعده مُجددًا متنهدًا.

وقال: «نقطة التقاطع. لقد وجدتُها. مِدينا.»

ثم ضحك عندما رأى الحيرة على وجهي.

وقال: «لستُ مجنونًا يا ديك. كنتُ أتحدث ذات مرة إلى رجل، وبينما كنا نتحدث، انكسر وعاء غليونه مثلما حدث معك للتو. كان هو الرجل الذي كان يدندن لحن هذا النشيد، وعلى الرغم من أني لا أذكر على الإطلاق ما قاله، فأنا واثق تمامًا، مثلما أنا واثق من أنني على قيد الحياة، من أنه مَن وضع تلك المُعطيات الثلاثة في غياهب ذاكرة عقلي الباطن. انتظر لحظة. نعم. يُمكنني تذكُّر ما حدث وكأنه يحدث الآن. لقد كسر غليونه مثلما فعلت أنت، وكان يدندن هذا اللحن من وقتٍ لآخر.»

سألته: «مَن هذا الرجل؟» ولكن جرينسليد تجاهل سؤالي. كان يقصُّ قِصَّته بطريقته، وكانت عيناه شاردتَين كما لو كان ينظر إلى ممرٍّ طويل في ذاكرته.

«كنتُ مُقيمًا في نُزُلِ بُل في هانام؛ حيث كنتُ أذهب لصيد الطيور البرية في المُستنقعات البحرية. كنت أجلس وحيدًا حينئذ، فلم يكن الطقس ملائمًا لأن يتجمَّع المحليُّون في الحانة، ولكن ذات ليلة، تَعطَّلت سيارة خارج النزل، واضطر صاحب السيارة وسائقها إلى المبيت في نزل بُل. الغريب في الأمر أني كنتُ أعرف الرجل. كان قد شارك في إحدى جولات الصيد الكبرى في روزام ثروب، وكان في طريق عودته إلى لندن. كان لدى كلٍّ منَّا الكثير ليُخبر به الآخر، فظلِلنا نتحدَّث حتى الساعات الأولى من صباح اليوم التالي. تحدثنا عن الرياضة، ووِديان نهر ياركاند الشمالية، حيث التقيتُه للمرة الأولى. أذكر جانبًا كبيرًا من حديثنا، ولكن ليس المُعطيات الثلاثة أو اللحن، الأمور التي لم تُوقِظ أي شيءٍ في ذاكرة عقلي الباطن. ولكن هذا لا يمنع وجودها هناك.»

«متى حدث ذلك؟»

«في بداية شهر ديسمبر الماضي، عندما استأجرنا الغابة السوداء. لعلك تذكر يا ديك أني أخذتُ أسبوعًا عُطلةً وذهبتُ إلى نورفوك لصيد البط.»

«لم تُخبرني باسم الرجل.»

«بل فعلت. مِدينا.»

«ومَن يكون مِدينا؟»

«يا إلهي! ديك. إنك تُبالغ في لعب دور الساذج. لا شك في أنك سمعتَ اسم دومينيك مِدينا.»

تذكرت بالطبع أنني سمعته من قبل عندما ذكر الاسم الأول. لم تكن جريدةً تخلو من خبر عن دومينيك مِدينا، ولكني لم أكن أعرف إذا ما كان شاعرًا أم سياسيًّا أم مُمثلًا صاحب فرقة تمثيلية. كانت ثمة كومة من المجلات المصورة مكدسة على طاولة صغيرة، فأحضرتها وبدأت أُقلِّب في صفحاتها. وسرعان ما عثرت على ضالَّتي. كانت صورة لمجموعة في حفلٍ في منزل ريفي خلال أحد سباقات الحواجز، وكانت أسماء الأشخاص الظاهرة في الصورة مُرتبة كالمعتاد «من اليسار إلى اليمين»، وهناك بين إحدى الدوقات وأميرة أجنبية، كان السيد دومينيك مِدينا واقفًا. لم تُخفِ رَداءة جودة الصورة وسامة الرجل الاستثنائية. فرأسه شبيهٌ برأس بايرون، وطبقًا لما تمكنت من تمييزه، كان قوامُه ممشوقًا ومهندمًا ورياضيًّا.

«لو تصادف ورأيت هذه الصورة الرديئة، ربما لم يكن تحقيقك ليستغرق هذه الفترة الطويلة.»

هز رأسه نفيًا. وقال: «لا، لا تسير الأمور على هذه الشاكلة. كان الأمر يتطلَّب غليونك المكسور واللحن وإلا كنتُ سأظل عالقًا.»

«أظنُّ إذن أنه يجدُر بي التواصل مع هذا الرجل واكتشاف المكان الذي سمع فيه هذه المُعطيات واللحن. ولكن، ماذا لو تبيَّن أنه مثلك، ثرثار آخر يهتم بالعقل الباطن؟»

«هذا وارد بالطبع. ربما تمكن من مُساعدتك، أو مِن المرجَّح أنه قد يكون جدارًا مُصمتًا آخر.»

شعرت فجأة بمدى صعوبة المهمَّة التي تحملتُها على عاتقي، وتملكني شعور أقرب إلى اليأس.

«أخبِرني عن هذا الرجل المدعو مِدينا. هل هو رجل محترم؟»

«أظن ذلك. نعم، يجدُر بي أن أظن ذلك. ولكنه على صلةٍ بالأوساط الراقية أكثر منِّي، فلا يُمكنني الحكم عليه. ولكني سأُخبرك بأمرٍ أثِق به تمامًا عن هذا الرجل؛ إنه رجل عظيم. ويحك يا ديك، لا بد أنك سمعتَ به. إنه أحد أفضل الرُّماة بالأسلحة النارية الموجودين على قيد الحياة، وحقق إنجازاتٍ عظيمة في مجال الاستكشاف، كما أنه كان أحد أقوى زعماء الأحزاب في جنوب روسيا. كما أنه شاعر جيد ومُميز، رغم أني أعلم أن هذا لن يهمك.»

«أظن أنه أقرب لأن يكون من أصل لاتيني.»

«هذا عارٍ تمامًا من الصحة. لقد استقرَّت عائلته ذات الأصول الإسبانية هنا منذ ثلاثة قرون. وخرج أحد أسلافه إلى الحرب مع الأمير روبرت. مهلًا! أعتقد أني سمعت أن أهله يعيشون في أيرلندا، أو عاشوا فيها سابقًا، حتى أصبحت الحياة هناك لا تُطاق.»

«كم عمره؟»

«إنه شاب. لم يتخطَّ الخامسة والثلاثين من عمره. كما أنه أوسم أهل الأرض منذ عصر الإغريق.»

قلتُ وقد نفد صبري: «لستُ إحدى النساء المُتحررات لأهتمَّ بذلك. إن الرجل الجميل الشكل لا ينال استحساني. بل ربما تُنفِّرني منه ملامح وجهه.»

«لن يحدُث ذلك. من منطلق معرفتي به وبك، ستُعجب به منذ الوهلة الأولى. لم أسمع من قبل عن رجلٍ لم يُعجب به. صوته جميل مُحبب إلى النفس، وعيناه تغمرانِك بالدفء، فهما تشعَّان مثل أشعة الشمس. لا يعني ذلك أني أعرفه حق المعرفة، ولكني أجده جذابًا للغاية. وها أنت قرأتَ في المجلة بنفسك رأي العالم فيه.»

«لا يُهم، فلم أقترب من مرادي بعد. يجب أن أعرف أين سمع تلك المُعطيات اللعينة الثلاثة وذلك اللحن الغبي. قد يقول لي أنْ أغربَ عن وجهه، وحتى إن كان مهذبًا معي، فمن المُرجَّح أن يكون عديم النفع.»

«تكمن فرصتك الوحيدة في أن يكون رجلًا حصيفًا بالفعل، وليس أحمقَ مُسنًّا مثلي. ستحصل على المساعدة من عقلٍ مُمتاز، وهذا يعني الكثير. هل أكتب لك خطابًا تعريفيًّا؟»

جلس إلى مكتبي وبدأ يكتب. «لا يعني ذلك أني أُقلل من قُدرتك على التعامُل معه، كل ما في الأمر أني أريد أن تتعارفا؛ فلدَيكما بعض الاهتمامات المُشتركة مثل الرياضة والسفر، أمور من هذا القبيل. أنت ذاهب إلى لندن، لذا من الأفضل أن أُدوِّن عنوان ناديك كعنوانٍ للمراسلة.»

في صباح اليوم التالي، عاد جرينسليد لمُزاولة واجباته المُعتادة، وركبت أنا أول قطار إلى المدينة. لم أكن سعيدًا للغاية بأمر السيد دومينيك مِدينا؛ إذ بدا لي أنني لن أتمكَّن من العثور عليه. أخبرَني أحدُهم بعمره ومكان سكنه، شارع هيل، وبعنوان نادِيه، وحقيقة أنه عضو في مجلس العموم عن دائرة جنوب لندن. لم تلتقِ به ماري من قبل؛ فقد ظهر في لندن بعدما توقفَت هي عن الذهاب إليها، ولكنها تذكرَتْ أن عمَّاتها اللاتي يسكنَّ في ويموندام كُنَّ يُفْرِطنَ في مدحه، وأنها قرأت في إحدى الجرائد مقالًا عن شِعره. أثناء جلوسي في القطار، حاولتُ أن أُكَوِّن في ذهني تصورًا عن نوعيته كرجل، مزيج من بايرون والسير ريتشارد برتون والسياسي الشاب المُثقف. لم تتكوَّن الصورة بشكلٍ جيد، فكل ما رأيتُه في مخيلتي هيئة تُشبه تمثالًا شمعيًّا ذات صوتٍ هادئ كهديل الحمام ودماثة بائعٍ في متجرٍ راقٍ. كما أن اسمه ظلَّ يُربِكني؛ فقد ظللتُ أخلط بينه وبين وغدٍ برتغالي مُسنٍّ تعرفتُ عليه ذات مرة في بييرا.

كنتُ أسير في شارع سان جيمس في طريقي إلى وايتهول، وكنت غارقًا حتى أُذنَي في أفكاري عندما استفقت على يدٍ وضعها أحدُهم مفرودةً على صدري، يا إلهي! إنه ساندي أربوثنوت.

الفصل الرابع

تعارُفي مع رجلٍ شهير

يُمكنك أن تتخيَّل مدى سعادتي برؤية صديقي القديم ساندي مُجددًا، فلم أكن رأيته منذ عام ١٩١٦. كان يعمل ضابط استخباراتٍ مع الجنرال مودي، ثم انتقل للعمل في مدينة شيملا، وبعدها وضعتِ الحرب أوزارها، تولى وظيفة إدارية في بلاد ما بين النهرَين، أو العراق، كما يُطلق عليها حاليًّا. راسلني ساندي من الكثير من الأماكن الغريبة في العالَم، ولكنه لم يقل أبدًا إنه سيعود إلى الوطن، وبعدما تزوجت واستقررت في الريف، يبدو أننا اتخذنا طريقَين لم يكن من المُرجَّح أن يتقاطعا. قرأتُ خبر وفاة أخيه الأكبر في الصحف، وهو ما كان يعني أنه أصبح كبير عائلة كلانرويدن ووريث أملاكها، ولكني لم أتخيَّل أن هذا سيحوله إلى إقطاعي اسكتلندي. لم يتغير ساندي بعد خمس سنوات من المشقَّة والأسفار إلا قليلًا. كان نحيلًا ولوحت الشمس بشرتَه، ولطالما كان كذلك، ولكن، ظلَّت قسمات وجهه على حالها، ناعمة مثل الفتيات، وكانت عيناه البُنيَّتان مرحتَين كعادتهما.

وقفنا نُحدق أحدنا في الآخر.

ثم صاح ساندي قائلًا: «ديك، لقد عدت إلى الوطن إلى الأبد. نعم، أقسم لك بشرفي. سأظل هنا لشهور طوال، إن لم يكن لسنوات طوال. ثمة الكثير مما أريد أن أُخبرك به لدرجة أني لا أعرف من أين أبدأ. ولكني لا أستطيع البقاء حاليًّا. أنا في طريقي إلى اسكتلندا لرؤية والدي. إنه شُغلي الشاغل حاليًّا؛ فقد أصبح ضعيفًا للغاية. ولكني سأعود بعد ثلاثة أيام. لنتناول العشاء معًا يوم الثلاثاء.»

كنا نقِف على عتبة باب أحد الأندية — نادِيه ونادِيَّ — وكان البواب يضع أمتعته في سيارة أجرة. وقبل أن أستوعِب أنه كان ساندي حقيقةً، كان يلوح لي من نافذة السيارة الأجرة التي اختفت به في نهاية الشارع.

أسعدتني رؤيته للغاية، وتوجهتُ إلى بول مول في مزاج جيد. إن وجود ساندي في إنجلترا على بُعد مكالمة هاتف منِّي جعلني أشعر بثباتٍ أكثر، مثل القائد الذي يُدرك أن قواته الاحتياطية قريبة. عندما دخلت غرفة ماكجيليفراي، كنت أبتسم، وأثارت رؤياي ابتسامةً متسائلة على شفتَيه. وقال: «صديقي العزيز! تبدو مُستعدًّا للعمل. عليك أن تضع نفسك تحت إمرتي بمجرد أن أُخبرك بما يحدث.»

أخرج أوراقه وبدأ يشرح الأمر برمَّته. كانت قصة غريبة للغاية، ولكن كانت شكوكي تتزايد كلما تعمقتُ أكثر في تفاصيلها. لن أكتب القصة بأكملها، فلم يحِن وقت ذلك بعد؛ فمن المُحتمَل أن تَكشِف بعضَ الطرق التي لم تفقد نفعها بعد، ولكن قبل أن أتمادى أكثر، أبديتُ إعجابي بهذه الطرق؛ فقد أظهَرَت الكثير من الصبر والإبداع. كانت مجموعة غريبة من الحلقات التي كوَّنت السلسلة. كانت تضم مستوردًا للمكسرات البرشلونية لدَيه مكتب مُتواضع بالقرب من تاور هيل. وشركة تعدين نحاس تزعم أنها تعمل في إسبانيا، ولم تُطرَح أسهمها في سوق الأوراق المالية، ولكنها تمتلك مكتبًا أنيقًا في شارع جدار لندن، حيث يُمكنك أن تتناول أفضل غداءٍ في المدينة. وكانت تضمُّ أيضًا مُحاسبًا محترمًا في جلاسجو، وكونتًا فرنسيًّا، كان أيضًا أحد الإقطاعِيِّين في مُرتفعات اسكتلندا وأحد أكبر المناصِرين لجماعة الزهرة البيضاء. ونبيلًا ريفيًّا يعيش في شروبشاير، اشترى ضيعتَه بعد انتهاء الحرب وكان فارسًا متمرسًا في الصيد بالكلاب وأحد أشهر الشخصيات في المُقاطعة. ومكتبًا صغيرًا لا يبعد كثيرًا عن شارع فليت، تبيَّن أنه الوكالة الإنجليزية لأحد المجلات الدينية الأمريكية، وصحفيًّا مُعينًا لطالما دعا في الصحف إلى مساعدة سكان وسط أوروبا المنكوبين. أتذكر دعواته جيدًا؛ فقد أرسلت له مبلغًا صغيرًا مرتَين. ملأتني الطريقة التي استخدمها ماكجيليفراي في الربط بين هؤلاء السادة، بالانبهار.

ثم عرض عليَّ عيناتٍ من أعمالهم. كانت جريمةً بكل ما تحمله الكلمة من معنى، شيئًا يُشبه بيع دبٍّ لأعلى سعرٍ في عالمٍ مُنهار. كان هدف العصابة هو المال، رغم أنها تمكنت من جمع أرباحٍ طائلة. كان جزءٌ من أعمالها عبارة عن تربُّح غير نزيهٍ ولكن بصورة قانونية، مثل توقع الانخفاضات في الأسهم واستخدام جميع الوسائل السافرة والدنيئة لجعل التوقعات أكيدة. كان جزءٌ من أعمالها أسلوب احتيال شائعًا على أوسع نطاق. ولكن كان ثمة جانب أكثر ظلامًا، كانت أعضاء تلك العصابة يقتلون ضحاياهم إذا ما اكتشفوا مُخططاتهم مصادفةً، وكانوا يُدبرون إضراباتٍ عندما يُبدي أي مجال خرِب في أي مكانٍ من العالَم انتعاشًا، وكانوا يُشعلون ثورات رديئة صغيرة في بلدان

فقيرة صغيرة من أجل زيادة الطين بلة. كان هؤلاء الأشخاص مُخربين من طراز رفيع، يتاجرون بتعاسة الناس، ويزيدون المجتمع انحطاطًا عندما يبدأ في العثور على توازُنه، ثم يكدِّسون أرباحهم.

قلتُ سابقًا إن دافعهم هو الربح، ولكنه ليس دافع الأشخاص الذين يستغلونهم. تكمُن براعتهم في استغلالهم للمُتعصبين، الشواذ أخلاقيًّا كما يطلِق عليهم ماكجيليفراي، الذين تحركهم كراهيتهم الجامحة لشيءٍ ما، أو إيمانهم المُطلق بالفوضى. وخلف الاستغلاليين المُتأنقين، تكمن البقايا الكئيبة للجنون النابع من الجهل. أعطاني ماكجيليفراي أمثلة على كيفية استخدامهم لهذه الأدوات، الأشخاص الذين لا يهتمون بالأرباح، والذين على استعدادٍ تام للتضحية بكل شيء، حتى أرواحهم، من أجل مُثُل جنونية. كانوا خير مثال على العبقرية الشريرة الوحشية. حقيقة قبيحة، ولكنها هزلية في الوقت نفسه، فمشهد أولئك المهووسين المسعورين وهم يسعون جاهدِين لخلق جنةٍ جديدة وأرض جديدة مُعتقِدِين أنهم قادة الجنس البشري — بينما هم في الحقيقة دُمى تحركها، كما يحلو لها، قلةٌ من المُحتالِين المشاركين في أقدم مسعًى للبشر — كان مشهدًا هزليًّا يجعل الآلهة نفسها تضحك.

سألته عمَّن يكون قائدهم.

قال ماكجيليفراي إنه لا يعلم يقينًا. فلا أحد من العصابة يملك سلطةً أكبر من الآخرين، ووُزِّعَت أنشطة كلٍّ منهم بما يُناسب تخصُّصه تمامًا. ولكنه اتفق معي على أنه من المُحتمل وجود عقل مدبر واحد، وقال عابسًا إنه قد يعرف المزيد عن ذلك عندما يقبضون على العصابة. «ستجيب التحقيقات عن هذا السؤال.»

سألته. «هل يشكُّون في أنهم مُراقبون؟»

«ليس كثيرًا. قليلًا، وإلا ما كانوا سيختطفون رهائن. ليس كثيرًا لأننا راعَينا جيدًا عدم إظهار أي شيءٍ ينمُّ عن مُراقبتنا لهم. منذ أن عرفنا نشاطهم، تمكنَّا من عرقلة بعضٍ من أسوأ خططهم، ولكني متأكِّد من أنهم لم يشكُّوا في أن لنا يدًا في ذلك. كما أنَّا وضعنا العراقيل في طريق نشاطهم الدعائي. إنهم أساتذة في مجال الدعاية. ديك، هل تساءلت من قبل عن ماهية السلاح الشيطاني؛ استخدام جميع وسائل الدعاية الحديثة لتسميم وتشويه عقول البشر؟ هذا أخطر ما يمكن أن يحدُث للعالم. يمكن استخدام الدعاية من أجل الصالح العام — لا يُمكنني التفكير في مثالٍ أفضل من الحرب — ولكن يُمكن أيضًا استخدامه في نشر أفظع الأكاذيب. الرائع في الأمر أن الدعاية تهزم نفسها بنفسها في نهاية

المطاف، ولكن ليس قبل أن تعمَّ الفوضى العالم. انظر إلى حال الأيرلنديين! إنهم أمهر خبراء الدعاية على وجه الأرض، وتمكنوا من إقناع أغلب البشر بأنهم شجعان وكرماء وظرفاء وموهوبون وإيثاريون، وأنهم مُجبَرون بكل قسوة على التبعية التجارية لإنجلترا، بينما الله وحدَه يعلم أنهم على النقيض من ذلك تمامًا.»

يجدُر بي أن أذكر أن أصول ماكجيليفراي تعود إلى أولستر، ومن ثَم فهو متحيز.

قلت: «فيما يخصُّ العصابة، أظن أنهم جميعًا أناس محترمون في نظر الناس، أليس كذلك؟»

قال: «محترمون للغاية. التقيتُ أحدَهم في حفل عشاء ذات ليلة في منزل ...»، وذكر اسم أحد المسئولين الحكوميين. «قبل الكريسماس، كنتُ في سوفولك للصيد بالبندقية من خلف ساتر، وكان بجواري واحدٌ من أسوئِهم، رجل لطيف بشكلٍ غريب.»

ثم جلسنا لنتحدَّث عن العمل. كان ماكجيليفراي يرى أنه يجدُر بي أن أدرس تفاصيل المهمة ثم أتعرف إلى بعض الأشخاص. وقال إنه يجدُر بي أن أبدأ بالنبيل الريفي من شروبشاير. كان يعتقد أني قد أتعثَّر مصادفةً في شيء يمكن اعتباره طرف خيطٍ يُوصلنا إلى الرهائن؛ فقد كان لا يزال مُصرًّا على فكرته الغريبة التي مفادها أني أمتلك تلك الفطنة الخاصة التي يمتلكها المبتدئون في بعض الأحيان ويفتقر إليها المحترفون. وافقته على أن هذه هي أفضل خطة، ورتَّبنا الأمر بحيث أقضي يوم الأحد في غرفته لأطَّلع على الملفَّات السرية. كنتُ قد بدأت أهتمُّ بالموضوع، فكان ماكجيليفراي موهوبًا في جعل أي شيءٍ يعمل عليه مُثيرًا وكأنه لعبة.

كنت أنوي إخباره بالتجارب التي أجريتُها مع جرينسليد، ولكن بعد ما أراني إياه، شعرت أن هذه القصة ستكون واهية وغير واعدة. ولكن، بينما كنتُ أهم بالمغادرة، سألته عَرَضًا عما إذا كان يعرف السيد دومينيك مِدينا.

فابتسم. وسألني: «لمَ تسأل؟ إنه خارج نطاق اهتماماتك.»

«لا أعلم. لقد سمعت الكثير عنه، وأظن أني أودُّ مقابلتَه.»

«لا أعرفه حق المعرفة، ولكني أعترف بأني انجذبتُ إليه بشدة رغم قلة عدد مرات لقائنا. إنه أوسم رجل في العالم.»

«سمعت هذا من قبل، وهذا هو الأمر الوحيد الذي يُنفرني منه.»

«لن تفعل إذا رأيته. إنه ليس على شاكلة مُمثل وسيم معبود للجماهير على الإطلاق. إنه الرجل الوحيد في العالَم الذي تعشقُه النساء ويُعجب به الرجال. فهو رياضي من طراز

رفيع، ويُقال إنه أفضل رامٍ بالأسلحة النارية في إنجلترا بعد جلالة الملك. كما أنه رجل واعد في السياسة، وهو خطيب مُفوَّه. سمعت أحد خطاباته ذات مرة، وعلى الرغم من أني لا أهتم بالخطابة كثيرًا؛ فقد انبهرتُ كثيرًا ببراعته. هاجم العالم في خطابه قليلًا، كما أنه شاعرٌ بارع، رغم أني أعلم أن هذا لن يُهمك.»

اعترضت قائلًا: «لا أعلم لِمَ تقول ذلك. إن اهتمامي بالشعر يزداد.»

«أعلم ذلك. سكوت وماكولاي وتينيسن. ولكن مِدينا مختلف عنهم. إنه معبود الشباب ومجدد جريء. كما أنه شخص مرح أيضًا. كما أنه باحث من الطراز القديم.»

«حسنًا، آمُل أن أقابِلَه قريبًا، وسأُخبرك بانطباعي عنه.»

كنت قد أرسلت خطابي إلى مِدينا بالبريد، مرفقًا معه خطاب جرينسليد التعريفي، بعدما خرجت من محطة القطار، وفي صباح اليوم التالي، وصلني رد مهذب للغاية منه على عنوان ناديَّ. كان جرينسليد قد تكلَّم عن اهتمامنا المُشترك برحلات صيد الطرائد الكبيرة، وأقرَّ بأنه يعرف كل شيءٍ عني، وأنه مُتشوق إلى أن نتعارف. قال إنه لن يكون في المدينة، للأسف، خلال عطلة نهاية الأسبوع، ولكنه اقترح أن أتناول الغداء معه يوم الاثنين. وذكر اسم نادٍ، نادٍ صغير وعتيق الطراز لا يضمُّ إلا الصفوة، وكان أغلب أعضائه من النُّبلاء المُهتمِّين بالصيد.

كنتُ أتطلَّع لمُقابلته بفضول لا يُمكنني تفسيره، وتذكرته يوم الأحد بينما كنتُ أتصفح الأوراق في غرفة ماكجيليفراي. صنعت في مخيلتي صورةً مزجتُ فيها بين الحارس الذي ذكرَته أويدا في إحدى رواياتها وتمثال أبولو بيلفيدير وألبستُها ملابس أنيقة للغاية. ولكن عندما أخبرت بواب النادي باسمي، تقدم لاستقبالي شابٌّ كان يُدفئ يدَيه عند مدفأة البهو، ومحَوْت تلك الصورة من ذاكرتي تمامًا.

كان في مثل طولي تقريبًا، أقل من ستة أقدام بقليل، وكان للوهلة الأولى يبدو هزيلًا، ولكن لم يكن يُمكن ملاحظة بِنيته القوية إلا لِعَينٍ تعرف أين تبحث عن مظاهر قوة بنيان الرجل. ولكن هذا لم يمنع أن يبدو للعيان نحيلًا، ومن ثَم كان يبدو حديث السن، ويُمكنك أن تستنبط من طريقة وقوفه وسَيره أنه خفيف الحركة وكأنه بهلوان راقص على الحبل. ثمة كلمة فظيعة تُذكر في الصحف عادةً، وهي «مُسيَّس جيدًا»، والتي تقولها الصحافيات عن الرجال، والتي لطالما جعلتني أتخيَّل حصانًا لامعًا يهتم سائس الخيل بتنظيفه وتصفيفه. فكرتُ أنه «مُسيَّس جيدًا»، ولكن لم يكن ثمة أي شيءٍ لامع في مظهره. كان يرتدي حلةً صوفية بُنية أنيقة عتيقة الطراز، وقميصًا حريريًّا وياقة، وربطة عنقٍ

بُنية مائلة إلى الاحمرار تُلائم لون بشرته تمامًا. كانت ملابسه تُشبه تمامًا ملابس إقطاعي ريفي حضر إلى المدينة لقضاء يومٍ في مزرعة خيول تاترسالز.

من الصعب أن أصف انطباعي الأول عن ملامحه؛ فقد غُشِيَت ذاكرتي بانطباعاتٍ أخرى عنه اكتسبتُها عندما نظرت إليه في ظروفٍ مغايرة. ولكن كان شعوري الرئيسي، على ما أتذكر، هو أنه جذاب بطريقةٍ فريدة من نوعها. كانت ملامحه تبدو إنجليزية، ولكنها لم تكن إنجليزية خالصة؛ فقد كان لون بشرته أدكنَ قليلًا مما قد تتسبَّب فيه شمسُنا أو طقسنا، وكانت تحمل لمحة من رقةٍ ناعمة لا تجِدُها عادة في أبناء جلدتنا. كانت ملامحه جميلة، كل منها على حدة، ولكنها كانت تحمل لمحة من صلابةٍ جعلتها غير تقليدية. حيَّرني ذلك حتى أدركتُ أن انطباعي هذا أتى من ملمحَين، الشَّعر والعينَين. كان الشعر بُنيًّا داكنًا، متموجًا عند الجبهة، ما جعل الوجه يصنع مربعًا كاملًا مع ذقنه القوي العريض. ولكن كانت العينان هما الشيء الأكثر بروزًا. كانت عيناه زرقاوين مدهشتين، فلم تكونا بذلك اللون الأزرق الباهت الشائع الذي يعود إلى أسلافنا من النورديين، بل كان أزرق داكنًا مثل لون الياقوت. إذا ما تخيلتَ ياقوتة تلمع مثل الماس، فستكون قد كونتَ تصورًا قريبًا من هاتَين العينَين. كانت هاتان العينان تسلُبان لُب أي امرأة، أما في أعين الرجال، الذين لا يحملون أي صفات أنثوية، فستبدوان مُدهِشتَين. مُدهشتَين — أتمسَّك بهذه الكلمة — وكذلك خلابتَين.

حياني كما لو كان ينتظر هذه اللحظة طوال عمره، ولكن من دون أن يتخلى عن التعامُل بالطريقة الرسمية التي تُميز اللقاءات الأولى.

«تسعدني مقابلتك يا سير ريتشارد. كرمٌ منك أن حضرت. لقد حجزتُ طاولةً لنا وحدَنا بجوار المدفأة. آمُل أن تكون جائعًا. فقد سافرتُ صباح اليوم في طقسٍ شديد البرودة، وأنا في حاجة لتناول غدائي.»

كنتُ جائعًا بالفعل، ولم أتناول في حياتي وجبةً أفضل من تلك. صبَّ لي بعض الخمر لتدفئتي، ثم تناولتُ كوبًا من شراب بريستول كريم الذي يشتهر النادي بتقديمِه، ولكنه لم يشرب سوى الماء. كان في المكان أربعة أشخاص آخرين، كان يدعوهم جميعهم بأسمائهم الأولى، وبدا أن أولئك الرجال ذوي الوجوه النحيلة الذين يَهوون الصيد مُبتهجين بوجوده. ولكنهم لم يأتوا ليقفوا بجواره والتحدُّث إليه، الأمر الذي من المُرجَّح حدوثه مع الرجل الأكثر شعبيةً في المكان. كان مِدينا ودودًا ومُتحفظًا في الوقت نفسه، ما منحه مظهرًا بسيطًا رغم اختلافه التام عن غيره.

أتذكَّر أننا بدأنا حديثنا عن البنادق. مارست الصيد كثيرًا في شبابي، وأدركتُ أن هذا الرجل يمتلك خبرةً واسعة وكان حُب الصيد متوغلًا في روحه. لم يتفاخر بنفسه صراحةً، ولكنه قال بعض الملاحظات التي جعلتني أُدرك مدى فخره بنفسه. تحدث عن البندقية الجديدة عيار ٠٫٢٤٠ التي تمتلك قوة إيقاف ارتداد كبيرة، وأخبرته أني لم أستخدمها في اصطياد أي طرائد أضخم من الأيل الاسكتلندي. «كانت ستُمثل هديةً من السماء لي في الأيام الخوالي في نهر الكونغو عندما كنتُ أستخدم أعيرة ٠٫٥٠٠ إكسبريس التي آذت ظهري.»

ابتسم في أسف. وقال: «الأيام الخوالي! لقد مررْنا بها جميعنا، ونتمنى أن تعود. أرغب أحيانًا في التمرُّد على حياتي والخروج إلى البراري من جديد. فالاستقرار لا يُناسِب حداثة سنِّي. لا بد أنك تشعر بالمِثل يا سير ريتشارد. ألم تندم على انتهاء تلك الحرب الضروس؟»

«لا يَسعُني أن أقول ذلك. أنا رجل كهل الآن، ولن يمُرَّ وقت طويل قبل أن تتيبَّس أوصالي. لقد استقررتُ في كوتسوولد، ورغم أني آمُل في ممارسة الصيد كثيرًا قبل أن أموت، فإني لا أتطلَّع إلى المزيد من الحروب. أنا واثِق من أن الله قدَّر لي أن أكون مزارعًا.»

ضحك. وقال: «أتمنَّى لو أعلم ما قدَّره الله لي. يبدو أن قدري أن أكون سياسيًّا.»

قلت: «أوه، أنت! أنت رجل يمتلك عشرين موهبة. أما أنا فأملك موهبة واحدة فقط، ولا أمانع لو دفنتُها تحت الثرى.»

ظللت أتساءل عن المساعدة التي يمكن أن يُقدمها لي. لقد أُعجِبتُ به كثيرًا، ولكني لم أرَ بعد تلك الألمعية التي يتحاكون عنها. إنه رجل لطيف عادي مِثل كثيرين ممَّن أعرفهم، توم جرينسليد آخر. كانت السماء مكفهرة في ذلك اليوم، وأخفى الضوء الصادر عن النار هيئته في الظل، وبينما كنتُ أسترق النظر إليه، اندهشت من شكل رأسه. كانت طريقة تصفيف شعره من الأمام والخلف تجعل رأسه يبدو مُربعًا، ولكني رأيتُ أنه في الحقيقة مُستدير، أكثر رأس رأيتُه في حياتي استدارة فيما عدا رءوس الأفارقة الزنوج. ويبدو أنه كان يُدرك شكل رأسه ولم يكن يُعجبه، فحاول جاهدًا أن يُخفيه.

ظلِلتُ أراقِبه خفيةً أثناء الغداء، ولاحظت أنه يُراقبني خفية أيضًا. كانت عيناه الزرقاوان ودودتَين للغاية، ولكنهما ماكرتان للغاية أيضًا. فجأةً نظر إلى وجهي مباشرةً.

وقال: «لن تستقر. لا تخدع نفسك. لن تستسيغ حياة الريف. ماذا ستختار؟ السياسة؟ التجارة؟ السفر؟ هل أنت ميسور الحال؟»

«نعم. طبقًا لاحتياجاتي البسيطة، أنا ثري جدًّا. ولكني لستُ منعدمَ الطموح.»

«لا. لستَ كذلك.» ثم نظر في عينيَّ مباشرةً. وقال: «إذا لم يكن لدَيك مانع لما سأقوله، أنت لست مغرورًا. يُمكنني اكتشاف المغرورين بسرعة، والغرور صفة لا يمكن إخفاؤها. ولكني أظن — بل أعلم يقينًا — أنه يمكنك أن تعمل بكد، وأن ولاءَك راسخٌ لا يتزعزع. لكنك لن تستطيع مساعدة نفسك يا سير ريتشارد. بل ستعلق في دائرة مفرغة. انظر إليَّ. أقسمتُ منذ عامَين ألا أعلق في مسار مرة أخرى أبدًا، ولكني عالِق في واحد حاليًّا. ما إنجلترا إلا مجموعة من المسارات، والخيار الوحيد أمامك أن تنتقي مسارًا جيدًا.»

قلت: «أظن أن المسار الذي اخترتَه هو السياسة.»

«أظن ذلك. إنه مجال حقير في الوقت الحالي، ولكنه مليء بالاحتمالات. ثمة إعادة إحياء كبرى لحزب المحافظين على وشك الحدوث، وستحتاج إلى مَن يقودها. ستزيد الفئات الجديدة المُنضمَّة للحزب، وخاصةً النساء، من قوَّته بشكلٍ كبير. لم يكن المُنادون بمنح النساء حق التصويت يُدركون القوة المحافظة الهائلة التي يُطلقونها عندما فازوا بالتصويت لصالحهم. أودُّ أن أتحدَّث إليك عن هذه الأمور ذات يوم.»

عدنا في غرفة التدخين للحديث عن الصيد، أخبرَني بقصة لقائه بجرينسليد في آسيا الوسطى. بدأتُ أُدرك أن الرجل يستحق سمعته؛ إذ كانت ثمة براعة غريبة في حديثه، ولم يكن يبذل أي جهدٍ وكأن الأفكار تأتيه بسهولةٍ وكل ما عليه هو التعبير عنها. كنت قد انتويت فتح الموضوع الذي جعلني أسعى للتعرُّف عليه من الأساس، ولكني لم أشعر بأن الوضع مُلائم لذلك. فلم أكن قد تعرفت عليه بما يكفي بعد، وشعرت أني لو بدأت الحديث عن تلك المُعطيات الثلاثة السخيفة، التي لم أكن أملك غيرها، فسيجب عليَّ أن أقصَّ عليه ما حدث وأُفشي له الأمر برمته. رأيتُ أن الوقت لا يزال مبكرًا للغاية على ذلك، خاصةً وأن هذا لن يكون لقاءنا الأخير.

سألني ونحن نفترق: «هل أنت مُتفرغ يوم الخميس؟ أودُّ أن أدعوك لتناول العشاء في نادي الخميس. أنا واثق من أنك تعرف بعضًا من أعضائه، كما أنه مكان رائع للسهر. مُمتاز! يوم الخميس في الثامنة تمامًا. معطف قصير وربطة عنق سوداء.»

بينما كنت أبتعد، أدركت أني عثرت على الرجل الذي سيتمكن من مساعدتي. أعجبني الرجل، وكلما زاد تفكيري فيه، زاد عمق انطباعي عنه بأنه يمتلك قدراتٍ دفينة أكبر بكثيرٍ مما يبدو على مظهره البسيط. كنتُ منبهرًا به للغاية، وكان الدليل على ذلك أنني اتجهتُ من فوري لأقرب مكتبة واشتريت قصيدتَيه المنشورتَين في كتابَين ضئيلَين. كنت أهتمُّ

بالشعر بقدْر أكبر بكثير مما تخيل ماكجيليفراي — ويعود الفضل الأكبر في تثقيفي إلى ماري — ولكن لم تنجح تجاربي مع الشعراء الجدد. ولكني فهمت أبيات مِدينا الشعرية بسهولةٍ تامة. فقد كانت بسيطةً للغاية، وتتضمَّن في طياتها نغمة عذبة خفية، كما أنها كانت حزينة للغاية. ومرة تلوَ الأخرى تكررت نغمة الندم والخسران والجَلَد الواهم. أثناء قراءتي لهاتَين القصيدتَين في ذلك المساء، تساءلت، كيف لرجل يملك تلك الشهية الجامحة للحياة، وحباه الله بكل تلك النِّعَم الدنيوية، أن يكون خاويًا لهذه الدرجة في داخله. ربما كان يتظاهر بذلك، ولكن لم يكن أسلوبه يتضمَّن ذلك اليأس المُعتاد للشعراء عديمي الخبرة. كان عملُه يدل على حكمة وخبرة بالحياة تضاهي يوليسيس. لم أرَ أنه قادر على كتابة أي شيءٍ سوى الحقيقة. إن التظاهر نتاج الغرور، وكنتُ على يقينٍ تامٍّ من أن مِدينا ليس مغرورًا.

في صباح اليوم التالي، وجدتُ أن إيقاعات شعره لا تزال تدور في ذهني، ولم أتمكَّن من إبعاد تفكيري عنه. كنتُ مفتونًا به كافتتان رجلٍ بامرأة جميلة. كانت فكرة أنه يُبادلني الإعجاب تُسعدني، فكان ما فعله يتخطى التعارُف العرضي الذي طلبَه جرينسليد. لقد خطط لكي نلتقي مُجددًا، ولم يكن يتحدَّث معي كأحد المعارف، بل كصديق. سرعان ما قررتُ أن أستأذن ماكجيليفراي وأُخبره بالأمر كاملًا. لم يكن من المُفيد لنا أن نترك مثل هذا الرجل على مبعدةٍ منًّا وأن نطلُب منه أن يحل ألغازًا مُبهمة مثل تلك القصيدة العمودية المنشورة في الجريدة. لا بد أن يعرف كل شيء، أو لا شيء على الإطلاق، وكنتُ واثقًا من أنه إذا ما عرف الأمر برمَّته، سيكون خير مُعين لي. وكلما تحدثت إليه أكثر، زادت قناعتي بذكائه الاستثنائي.

تناولت الغداء مع السيد جوليوس فيكتور في كارلتون هاوس تيراس. كان يعيش حياته بصورةٍ طبيعية، وعند لقائنا، لم يتطرَّق إلى الموضوع الذي يربط بيننا. أو بالأحرى قال شيئًا واحدًا. قال: «أنا واثق من أنه يمكنني الاعتماد عليك. أظن أني أخبرتُك بأن ابنتي مخطوبة وسوف تتزوَّج في الربيع القادم. حضر خطيبها من فرنسا وسيُقيم معي لفترة لم يُحددها. على الأرجح لن يستطيع مساعدتك بشيء، ولكنه سيكون تحت إمرتك متى احتجتَ له. إنه ماركيز لا تور دو بين.»

لم أتبيَّن الاسم جيدًا، وبما أن الجمع كان كبيرًا نسبيًّا؛ فقد جلسنا لتناول الغداء قبل أن أعرف من يكون ذلك المُحب الآتي من مكانٍ بعيد. كان صديقي القديم توربين الذي كان ضابط اتصالات في فرقتي القديمة في الجيش. كنتُ أعرف أنه سليل أسرةٍ نبيلة،

ولكن مثلما هو الحال مع جميع من يستخدِمون الأسماء المُستعارة، كنت أعرفه باسم توربين، وأعتقد أن آرتشي رويلانس ابتكر جزءًا من هذا اللقب. كان هناك، جالسًا أمامي، شابٌّ وسيم للغاية شاحب اللون، يرتدي تلك الملابس شديدة الأناقة التي لا تجِدها إلا لدى الفرنسيين الذي يُحضرون ملابسهم معهم إلى إنجلترا. كان متعجرفًا للغاية عندما كنَّا في الجيش، ولم يكن يستطيع التحكم في لسانه، وكان سريع الغضب، ولكن ذلك كان مُمتزجًا دائمًا بتلك الدماثة الحزينة في أسلوبه. رفع عينَيه نصف المُغمضتَين ونظر نحوي، ثم اعتذر لمُضيفه، ودار حول الطاولة وعانقني.

كنت أشعر بأني أحمق، ولكني كنت سعيدًا للغاية برؤية توربين. كان صديقًا عزيزًا عليَّ، وبدت حقيقة أنه بصدد الزواج من الآنسة فيكتور وكأنها تَوافُق بين مهمتي الجديدة وجوانب أخرى من حياتي. ولكني لم أتحدَّث إليه أكثر من ذلك؛ فقد كنتُ مُحاطًا بامرأتَين ثرثارتَين على كلا جانبَيَّ، وخلال الدقائق القليلة التي تركَتا فيها الرجال بمفردهم حول الطاولة، دخلتُ في نقاش مع رجلٍ مُسن إلى يميني، تبين أنه أحد الوزراء. واكتشفتُ ذلك بمحض الصدفة، فلم أكُن مهتمًّا، للأسف، بحكومة بلدي.

سألته عن مِدينا، فتهلَّل وجهه على الفور.

سألني: «هل تُعطيني رأيك فيه؟ لا يُمكنني ذلك. أُحب أن أُصنِّف من أتعرَّف إليهم، ولكنه نوعية جديدة. إنه أنيق وكأنه ديزرائيلي في شبابه، وإنجليزي وكأنه دوق ديفونشاير الراحل. النقطة الأهم هي، هل لدَيه تخطيط، شيء يُريد تحقيقه، وهل يملك القُدرة على ربط حزبٍ باسمه؟ إذا كان يمتلك هاتَين السمتَين، فمستقبله سيكون مبهرًا بلا أدنى شك. أصدُقك القول، أنا لستُ واثقًا من ذلك. إنه يمتلك مواهب عظيمة للغاية، وأعتقد أنه سيكون أحد أهم الخطباء إذا أراد ذلك. إن له تأثيرًا كبيرًا على أعضاء البرلمان أيضًا، ولكنه لا يستغلُّ هذا التأثير عادةً. ولكني لستُ واثقًا من اهتمامه بالسياسة، وإنجلترا، كما تعرف، تتطلَّب الإخلاص التام من رجال حكومتها. ستتبع إنجلترا رجلًا أقل كفاءة دون سؤالٍ لمجرد أنه مُخلص، وترفض الرجل الأعلى كفاءة لأنه ليس كذلك.»

قلتُ شيئًا عن وجهة نظر مِدينا فيما يتعلَّق بأمر إعادة إحياءٍ كبرى لحزب المحافظين، تلعب فيها النساء دورًا حاسمًا. فابتسم الرجل الجالس بجواري.

وقال: «أكاد أجزم أنه مُحق، وأكاد أجزم أنه قادر على توجيه النساء بأي طريقة يريد. فجاذبيته لهن استثنائية. إن ذلك الوجه الوسيم وذلك الصوت الرخيم لقادِران على سلب لبِّ أي أُنثى سواء كانت خادمة أو إحدى مفكرات كامبريدج. وتكمن نصف قوَّتِه في

حقيقة أنه لا يُفتَتن بهن. إنه متحفظ مثل السير جالاهاد فيما يتعلق بالجنس. هل سمعتَ من قبلُ اسمَه مقترنًا بأي شابة؟ إنه يلفت نظر النساء أينما ذهب، ولكنه لا يشعر بهنَّ وكأنه طالب مُجتهد في كلية إيتون هدفه الوحيد هو الانضمام إلى فريق الكريكت بها. هل تعرفه؟»

قلت له إن معرفتي به سطحية جدًّا.

«هكذا حالي معه أنا أيضًا. فمعرفتي به سطحية، ولكن لا يمكن للمرء أن يُقاوم سحر هذا الرجل في كل مكان أو أن يهتم به. من حُسن الحظ أنه رجل نزيه. لو كان وغدًا، لتلاعب بمُجتمعنا السهل المنال كما يحلو له.»

تعشيت وساندي تلك الليلة معًا. كان قد عاد من اسكتلندا بمعنويات مرتفعة، لأن صحة والده كانت في تحسُّن، وعندما تكون روح ساندي المعنوية مرتفعة يتصرَّف وكأنه وسط السهول بينما تهب الرياح الجنوبية الغربية. كان لدى كلٍّ منَّا الكثير الذي يود أن يُخبر به الآخر لدرجة أننا نَسينا طعامنا حتى صار باردًا. كان يرغب في سماع آخِر أخبار ماري وبيتر جون، وما أعرفه عن بلنكيرون وعن دزينةٍ من الرفاق القدامى الآخرين، وكنتُ أرغب في سماع مُلخَّص، قصير للغاية، عما فعلَه منذ الهدنة في الشرق. كان ساندي في ذلك الوقت لا يميل إلى التحدُّث عن ماضيه لسببٍ لا أعرفه، ولكنه كان مُتحمسًا للغاية، وكأنه طالِب جامعي، للتحدُّث عن مستقبله. كان ينوي البقاء في الوطن حاليًّا، لفترة طويلة على أية حال، ولم يكن يدري كيف سيشغل وقته. قال: «حياة الريف لا تُناسبني. يجب أن أجد مهنةً وإلا سأتورط في مشاكل.»

اقترحت عليه مجال السياسة، وأعجبَتْه الفكرة.

فقال متأمِّلًا: «قد يُصيبني الملل لو صرتُ عضوًا في البرلمان، ولكني سأحبُّ شد الانتخابات وجذبها. لقد شاركتُ في الانتخابات مرةً واحدة سابقًا، واكتشفتُ موهبتي في تحريك الجماهير، وألقيتُ خطابًا في مدينتنا الصغيرة لا يزالون يتحاكون عنه حتى وقتنا هذا. كان موضوع الخطبة الرئيسي هو الحكم الذاتي في أيرلندا، وفكرتُ أن الخطبة ستكون أفضل لو هاجمتُ بابا الفاتيكان. هل لاحظتَ من قبلُ يا ديك أنَّ وَقْعَ أصوات ألفاظ اللغة الكنسية بغيض للغاية؟ أعرف بعضًا من كلماتها، ولكني لا أعرف معناها، ولكني كنتُ أعرف أن جمهوري لن يعرف معناها أيضًا. ومن ثَم اختتمت الخطبة بشكلٍ رائع. طرحت سؤالًا: «هل ترتضون يا أهل كيلكلافرز أن تُباع ملابس الكهنة في أسواقكم؟ هل ستبيعون بناتكم رشاوى سيمونية؟ هل ستسمحون بمُمارسة التبتُّل في

الشوارع العامة؟» يا إلهي، جعلتهم يقفون جميعًا على أطراف أصابع أقدامِهم ويصيحون في صوتٍ واحد «محال».»

فكر أيضًا في العمل التجاري. كان يفكر في شراء شركة طيران مدني، وتسيير رحلات طيران خاصة لنقل الحجاج من جميع أنحاء العالم الإسلامي إلى مكة. قدَّر متوسط ما يتكلَّفه الحاج الواحد حاليًّا بما لا يقل عن ٣٠ جنيهًا إسترلينيًّا، وكان يعتقد أنه قادر على تقليل هذا المبلغ إلى ١٥ جنيهًا إسترلينيًّا مع تحقيق أرباحٍ جيدة. وفكر أن بلنكيرون قد يهتم بهذه الخطة وقد يشارك في رأس المال.

ولكن في وقتٍ لاحق، بينما كنا جالسَين في أحد أركان غرفة التدخين في الطابق العلوي، ارتسمت الجدِّية على وجه ساندي عندما بدأتُ أقصُّ عليه المهمة التي أوشك على الاضطلاع بها، فلم أكن بحاجةٍ إلى إذنٍ من ماكجيليفراي لكي أُخبره بالأمر. ظل يستمع في صمتٍ بينما كنتُ أسرد عليه الخطوط الرئيسية للمهمة والتي جمعتها من أوراق ماكجيليفراي، ولم يُبدِ أي تعليقٍ عندما بدأت أقصُّ عليه ما حدث مع الرهائن الثلاث. ولكن عندما شرحتُ له سبب عزوفي عن الخروج من حياتي الريفية الهادئة، بدأ يضحك.

وقال: «غريبٌ أن ينتاب أناس مثلَنا شغف مفاجئ بالدعة والراحة. أشعر أنا أيضًا بمثل هذا الشغف يُسيطر عليَّ شيئًا فشيئًا. ما الذي حفزك على الموافقة في نهاية المطاف؟ الصبي الصغير؟»

بدأت أقصُّ عليه ببطءٍ وخجل قصة الأبيات وذاكرة جرينسليد. أثار ذلك اهتمامه بشدة. فقال: «ديك، هذه تحديدًا نوعية الأفكار المحسوسة غير المعقولة التي تراوِدك. استمر. أنا متشوق لسماع القصة.»

ولكن عندما أتيتُ على ذكر مِدينا، صاح بحدة.

«هل التقيتَه؟»

«تناولنا الغداء معًا بالأمس.»

«لم تُخبره بأي شيء، أليس كذلك؟»

«بلى، لم أُخبره. ولكني سأفعل.»

كان ساندي يجلس مُضجعًا في مقعدٍ وثير مُدليًا ساقَيه على أحد جانبيه، ولكنه نهض الآن من جلسته ووقف مسندًا ذراعَيه على رفِّ المدفأة مُحدقًا في النار.

فقلت: «سأقص عليه الأمر بالكامل بعدما أتحدث إلى ماكجيليفراي.»

«هل أنت واثق من موافقة ماكجيليفراي؟»

«ماذا عنك؟ هل التقيتَه من قبل؟»

«لم ألتقِ به من قبل. ولكني سمعت عنه دون شك. لن أُخفي عليك أن أحد الأسباب الرئيسية لعودتي إلى الوطن هي رغبتي في لقاء مِدينا.»

«ستُعجَب به كثيرًا. لم ألتقِ رجلًا مثله من قبل.»

«هذا ما يقوله الجميع.» التفت نحوي ورأيتُ ملامحه مكسوة بتلك الجدية المُخيفة التي تُميز إحدى حالات ساندي المزاجية والتي تكمل حالته اللامبالية المُعتادة. «متى ستلتقِيه مجددًا؟»

«سأتناول الغداء معه بعد غدٍ في مكانٍ يُدعى نادي الخميس.»

«إنه أحد أعضاء ذلك النادي، أليس كذلك؟ وأنا أيضًا. أظنُّ أني أيضًا سأتناول الغداء هناك.»

سألته عن النادي، وأجابني أنه تأسس بعد الحرب على يد أناس يعملون في وظائف غريبة ويرغبون في التجمع معًا. إنه نادٍ صغير مُكون من عشرين عضوًا فحسب. كان من بينهم كولات، وهو أحد مستثمري شركة كيو بوت، وكذلك بيو من المُخابرات الهندية، ودوق برمينستر، والسير آرثر واركليف، والعديد من الجنود المشهورين وغير المشهورين. قال ساندي: «لقد انتخبوني في عام ١٩١٩، ولكن لم أحضُر أي حفل عشاء معهم. أقول لك يا ديك إنه لا بد من أن مِدينا يمتلك جاذبيةً قوية للغاية ليكون عضوًا في نادي الخميس. قد يبدو ما سأقوله تفاخرًا، لكن البعض على استعدادٍ للتضحية بأيديهم اليُمنى في سبيل الانضمام إلى هذا النادي.»

ثم عاد يجلس في مقعدِه وبدا عليه الشرود، واضعًا ذقنه على راحة يده.

وقال: «أظن أن سحره أصابك.»

«صدقت. سأخبرك كيف أراه. يميل الرجل الذكي للغاية إلى الخمول والتَّزمُّت، بينما يميل الرجل الاجتماعي اللطيف إلى أن يكون ضيِّق الأفق. أما مِدينا، فيبدو لي أنه يملك جميع مزايا الصنفَين ولا شيء من عيوبهما. يمكن لأي أحدٍ أن يُلاحظ أنه رجل اجتماعي لطيف، ويُمكنك أن تسأل المُتعجرِفين لتعرف أنهم يضعون ذكاءه في مكانة عالية.»

قال: «يبدو الرجل مثاليًّا بدرجةٍ لا تُصدق.» تبينتُ في نبرة صوته لمحة غيرة. أضاف، والجدية مُرتسِمة على ملامحه: «ديك، أريدك أن تعِدني بأن تتمهل في هذا الأمر؛ أعني إخبار مِدينا بما يحدث.»

سألته. «لماذا؟ هل ثمة ما تعترِض عليه بشأنه؟»

قال: «لا. لا يُوجَد ما أعترض عليه بشأنه. كل ما في الأمر أنه كامل بدرجة لا تُصدَّق، وأود أن أعرف المزيد عنه. لدي صديق يعرفه. لا يحقُّ لي أن أقول ذلك، ولا أملك أي دليلٍ على ما سأقول، ولكني أشعر أن مِدينا قد أساء له.»

«ما اسمه؟» طرحتُ عليه هذا السؤال فأجابني: «لافاتر»، وعندما استفسرت عما حدث له، قال ساندي إنه لا يعرف. فلم يره منذ عامَين.

ضحكت من كل قلبي عندما سمعت ذلك؛ فقد تبينت الأمر برمَّته. كان ساندي يشعر بالغيرة من ذلك الرجل الذي يُفتَتن به الجميع. إنه يريد الاستئثار بأصدقائه القدامى لنفسه. وعندما واجهته بهذه الحقيقة، ابتسم ولم ينكر.

الفصل الخامس

نادي الخميس

التقَينا في غرفة في الطابق الثاني من مطعم صغير في شارع ميرفين، وكانت غرفة أنيقة ألواح سقفها باللون الأبيض، وبها مدفأتان كبيرتان عند طرفَيها. كان في النادي طاهٍ ورئيس خدم، وأكاد أجزم أن هذا العشاء كان أفضل عشاءٍ طُهي في لندن على الإطلاق، بدايةً بطبق بيض طيور الزقزاق المُذهل ونهايةً بالفواكه من مزارع برمينستر. كانت تُوجَد دزينة من الحضور، بمن فيهم أنا، ولم أكن أعرف مَن بين الحضور، بالإضافة إلى مُضيفي بالطبع، إلا برمينستر وساندي. كان كولات حاضرًا، وكذلك بيو، ورجلٌ هَرِم ضئيل الحجم عاد للتوِّ من رحلة لصيد الطيور عند مصب نهر ماكينزي. كما كان من بين الحضور باليسار بيتس، المصرفي، الذي لم يبدُ أنه في الثلاثين من عمره، وكذلك فوليلاف، الرحالة العربي الذي كان بالفعل في الثلاثين من عمره ولكنه يبدو وكأنه في الخمسين. أوليتُ اهتمامًا خاصًّا بالمدعو نايتنجايل، وهو رجل نحيل جاحظ العينين يرتدي نظارة سميكة، كان قد عاد إلى دراسة المخطوطات الإغريقية وزمالته في جامعة كامبريدج بعدما ترأس قبيلة بدوية. كان متواجدًا أيضًا ليثين، المدعي العام، الذي كان جنديًّا في الحرس الملكي عند بداية الحرب، وترقَّى إلى رتبة ضابط أركان الحرب العامة من الدرجة الأولى، وهو رجل متين البنيان ذو وجه شاحب وعينين فضوليتين ثاقبتين للغاية. فكرتُ أن تلك الدزينة من الأشخاص تضم أناسًا متنوعين ذوي عقول ذكية أكثر مما يتضمَّن مجلس النوَّاب في المعتاد.

كان ساندي آخر من وصل، واستقبلَه الجميع بصيحات الفرح. وبدا أن الجميع يرغبون في مُصافحته والربت على كتفِه في حفاوة. كان يعرف الجميع ما عدا مِدينا، وكنتُ متشوقًا لرؤية لقائهما. أجرى برمينستر التعارُف بينهما، وبدا الخجل على وجه ساندي

للحظات. قال مِدينا: «كنتُ أتطلَّع إلى هذا اللقاء طوال سنوات»، وبعدما ألقى ساندي نظرةً واحدةً على مِدينا، ابتسم خجلًا وغمغم ببضع كلماتٍ مهذبة.

كان برمينستر هو رئيس التجمُّع في تلك الأمسية، وكان رجلًا سمينًا ضئيلًا ظريفًا، وكان زميلًا لآرتشي رويلانس في القوات الجوية. لم يتطرَّق الحوار الذي بدأنا به حديثنا إلى موضوعاتٍ غير معتادة. فقد بدأ بالحديث عن الخيول وسباقات الحواجز الربيعية، ثم تحوَّلَت دفتُه إلى صيد أسماك السلمون في الربيع؛ فقد عاد أحد الرجال للتوِّ من مدينة هيلمزدايل، وعاد آخر من نهر نافر، وعاد اثنان آخران من نهر تاي. كان من عادات النادي أن يشمل الحوار جميع الحضور، وكان نادرًا أن تتحدَّث مجموعة من الرجال فيما بينها دون الآخرين. كنتُ جالسًا بجوار مِدينا، بينه وبين الدوق، وكان ساندي جالسًا على الجهة المُقابلة من المائدة البيضاوية. لم يتحدَّث كثيرًا، ورأيته أكثر من مرةٍ يُراقب مِدينا.

وأخيرًا، حدث الأمر الحتمي، بدأ سرد الذكريات. أضحكتني القصة التي رواها كولات عن قيادة سلاح البحرية التي لدَيها قناعة بأنَّ سِباع البحر قد تُفيد في اكتشاف الغواصات. فجُمع عددٌ من سِباع البحر ودُرِّبت على السباحة خلف الغواصات التي كانت تُربط الأسماك بها كطُعم، وكانت فكرتهم تتمحور حول أنَّ سِباع البحر سترتبط بين رائحة الغواصات والطعام، ومن ثَم تبدأ بمُلاحقة الجسم الغريب. انهارت التجربة برمَّتها بسبب المزاج المتقلِّب لهذه الكائنات. كانت جميع هذه الحيوانات مُدلَّلة وتحمل أسماءً على غرار فلوسي وسيسي، لذا لم تتمكن من إدراك أن ثمة حربًا دائرة، وكانت ترقد على الشاطئ طوال الوقت ولا تُغادره.

كانت تلك القصة هي مجرد البداية، وبحلول وقتِ تناولِ الشراب، أصبح الحوار الدائر يُشبه ما اعتدنا عليه في غُرَف تدخين سُفن حرس الحدود البخارية في شرق أفريقيا، ولكنه كان أفضل بمليون مرة. كان جميع الحضور إما فعلوا أو رأوا أمورًا مُذهلة، وعلاوةً على ذلك، كانوا يملكون الذكاء والمعرفة اللذَين يُمكِّنانهم من تهيئة تجاربهم طبقًا للظروف. لم يكن الحوار الدائر مجرد رواية قصص، بل كان تبادلًا مُمتازًا للأفكار، ذلك الذي يدعم المرء فيه حُجته بذكرى ذاتِ صلة. كنت مُعجبًا بمِدينا بوجهٍ خاص. لم يكن يتحدَّث كثيرًا، ولكنه كان يُدير الحوار، وبدا أن اهتمامه الصادق يوقِظ أفضل ما في الآخرين. لاحظتُ أنه لم يشرب سوى الماء عندما تناولنا الغداء معًا منذ ثلاثة أيام.

أذكر أننا تحدَّثنا عن الأشخاص المفقودين، وعما إذا كانت لا تزال ثمة احتمالية لظهور أيٍّ منهم. حكى لنا ساندي قصةً عن ثلاثة ضباط بريطانيين ظلوا في سجون

تركستان منذ صيف عام ١٩١٨، وعادوا إلى أرض الوطن منذ فترة قريبة. التقى ساندي أحدهم في مارسيليا، وكان يظن أنه ربما كان ثمة آخرون لا يزالون عالِقين في تلك الأنحاء. ثم تحدَّث آخَر عن إمكانية أن يتجاهل المرء العالَم لفترة من الزمن ويُفوِّت كل ما يحدث فيه. قلتُ إني التقيت في باربرتون عام ١٩٢٠ مُنقِّبًا أتى من البرتغال، وعندما سألته عن أحواله في ظل الحرب، قال: «أي حرب؟» قال بيو إن رجلًا ظهر في هونج كونج بعدما ظل أسيرًا لدى قراصنة صينيين طوال ثماني سنوات، ولم يعرف شيئًا عن «صراعنا» الذي استمر لأربع سنوات، حتى قال شيئًا عن القيصر الألماني لقائد القارب الذي التقطَه.

ثم سأل ساندي، بصفته الوافد الجديد، عن أخبار أوروبا. أذكر أن ليثين تحدث عن رأيه في الضائقة التي تمرُّ بها فرنسا، وكان باليسار ييتس، الذي كان يُشبه ظهيرًا ربعيًّا في رياضة الرجبي، هو من أطلع ساندي، وأطلعني أنا أيضًا، على موضوع إعادة الإعمار في ألمانيا. كان ساندي غاضبًا للغاية من الاضطرابات التي تحدُث في الشرق الأدنى وسوء إدارة العلاقات مع تركيا. وكانت وجهة نظره هي أننا نبذل قصارى جهدنا لكي نُحول شرقًا مُنقسمًا على نفسه إلى اتحادٍ معادٍ لنا.

فصاح قائلًا: «يا إلهي! كم أبغض أسلوبنا الجديد في السياسة الخارجية. كان الأسلوب الإنجليزي القديم هو اعتبار جميع الدول مجرد أطفال سُذَّج وأننا الناضجون الوحيدون في عالَمٍ من أطفال الروضة. كان يعني ذلك أننا كنا نمتلِك وجهة نظر مُحايدة، وكنا نُطبق العدالة على الجميع بيدٍ من حديد. ولكننا حاليًّا أصبحنا طفلًا من أطفال الروضة نحن أيضًا ودخلنا في مُشاجراتٍ مع الأطفال الآخرين. بدأنا نتحيَّز للعُنف، ونُحابي بعض الدول، وأصبحنا نتعامَل بمبدأ أنك إذا أحببتَ شيئًا فعليك أن تكره شيئًا آخر. هذه السياسة برمَّتها خطأ. أصبحنا أقربَ شبهًا بدول البلقان.»

كنا سنُستدرَج للحديث عن السياسة لولا أن سأله بيو عن رأيه في غاندي. قاده هذا السؤال إلى شرح معنى أن يكون المرء مُتعصبًا، وهو موضوع كان مؤهلًا تمامًا للحديث عنه؛ فقد تعامَل مع أنواع كثيرة من المتعصبين.

«إنه مجنون من الناحية التقنية؛ أي إن عقله منحرف عن اتزانه، وبما أن حياتنا تستقيم بفضل الاتزان، فهو يُعدُّ هدامًا، عتلةً تُعطل تروس الآلة. تنبع قوَّتُه من الجاذبية التي يمتلكها على مَن لا يتمتعون بالاتزان الكامل، وبما أن هؤلاء لا يُشكلون الأغلبية أبدًا، فجاذبيته تظلُّ محدودة. ولكنَّ ثمة نوعًا واحدًا من المُتعصِّبين الذين تنبُع قوتهم من الاتزان، من الاتزان الجنوني. لا يُمكنك أن تقول إن ثمة أمرًا غير طبيعي بشأنه، فهو

بأكمله غير طبيعي. إنه متزن مِثلي ومثلك، ولكن، إن جاز التعبير، في عالمٍ رباعي الأبعاد. لا تُوجَد في عقيدة رجلٍ من هذا النوع أي فجوات منطقية. ففي إطار فرضياته الجنونية، يكون عاقلًا تمامًا. مثال ذلك لينين. هذه هي نوعية المُتعصبين الذين أخشاهم.»

سأل ليثين عن الكيفية التي حصل بها مثل هذا الرجل على تأثيره. «يمكنك القول إن جميع مُعتقداته الجنونية تُلاقي صدًى لدى المُعتقدات الجنونية لآخرين.»

قال ساندي في كآبة: «إنه يرُوق للأشخاص الطبيعيِّين، العاقِلين تمامًا. إنه يتحدَّث بالمنطق، وليس بالرؤى؛ إن رؤاه منطقية على أية حال. في الظروف العادية، لن يسمعه أحد، لأن عالَمه، كما أقول دائمًا، مختلفٌ عن عالَمِنا. ولكن إذا ما حلَّت ظروف من المعاناة أو التعاسة الشديدة، حينما يُصاب عقل الإنسان العادي بالقنوط، يُصبح تأثير المتعصِّب العقلاني كبيرًا. وعندما يُلاقي صدًى لدى العاقِلين، ويستجيب العاقِلون له، تندلع الثورات.»

أومأ بيو برأسه وكأنه يوافق على حجَّته. وقال: «لا بد أن يكون ذلك المُتعصب الذي تصفه عبقريًّا.»

«بلا أدنى شك. لحُسن الحظ، العبقرية من هذا النوع نادرة الوجود. ولكن إذا وُجِدت، سيصبح من يمتلكها ساحر العصر الحديث. كان السحرة في الماضي يتلاعبون بعقول الناس باستخدام الرموز الغامضة والكيمياء الأولية، ولم يتمكنوا من تحقيق شيء؛ فالساحر الحقيقي هو من يُؤثِّر بروحِه على أرواح الآخرين. إننا ما زلنا في طور البدء في اكتشاف الزوايا المُظلمة للنفس البشرية. إذا ما ظهر الساحر الحقيقي في العصر الحالي، فلن يهتم بالمخدرات والعقاقير. سيستخدم أساليب أكثر فتكًا بكثير؛ إذ سيفرض الطبيعة العنيفة على ذلك الشيء المُترنِّح الذي يدعوه الناس العقل.»

ثم التفت نحو بيو. وقال: «هل تذكر الرجل الذي اعتدنا على تسميته رام داس خلال الحرب؛ لم أعرف اسمه الحقيقي قَط؟»

قال بيو: «أذكره قليلًا. الرجل الذي كان يعمل لصالحنا في سان فرانسيسكو. كان معتادًا على الحصول على مبالغ كبيرة من المُحرضين ثم يدفعها إلى وزارة المالية البريطانية، ويحصل على عمولة تقلُّ عن عشرة بالمائة.»

صاح برمينستر في إعجاب: «رجل جسور! اعتاد رام داس على التحدُّث معي عن هذا الموضوع. كان حكيمًا كحَيَّةٍ ووفيًّا ككلب، واستشرف الكثير من الأمور التي بدأنا نشهد تحقُّقها مؤخرًا. كان يقول إن الهجوم الأعظم في المُستقبل سيكون نفسيًّا، واعتَقَد

أنه يجدُر بالحكومة أن تنشغل بهذا الأمر وأن تُجهز دفاعاتها. يا له من مشهدٍ مبهج؛ كبار المسئولين جميعهم عاكفون على دراسة كتب دراسية صغيرة! ولكن كان ثمة منطقٌ فيما قال. اعتَبَر أنَّ أمضى سلاح في العالَم هو القدرة على الإقناع الجمعي، وكان يرغب في مُجابهته من منبعه عبر الوصول إلى الشخص القادر على الإقناع الجمعي. كان يرى أن كل خطيبٍ مُفوَّه يملك شيئًا مثل شعر شمشون الذي كان مكمَن قوَّته، وإذا ما تمكنَّا من التلاعُب به، يُصبح غير ضار. كان يريدنا أن نستقطب أولئك المبشرين وندعوهم إلى مبنى الحكومة. لعلك تذكر شتاء عام ١٩١٧ عندما كان البلشفيون يُثيرون المشكلات في أفغانستان وكان تأثيرهم يتسرب منها إلى الهند. يعود فضل إيقاف هذه اللعبة إلى رام داس وحِيَله النفسية.»

ثم نظر فجأة عبر الطاولة إلى مِدينا. وقال: «لعلك تعرف تلك الجبهة. هل التقيتَ من قبل بالمرشد الروحي الذي كان يعيش عند قاعدة ممرِّ شانسي وأنت في طريقك إلى كيكاند؟»

هز مِدينا رأسه نفيًا. «لم أسافر إلى تلك الأصقاع من قبل. لِمَ تسأل؟»

بدت خيبة الأمل على ملامح ساندي. وقال: «كان رام داس يتحدث عنه. كنت آمُل أن تكون قد التقيتَه.»

كان نبيذ ماديرا يُوزَّع علينا، وجلسنا صامتين بينما نرتشفه. لا شك في أنه كان نبيذًا رائعًا، ولاحظت متأمِّلًا امتناع مِدينا عن تناوله.

قال برمينستر بصوته المرح: «إنك تفوت نبيذًا رائعًا»، ونظرت المجموعة برمتها ناحية مِدينا للحظات.

فابتسم ورفع كوب الماء الذي أمامه.

وقال: Sit vini abstemius qui hermeneuma tentat aut hominum petit dominatum.

ترجم نايتنجايل ما قال. «تعني هذه العبارة أنه يجب أن تمتنع عن الخمر إذا ما رغبتَ في أن تُصبح رجلًا مُهَيمِنًا.»

صاح الجميع اعتراضًا على ما قيل، فرفع مِدينا كوب الماء مرةً أخرى.

وقال: «أنا أمزح فحسب. ليس لدي أي مبدأ أو سياسة خاصة تتعلق بهذا الأمر. كل ما في الأمر أني لا أحب الخمر.»

أظن أن اثنين منا فقط كانا مثقفين، وهما نايتنجايل وساندي. نظرت إلى الأخير وأدهشني التغير في ملامح وجهه. تغيرت ملامح وجهه لتنمَّ عن الاهتمام الشديد. التقت

عيناه، اللتان كانتا تحدقان في مِدينا، بعينيَّ فجأة، ولم أرَ فيهما نظرة اهتمام فحسب، بل نظرة قلق أيضًا.

كان برمينستر يدافع باستماته عن باخوس (إله الخمر عند الإغريق)، وشارك الباقون في هذا الدفاع، بينما اتخذ ساندي الموقف العكسي.

وقال: «ثمة الكثير من المعاني في هذه العبارة اللاتينية. ثمة أماكن من العالم يُعد فيها الامتناع التام عن شُرب الخمر فضلًا.» وأردف، مخاطبًا مِدينا: «هل صادفتَ من قبل قبيلة أولاي التي تقع على طريق كاراكورام؟ لا؟ عندما تلتقي في المرة القادمة أحدًا يعمل في الإرشاد السياحي اسأله عنهم، فهم أُناس عجيبون. إنهم مُسلمون، ومن ثَم يجب عليهم الامتناع عن شُرب الخمر تمامًا، ولكنهم لا يتوقَّفون عن شُرب الخمر رغم أنهم أكثر مُجتمع على وجه الأرض يتبع تعاليم رجال الدين. لا يُعدُّ شرب الخمر عادةً منتشرةً بينهم، بل التزام، ولو حضر فالستاف طقوس التاماشا الأسبوعية، كان سيتبع ديانتهم. أما رجال الدين — فالقبيلة يحكمها رجال الدين — فيمتنعون عن شرب الخمر تمامًا. هذه هي ميزتهم وسر قُوَّتهم. وعندما يُعزل أحدُهم يُجبر على شُرب الكثير من الخمر. هذا ما تعنيه عبارتك؛ ماذا كانت؟ «رجلًا مُهيمِنًا».»

من تلك اللحظة، بدأت أشعر أن الأمسية أصبحت أقلَّ بهجةً. كان مِدينا ودودًا كعادته، ولكن بدا وكأن أمرًا قد عكر مزاج ساندي، ومن ثَم أصبح عصبيًّا للغاية. كان من وقتٍ لآخر يعترض على ما يقوله أحد الرجال بحدَّة غير مقبولة، ولكنه كان أغلب الوقت صامتًا، يُدخن غليونه ويرد على أسئلة الرجال المُجاورين له في اقتضاب. حوالي الساعة الحادية عشرة، بدأت أشعر أنه حان وقت الانصراف، وكان مِدينا يرى ذلك أيضًا. طلب منِّي أن أسير معه، فقَبِلتُ طلبه مسرورًا، فلم أكن أشعر أني أريد الخلود إلى الفراش.

بينما كنت أرتدي معطفي، ظهر ساندي. وقال: «ادخل إلى النادي يا ديك. أريد أن أتحدَّث إليك.» كان أسلوبه حازمًا، فنظرتُ له متعجبًا.

وقلت: «معذرةً. لقد وعدت مِدينا بأن أسير معه حتى منزله.»

فقال: «اللعنة على مِدينا! فلتُنفذ طلبي وإلا ستندم.»

لم أكن راضيًا عن أسلوب ساندي، خاصةً أن مِدينا كان يقف على مقربةٍ منَّا ويمكنه سماع ما قاله. فأخبرته ببرودٍ أني لا أنوي تغيير خططي. فاستدار وسار مُبتعدًا، واصطدم ببرمينستر عند عتبة الباب، ولكنه لم يعتذر له. دلك الرجل المُهذب كتفَه آسفًا. وقال ضاحكًا: «لم يعتد عزيزنا ساندي على وضعه الجديد بعد. يبدو أن الخمر قد أذهبت عقله.»

كانت ليلةً صافية مُقمرة من ليالي شهر مارس، وكنت أشعر بالبهجة أثناء سيرنا معًا في شارع بيكاديلي. لعب العَشاء الجيد الذي أكلته والخمر الجيدة التي شربتُها دورًا في هذا المزاج المبتهج، إلى جانب الشعور بالرضا عن تناول العشاء مع صُحبة جيدة، وانضمامي إلى تلك المجموعة من صفوة الرجال. شعرت أن إعجابي بمِدينا يقوى بشدة، وانتابني ذلك الشعور البغيض بالأفضلية الذي ينتاب المرء عندما يرى صديقًا قديمًا يُحبه حبًّا جمًّا يتصرف بطريقةٍ سيئة. كنت أفكر فيما أثار استياء ساندي عندما أثار مِدينا الموضوع.

وقال: «أربوثنوت رجل رائع. كنت أتمنى لقاءَه طوال سنوات، ولقد ارتقى لتوقُّعاتي عنه دون شك. ولكن يبدو أنه قضى فترةً طويلة للغاية في الخارج. إن رجلًا ألمِعيًّا مثلَه سيكون عرضةً لخطر الإصابة بالتخيُّلات إذا لم يكن أصحابُه مِن المُكافِئين له في القدْر. ما قاله الليلة مُثير للاهتمام للغاية، ولكنِّي ظننتُ أنه خيالي إلى حدٍّ ما.»

وافقتُه الرأي، إلا أن انتقاد ساندي، حتى تلميحًا، أيقظ ولائي له. فقلت: «هذا لا يمنع أنهُ حتى أكثر نظرياته مُبالغةً تتضمَّن دائمًا وجهة نظر شديدة. لقد رأيتُه من قبل يُصيب بينما أخطأ جميع الرجال الواعين المثقفين.»

قال: «أنا واثق من ذلك تمامًا. هل تعرفه جيدًا؟»

«تمام المعرفة. لقد ذهبنا إلى أماكن غريبة معًا.»

أثناء عبورنا ميدان بيركلي عادت إليَّ ذكرياتُ هذه الأماكن الغريبة. لطالما كان حي وست إند في لندن يُورثني ذلك الإحساس بمدى صلابة حضارتنا. بدت تلك المباني العظيمة الآمنة المُضاءة المُوصدة النوافذ، على النقيض تمامًا من العالَم الناقص الإضاءة المَحفوف بالمخاطر الذي ارتحلتُ إليه في بعض الأحيان. رأيتُ أن هذه المباني تُشبه ضيعة فوسي، ملاذات للسَّكينة. ولكني شعرت نحوها بشعورٍ مختلف تلك الليلة. كنت أتساءل عما يحدث خلف هذه الأبواب الضخمة. ألا يمكن أن يكون الرعب والغموض مُختفيين خلف هذه الحواجز مِثلما يختفيان داخل الخيام والأحياء الفقيرة؟ قفزَت إلى ذهني فجأةً صورة وجهٍ بدينٍ الْتَوَت ملامحه من فرْط الرُّعب مُختفيًا تحت أغطية فراش.

كنتُ قد تخيلتُ أن مِدينا يسكن بيتًا صغيرًا أو شقة، ولكننا توقَّفنا أمام منزلٍ كبير في شارع هيل.

وقال: «أتودُّ أن تدخل؟ لا يزال الليل في أوله، ولا يزال ثمة وقت لتدخين الغليون.»

لم أكن أشعر برغبة في النوم، فتبعته وهو يفتح مزلاج المدخل الأمامي للمنزل. ثم أضاء الأنوار التي أضاءت بسطة السُّلَّم الأولى دون أن تُنير بقية الردهة. بدا المنزل أنيقًا

ومليئًا بالخزانات التي كانت قشرتُها المذهبة تلمع في الضوء الخافت. نزلنا على سُلَّم مفروش بالسجاد، وعندما وصلنا إلى البسطة أطفأ الأنوار السابقة وأضاء أنوارًا أخرى أنارت مجموعةً أخرى من السلالم. شعرت وكأني أصعد إلى ارتفاعٍ شاهق في عالم غريب من الظلال.

علقت قائلًا: «هذا منزل كبير للغاية على رجل أعزب.»

فقال: «أملك الكثير جدًّا من الأشياء، كتبًا ولوحاتٍ وأشياء من هذا القبيل، وأُحبُّ عدم التفريط في أيٍّ منها.»

ثم فتح بابًا وأشار لي أن أدخل غرفةً شاسعة لا بد أنها تحتل كامل مساحة الطابق. كانت الغرفة مُستطيلة الشكل بها كوة عميقة عند كلٍّ من طرفَيها، وكانت جدرانها مُغطاة من أدناها إلى أعلاها بالكتب. كانت الكتب أيضًا مكدَّسة على الطاولات ومُلقاةً على أريكة كبيرة مسطحة سُحبت لتكون أمام المدفأة. لم تكن مكتبة عادية كتلك المكتبات التي تراها في منازل النبلاء التي يشترون كتبها بالجملة من ساحة لبيع الكتب. كانت مجموعة اختارها رجل مُثقف بعناية، وكانت الكتب تحمل مظهر الاستخدام الذي يجعلها الزينة الأكثر ملائمةً للغرفة. كانت الغرفة مضاءة بمصابيح موضوعة على طاولات صغيرة، ووُضِع على مكتبٍ كبيرٍ مصباحُ قراءةٍ يُطلُّ على أكوام من الأوراق والعديد من المجلدات التي لُصقت على أغلفتها قصاصاتٌ من الورق. كانت ورشة إلى جانب كونها مكتبة.

دخل خادم دون أن يستدعِيَه أحد، ووضع صينية مشروبات على طاولة جانبية. كان يرتدي ملابس رؤساء الخدَم المُعتادة، ولكني خمنتُ أنه لا يمتلك خبرة كبيرة في هذا المجال. كان عريض الفكِّ صغير العينَين، وكان شعره مقصوصًا على شكل نصف دائرة حول مؤخرة عنقه، وأخبرتني عضلات كتفَيه وذراعَيه المنتفِخة بالمهنة التي كان يزاولها قبل أن يكون خادمًا. كان هذا الرجل ملاكمًا، ولم يمرَّ وقتٌ طويل على ذلك. تعجبتُ من اختيار مِدينا لخادمه، فلم أكن لأختار هذا المُلاكِم ليكون خادمًا لي.

قال مِدينا: «لن أحتاج إلى أي شيءٍ آخر يا أوديل. يُمكنك أن تذهب لتنام. سأوصل أنا السير ريتشارد إلى الخارج.»

أجلسني مِدينا على مقعدٍ وَثيرٍ طويلٍ وأمسك بمضخَّة الصودا بينما خلطتُ لنفسي شرابًا خفيفًا من الويسكي والصودا. ثم جلس في مُقابلي على الجهة الأخرى من سجادة المدفأة على مقعدٍ طويل عتيق الطراز كان قد سحبَه من خلف طاولة الكتابة. أطفأ الخادم، في طريقه للخارج، جميع الأنوار فيما عدا مصباحًا واحدًا عن يمين مِدينا، وأضاء

هذا المصباح وجهه، وصنع البُقعة الوحيدة المُضيئة في الغرفة لأن نار المدفأة كانت قد خفتت. مددتُ ساقَي في راحة، ونفختُ دخان الغليون متسائلًا عما إذا كنتُ سأمتلك الطاقة اللازمة للنهوض والعودة إلى المنزل. كان للرفوف الطويلة القاتمة تأثير غريب عليَّ، حيث تمتدُّ أغلفة الكتب الناعمة المصنوعة من الورق المقوى وجلد الماعز من الخفوت حتى تختفي وسط العتمة. عادت إلى مخيلتي نفس الذكريات التي اجتاحت ذهني في ميدان بيركلي. كنتُ داخل أحد تلك الملاجئ الضخمة، ويا للعجب! كان غامضًا مثل مسارات الغابة. كتب ... كتب ... كتب قديمة مليئة بمعارف منسية! كنتُ على يقينٍ من أني إذا حصلت على منحةٍ للتنقيب في هذه الصفوف الرائعة، كنتُ سأعثر على أشياء مذهلة.

كنتُ عطشانًا، فتجرعتُ الويسكي والصودا، وكنتُ على وشك إضافة المزيد من الصودا من سيفون الصودا عندما نظرت نحو مِدينا. كان ثمة تعبير مرتسم على وجهه جعلني أُحرك كوبي فبلَّل الخيط الرفيع من السائل كمَّي. ظلت البقعة المُبلَّلة على حالها حتى الصباح التالي.

بدا وجهه منيرًا، بفضل معنوياته العالية مثلما كان بفضل المصباح الذي يُسقِط الضوء عليه. لم تكن عيناه أو أيٌّ من ملامحه هي التي أورثتني هذا الانطباع، فلم أنتبه إلى أي تفاصيل. كان النور الغريب المُنبعِث من وجهه يجعل رأسه يبدو وكأنه مُنفصلٌ عن البيئة المُحيطة، كأنه يطفو في الهواء مثل كوكب في السماء، مُفعمًا بذكاءٍ شديد وقوة.

ليس من السهل كتابة ما حدث على الورق. فلا أتذكر شيئًا مما جرى في الاثنتي عشرة ساعة التالية؛ كل ما أتذكره هو أني كنت أشعر بنعاسٍ شديد، ولا بد من أنه رآني صحبةً مملَّة، وسرعان ما نهضتُ لكي أنصرف. ولكن لم تكن هذه هي القصة الحقيقية؛ كان يجب أن أتذكَّر نية الرجل، ولأن إرادتي كانت مسلوبة، تذكرتُ أمورًا أخرى عنه، تذكرتها بصورةٍ ضبابية كما لو كانت حلم رجل مخمور.

كان رأسه يبدو وكأنه يسبح وسط خطوط باهتة متداخلة. لا بد أنها كانت رفوف الكتب، التي كانت تحتوي في هذا الجزء من الغرفة على إصدارات كتب قديمة. كانت عيناي عالقتَين في بقعتَين بنفسجيتَين من الضوء كانتا مُبهرتَين لدرجة أنهما آلمتا عينَي. حاولتُ أن أُحوِّل بصري بعيدًا عنهما، ولكني لم أنجح في ذلك إلا بإدارة رأسي بالكامل نحو النار الخابية. تطلبت هذه الحركة منِّي جهدًا كبيرًا، فكنتُ أشعر وكأن كل عضلةٍ في جسمي مخدرة بفعل النعاس.

بمجرد أن أبعدت نظري عن الضوء شعرتُ وكأني أستعيد بعضًا من وعيي. شعرت وكأني أُصبتُ بإعياءٍ ما، وانتابني الهلع. بدا أن شغلي الشاغل كان تركيز بصري على الظلال المُتراقِصة في المدفأة، لأني وجدتُ بعض الراحة في الظلمة التي كانت هناك. كنتُ أخشى الضوء البازغ أمامي وكأني طفل يخشى غولًا. فكرتُ أني إن قلتُ شيئًا سأشعر بتحسُّن، ولكن لم يبدُ أنني كنتُ أملك الطاقة الكافية لأنطق ولو بكلمةٍ واحدة. الغريب في الأمر أني لم أكن أشعر بالخوف من مِدينا؛ فلم يكن يبدو أن له يدًا في الأمر؛ كان ذلك الضوء الذي بلا جسد هو ما أخافني.

ثم سمعت صوتًا يتحدَّث، ولكني ظننتُ أنه لم يكن صوت مِدينا.

قال الصوت: «هاناي. هل أنت ريتشارد هاناي؟»

دارت عيناي رغمًا عني، ونظرتُ إلى ذلك الضوء الذي لا يُحتمل الذي يحرق مقلتَي عينَي وروحي. عثرت الآن على صوتي الذي بدا وكأنه يُراوغني، وقلت، وكأنني آلي: «نعم.»

شعرت وكأن وعيي وشعوري ينسلَّان منِّي بسبب تلك النظرة. ولكن شعوري الأساسي بعدَم الراحة كان جسديًّا، السيطرة النارية من الضوء الطافي، من دون وجهٍ أو عينَين، بل هالة آسِرة مقيتة. فكرتُ — إن كان من الممكن أن تدعو أي عملية ذهنية كانت تدور في عقلي تفكيرًا — أنَّني إن تمكنتُ من ربط هذه الهالة بشيءٍ مادي، فربما أشعر بالراحة. وبجهدٍ يائس، بدا أني أُشكِّل كتفَي رجل وظهرَ مقعد. أكرر أنني لم أفكر في مِدينا على الإطلاق لأنه كان قد اختفى تمامًا من عالَمي.

قال الصوت: «أنت ريتشارد هاناي. كرِّر من خلفي: «أنا ريتشارد هاناي».»

خرجَتِ الكلمات من فمي رغمًا عني. كنتُ أصبُّ كامل تركيزي على المعالم المريحة لظهر المقعد التي بدأت تُصبح ضبابية مرةً أخرى.

تحدث الصوت مجددًا.

وقال: «ولكنك لم تكُ شيئًا حتى هذه اللحظة. لم يكن ثمة وجود لريتشارد هاناي من قبل. والآن، بعد أن شَكَّلتك، يُمكنك أن تبدأ حياتك. أنت لا تتذكر شيئًا. لا ماضيَ لدَيك.»

سمعت صوتي يقول: «أنا لا أتذكر شيئًا»، ولكني كنتُ مُدركًا أثناء حديثي أني أكذب، وكان في هذا الإدراك خلاصي.

أخبرني الأطباء الذين يعملون في مجال التنويم المغناطيسي غير مرة أنني أكثر شخصٍ مُقاوم للتنويم المغناطيسي رأوه على الإطلاق. قال لي أحدهم ذات مرة إنني لا

أملك تعاطفًا وكأني جبل الطاولة. يتعين عليَّ أن أفترض أن فِطرتي العنيدة قد جابهت ذلك الشيء الذي يُحاول السيطرة عليَّ وصددتُه. كنتُ أشعر بعجزٍ شديد، فلم يكن صوتي مِلكي، وكانت عيناي تحرقانني وتؤلِمانني، ولكني استعدتُ عقلي.

كنتُ أشعر وكأني أُسمِّع درسًا يُمليه عليَّ شخص ما. كنت أقول إنني ريتشارد هاناي الذي جاء من جنوب أفريقيا في زيارته الأولى لإنجلترا. ولا أعرف أحدًا في لندن وليس لديَّ أصدقاء. هل سمعتُ اسم الكولونيل أربوثنوت من قبل؟ لا، لم أسمع به. هل أعرفُ نادي الخميس؟ لا، لا أعرفه. هل سمعتُ بالحرب؟ نعم، ولكني كنتُ في أنجولا أغلب فترتها ولم أشارك فيها. هل أنا ثري؟ نعم، إلى حدٍّ ما، وأموالي مُوزَّعة على عدة مصارف، وأستثمرها في عدة استثمارات. ظللتُ أكرر هذه الكلمات بسلاسة وكأني ببغاء، ولكني كنتُ أعلم طوال الوقت أنني أكذب. كان شيءٌ في أعماقي يُصر على أنني السير ريتشارد هاناي الذي يحمِل رتبة الفارس القائد في نظام الحَمَام، الذي قاد فيلقًا في فرنسا خلال الحرب، وأنني سيد ضيعة فوسي، وزوج ماري، ووالد بيتر جون.

بدأ الصوت يُملي عليَّ أوامر. كان عليَّ أن أفعل كذا وكذا، وكنتُ أكرر الكلمات في إذعان. ولم أعد خائفًا على الإطلاق. كان أحدٌ ما أو شيءٌ ما يحاول التلاعُب بعقلي، ولكني كنتُ بارعًا في هذه اللعبة، على الرغم من أن صوتي بدا وكأنه يَصدُر عن جرامافون غريب، وعلى الرغم من أن أطرافي كانت ضعيفة للغاية. كان أكثر شيءٍ أرغب فيه هو أن يُسمَح لي بالنوم.

أظنُّ أني غفوتُ لبرهة، لأن آخِر ما أذكره عن هذه الجلسة الطويلة الغريبة هو أن ذلك الضوء الذي لا يُحتمَل قد اختفى، وعادت المصابيح العادية التي تُنير الغرفة لتضيء من جديد. كان مِدينا واقفًا بجوار نار المدفأة التي أصبحت رمادًا، وكان رجلٌ آخر يقِف بجواره، رجل نحيل أحدب الظهر ذو وجه رمادي أشيَب. لم يبقَ الرجل الآخر إلا لحظات، ولكنه نظر نحوي عن كثَبٍ وأظن أن مِدينا تحدَّث إليه وضحِك. ثم ساعدَني مِدينا على ارتداء معطفي، ووجَّهني إلى الطابق السُّفلي. كان يُوجَد مصباحان مضيئان في الشارع جعلاني أرغب في أن أرقد على الرصيف وأنام.

* * *

استيقظت في تمام العاشرة من صباح اليوم التالي في غرفة نومي في النادي، شاعرًا بشعور غريب للغاية. كنتُ أشعر بصداع، وشعرت وكأن عينَيَّ تُسوَّيان على نار بيضاء، وكانت

ساقاي تؤلِمانني ولا تقوَيان على حملي وكأني مُصاب بالأنفلونزا. استغرق منِّي إدراك مكان وجودي بضع دقائق، وعندما تساءلتُ عما أوصلَني إلى هذه الحالة، لم أتذكر شيئًا. لم يكن يدور في ذهني إلا فكرة منافية للعقل؛ اسم «الطبيب نيوهوفر» وعنوانه في شارع ويمبول. استنتجتُ بطريقة غامضة أن هذه ذكرى مفيدة لمَن هو في مثل حالتي، ولكني لم أكن أعلَم من أين جاءتني هذه الفكرة.

كانت أحداث الليلة السابقة واضحةً في ذهني تمامًا. لقد تذكرتُ جميع تفاصيل العشاء الذي حضرته في نادي الخميس، وفظاظة ساندي، وسَيري مع مِدينا إلى منزله، وإعجابي بمكتبته العظيمة. كما تذكرتُ أني كنتُ أشعر بالنعاس وفكرت أني ربما أكون قد أشعرته بالملل من صحبتي. ولكني لم أتمكن على الإطلاق من تفسير الحالة السيئة التي كنتُ عليها. لا يمكن أن يكون السبب هو العشاء، أو الخمر، لأنني لم أكن قد شربتُ كثيرًا، كما أنه ليس من السهل أن أثمل على أية حال، ولا يمكن أن يكون السبب هو مشروب الويسكي والصودا الخفيف الذي شربته في منزل مِدينا. نهضتُ بصعوبة ونظرت إلى لِساني في المرآة. لم يكن به شيءٌ غريب، لذا لم يكن يُوجَد خطبٌ ما في جهازي الهضمي.

سوف تُدرك لاحقًا أن القصة التي كتبتُها للتوِّ كانت أجزاؤها تتجمَّع معًا كلما تذكرتُ حدثًا منها، ففي العاشرة من صباح اليوم التالي، لم أكن أذكر منها شيئًا؛ لا شيء سوى ما حدث حتى جلست في مكتبة مِدينا، واسم وعنوان طبيب لم أكن قد سمعت باسمه من قبل. استنتجت أنني قد أُصبت بجرثومة لعينة، ربما بتسمُّم غذائي، وأن حالتي الصحية قد تسوء بشدة. تساءلت في حزنٍ عن التصرُّفات الحمقاء التي أقدمتُ عليها في صحبة مِدينا، وتساءلت بحُزنٍ أكبر عما سيحدث لي. قررتُ أن أُرسل برقية إلى ماري بعدما أكون قد زرت طبيبًا، وأن أدخل دار رعاية في أقرب وقتٍ ممكن. لم أكن قد مرضتُ من قبل في حياتي، سوى مرة واحدة حين أُصبت بالملاريا، وكنت متوترًا كقط.

ولكن بعدما تناولتُ قدحًا من الشاي، شعرت بأني في حالٍ أفضل، ونهضت من الفراش. خفف حمَّام بارد من ألَم رأسي، وتمكنتُ من حلاقة ذقني وارتداء ملابسي. أثناء حلاقة ذقني، لاحظت الأمر الأول الذي أشعرني بالحيرة حيال أحداث الليلة السابقة. كان الخادم القائم على خدمتي قد أخرج محتويات جيوبي ووضعها على طاولة الزينة؛ مفاتيحي، وساعتي، وبضع عملاتٍ فضية، ومحفظتي، وغليوني وجرابًا. أنا مُعتاد على وضع غليوني في علبة جلدية صغيرة، وبما أنني نيِّق للغاية في عاداتي، فكنتُ دائمًا ما أعيد غليوني إلى علبته عندما يفرغ منه التبغ. ولكن العلبة لم تكن موجودة رغم أني

أذكر أني وضعتها على الطاولة التي كانت بجواري في غرفة مِدينا، وعلاوةً على ذلك، كان الغليون لا يزال نصف مُمتلئ بتبغ غير محروق. استدعيت الخادم وعرفتُ منه أنه وجد الغليون في جيب سترة السهرة، ولكن من دون علبة. كان واثقًا مما قالَه؛ فقد كان يعرف عاداتي، ودُهِشَ عندما عثر على غليوني غير موضوع بنظامٍ في علبته.

تناولت إفطارًا خفيفًا في غرفة القهوة، وبينما كنت آكل، ظللت أتساءل عما كنتُ أفعله تحديدًا الليلة السابقة. بدأت أتذكَّر بعض التفاصيل الصغيرة الغريبة، وعلى وجه الخصوص، ذكرى عن جهدٍ كبير استنزف قوَّتي بالكامل. هل خُدِّرت؟ لم تكن الخمر التي شربتُها في نادي الخميس هي السبب. هل هو مشروب الويسكي والصودا الذي شربتُه في منزل مِدينا؟

كانت الفكرة جنونية، فعلى أية حال، لا يمكن أن يكون لسانُ رجلٍ تعرض للتخدير نظيفًا في صباح اليوم التالي.

أجريتُ حديثًا مع البواب الليلي؛ فقد اعتقدتُ أن يكون لدَيه شيء يمكن أن يُخبرني به.

سألته: «هل لاحظتَ في أي ساعةٍ عُدتُ ليلة أمس؟»

رد الرجل وقد ارتسمت ابتسامة مُرتابة على وجهه: «لقد عدتَ صباح اليوم يا سير ريتشارد. في حوالي الثالثة والنصف، أو ربما الرابعة إلا عشرين دقيقة.»

صحتُ قائلًا: «فليرحم الربُّ روحي! لم أعرف أن الوقت كان متأخرًا لهذه الدرجة. لقد جلستُ مع صديق نتبادل أطراف الحديث.»

«لا بد أنك كنتَ نائمًا في السيارة يا سير ريتشارد؛ فقد تعين على السائق أن يُوقظك، وكنتَ نعسانًا لدرجة أني ارتأيتُ أنه من الأفضل أن أصحبك إلى الطابق العلوي بنفسي. فليس من السهل العثور على غُرَف النوم في الطابق العلوي.»

سألته. «هل أسقطتُ علبة غليوني؟»

«لا يا سيدي.» أظهر وجه الرجل المُتحفظ أنه يظن أنني قد ثملتُ ولكني لا أريد أن ألقي باللوم على نفسي.

بحلول موعد الغداء، كنت قد جزمتُ بأني لن أمرض، فلم يعُد ثمة أي شيء غريب أشعر به في جسدي فيما عدا بعض التصلُّب في مفاصلي وصداعًا خفيفًا خلف عينَي. ولكن كان عقلي مرتبكًا للغاية. لقد بقيتُ في الغرفة في منزل مِدينا حتى بعد الثالثة صباحًا، ولكني لا أعرف ماذا حدث بعد الحادية عشرة والنصف تقريبًا. وغادرت منزل مِدينا

في نهاية المطاف في حالةٍ مُزرية لدرجة أني نسيتُ علبة غليوني، ووصلتُ إلى النادي في سيارة شخصٍ ما — ربما كان مِدينا — وأنا أشعر بنعاسٍ شديد لدرجة أني احتجتُ إلى مَن يُرافقني إلى الطابق العلوي، واستيقظتُ مريضًا للغاية لدرجة أني ظننت أني مُصاب بتسمُّم غذائي. ماذا حدث بحق السماء؟

أظن أن مقاومتي لمن حاول السيطرة على عقلي، مكنَّتني، رغم عجز لساني وأطرافي، من تذكُّر ما كان يريد منِّي نسيانه. وبدأتُ أتذكر لمحاتٍ من هذا المشهد الغريب. تذكرت الضوء المبهر الغريب؛ لم أتذكره بخوف، بل بغضب شديد. تذكرت ذكرى مُبهمة عن تكراري بعض الهراء الذي أملاه عليَّ شخص ما، ولكني لم أتمكَّن من تذكر الكلمات. وكلما زاد تفكيري في الأمر، زاد غضبي. لا بد أن مِدينا مسئول عما حدث، إلا أن ربطه بالأمر بدا سخيفًا بعدما فكرتُ فيما رأيتُه منه. هل كنت عينةً لتجربة علمية يعمل عليها؟ إن كان هذا ما حدث، فلسوف يكون في غاية الوقاحة. لقد فشلت تجربته على أية حال — الأمر الذي أنقذ كبريائي — فقد ظلِلتُ محتفظًا بوعيي خلالها. كان الطبيب مُحقًّا عندما شبَّهني بجبل الطاولة.

فكرت في الأمر مليًّا، وتذكرتُ أمورًا وضَّحَت جوانب كبيرة مما حدث. تذكرتُ فجأة الظروف التي تعرفتُ خلالها على مِدينا. فقد سمع توم جرينسليد منه المُعطَيات الثلاثة التي توافقت مع القصيدة التي كانت مفتاح حلِّ اللغز الذي تعهدتُ بكشفه. حتى هذه اللحظة، لم أرَ هذا الرجل الرائع إلا حليفًا. هل من المُحتمَل أن يكون عدوًّا؟ كان هذا المنعطف عنيفًا للغاية على ذهني بدرجةٍ أعجزته عن التفكير. أقسمتُ لنفسي أن مِدينا رجل شريف، وكان من الجنون التفكير في أن هذا الرجل النبيل المُهذَّب قد يكون متورطًا ولو حتى من بعيدٍ في عالم الإجرام البغيض الذي وصفه لي ماكجيليفراي. ولكن ساندي لم ينخدِع به. شكرت حظي على أني لم أُخبره بأي شيءٍ عن مهمتي. لم أعتقِد حقًّا أن ثمة أي شكوك تدور حوله، ولكني أدركتُ أنه يجدُر بي أن أتصرف بحذرٍ شديد.

ثم خطرت لي فكرةٌ أخرى. لقد تعرضتُ لمحاولة تنويمي مغناطيسيًّا، ولكن المحاولة فشلت. إلا أنه لا بد وأنَّ مَن حاولوا فعل ذلك اعتقدوا من سلوكي أنهم نجحوا. إذا كان الأمر كذلك، فسوف يتصرَّفون بناءً على هذا التصوُّر بشكلٍ ما وفي مكانٍ ما. ومهمتي هي أن أُشجعهم على الإقدام على هذا الفعل. كنتُ واثقًا من نفسي للغاية حتى أُفكر في ذلك، والآن، بعدما تم تحذيري، لم تكن تجارب تنويم مغناطيسي أخرى لتؤثِّر بي. ولكن دعهم

يكشفون عن نواياهم، ودعني أتظاهر بأني عجينة لدِنة طيِّعة بين أيديهم بلا حول ولا قوة. كان يجب أن أعرف «مَن» يكونون.

كنت أرغب بشدة في لقاء ساندي والتحدُّث عن الأمر، ولكني اتصلتُ هاتفيًّا بالعديد من الأماكن التي قد يتواجَد فيها، ولكني لم أتمكَّن من العثور عليه. ثم قررتُ أن أذهب إلى الطبيب نيوهوفر؛ فقد كنتُ واثقًا من أن هذا الاسم انغرس في ذهني خلال أحداث الليلة الماضية. فاتصلتُ بالطبيب وحددت موعدًا للقائه عصر ذلك اليوم، وكنت في تمام الرابعة أسير في شارع ويمبول.

الفصل السادس

المنزل في جوسبِل أوك

كان عصر يومٍ جافٍّ من أيام شهر مارس، وكانت تهبُّ تلك الرياح الرائعة التي تبدو وكأنها تُغير اتجاهها كل ساعة، وتحاول أن تهب في وجوه الناس من جميع الأنحاء. كان التراب يدور في القنوات، ورائحة الزنابق وزهور النرجس المُتسللة من متاجر الزهور تختلِط بتلك الرائحة الكئيبة المُملة التي تنذر بوصول الربيع إلى لندن. أثناء عبوري شارع أوكسفورد، أذكر أنني كنتُ أفكر في المهمة الغريبة العديمة الجدوى التي ورَّطتُ نفسي فيها. ولم أرَ مخرجًا منها سوى الاستمرار لأرى ما ستئول إليه الأمور. كنت في طريقي للقاء طبيب لا أعرف عنه شيئًا، بشأن عِلَّةٍ لا أعلم إن كنت مُصابًا بها أم لا. لم أُكلف نفسي حتى عناء وضع خطة، وكنتُ سعيدًا بترك الظروف تُرشدني.

كان المنزل أحد تلك المباني الجامدة الكئيبة التي تحمِل مداخلها الأمامية أسماء نصف دزينة من الأطباء. ولكن على المدخل الأمامي لهذا المبنى، لم يكن يوجَد إلا اسم الطبيب إم نيوهوفر فقط. أدخلتني موظفة الاستقبال إلى غرفة الانتظار الكئيبة المُعتادة المزدانة بنقوش لشعار الأكاديمية الملكية، والمفروشة بأثاثٍ مصنوعٍ من خشب السنديان المدخَّن، وغُطيَت جدرانها بمجموعة متنوعة من ورق حائط عتيق يحمل صورًا، وعادت على الفور تقريبًا وأشارت لي بدخول غرفة الفحص. كانت هذه الغرفة أيضًا من النوع المعتاد في عيادات الأطباء؛ مكتبات ذات واجهات زجاجية، وحوض لغسيل الأيدي في أحد أركانها، ومكتب ذو غطاء منزلق، وطاولة تحمل عددًا من دورية طبية وبعض الصناديق الجلدية. وبدا الطبيب نيوهوفر للوهلة الأولى طبيبًا عاديًّا. كان في مُقتبل العمر، عظمتَا وَجْنتَيه بارزتان، وجبهته عريضة، وشعره أشقر كثيف مُصفَّف في خطوط مُستقيمة للخلف. كان يضع نظارةً أنفيةً، عندما خلعها ظهرت عيناه الزرقاوان الفاتحتان الثاقبتان. استنبطتُ من مظهره أن والِدَه هو من أطلق على نفسه اسم نيوهوفر.

استقبلني بطريقةٍ بدت لي على الفور متعاليةً وديكتاتورية. تساءلتُ عما إذا كان من الشخصيات البارزة في مِهنته؛ شخصًا لا بد أني سمعتُ به. قال: «حسنًا يا سيد هاناي، ماذا يُمكنني أن أفعل من أجلك؟» لاحظتُ أنه يدعوني بلقب «سيد»، رغم أنني كنتُ قد أبلغتُ مَن حادثته هاتفيًّا وكذلك موظفة الاستقبال بأن اسمي «السير ريتشارد.» خطر لي أنه ربما يكون شخصٌ ما قد تحدَّث معه عني، وربما لم يتذكَّر اسمي بالشكل الصحيح.

فكرتُ أنه من الأفضل أن أوضِّح الأعراض المُقلقة التي أشعر بها منذ استيقاظي هذا الصباح.

فقلت: «لا أعرف ماذا أصابني. أشعر بألَمٍ خلف مقلتَي عينَي، وذهني مشوش تمامًا. أشعر بنعاس وخمول، وأشعر بأن ساقَيَّ لا تقوَيان على حَملي وبأن ظهري ضعيف وكأني أُصبت للتو بـ «الأنفلونزا».»

أجلسني واستمر في طرح الأسئلة عن صحتي. قلت إن صحتي جيدة، ولكني ذكرت له إصابتي بالملاريا في الماضي، ومرات إصابتي العديدة بارتجاج في المخ، وتظاهرت بأني قلِق للغاية على حالتي الصحية. ثم بدأ يُمارس حِيَله الكثيرة؛ سماع نبضات قلبي باستخدام سماعة الصدر، وقياس ضغط دمي، وضربي بقوة أسفل رُكبتي ليرى ردَّة فعلي. كان يجب أن أؤدي دوري جيدًا، ولكن، وبلا شك، كادت ردة فعلي على بعض الأسئلة أن تكون مُبالغًا فيها وربما أزعجته. ظل طوال الوقت محتفظًا بذلك السلوك الغريب الودِّي المُتسلِّط، العدواني إلى حدٍّ ما.

جعلني أستلقي على أريكةٍ بينما كان يفحص عضلاتِ رقبتي وكتفي بأصابعه وبدا وكأنه يُدلك رأسي بيدَيه الباردتَين. كنت أشعر في تلك اللحظة بأني على خير ما يُرام، ولكني تمكنتُ من التظاهر بالضعف في أكثر من عضو من أعضائي، وبالكثير من الاضطرابات الذهنية المُقلِقة. تساءلت عما إذا كان بدأ يشعر بالشك، لأنه سألني فجأة: «هل تنتابُك هذه الأعراض منذ فترة طويلة؟» فقررتُ أنه من الأفضل قول الحقيقة، فقلت له: «منذ هذا الصباح فقط.»

سمح لي أخيرًا بالنهوض، وخلع نظارته التي تُشبه صَدفة السلحفاة التي كان يرتديها وارتدى نظارته الأنفية، وبينما كنتُ أزرِّر ياقتي، بدا عليه التفكير العميق. أجلسني في مقعد المرضى، ووقف أمامي ينظر إليَّ من فوقي بطريقةٍ مُستبدة جعلتني أرغب في الضحك.

وقال: «أنت تُعاني من نوعٍ غير طبيعي من أعراض شائعة. إن تأثير الارتجاج الدماغي يظهر عادةً بعد بضعة أيام من حدوثه، لذا فنتائج التوتر العصبي قد تتطلَّب وقتًا طويلًا لتظهر. لا شك لدي في أنه على الرغم من صحتك الجيدة، أنك قد عرضت ذهنك وجسدك خلال السنوات الأخيرة لضغطٍ كبير، وظهرت نتائج ذلك فجأة هذا الصباح. لا أريد أن أُخيفك يا سيد هاناي، ولكن الاضطراب العصبي مرضٌ غامضٌ للغاية، ويجب أن نتعامَل معه بجدية، خاصة عند ظهوره للمرة الأولى. ثمة بضع نقاط في حالتك لا أشعر بالرضا عنها. على سبيل المثال، هناك احتقان — أو ما يبدو لي أنه احتقان — في مراكز الأعصاب في الرقبة والرأس. قد يحدُث ذلك بسبب حوادث — ارتجاج في المخ وما شابَهَه — مثل تلك التي أخبرتني عنها، أو ربما لا تكون هي السبب. لا شك في أن العلاج سيتطلَّب وقتًا، لذا فإن الراحة وتغيير الجو أمران إلزامِيَّان. هل تهوى الصيد؟ هل تصطاد السمك؟»

أخبرته أني أفعل.

«حسنًا إذن، سأصف لك بعد قليلٍ قضاء بعض الوقت عند نهرٍ لصيد أسماك السلمون في النرويج. كان للابتعاد عن الحياة المُعتادة وتأمُّل جريان المياه السريع نتائج مبهرة مع بعضٍ من مرضاي. ولكنك لن تتمكن من الذهاب إلى النرويج حتى شهر مايو، وخلال هذه الفترة، سأكتب لك علاجًا محددًا. نعم. أعني التدليك، ولكنه ليس تدليكًا عاديًّا. هذا العلم لا زال يخطو خطواته الأولى، ولا يزال مُمارِسوه يتحسَّسون طريقهم. ولكننا من وقتٍ لآخر نعثر على شخصٍ ما، رجل أو امرأة، يملك موهبةً خاصةً في فك وتسوية التشوُّهات العضلية والعصبية. وسأرسلك إلى أحدِهم. قد يُدهشك العنوان، ولكنك رجل خبير بالعالَم بما يكفي لتُدرك أن المهارات الطبية ليست قاصرة على المنطقة ما بين شارعَي أوكسفورد وماريليبون.» وخلع نظارته وابتسم. ثم دَوَّن شيئًا على قصاصة من الورق وسلَّمها لي. قرأتُ على الورقة: «مدام بريدا، ٤ ميدان بالميرا، الحي الشمالي الغربي.»

قلت. «حسنًا! أنا مدين لك بالكثير. أتمنَّى لو تمكنَتْ مدام بريدا من علاج هذا الصداع الرهيب. متى يُمكنني زيارتها؟»

«أؤكد لك أنها ستُعالج الصداع. إنها سيدة سويدية تعيش في لندن منذ انتهاء الحرب، وهي تعتز بفنِّها للغاية لدرجة أنها لا تستقبل إلا مريضًا واحدًا من وقتٍ لآخر. إنها تُقدم خدماتها في أغلب الأحيان للأطفال في المستشفيات دون مقابل. ولكنها لن ترفض لي طلبًا.

بادئ ذي بدء، لن أُضيِّع أي وقتٍ من أجل أن تستعيد راحتك في أقرب وقتٍ ممكن. ماذا عن صباح الغد؟»

«لِمَ لا أذهب الليلة؟ لا تُوجَد لديَّ أي التزامات، وأريد أن أتخلص من هذا الصداع قبل موعد النوم. لِمَ لا أذهب لرؤيتها الآن؟»

«لا يُوجَد ما يمنعك من ذلك. ولكن يجب أن أُحدد معها موعدًا. سأتصل بها هاتفيًّا. اعذرني للحظة.»

غادر الغرفة وعاد بعد بضع دقائق وأخبرني أنه حدد معها موعدًا في تمام السابعة. «إنه مكان غير مألوف الذهاب إليه، ولكن أغلب سائقي سيارات الأجرة يعرفونه. وإذا لم يعرف السائق الذي ستركب معه المكان، فأخبره بأن يذهب إلى جوسبل أوك، وهناك سيرشدك أي شرطي إلى المكان.»

كنت أحمل دفتر شيكاتي معي، ولكنه رفض الحصول على أتعابه قائلًا إن علاجي لم ينتهِ بعد. ويجب أن أعود له بعد أسبوع لأُطلِعه على ما أحرزت من تقدم. بعدما انصرفت، ظل يُلازمني انطباع عن الرجل بأنه بارد مثل حية، ذو عينَين شاحبتَين جاحظتَين، وعظمتا وجنتيه بارزتان تشبهان الرسوم الكاريكاتورية عن الاسكتلنديين. كان الطبيب نيوهوفر شخصية غريبة ولكن مُثيرة للإعجاب. لم يبدُ غبيًّا، ولو لم أكن أعرف يقينًا مدى براعتي في التظاهر، لكنت شعرت بالقلق من تنبؤاته عن حالتي الصحية.

سرتُ في شارع أوكسفورد وشربت الشاي في صالةٍ للشاي. أثناء جلوسي بين عمَّال الآلات الكاتبة الذين يتبادلون أطراف الحديث والنُّدُل، ظللت أتساءل عما إذا كنتُ لم أكن أضيع وقتي وأتصرف بحماقة. ها أنا ذا، في أتمِّ صحةٍ وكأني صياد، أستشير الأطباء وأزور خبيرة تدليك مجهولة في شمال لندن، كل هذا دون هدفٍ واضح. منذ أقل من أربعٍ وعشرين ساعة، كنتُ قد وقعت بين براثن عالَمٍ مجنون، وانتابني للحظات شكٌّ رهيب عما إذا لم يكن الجنون داخل عقلي أنا. هل أثر شيءٌ ما على عقلي ليلة أمس في تلك الغرفة في منزل مِدينا، وأصبحت حاليًّا ما يصِفُه الناس بأنه «مختل»؟ راجعتُ تسلسل الأحداث مُجددًا، وشعرت بالاطمئنان عندما تذكرتُ أنني تمكنتُ من الحفاظ على وعيي رغم كل ما مررتُ به. لم أصل إلى مرحلة وضع نظريات؛ فقد كنتُ لا أزال أنتظر تطوُّر الأحداث، ولم أتمكَّن من رؤية أي سبيلٍ آخر أمامي. لا بد، بالطبع، أن ألتقِي بساندي، ولكن دعوني أرَ أولًا ما سينتجُ عن موضوع التدليك هذا. ربما لم يكن ثمة ما يريب في الأمر؛ ربما أكون قد تذكرت اسم الطبيب نيوهوفر عبر إحدى حيل الذاكرة — ربما سمعتُه من أحد

الأصدقاء — وربما كان هذا الطبيب المُثير للاهتمام نزيهًا. لكنني تذكرت طريقة تعامل الرجل معي؛ كنت واثقًا من أنه يعرف شيئًا عني، وكأن شخصًا أخبره أنني سأزوره. ثم فكرت أنني مُتهور بذهابي إلى منزلٍ مجهول في ضاحية قذِرة. فدخلت على الفور إلى كابينة هاتف عمومي، واتصلت بالنادي، وقلت للناطور إذا ما اتصل الكولونيل أربوثنوت أن يُخبره أني في ٤ ميدان بالميرا، الحي الشمالي الغربي — وجعلته يُدوِّن العنوان — وأني قد أعود إلى النادي قبل العاشرة.

كنت بحاجةٍ إلى التريض، فقررتُ أن أسير، فلم يزل أمامي مُتسع من الوقت. الغريب في الأمر أن الطريق كانت تُشبه كثيرًا تلك الطريق التي سلكتُها في أحد أيام شهر يونيو عام ١٩١٤ عندما كنتُ أنتظر بوليفانت وجماعة بلاك ستون، وظللتُ أسير خارجًا من لندن لتمضية الوقت.[١] وتذكرت أني كنتُ حينئذٍ مُتحمسًا للغاية بسبب توقعاتي الجامحة، ولكني كنتُ حاليًّا رجلًا أكبر سنًّا وحكمةً، وعلى الرغم من أني كنتُ متحيرًا للغاية؛ فقد تمكنت من كبح ارتباكي بالفلسفة. توجَّهتُ نحو بورتلاند بلايس، وعبرت مُتنزَّه ريجينت، حتى أصبحَت منازل الأثرياء خلفي، ووصلتُ إلى ذلك الحزام من الحواري الضيقة التي تُميز منطقة المرتفعات الشمالية. أرشدَني العديد من رجال الشرطة إلى وجهتي، واستمتعتُ بالنزهة سيرًا على الأقدام كما لو كنتُ أستكشف المكان، فلطالما كانت لندن تُمثل لي بلدًا غير مُستكشف. مررتُ بساحات كانت منذ فترة قصيرة قِطَعًا من حديقة تجارية، وشرفات، بعضها فخم، وأصبحتُ الآن وسط الأحياء الفقيرة؛ فلندن مثل دغل استوائي، إذا لم تبقَ يقظًا باستمرار، ستجد نفسك في الغابة، في الأحياء الفقيرة في هذه الحالة. كانت الشوارع مكتظةً بموظَّفِين وبائعات متاجر في انتظار الحافلات، وعمال من مصانع حي سانت بانكراس ومنطقة كليركينويل في طريقهم إلى منازلهم. كانت الريح تشتد مثيرة أتربة مزعجة في الأزقة غير النظيفة، ولكن كلما ارتفعت الأرض، زادت نظافة بفعل الريح التي تحمِل عبق حقول كِنت وبحر الشمال ونضارة الربيع المُنعشة. توقفت قليلًا ونظرتُ إلى ما خلف السهل المُضاء الذي يُدعى لندن مرتجفًا في الضوء الأزرق الداكن للغسَق العاصف.

خيَّم الظلام، بعد العديد من المحاولات الفاشلة، عندما وصلتُ أخيرًا إلى ميدان بالميرا. كان ميدانًا اسمًا فحسب؛ إذ كان يشغل أحد جانبَيه مخزنٌ قبيح الشكل، وتكدست على

[١] انظر رواية «درجات السلم التسع والثلاثون».

جانبه الآخر مجموعات من منازل صغيرة مبنية بالقرميد. وكان جانب آخَر عبارة عن شرفات منازل أنيقة، حديثة إلى حدٍّ ما، لكلٍّ منها نافذة قوسية وتحمل أسماءً على غرار «شاتسوورث» و«فيلا كيتشنر». كان للجانب الرابع، الذي يُطلُّ جنوبًا، طابع خاص فيما مضى، ولا شك في أن البَنَّاء الذي صمَّم المكان منذ سبعين عامًا ظن أنه يبني مُجمعًا سكنيًّا جذابًا. فعلى ذلك الجانب، كانت تُوجَد مساحات فارغة تفصل بين المنازل، كلٌّ منها عبارة عن حديقة كانت فيما مضى مرجًا أخضر وزهورًا. أما الآن، فكانت هذه الحدائق مجرد ساحات مُتربة مليئة بعلب الصفيح وقصاصات الورق، ولم يُنبئ بماضيها المُبهج سوى شجرة دردار ميتة وحيدة، وسياج نباتي أعجف من نبات الحناء، وبعض أشجار البنفسج القزمة. عُلقت على أحد هذه المنازل يافطة نُحاسية تحمل اسم طبيب، وعلى منزل آخر يافطة أخرى تحمِل اسم مُعلم موسيقى، والعديد من اليافطات التي تُعلن عن منازل للإيجار، كانت سلالم المنازل مُتَّسخة، وبواباتها مائلة، وكان المظهر العام يبدو وكأنه يقصُّ قصةً حزينة لأرستقراطي رثِّ الثياب يُوشك على السقوط في القذارة.

كان المنزل رقم ٤ أفضل حالًا من بقية المنازل، وكان بابه قد دُهن حديثًا بلونٍ أخضر زاهٍ. دققتُ جرس الباب الكهربي، ففتحَته خادمةٌ بدت مُحترمة للغاية. عندما دخلت المنزل، رأيتُ أنه أكثر اتساعًا مما تخيلت، وأنه كان، ولا شك، منزل مواطن ميسور الحال. لم تكن الردهة تُشبه تلك الردهات التي تُشبه الصهاريج التي تُميز منازل لندن الصغيرة، كما أن الغرفة التي أدخلتْني الخادمة إليها كانت مفروشةً بأناقة، رغم صِغر مساحتها، وكانت نار كهربية تستعرُّ في الموقد. بدت غرفةً لاستقبال الزبائن؛ فقد كانت تحتوي على هاتف، وخزنة كبيرة، وتناثر على الرفوف صف من صناديق مُصنفة أبجديًّا تحتوي على أوراق. بدأت أظن أن مدام بريدا، أيًّا كانت، لا بدَّ وأنها تدير عملًا مُزدهرًا بمقاييس الأعمال العادية.

قادتني الخادمة بعد قليلٍ إلى غرفةٍ على الجانب الآخر من الردهة، حيث استقبلتني سيدةٌ مُبتسمة. كانت المدام امرأةً بدينةً في أوائل الأربعينيات من عمرها، ذات شعرٍ داكن، سمراء، تتحدَّث الإنجليزية بلسان أهلها. قالت لي: «أنت من أرسلَه الطبيب نيوهوفر. أليس كذلك؟ لقد أنبأني بقدومك. هلَّا تكرَّمتَ ودخلت هناك وخلعت معطفك وصدريتك؟ وياقتك أيضًا، من فضلك.»

فعلتُ ما طُلب مني، وفي حُجيرة محجوبة بالستائر، خلعتُ هذه الملابس ولم يتبقَّ إلا كُمَّي قميصي. كانت الغرفة مُبهجة للغاية، عند أحد طرفيها باب قابل للطي، ومفروشة

بأثاث غُرف الاستقبال العادية، مزهريات وكتب، ومطبوعات بدت لي أنها من القرن الثامن عشر. تلقت أي شكوك راودتني، بشأن حُسن نوايا هذه المرأة، صفعةً قوية. ارتدَتِ المدام فوق فستانها الأسود زيًّا كتانيًّا أبيض غطَّاه بالكامل، مثل أزياء الجراحين، وكانت مساعِدتها فتاة صغيرة الحجم نحيلة غريبة الشكل ارتدت زيًّا مماثلًا، ووضعت فوق شعرها القصير قبعةً صغيرةً بيضاء.

قالت المدام: «هذه جيردا. جيردا مساعِدتي. إنها ماهرة للغاية.» ابتسمَت لجيردا وابتسمت لها جيردا بدَورها، ابتسامةً كانت انبعاجًا صغيرًا غريبًا في وجه خالٍ من التعبيرات.

جعلتني المدام أرقُد على أريكة. «هل تشعر بصداع؟»

قلت لها كاذبًا أن نعم.

«سأُعالجه سريعًا. ولكن، هل تشكو من شيءٍ آخر؟ هل هذا صحيح؟ يجب أن أستكشف ذلك. ولكني سأريحك من الألَم أولًا.»

شعرت بأصابعها الخفيفة القوية تعبث بصدغَيَّ وقاعدة جُمجمتي وعضلات عنقي. كان إحساسًا مُبهجًا، وكنت موقنًا من أني لو كنتُ أشعر بأقوى صداع في العالم، لكان اختفى. ولأني كنتُ في أتمِّ صحة، شعرتُ بالهدوء والانتعاش.

قالت وهي تبتسِم: «قل لي. هل تشعر بأنك في حالٍ أفضل؟ أنت ضخم للغاية وليس من السهل أن يُصبح سائر جسدك بخير على الفور. لذا، يجدُر بي أن أهتم بأشياء أكثر صعوبة. أعصابك ليست بخير، على الإطلاق. آه! هذه الأعصاب! إننا لا نعرف ماذا تكون، كل ما نعرفه عنها هو أنها ما يمكن أن تطلِق عليه اسم الشيطان. أنت يقظ تمامًا الآن. ألست كذلك؟ حسنًا، لا بد أن أجعلك تنام. هذا أمر ضروري، إذا سمحت بذلك.»

أجبتها: «حسنًا»، ولكني كنتُ أقول في ذهني: «لا أيتها المرأة، أراهن أنك لن تستطيعي.» كان ينتابني الفضول لأرى إن كنتُ قادرًا على مقاومة أي محاولة لتنويمي مغناطيسيًّا، وكنت أعتقد أنني قادر بالفعل على ذلك، بعدما أصبحتُ مُدركًا لما يحدُث.

تصورتُ أنها ستُحاول أن تسيطر عليَّ بعينَيها اللتَين كانتا كُرتَين مميزتين دون شك. ولكن كانت الطريقة التي اتبعتُها على النقيض تمامًا من ذلك؛ فقد أحضرت الفتاة الصغيرة شيئًا على صينية، ورأيت أنها ضمادات. كان أول ما فعلته هو أن عصبت عينَي بمنديل قطني، ثم ربطت فوقه منديلًا آخر من قماش ثقيل غير شفاف. لم يكن المنديلان مربوطين بإحكام؛ فقد كنت بالكاد أشعر بوجودهما، ولكنهما حجبا الرؤية عني تمامًا. لاحظت أنها راعت ضبطهما جيدًا بحيث لا يُغطِّيان أذنَي.

سمعتُ صوتها يقول: «أنت لستَ يقظًا، أظن أنك تشعر بالنعاس. ستنام الآن.»

شعرت بأنامِلها تمر على وجهي، وكان الشعور هذه المرة مختلفًا، فعندما كانت تعالج صداعي، شعرتُ من أناملها بوخزٍ مُحبب ومنعش على جلدي، أما الآن، فبدا وكأنها ترسِل موجات مُتماثلة متتالية من الخمول المُحبَّب. ضغطَت على جبهتي، وبدا وكأن حواسي جميعها قد تركزت في هذا المكان ثم هدأَت بفضل هذا الضغط. ظلَّت طوال تلك العملية تهدل بصوتٍ أشبه بصوت أمواج البحر الهادئة. لو كنتُ أريد النوم، لنمتُ على الفور بكل سهولة، ولكنني لم أكن أريد النوم، ولم أواجِه أي صعوباتٍ في مقاومة هذا الإجبار اللطيف. أظن أن هذه هي حالتي الدائمة عندما أتعرَّض للتنويم المغناطيسي. لا يمكن إخضاعي لشيء، ولن يؤثر فيَّ التنويم المغناطيسي رغمًا عن إرادتي. على أية حال، كنتُ أستمتِع بلُطف العملية، ولكني كنت أتجاهلها. ولكن كان يجب أن أتظاهر بأني مريض مُطيع، فتظاهرتُ بأني استسلمتُ للنوم. تنفَّستُ ببطءٍ وهدوء، وأرخيتُ جسدي تمامًا.

بعد قليل بدت وكأنها قد اكتفت بذلك. قالت شيئًا للطفلة التي سمعتُ وقع قدمَيها وهي تقطع الغرفة. سمعتُ صوت انفتاح أبواب؛ لعلك تذكُر أن أذنَي لم تكونا مُغطَّاتَين بالضمَّادات وأن سمعي حاد، وشعرتُ وكأن الأريكة التي أرقد عليها بدأت تتحرك ببطء. شعرتُ بالقلق للحظة وكدت أكشف تظاهري برمَّته برفع رأسي. بدت الأريكة وكأنها تتحرك بسلاسة على قضبان، وأدركت أني عبرت الباب القابل للطي وأصبحتُ في غرفةٍ أخرى. ثم توقفت الأريكة عن الحركة، وأدركتُ أنني أصبحتُ في جوٍّ مختلفٍ تمامًا. وأدركتُ أيضًا أن ثمة شخصًا آخر قد انضمَّ إلى المشهد.

لم يقُل أحدٌ أي شيء، ولكن انتابني شعورٌ غريبٌ لا يمكن تفسيره لا يعتمد على الرؤية أو السمع بأن ثمة حضورًا بشريًّا. قلتُ سابقًا إن جو المكان كان قد تغير. كان الهواء مُعبقًا برائحة لو كنتُ شممتُها في أي مكان آخر لأقسمت أنها رائحة دخان ناتج عن احتراق بقايا نباتية، وكانت الرائحة ممزوجة برائحة أخرى لم أتبيَّنها، ولكن بدت وكأنها ليست ضمن أيٍّ من الروائح التي قد تشمُّها في لندن، أو أي منطقة سكنية، بل في البراري. ثم شعرتُ بأنامل خفيفة تضغط على صدغَيَّ.

لم تكن أنامل مدام بريدا الماهرة المُكتنزة. لا، بل كانت أنامل رفيعة ورقيقة في خفة النسيم، ولكن خلف هذه الخفة كانت تكمن لمحةٌ من الصلابة، وكأنها قادرة على الخنق مثلما هي قادرة على التمليس. كنت مُستلقيًا على ظهري محاوِلًا أن أحافظ على

انتظام أنفاسي، فمِن المُفترَض أني نائم، ولكني شعرتُ بانفعال غريب يتزايد في صدري. ثم هدأ هذا الانفعال كما لو أن تلك الأنامل قد هدأته. تحدَّث صوتٌ بلغةٍ لم أفهم منها كلمة واحدة، ولم يكن الحديث موجهًا لي، ولكنه كان يُكرر الكلمات كما لو كان يُردِّد تعويذة. امتزج التمليس والصوت معًا وكادا يُفقدانني وعيي بدرجةٍ تفوق ما حدث في الليلة السابقة، بل تفوق ما حدث لي خلال حياتي بأكملها.

كانت التجربة جديدة جدًّا عليَّ، وكانت من القوة بمكانٍ لدرجة لم أتمكن من تكوين انطباع ولو بسيط عنها. دعوني أَصُغ الأمر كالآتي. رجل في مثل عمري أصبحَتِ الشيخوخة على مرمى حجرٍ منه، وكلما اقترب أكثر من نهاية رحلة حياته، زاد تَوقه لشبابه الآخِذ في الانحسار. لا أعني أنه قد يعود إلى عمر الطفولة، إذا ما منحته جِنِّية ما هذه الهبة، فقِلة منا فقط مَن سيختارون العودة إلى هذه السن، بل أقول إنه يُغلِّف شبابه بالكامل بهالةٍ من السعادة ويتُوق إلى ذلك المنظور النقي الفضولي الذي كان ينظر به للحياة حينئذ. ويُخزِّن في ذاكرته، كفتاةٍ حالمة، جميع الأصوات والروائح وتفاصيل المشاهد التي لا تقطع صِلته بهذه الفترة من حياته بالكامل. بينما كنتُ أرقد معصوب العينَين على تلك الأريكة، شعرت بأيادي وأصواتٍ تحاول خلع حاجز السنوات نيابةً عنِّي وتُحطمه. كنت أهرب إلى بلدٍ مبهجٍ، بلد الشباب، وكنت سعيدًا بهذا الهروب. لقد خضعتُ للتنويم المغناطيسي، ولا شك في أني كنت أتحرك مثل خروف يتجه إلى حيث يريد راعيه أن يكون.

ولكني كنتُ واعيًا، وعلى الرغم من أني كنتُ على شفا الاستسلام؛ فقد تمكنتُ من المقاومة والتغلُّب على التأثير. ربما كان التأثير واضحًا تمامًا لذاتي الواعية ما أثار فيها مقاومةً خافتة. كنتُ على أية حال قد بدأت بالفعل مقاومة واعية عندما بدأ الصوتُ الذي يُردِّد التعويذة في التحدُّث بالإنجليزية.

قال: «أنت ريتشارد هاناي. كنت نائمًا ولكني أيقظتك. هل أنت سعيد في العالم الذي صحوتَ فيه؟»

كنت في هذه اللحظة قد استعدتُ حُريتي كاملةً، وبدأت أضحك في صمتٍ في أعماقي. تذكرتُ الليلة السابقة، والأحداث التي وقعت في منزل مِدينا والتي ظلَّت تتَّضح في ذاكرتي شيئًا فشيئًا على مدار اليوم. رأيتُ ما حدث كمسرحية هزلية، ورأيتُ ما يحدث كمسرحية هزلية، وفي حضور الفكاهة، انكسر السحر. ولكن كان الأمر يعود لي لأُقرر إذا ما كنت أرغب في استمرار الخدعة، فبذلتُ أقصى ما في وسعي لكي أُخرج من بين شفتَي صوتًا غريبًا يدل على أني أغط في نومٍ عميق.

قلت بصوتٍ أشبه بصوت الأشباح التي تتَّشح بالملايات: «أنا سعيد.»

«هل ترغب في الاستيقاظ كثيرًا في هذا العالم دائمًا؟»

أصدرت صوتًا يعني أنني أرغب في ذلك.

«ولكن لكي تستيقظ، عليك أن تنام أولًا، وأنا الوحيد الذي يُمكنه تنويمك وإيقاظك. وهناك ثمن لذلك يا ريتشارد هاناي. هل ستدفع لي الثمن؟»

حيَّرني الصوت. فلم يكن يحمل تلك اللكنة الأجنبية التي تتحدث بها مدام بريدا، ولكنه كان يحمل لكنةً مميزة للغاية، ولكني لم أتمكن من تحديدها. بدا للحظةٍ أنه يحمل إيقاع لكنة منطقة روس الغربية، ولكنه في الوقت نفسه يحتوي على إيقاعات لا تنتمي لمنطقة هايلاند. كما أن نبرة الصوت كانت غريبة؛ كانت حادة ومرتفعة، وكأنه صوت طفل. هل من المُحتمَل أن تكون تلك الطفلة الصغيرة الغريبة التي رأيتها هي العرافة؟ قررتُ أن لا، فلم تكن اليدان يدَي طفلة.

قلت: «سأدفع الثمن»، فقد بدا أن هذه هي الإجابة المطلوبة مني.

«ستكون إذن خادمي عندما أستدعيك. والآن، عُد إلى النوم.»

لم أشعر بأني خادم أي أحدٍ على الإطلاق. داعبَت اليدان صدغَيَّ مرةً أخرى، ولكن لم يزد تأثيرها عليَّ عن تأثير ذبابتَين مُزعجتَين. كنت أقاوم رغبة جامحة في الضحك، فكبتُّها عبر التفكير في مدى غباء وانعدام جدوى أفعالي الحالية. شعرتُ بالأريكة التي أرقد عليها تنزلق إلى الخلف، وسمعت الباب القابل للطي ينفتح وينغلِق. مجددًا. ثم شعرت بالضمادات تُزال من على عينَي، ورقدتُ مكاني والضوء يسقط على جفنَي المُغمضَين، محاولًا أن أبدو وكأني تمثال مقاتل نائم فوق تابوت ما. كان ثمة شخص ما يضغط أسفل أذنَي اليسرى، وتذكرتُ طريقة الصيادين القديمة في إيقاظ شخصٍ ما برفقٍ من النوم، فبدأتُ أتظاهر بالإفاقة من النوم. آمُل أن أكون قد نجحت. على أية حال، لا بدَّ أني بدوتُ مشوشًا بالقدر الكافي؛ فقد أبهرَت المصابيح عينَي بعد أن ظلَّتا لفترةٍ طويلة في الظلام.

كنتُ قد عدتُ إلى الغرفة الأولى، ولم يكن معي أحد سوى المدام. ابتسمَت لي بودٍّ بادٍ في عينَيها، وساعدتني على ارتداء معطفي وياقتي. وقالت: «لقد وضعتُك تحت ملاحظةٍ دقيقة، فعادةً ما يكشف النوم عن أماكن النهايات العصبية المُتضرِّرة. وتوصلتُ إلى استنتاجاتٍ مُعينة سأبلغ الطبيب نيوهوفر بها. لا، لا أتعاب. سيتولى الطبيب نيوهوفر الأمر.» وَدَّعَتني بطريقةٍ مهنية ممتازة، وهبطتُ الدرج خارجًا إلى ميدان بالميرا كما لو كنت قد قضيتُ ساعةً عاديةً في تلقي تدليكٍ لعلاج آلام ظهري.

بمجرد خروجي إلى الهواء الطلق، شعرتُ بتعبٍ وجوعٍ شديدَين. لحُسن الحظ، لم أسِر طويلًا قبل أن أركب سيارة أجرة أخبر سائقها بأن يتَّجه إلى النادي. نظرتُ إلى ساعتي ورأيتُ أن الوقت متأخرٌ أكثر مما تخيلت؛ فقد اقتربت الساعة من العاشرة. كنتُ قد قضيت عدة ساعات في المنزل، ولا عجب في أني كنتُ مُرهقًا.

وجدتُ ساندي يذرع الردهة جيئةً وذهابًا في قلق. وقال عندما رآني: «حمدًا لله! أين كنتَ يا ديك؟ لقد أعطاني البواب عنوانًا غريبًا في شمال لندن. يبدو أنك في حاجة إلى شراب.»

قلت: «أشعر أني في حاجة إلى طعام. لديَّ الكثير لأُخبرك به، ولكن يجب أن آكل أولًا. لم أتناول عشائي بعد.»

جلس ساندي أمامي بينما كنتُ أتناول الطعام، كابحًا رغبته في أن يسألني عما حدث.

سألته. «ما الذي سبب لك هذا المزاج السيِّئ ليلة أمس؟»

بدت عليه الكآبة. وقال: «الرب وحدَه يعلم. لا، هذه ليست الحقيقة، أعلم السبب جيدًا. لم أرتح إلى مِدينا.»

«وما السبب في ذلك؟»

«لا أعرف. ولكني مثل الكلب: لا يُعجبني أشخاص مُعينون منذ لقائنا الأول، والغريب في الأمر أن حدسي لا يخطئ.»

«حسنًا، أؤكد لك أن هذا رأيك وحدك. ما الذي جعلك تنفر منه؟ إنه رجل مهذب ومتواضع وصياد ماهر، ويمكنك أن ترى أنه ماهر بالفعل كما يُشاع عنه.»

«ربما. ولكني أشعر بأن هذا الرجل أُكذوبةٌ كبيرة. ومع ذلك، لنتَّفق على ألا أتسرَّع في الحكم عليه. ثمة الكثير من الأمور التي يجب التحقق منها.»

وجدنا غرفة التدخين الخلفية الصغيرة في الطابق الأول خالية، وعندما أشعلتُ غليوني وجلست مُستريحًا في مقعد وثير، جذب ساندي مقعدًا مماثلًا بجواري تمامًا. وقال: «والآن، أخبرني بما حدث يا ديك.»

قلت: «بادئ ذي بدء، قد يُهمك أن تعرف أن مِدينا يمارس التنويم المغناطيسي.»

فقال: «كنت أعرف ذلك، استنبطتُه من حديثه ليلة أمس.»

«كيف بحق السماء ...؟»

«من اقتباسٍ عادي استخدمه. إنها قصة طويلة سأُخبرك بها لاحقًا. استمر.»

بدأتُ بافتراقنا بعد عشاء نادي الخميس وأخبرته بكل ما أمكنني تذكره من الساعات التي قضيتها في منزل مِدينا. تمكنتُ من قص القصة بنجاح مُبهر. كان ساندي مهتمًّا لدرجة أنه لم يتمكن من الجلوس في مقعده، فاضطر إلى النهوض والوقوف على سجادة المدفأة أمامي. أخبرته أنني استيقظتُ بعد ذلك وأنا أشعر باعتلالٍ غير طبيعي، وأني لا أتذكر شيئًا عن الأمر سوى عنوان طبيب ما في شارع ويمبول، وأني بدأت أتذكَّر ما حدث تدريجيًّا على مدار اليوم. بدأ يسألني وكأنه محامي استجواب.

«ضوء مُبهر؛ أحد أدوات التنويم المغناطيسي العادية. وجه، بدا منفصلًا عن بقية الجسد؛ هذا أمر شائع في السحر الهندي. تقول إنك كنتَ تشعر أنك نائم، ولكنك كنتَ واعيًا إلى حدٍّ ما أيضًا، وكنتَ قادرًا على سماع الأسئلة والإجابة عليها، وكنت تشعر بنوعٍ من المقاومة طوال الوقت جعلتك تنجو من هذا الموقف العصيب. ربما نجوتَ من أقوى محاولةٍ للتنويم المغناطيسي في العالَم يا ديك، وعليك أن تشكر الرب على ذلك. والآن، ماذا كان السؤال؟ إجبارك على نسيان ماضيك وأن تبدأ حياتك كإنسانٍ جديد خاضع لسلطة سيدٍ ما. ووافقتَ على ذلك، مع تحفظات شخصية لا يعلم عنها المُنوم المغناطيسي شيئًا. لو لم تتمكَّن من الاحتفاظ بوعيك والتمسُّك بتلك التحفظات، ما كنتَ ستتذكَّر أي شيءٍ مما حدث ليلة أمس، وكانت إرادتك ستصبح مقيدةً بقيدٍ غير واعٍ. ولكنك لا تزال على حالِك، حرٌّ تمامًا؛ ولكن الرجل الذي حاول التلاعُب بك لا يعرف ذلك. لذا، يجدُر بك أن تبدأ أنت التلاعُب به. أنت تعرف وضعك جيدًا، ولكنه لا يعرف وضعه.»

«في ظنك ما الذي أراده مِدينا من فعلته تلك؟ كان تصرفًا في غاية الوقاحة منه على أية حال. ولكن، هل كان مِدينا بالفعل؟ أظن أني أتذكر وجود رجلٍ آخر في الغرفة قبل أن أنصرف.»

«صفه لي.»

«لا أملك إلا صورةً مشوشةً عنه؛ رجل ذو وجهٍ شاحب حزين.»

«حسنًا، لنفترض حاليًّا أن من حاول تنويمك مغناطيسيًّا كان مِدينا. تذكر أن ما يُحاول فعله هو محو كل ما يتذكَّره رجلٌ عن حياته الماضية، وجعله يبدأ كمشرَّد في عالمٍ جديد. سمعتُ في الشرق عن مثل هذه الأمور، ولا شك في أن مَن فقدَ ذاكرته يكون تحت رحمة الشخص الذي أفقدَه إيَّاها. وربما ليس هذا هو المقصود في حالتك. إنهم يريدون فقط أن يُوجِدوا تحكمًا في عقلك الباطن. ولكن لا يمكن أن يحدُث هذا على الفور مع شخصٍ يمتلك تاريخًا مثل تاريخك، فنظموا عملية اتَّبَعوها. غرسوا في ذاكرتك أثناء

غفوتك اسم طبيب، وكانت المرحلة التالية هي عمله. صحوتَ من نومك وأنت تشعر بتعب شديد وعقلك يذكر عنوان طبيب، وفكروا في أنك قد تظن أن ثمة مَن اقترح عليك هذا الطبيب، وسترسم في ذهنك مسارًا كاملًا لكيفية سماعك به. ولعلك تذكر أنهم يفترضون أنك لا تذكُر أي شيءٍ آخر مما حدث تلك الليلة. والآن، أخبرني عن هذا الطبيب الجراح. هل التقيتَ به؟»

واصلتُ سرد القصة، وعندما وصلتُ إلى جزء شارع ويمبول، انفجر ساندي ضاحكًا لفترةٍ طويلة وبصوتٍ عالٍ.

وقال: «نقطة أخرى لصالِحك. تقول إنك تظن أن ثمة مَن أخبر الطبيب بقدومك وأن هذا الشخص ليس أنت؟ بالمناسبة، كان حديثه منطقيًّا للغاية، ولكني ما كنتُ لأعتمد عليك في المهام التي تحتاج إلى صلابة الأعصاب.» ثم دوَّن عنوان الطبيب نيوهوفر في مفكرته. وقال: «استمر. أظن أنك ذهبت بعد ذلك إلى المنزل رقم ٤ في ميدان بالميرا.»

خلال الجزء التالي من قصتي، لم يضحك ساندي. وأكاد أجزم أنني قصصتُ عليه هذا الجزء أفضل مما كتبتُه هنا؛ فقد كانت التجربة التي مررتُ بها لا تزال حاضرة في ذهني حينئذ، ورأيتُ أنه انبهر للغاية مما حدث.

«خبيرة تدليك سويدية، وفتاة صغيرة غريبة المظهر. جعلتك تنام، أو ظنَّت أنها فعلت، ثم كاد شخص آخر أن يسيطر عليك بينما كانت عيناك معصوبتَين. يبدو أن لهذا الأمر علاقة بالسحر. أرى تشابهًا في الإطار العام لما حدث، ولكنه سحر قوي، ولم أكن أعرف أنه يُمارَس في هذه البلاد. ديك، إن الأمر يزداد تشويقًا. وظللت يقظًا رغم كل هذا؛ إنك وحش عجوز، ولكنك أعطيتَهم انطباعًا بأنك طوع أمرِهم تمامًا. هذا جيد؛ لقد تقدمت عليهم حتى الآن بثلاث نقاط.»

«حسنًا، ولكن ما اللعبة التي يُمارسونها؟ أنا مُتحير للغاية.»

«وأنا أيضًا، ولكن يجب أن أفكر في بعض الفرضيات. لنفترِض أن مِدينا مسئول عما حدث. ربما كان يُحاول فقط أن يقيس مدى قوته، واختارك أنت لأنك أصعب عينة أمكنه العثور عليها. وعليك أن تتيقَّن من أنه يعرف كل شيءٍ عن تاريخك. ربما كانت تجربة يُجريها على إنسان من دون هدف معين.»

قلت: «في كلتا الحالتَين، سيتلقى مني لكمةً في رأسه.»

«في كلتا الحالتَين، كما قلت للتو، ستتمكن من الاستمتاع بأن يتلقى منك لكمةً في رأسه. ولكن لنفترِض أنه يُضمِر هدفًا أكثر عمقًا، أمرًا شريرًا ولعينًا بحق. إذا ما تمكن،

باستخدام قُدرته على التنويم مغناطيسيًّا، من أن يُحوِّلك إلى أداة في يده، فتخيل القوة التي ستُصبح ملك يمينه. رجل في مثل قدرتك وقوتك. لعلك تذكر أني قلتُ لك مرارًا وتكرارًا إنك تمتلك موهبةً فطرية لأن تكون مجرمًا.»

«أؤكد لك يا ساندي أن كل هذا محض هراء. من المُستحيل أن يُضمِر مِدينا شرًّا ... مُستحيل.»

«ربما كان غير مُحتمَل، ولكنه ليس مستحيلًا. نحن لا نترك شيئًا للصدفة. وإذا كان محتالًا، ففكر في مقدار القوة التي يمتلكها مع كل مواهبه وجاذبيته وشعبيته.»

ألقى ساندي بجسده على أحد المقاعد، وبدا وكأنه يتأمل. وكسر مرةً أو مرتين الصمت الذي خيَّم على الغرفة.

«أريد أن أعرف ماذا كان يقصد الطبيب نيوهوفر عندما تحدث عن نهرٍ لصيد أسماك السلمون في النرويج. لِمَ لمْ يتحدث عن لعب الجولف في نورث بيرويك، على سبيل المثال؟»

وفي المرة الثانية، قال: «هل قلتَ إنك شممتَ رائحةً تُشبه البقايا النباتية في الغرفة؟ بقايا نباتية! هل أنت واثق من ذلك؟»

نهض أخيرًا. وقال: «أظن أني سأذهب غدًا لألقي نظرة على المنطقة المحيطة بذلك المنزل في جوسبل أوك. بالمناسبة، جوسبل أوك اسم غريب، أليس كذلك؟ قلتَ إن المكان مُضاء بإنارة كهربية. سأزورهم متظاهرًا بأني عامل في شركة الكهرباء يرغب في قراءة عداد الكهرباء. أوه، من السهل تنفيذ هذه الخطة. سيُبلغهم ماكجيليفراي بخبرِ ذهابي إليهم.»

جعلني ذكر ماكجيليفراي أنتبِه. فقلت: «اسمع، إنني أُضيِّع وقتي الثمين. لقد تواصلتُ مع مِدينا لكي أطلب مُساعدته، والآن تورطتُ في عددٍ من التجارب المُنافية للعقل التي لا صلةَ لها بمُهمتي. يجب أن ألتقي ماكجيليفراي غدًا لنتحدَّث بشأن مساعدة ذلك النبيل الريفي من شروبشاير. في الوقت الحالي، لا شيء مريب في أمر مِدينا.»

«فليذهب النبيل الريفي من شروبشاير إلى الجحيم! أنت غبي مُسن يا ديك. في الوقت الحالي، كل شيءٍ في أمر مِدينا مُريب. كنتَ تريد عونه. لماذا؟ لأنه المرحلة التالية في الدليل الذي يؤدي إلى حلِّ لُغز تلك القصيدة السخيفة. حسنًا، لقد اكتشفتَ بنفسك أن ثمة أمورًا مُريبةً بشأنه. لا يمكنك الحصول على عونه، ولكنك قد تحصل على شيءٍ أهم. يُمكنك التوصل إلى السر نفسه. بدلًا من محاولة التنقيب في ذاكرته، مثلما فعلتَ مع جرينسليد، ربما تجده أمرًا بارزًا في حياته.»

سألته متحيرًا. «هل تعتقد ذلك حقًّا؟»

«لا أعتقد أي شيء بعد. ولكنه أكثر مسار واعد في نظري. إنه يظن، أنه بفضل ما حدث ليلة أمس، وما حدث منذ ساعتَين، أنك أصبحتَ تحت سيطرته، مساعد، وربما أداة. ربما كان الأمر برمَّته تم بِنيَّةٍ حسنة، أو ربما بِنِيَّة سيئة للغاية. عليك أن تكتشف ذلك. يجب أن تظل قريبًا منه، وأن تُغذي أوهامه، وأن تُجاريَه بكل ما أوتيتَ من قوة. وسيكشف عن نواياه لا محالة. لستُ بحاجة لأن تُقدِم على أي فعلٍ من جانبك. سيمنحك الأفضلية من تلقاء نفسه.»

لا يُمكنني الجزم بأن هذه الفكرة أعجبتني، فلم أكن أُحب التظاهر، ولكن يجب أن أُقِرَّ بأن فكرة ساندي كانت منطقية. سألته عما سيفعله؛ فقد كنتُ أعتمد على مساندته أكثر مما يسعني أن أُفصِح.

قال: «أظن أني سأعود إلى الترحال. أودُّ أن أستكمِل دراساتي في المكتبة الوطنية الفرنسية.»

«ولكني كنتُ أظن أنك ستشاركني في المهمة.»

«أنا أشاركك فيها بالفعل. سأسافر إلى الخارج من أجل مهمَّتك، كما سأوضح لك يومًا ما. كما أني أرغب في مقابلة الرجل الذي اعتدْنا على أن نُطلق عليه اسم رام داس. أعتقد أنه متواجد في ميونخ حاليًّا. ستقرأ في جريدة التايمز بعد غد أن الكولونيل سَيِّدَ عائلة كلانرويدن قد غادر البلاد لأجَل غير مسمى ليهتمَّ بأمرٍ شخصي.»

صِحتُ قائلًا: «ما الفترة التي ستغيبها؟»

«ربما أسبوع، أو أسبوعَين، أو أكثر. وعندما أعود، ربما لن أعود في هيئة ساندي أربوثنوت.»

الفصل السابع

بعض تجارب التلميذ

لم أرَ ساندي مُجددًا؛ فقد ركب القطار الليلي إلى باريس في مساء اليوم التالي، وكان عليَّ أن أذهب إلى أوكسفورد صباح ذلك اليوم لأُدلي بشهادتي في قضية تُنظَر أمام المحكمة. ولكني وجدتُ رسالةً موجهةً لي في النادي عندما عدتُ صباح اليوم التالي. لم تحتوِ الرسالة على شيءٍ سوى الكلمات الآتية: «لم يُسفر البحث عن شيء، لا يوجد شخص ثالث في المنزل.» لم أكن آمُل أن تسفِر حملة ساندي الاستكشافية في ميدان بالميرا عن نتائج، ولم أُعِر الأمرَ المزيدَ من التفكير.

لم يعُد ساندي بعد أسبوع، ولا بعد أسبوعَين، وبعدما أدركتُ أنه لم يتبقَّ لي إلا أكثر من شهرَين بقليل لأتمَّ مهمتي، بدأ صبري ينفد. ولكنني كنت أشغل وقتي بالتفكير في مِدينا، كما ستعرفون.

أثناء قراءتي لرسالة ساندي، ظهر توربين، ورجاني أن أذهب معه في نزهة في سيارته الجديدة من نوع دولاج لنتحدث. أصبحت حالة الماركيز لا تور دو بين أسوأ مما كانت عليه؛ فقد صار جفناه أثقل، وأصبح أكثر وداعة. قاد السيارة بي لمسافة أميال في عمق الريف عبر غابة ويندسور، وبينما كان ينطلق بالسيارة بسرعة ستين ميلًا في الساعة، كشف عما يعتمل في صدره. بدا وكأنه على شفا الجنون؛ بل كان قد جُن بالفعل، ولم يمنعه من إرداء نفسه صريعًا إلا ثقتُه الواهية بي التي كانت في غير محلِّها بلا أدنى شك. كان مُقتنعًا أن أديلا فيكتور قد لقيَتْ حتفها، وأنه لن يتمكن أحد أبدًا من العثور عليها. أنَّ قائلًا: «اللعنة على رجال الشرطة الذين تُحابيهم! الناس لا يختفون بلا أثرٍ إلا في إنجلترا.» ولكنه اختتم حديثه قائلًا إنه سيبقى حيًّا حتى يقتصَّ لها، لأنه كان يؤمِن بأن الربَّ سيُوقِع قاتلها في يدَيه يومًا ما. كنت أشعر بأسفٍ شديد عليه، فخلف مظهره المتعالي دون إفراط، كان يشعر بعذابٍ شديد، وأعتقد أنني لو كنت مكانه لجُننتُ دون

أدنى شك. سألني عما إذا كان هناك أمل، فأعطيته أملًا، وأخبرته بما لا أعتقد؛ أنني أرى ضوءًا في نهاية النفق المُظلم، وأنني مفعم بالثقة بأننا سنتمكن من إرجاع قُرة عينِه إليه سليمةً مُعافاة. تهلَّل وجهه عندما سمع هذا وأراد عِناقي، وكاد أن يقلب السيارة الدولاج بنا في مصرف ويُرسِلنا إلى الحياة الأبدية. كان يتحرَّق لأن يفعل شيئًا، وأراد أن أعِدَه بأن أضمَّه إلى فريقي في أقرب وقتٍ ممكن. جعلني ذلك أشعر بالذنب، فلم يكن لدَيَّ أيُّ فريق، ولم يكن يُوجَد حتى خيط لأتتبَّعه، فحولتُ دفة الحديث سريعًا نحو الآنسة فيكتور لِكيلا يطرح عليَّ المزيد من الأسئلة.

وصفَها لي بالتفصيل وكأنه يُلقي على سمعي نثرًا منظومًا. استنتجت من كلامه أنها نحيلة ومتوسطة الطول، تركب الخيل وكأنها ديانا وترقُص وكأنها حورية. كان لون بشرتِها وشعرها يُشيران إلى أنها سمراء، ولكن لون عينَيها كان رماديًّا داكنًا، وكان صوتها ذلك الصوت الناعم الذي عادةً ما يصاحب لون العينَين هذا. بالطبع، صاغ توربين هذا الوصف بلغةٍ شعرية تخلَّلتها كلماتٌ فرنسية أكثر من مرة. أخبرني بكل شيءٍ عنها؛ عِشقها للكلاب، وعدم خوفها من أي شيءٍ في العالَم، وسيرها بخطواتٍ واثقة، ولثغتها المبهجة عندما تتحمَّس. بعدما انتهى من وصفها، شعرتُ أني كونتُ فكرة كافية عن الآنسة فيكتور، خاصةً بعدما فحصتُ حوالي خمسين صورة لها في مكتب ماكجيليفراي.

عندما اقتربنا من المنزل مجددًا، خطر لي أن أسألَه عما إذا كان يعرف مِدينا. فقال لا، ولكن مِدينا كان سيتناول العشاء في منزل آل فيكتور في تلك الليلة؛ كان حفلَ عشاءٍ صغيرًا كان أغلب حضوره من السياسيين. «إن السيد فيكتور رجل رائع. لم يُغير شيئًا من نظام حياته، وأصدقاؤه يظنون أن أديلا في نيويورك في زيارة وداع. إنه يُذَكِّرني بقصة الصبي الإسبرطي والثعلب.»

قلت: «أخبر السيد فيكتور، بعد التحية، أنه يُسعدني أن أتناول العشاء في منزله الليلة. لديَّ دعوة مفتوحة. في الثامنة والربع، أليس كذلك؟»

تبيَّن في النهاية أن المجموعة المدعوة مجموعة صغيرة للغاية ومُنتقاة: وزير الخارجية، ومِدينا، وباليسار بيتس، ودوق ألسيستر، ولورد صانينجدايل، والمستشار الأعلى السابق، والوزير الفرنسي لوفاسير، بالإضافة إلى توربين وأنا. لم يكن بين المدعُوِّين نساء. كان أسلوب التعامل بين الدوق والسيد فيكتور درسًا في قوة الاحتمال، ولم يكن أحد ليخمِّن أبدًا أن هذين الرجلَين كانا يعيشان كابوسًا. لم يكن المدعوون يتحدثون كثيرًا فيما عدا صانينجدايل الذي كان لدَيه الكثير مما أراد أن يقوله عن الكتاب الجديد الذي ألَّفَه أحد

الألمان عن المدلول الرياضي للَّانهائية، وهو موضوع لم يتمكَّن عقلي الثخين من فهمه رغم شرحه العبقري. كان وزير الخارجية ولوفاسير يتحدثان همسًا، وكان توربين جالسًا بينهما، وكان بقية الحضور صامِتين كعِصي خشبية فيما عدا مِدينا. توفرَت لي فرصة جيدة لملاحظة قُدرته على التحاور، ويجدُر بي القول إني ذُهلت من مهارته في هذا السياق. فقد كان هو مَن تمكن من تحويل حديث صانينجدايل عن اللانهائية من مونولوج يؤدِّيه بمُفرده إلى حوارٍ مُثمر عندما طرح عليه سؤالًا مناسبًا. بعد ذلك تحوَّلت بنا دفة الحديث إلى السياسة، وسُئل مِدينا عما يحدُث في البلاد؛ إذ كان قد عاد للتوِّ من مبنى الحكومة.

فقال: «إنهم يضعون اللمسات الأخيرة على القرارات المُعتادة، إيقاف بعض النصَّابين التابِعين لحزب العمال عن العمل.»

أثار هذا التعليق حفيظة صانينجدايل، الذي كان يُفَضِّل حزب العمال، واستمتعتُ بمشاهدة أسلوب مِدينا في امتصاص غضب المستشار الأعلى السابق. فقد أدخله في جدالٍ هادئ، دون أن يتخلَّى عن موقفه، وصبغ الموضوع برمته بصِبغةٍ من التفاهم الظريف المُنفتح. شعرت أنه كان يعرف عن الموضوع أكثر مما يعرف صانينجدايل، أنه كان يعرف قدرًا كبيرًا يسمح له بأن يمنح خصمه وسيلةً لإنقاذ نفسه دون أن يخشى الهزيمة. علاوةً على ذلك، لم ينسَ أنه مدعوٌّ على العشاء، فلم يعلُ صوته أو يستخدِم نبرة غير مناسبة، وتمكن من جعل الجميع يفعلون مثله.

بدا لي رجلًا من نوعٍ استثنائي. كان يُعاملني كما لو كنَّا صديقَين قديمَين، بمزاحٍ وَوُدٍّ ولكن دون أن يتخطى حدود الاحترام، وأجبرني على أن أشارك في جزءٍ كبير من الحديث. بدوتُ ذكيًّا، بفضل تأثيره، وأبهرتُ توربين الذي كان يعتقد أنني لا أملك أي مواهب سوى القتال. ولكنني لم أنسَ الهدف من حضوري، وإن حِدتُ عنه، كان مرأى فيكتور والدوق يُذكرني به. راقبتُ الرجلَين، الرجل النحيل ذا اللحية الرمادية الذي يبدو أشبه بأميرال بحري بفضل عينَيه الداكنتَين الثاقبتَين، والرجل الآخر العريض الفك، الأحمر الوجه، الذي يُكلل رأسَه شعر فضي ناعم، ورأيتُ أن الألم ألقى بظلاله على أركان شفتَي وعينَي الرجلَين حينما كان وجه أحدهما يسترخي. وراقبت مِدينا، النموذج الأمثل للرجل الإنجليزي المُهذب واللطيف والمنفتح. لاحظتُ أنه يُراعي ألا تكون ملابسه مُبهرجة، فلم يرتدِ أبدًا صدريات غريبة التصميم أو ربطات عنقٍ ملفوفة بأناقةٍ مُبالغٍ فيها. كان، في أخلاقه ومظهره، تجسيدًا حيًّا للتربية الجيدة المُتواضعة. كانت مهمَّتي أن أُسايره في لعبته، وتعمدتُ أن يكون إخلاصي له ظاهرًا. ربَّت الدوق المسن، الذي لم ألتقِ به من قبل، على

كتفي بينما نُغادر غرفة الطعام. وقال: «أنا سعيد أنك ومِدينا أصبحتما صديقَين يا سير ريتشارد. حمدًا للرب أن ثمة رجالًا مثله في جيل الشباب. يجدُر بهم أن يمنحوه منصبًا وزاريًّا على الفور، أن يدخلوه المُعترك السياسي. إن لم يفعلوا، سيعثر على مجالٍ أكثر إثارة من السياسة.»

باتفاق ضِمني غادرنا المنزل معًا، وسِرنا في الشوارع جنبًا إلى جنب، كما فعلتُ على مدار الليالي الثلاث السابقة. فكرتُ، يا له من تغيير أَلَمَّ بوجهة نظري! إذن لقد كنتُ أعمى، وصرتُ الآن بصيرًا. علَّق مِدينا ذراعَه بذراعي عندما دخلنا شارع بول مول، إلا أن ضغطه على ذراعي كان أقربَ إلى التملُّك من الود.

قال: «هل تُقيم في ناديك؟ لِمَ لا تأتي وتُقيم معي أثناء وجودك في المدينة؟ ثمة مساحة أكثر من كافية في منزلي في شارع هيل.»

أخافني هذا الاقتراح. فإقامتي معه في هذا الوقت ستدمر خططي بالكامل؛ ولكن، بافتراض أنه أصر، هل يُمكنني أن أرفض بينما يجدُر بي أن أتظاهر بأني تحت سيطرته؟ ولحُسن الحظ لم يُصر. قدمت له الكثير من الأعذار؛ خطط لم أُتِمَّها، واضطراري للسفر المُتكرر إلى الريف، وأمور من هذا القبيل.

فقال: «لا بأس. ولكني سأُكرر عرضي هذا مجددًا، ولن أقبل بأي رفض.»

كانت كلماتٍ عادية قد تُستَخدَم بين الأصدقاء، ولكنها أزعجتني إلى حدٍّ ما رغم أن النبرة التي استخدمها كانت عادية.

سألني: «كيف حالك؟ أغلب مَن عاشوا حياةً تُشبه حياتك يجدون الربيع الإنجليزي مزعجًا. لا تبدو في حالٍ جيدة مثلما كنتَ خلال لقائنا الأول.»

«هذا صحيح. كنتُ متعبًا الأسبوع الماضي؛ أُصِبتُ بصداع، وفقدان للذاكرة، وذهني مُشوش، وأشياء من هذا القبيل. أظن أنها حُمَّى الربيع. زرت طبيبًا ولكنه قال إن الحالة لا تدعو للقلق.»

«مَن ذلك الطبيب؟»

«الطبيب نيوهوفر في شارع ويمبول.»

فأومأ برأسه. وقال: «سمعت به. يُقال إنه طبيب جيد.»

قلتُ بجرأة: «لقد أعدَّ لي جلسة تدليك. ونجحت الجلسة في إزالة الصداع على أية حال.»

«يُسعدني سماع ذلك.»

ثم ترك ذراعي فجأة.

وقال: «سمعتُ أن أربوثنوت سافر للخارج.»

كانت ثمة نبرة باردة في صوته رددتُ عليها سريعًا.

قلت في لامبالاة: «قرأتُ ذلك في الصحف. إنه حالة ميئوس منها. حالة مُثيرة للشفقة، فرغم إمكاناته الكبيرة، لا يُمكنه البقاء في مكانٍ واحد لفترة طويلة، وهذا يجعله عديم الجدوى.»

«هل تهتم كثيرًا لأمر أربوثنوت؟»

قلت بلا حياء: «كنتُ كذلك في الماضي. ولكن حتى لقائنا منذ بضعة أيام، لم نكن قد التقَينا لسنوات، ويجدُر بي القول إنه أصبح غريب الأطوار. ألا تظن أنه تصرَّف بغرابة خلال عشاء الخميس؟»

هزَّ كتفَيه. ثم قال: «لم يُعجبني. فليس فيه شيءٌ إنجليزي على الإطلاق. ثمة لمحة شرقية حادة في مسلكِه، لا أعلم كيف حصل عليها. قارِنْه بالرجال الذين سهرنا معهم الليلة. حتى ذلك الفرنسي — حتى فيكتور، رغم أنه أمريكي ويهودي — ستجد أنهم يُفكرون مثلنا.»

وصلنا إلى باب النادي، وعندما توقفت عن السير، نظر إلى وجهي.

وقال بلهجة آمرة: «إذا كنتُ مكانك، كنتُ سأقاطع أربوثنوت.» ابتسمتُ ابتسامة خجِلة مقاومًا رغبةً جامحة في أن أعتصِر أذنَيه.

دخلتُ فراشي ساخطًا. فذلك الأسلوب المُتملك الجديد، ومعاملتي كأني تابع له جعلاني أكره مِدينا فجأة. لم أكن قادرًا على ربطه بمحاولة تنويمي مغناطيسيًّا، وعلى الرغم من ثِقتي، كنتُ أميل إلى الاعتقاد أن الأمر لا يتعدَّى مجرد تدخُّل وقح من مُعجب، الأمر الذي كنتُ أمقته بشدة، ولكن ليس لدرجة إثارة الكراهية في صدري. ولكني الآن — مع شعوري بأنه قد سيطر عليَّ كتابع له، لأنه ظن أنه أصبح يمتلك سيطرة سافرة عليَّ — أصبحت أستشيط غضبًا. وزادت إساءته لساندي الطين بلة، الإساءة التي اضطررت لأن أسمح بها بكل خنوع. شرقي، يا إلهي! وأقسمتُ أن نجعله أنا وساندي يندم على تلك الكلمة قريبًا. أقضَّ التفكير في هذا الأمر منامي. كنت مستعدًّا تمامًا في هذه اللحظة لتصديق أن مِدينا قادر على فعل أي عملٍ مُشين، وقررتُ أنه وحدَه من يمتلك حل لغز الرهائن الثلاث. ولكني طوال الوقت كنتُ أُدرك تعِسًا أني لو أخبرتُ أحدًا بما أفكر به، فيما عدا ساندي، فسيتهمونني بالجنون. كنتُ مدركًا أن سمعة الرجل الطيبة راسخة في أذهان الجميع وكأنها الدستور البريطاني.

ذهبت صباح اليوم التالي لزيارة ماكجيليفراي. وأخبرتُه أني لم أكن متكاسلًا، وأني أتتبع خيوطًا خاصة بي، أظنُّها واعدة أكثر من استقصاء أمر ذلك النبيل الريفي من شروبشاير. قلت إني ليس لدَيَّ شيء أُخبره به بعد، وإني لا أُحبِّذ أن أُعطيه ولو لمحة عما أتتبع من خيوط حتى أصل لبعض النتائج. ولكني كنتُ بحاجة لمساعدته، وبحاجة إلى خيرة رجاله.

قال: «يُسعدني أنك بدأت العمل يا ديك. أنا في انتظار أوامرك.»

«أريدك أن تُراقب منزلًا. المنزل رقم ٤ ميدان بالميرا، شمالي لندن. حسب معلوماتي، تقطنه امرأة يُقال إنها خبيرة تدليك سويدية تدعو نفسها مدام بريدا، وخادمة أو أكثر، وفتاة صغيرة غريبة المظهر. أريدك أن تُعدَّ سجلًّا دقيقًا عن كل مَن يدخل هذا المنزل، وأريد أن أعرف بشكلٍ خاص مَن يقطنون في هذا المنزل والمُتردِّدين الدائمين عليه. يجب أن يتم كل هذا في سريةٍ تامة حتى لا يشعر هؤلاء الأشخاص بأنهم مُراقَبون.»

دَوَّنَ تفاصيل طلبي.

فاستطردتُ قائلًا: «أريد أن أعرف أيضًا السجل الجنائي لرئيس خدم مِدينا.»

فأطلق صافرةً. وقال: «مِدينا. هل تقصد دومينيك مِدينا؟»

«نعم. أوه، أنا لا أُشكك في تورطه في الأمر.» ضحكنا كِلانا وكأن دعابة جيدة أُلقيت. «ولكني أودُّ أن أعرف تفاصيل عن رئيس خدمه لأسبابٍ لست مُستعدًّا بعدُ للإفصاح عنها لك. إنه يُدعى أوديل، وله مظهر ملاكم وضيع. اكتُشِف كل ما يُمكنك اكتشافه عن ماضيه، وقد يكون وضعُه تحت المراقبة تخطيطًا جيدًا. أنت تعرف أين يقع منزل مِدينا في شارع هيل. ولكن، أرجوك أن تجعل كل هذا يتم في سرية تامة.»

«سأفعل هذا من أجلي أنا. فلا أريد أن يتصدر اسمي عناوين الصحف المسائية؛ «الشرطة تراقب منزل عضو في البرلمان. زلة أخرى من زلات الشرطة».»

«هل يمكنك أيضًا أن تجمع كل ما تملِكه من معلوماتٍ عن مِدينا؟ ربما أعطتني هذه المعلومات خيطًا لأتتبَّعه عن أوديل.»

قال في جدية: «ديك، هل أصابتك الأوهام؟»

«لا، على الإطلاق. لا تتصوَّر أنني غبي لدرجة أن أظنَّ أن ثمة شيئًا مُريبًا يتعلق بِمدينا. لقد أصبحنا صديقَين مُقربَين، وهو يعجبني كثيرًا. الجميع يشيدون به، وكذلك أنا. ولكن لديَّ بعض الشكوك التي تدور حول السيد أوديل، وأودُّ أن أعرف من أين أحضره مِدينا وكيف. إنه ليس النوع المعتاد من الخدم.» بدا لي حينئذٍ أنه من المهم للغاية

ألا أدع أحدًا يعرف بشكوكي في مِدينا سوى ساندي، في ذلك الحين على الأقل؛ فقد كانت فرصتنا تكمن في ثقته التامة في أن الجميع يرَونه شخصًا فاضلًا.

قال ماكجيليفراي: «حسنًا. سأفعل ما تطلب. فلتستمر في عملك بطريقتك يا ديك. لن أُملي عليك ما تفعل. ولكن تذكر أن الأمر جاد للغاية، وأن الأيام تمر سريعًا. لقد أصبحنا في شهر أبريل، وأمامك مهلة قصيرة حتى منتصف الصيف لكي تنقذ ثلاث أرواح بريئة.»

غادرتُ مكتبه وصدري مُفعم بغمٍّ هائل؛ فقد أدركت فجأة مدى قصر المهلة ومدى فداحة المهمة التي لم أبدأها فعليًّا بعد. اعتصرتُ ذهني مفكرًا في خطوتي التالية. سأزور الطبيب نيوهوفر مرة أخرى في غضون بضعة أيام، ولكن من غير المُرجح أن أجد أي مساعدة هناك. ربما سيرسلني مجددًا إلى ميدان بالميرا، أو ربما أحاول أن أُحدد موعدًا مع مدام بريدا بنفسي مختلقًا عِلَّةً جديدةً أَلَمَّت بي، ولكن من المُحتمَل أن تكرر العملية السابقة معي، وبهذا لن أكون قد حققت أي تقدم. عند مراجعتي لما حدث، لم يكن نيوهوفر وميدان بالميرا سوى اختبارٍ لإذعاني لسيطرة مدينا، ومفتاح كشف تعقيدات السر يكمن عند مِدينا. كان الجلوس والانتظار وعد الأيام الثمينة التي تمر أمرًا يبعث على الجنون، وكنتُ أتوق لاستشارة ساندي. فكرتُ في الذهاب إلى فوسي لقضاء اليوم؛ فقد كانت رؤية ماري وبيتر جون بطريقةٍ ما تُهدئ ذهني وتُقوِّي من عزيمتي. جاءت الراحة في صورة اتصال من مِدينا في نهاية الأسبوع يدعوني لتناول الغداء معه.

تناولنا الغداء في منزله، الذي كان مخزنًا رائعًا للكثير من الأشياء الجميلة التي تمكنت من رؤيتها الآن في ظهيرة شهر أبريل المشمسة. لم يكن المنزل كما تخيلت؛ فقد كان مليئًا بالقطع الثمينة التي تستحق العرض في المتاحف، وكان الأثاث بالكامل مناسبًا تمامًا للعصر. أُحِبُّ الغرف التي تمتلئ بالكثير من الأشياء المبهجة، والتي تبدو وكأن أشخاصًا عاشوا فيها على مدار أجيال. كانت جدران غرفة الطعام مكسوة بخشبٍ مَطلي باللون الأبيض، وفوق المدفأة لوحة تحمل توقيع فان ديك، وتُزين الجدرانَ مجموعةٌ رائعةٌ من مطبوعات القرن الثامن عشر. وخلال تناول وجبة الغداء العامرة، لم يشرب مِدينا سوى الماء كعادته، بينما أخذتُ أنا المسلوب الإرادة بضع رشفات من نبيذ ألماني مُعتق، ومن خمر أكثر تعتيقًا، ومن براندي يبدو وكأنه منذ عصور ما قبل التاريخ. كان أوديل هو من يقوم على خدمتنا، وتمكنتُ من تفحُّصه جيدًا؛ رأسه الغريب الشكل، ووجهه الشاحب النحيل، وحاجبيه الأسودَين الكثَّين اللذَين يُظلِّلان عينَيه الضيقتَين. كنت واثقًا من أن عينَيَّ لن تُخطآه لو رأيتُه مجددًا. لم نقترب طوال فترة تواجدي في المنزل من

المكتبة الموجودة في الطابق العلوي، ولكن جلسنا بعد الغداء في غرفة تدخين صغيرة تقع في نهاية الردهة، تحتوي على خزانات زجاجية وضع فيها مُضيفي صناراتِه وبنادقه، وبعض رءوس محنطة لغزلان ووعول.

أثناء سيري في شارع هيل، قررتُ أني سأقنع مِدينا للمرة الأخيرة باستسلامي التام له. سيحتاج إلى إثبات أني أصبحتُ رهن إشارته، فهذه هي الطريقة الوحيدة التي ستجعله يكشف عن وجهه الحقيقي. كنتُ أكره الأمر برمَّته، وأثناء سيري في دفء الظهيرة الممتع، فكرت بمرارة في أني ربما كنتُ الآن أصطاد أسماك السلمون في اسكتلندا، أو ربما كنت سأفعل ما هو أفضل من ذلك، وهو ركوب الخيل على مهل مع ماري في سهول كوتسوولد.

ظللت طوال الغداء مُثبتًا عينَيَّ عليه كالكلب الذي يُثبِّت عينَيه على سيده. تساءلتُ عدة مرات عما إذا كنتُ أبالغ في هذا الفعل، ولكن بدا أنه يتقبل وفائي بهدوء تام. كنتُ أظن عندما التقيتُ مِدينا لأول مرة أنه ليس مغرورًا؛ ولكني اكتشفت الآن أنه مغرور للغاية، مغرور بكل ما تحمِله الكلمة من معنى، وتواضُعه أمام الجمهور ما هو إلا قناع يخفي خلفه زهوه الهائل بنفسه. تخلى عن التظاهر، وظهر وجهه الحقيقي، وتحت قناع الدماثة رأيتُ روحًا باردة ومغرورة للغاية. لم يكن ثمة شيء أسوأ من ذلك؛ فقد كان هذا أسوأ ما يُمكن. كان فخورًا لدرجة أنه لم يتفاخر بالكلمات، ولكن كان سلوكه بالكامل عبارة عن تفاخُر مُستمر. كان يسخر من كل شيءٍ فيما عدا عبادته لنفسه، كما توقعت. كان الأمر سيبدو وقاحةً لا مثيل لها، لولا أنه يؤدِّيه بمهارةٍ منقطعة النظير. وجدتُ أن أداء دوري كان سهلًا؛ فقد كنت ذاهلًا للغاية بالفعل ولم أجد صعوبةً في إظهار ذلك.

الغريب في الأمر أنه تحدث عني كثيرًا. بدا أنه يحاول جاهدًا أن يجتث الأعراف والمعايير، مثل قواعد الشرف والتعامل، التي قد يحترمها شخص مثلي، وأن يدمرها تمامًا بسخريته. شعرت أنني أنظر إلى محاولةٍ لجعل الشر يبدو خيرًا والخير يبدو شرًّا، الأمر الذي أعلم يقينًا أنه من تخصص الشيطان نفسه. وبالطبع، أذعنتُ دون مقاومة. لم يحظَ سيدٌ من قبل بتابعٍ أكثر إذعانًا مني. كما حطم طموحاتي المتواضعة. حياة الريف، والزوجة والعائلة؛ أخبرَني أن كل هذا أكثر تفاهة من فكرة عابرة. وأسهب في الإطراء عليَّ، وتقبلتُ أنا كل هذا بوجهٍ تعلوه أمارات البلاهة. كنت جاهزًا لأمور أكبر سيُرشدني إليها. ووصف لي بعض هذه الأمور؛ المُغري في الأمر أنها كانت أمورًا مُحترمة، ولكن بدا بطريقة ما أنها لا تناسب السياق عند مقارنتها بحديثه السابق. كان من الجلي أنه يُعِدُّني تدريجيًّا لأمرٍ ما لم أكن جاهزًا له بعد. تمنيتُ لو أن ساندي رآني جالسًا في مقعد مِدينا

الوثير، أُدخن سيجارًا من خزينه، وأوافق على كل ما يقول وكأني تلميذةٌ صغيرة ترغب في الحفاظ على علاقتها بمُعلمتها. ولكني لم أواجه صعوبةً في التظاهُر بذلك؛ فقد كان حديث الرجل بارعًا ومقنعًا، وعلى الرغم من إنكار عقلي لما يحدث، أذعن لساني دون مقاومة. كان يتحدَّث بمرحٍ استثنائي، وكان عطوفًا، كما لو كان حارسًا يعطف على كلب كسير.

تلعثمت وأنا أشكره عند عتبة المنزل. وقلت: «ليت بوسعي أن أخبرك ما تعنيه صداقتك لي. إنها ... إنها أهم ما حدث لي في حياتي. ما أعني قوله هو ...»، ولجأت إلى ما قد يفعله جندي بريطاني معقود اللسان عادةً.

نظر لي بعينَيه الساحرتَين، ولكن لم يبدُ فيهما أي عطف، فقط السيطرة والتعالي. أظن أنه كان راضيًا بامتلاكه شخصًا على استعدادٍ لأن يخدمه بجسده وروحه.

كنتُ راضيًا أنا أيضًا، وسرتُ مبتعدًا عن المنزل أشعر بسرورٍ أكبر مما شعرتُ به لأيام. وفكرت في أنه لا شكَّ في أن الأمورَ سوف تبدأ بالتحرُّك الآن. جاءني التشجيع في النادي أيضًا في صورة خطابٍ من ساندي. كان الخطاب يحمِل ختمًا بريديًّا فرنسيًّا لم أتمكن من قراءته، ولم يكن الخطابُ طويلًا، ولكنه شجَّعني كثيرًا.

> قال ساندي في الخطاب: «لقد حققتُ تقدمًا، ولكن لا يزال ثمة الكثير الذي يتعين عليَّ أن أفعله ولن يُمكننا التواصُل لبعض الوقت. ولكني سأُرسل لك من وقتٍ لآخر خطاباتٍ عليك أن تحرقها بعد قراءتها مباشرةً. سأوقع الخطاباتِ ببعض الحروف اليونانية — لا، لن تتمكَّن من قراءتها — بأسماء أحدث الخيول الفائزة في سباق الديربي. احفَظ هذا الأمر سرًّا بيننا؛ لا تُخبر أحدًا به ولا حتى ماك. وأرجوك لا تبتعِد عن إم واخدمه كأنك عبدٌ له.»

لم يحوِ الخطاب الكثير، ولكنه كان يبعث على الأمل، على الرغم من أن الوغد لم يكن يُخطط للعودة إلى الوطن قريبًا. تساءلت عما توصَّل إليه؛ فكرتُ في أنه من المؤكد أنه يقف على أرضٍ صلبة، فلم يكن ممَّن يتحدثون عن إحراز تقدُّمٍ باستخفاف.

لم يكن لديَّ شيء لأفعله ذلك المساء وبعد العشاء، ولم أكن أشعر بالتعب لدرجة أن أرغب في الجلوس لأُدخن وأقرأ. لم يكن يُوجَد أحد في النادي قد أرغب في التحدُّث إليه، فذهبتُ إلى حانة أخرى اعتدت الذهاب إليها حيث توجد فرصة للقاء أشخاص من الجيل الأصغر سنًّا والأكثر مرحًا. في واقع الأمر، كان أول من رأيته هناك هو آرتشي رويلانس الذي حياني بصوتٍ عالٍ وقال إنه أتى إلى المدينة منذ بضعة أيام لزيارة الطبيب. كان قد

مر بموقف عصيب في أحد سباقات الحواجز في وقت سابق من ذلك العام عندما كاد أن يكسر رقبتَه، ولكنه قال إنه استعاد لياقته كاملةً فيما عدا بعض التيبُّس في عضلات كتفيه. كان قد أُصيب إصابة بالِغة جعلته كسيحًا مثل البط بسبب سقوط طائرته خلال الحرب قبل الهدنة مباشرةً، ولكنه تعافى بسرعةٍ مذهلة. وبسبب طبيعته العنيدة، كان يسير أكثر مما اعتاد في السابق، وكان يؤدي مهمة تتبع الغزلان بحماسة. أظن أنني ذكرت سابقًا أنه كان شريكي في استئجار غابة ماتشراي.

اقترحت عليه أن نذهب إلى حفل موسيقي أو أن نحضر الفصل الثاني من إحدى المسرحيات، ولكن آرتشي اقترح فكرة أخرى. كانت إحدى تقليعاته الجديدة أنه أصبح مبتدئًا في الرقص، رغم أنه لم يكن راقصًا جيدًا قبل حادث التحطُّم الذي تعرض له، ولن يتمكن من الرقص ثانيةً أبدًا. قال إنه يرغب في مشاهدة أحدث الصيحات واقترح أن نذهب لنقضيَ ساعة في نادٍ صغيرٍ (وأضاف: منتقى) في مكان ما في ماريلبون، كان يعتقد أنه أحد أعضائه. قال إن سمعة النادي سيئة للغاية؛ إذ كانت تجري فيه مقامرات بمالِغ كبيرة، الأمر الذي كان مُخالفًا لقوانين الترخيص، لكنه مكان يمكن للمرء فيه مشاهدة أفضل عروض الرقص. لم أُبدِ اعتراضًا، فسِرنا في شارع ريجينت في ذلك الوقت من اليوم الذي يتَّسِم بهدوء لا يُضاهى بعدما عاد أصحاب الأشغال إلى بيوتهم وقبل أن تبدأ المسارح والمطاعم عملَها.

كانت ليلةً رائعة من ليالي شهر أبريل، وذكرتُ أنني أتمنَّى لو كنتُ في مكان أفضل حيث يُمكنني الاستمتاع بالطقس الربيعي. قال آرتشي: «عدتُ لتوِّي من المُستنقعات الاسكتلندية. يا إلهي! كانت طيور الكروان تملأ الدنيا بتغريدها المُبهج. إنها طيور تساوي ثقلها ذهبًا. عُد معي يا ديك يوم الجمعة، سأُعلمك الكثير من الأمور. أنت رجل حكيم، ولكن ربما كان من الأفضل لك أن تكون من محبي الطبيعة.»

فكرت في كمِّ العروض التي تلقيتُها ولا يمكنني قبولها، عندما هبت ريح خفيفة في شارع لانجام بلايس. ثم تمنيتُ لو أخرجتني المهمة من المدينة إلى الهواء الطلق، حيث يُمكنني التريض قليلًا. وكانت نتيجة ذلك أني كنت في مزاج سيِّئ عندما وصلنا إلى وجهتنا التي كانت في أحد الشوارع بالقُرب من ميدان فيتزروي. كان الدخول إلى المكان صعبًا وكأنه الفاتيكان. تطلَّب الأمر مناقشةً طويلة وبقشيشًا أعطاه آرتشي إلى البواب ليُقنعه بأننا من نوعية الحثالة المناسبة للمكان قبل أن يسمح لنا بالدخول. وجدنا نفسينا أخيرًا

في غرفة مُزدانة بزخارف صينية زائفة، ومضاءة بإضاءةٍ مبهرة، وكان عشرون زوجًا من الراقِصين يرقصون وحوالي عشرين زوجًا آخرين جالسين إلى طاولات صغيرة يشربون.

دفع كل منا خمس شلنات مقابل المشروبات، وعثرنا على طاولةٍ فارغة وبدأنا نشاهد العرض. بدا لي العرض برمَّته سيِّئًا وكئيبًا. كانت فرقة موسيقية من الزنوج تعزف، وبدا وكأن قرودًا ترتدي بِدَل سهرة، تُصدر نوعًا من أصوات الصليل غير المنغمة، وعرائس تحريك ذات وجوه حزينة ترقص على وقعِها. لم تكن هناك أي بهجةٍ أو إثارة في هذا الرقص، بل نوع من الإتقان المُمل. كان رجال نحيلون، برءوس تُشبه رءوس الأرانب وشعر مُصفف مستقيم نحو الخلف بدايةً من حواجبهم، اعتقدتُ أنهم شركاء رقص محترفون، يضمون إلى صدورهم نساءً من كل شكلٍ وعمر، ولكنهن اشتركن جميعهن في الأعيُن الخالية من الحياة وأقنعة التظاهر التي يضعنها على وجوههن، والحركات المُتقنة البشعة التي تُشبه حركات الآليين التي يؤدِّينها على إيقاع الزنوج. عليَّ أن أُقر بأن العرض كان رائعًا، ولكن لم أكن أُقدِّر بطبيعتي هذا النوع من الفنون.

قلت لآرتشي: «لا يمكنني تحمُّل المزيد من هذا.»

«إنه رقص سيِّئ. ولكن يُوجد راقص أو اثنان من ذوي الأداء العالي. انظر إلى تلك الفتاة التي تُراقص اليهودي الشاب، التي ترتدي الثوب الأخضر.»

نظرت إلى حيث يشير ورأيت فتاة نحيلة، حديثة السن جدًّا، ربما كانت جميلة، ولكن ملامحها اختفت خلف الكثير من مساحيق التجميل وطريقة تصفيف شعرها السخيفة. رغم أني لم أكن خبيرًا في الرقص؛ فقد رأيتُ أنها راقصة بارعة للغاية؛ فقد كانت كل حركة من حركاتها مُتعةً للعين، وكانت ترسم وحدَها لوحةً جميلة وسط هذا العرض القبيح. ولكني ذُهلت عندما رأيت وجهها. كان وجهها غامضًا، إذا كنتَ تفهم ما أقول، خاليًا من أي تعبيرات وكأنها مومياء، تجسيد مُريع للموتى الأحياء. تساءلتُ عن التجربة التي مرَّت بها هذه المسكينة لتجعلها تبدو أشبه بالسائرين نيامًا.

عندما حولتُ بصري بعيدًا عنها، لفتت نظري هيئةٌ أخرى بدت مألوفة. كان أوديل رئيس الخدم، مُتأنقًا للغاية ليقضي الليلة في الخارج؛ فقد كان يرتدي صديرية بيضاء وأزرار قميصه مُرصعة بالماس. كانت كل سمات الرجل تدل على أنه مُلاكم مُحترف بعدما رأيته خارج عمله؛ كنت قد رأيت عشرات مثله يقفون خلف مشارب الحانات الرياضية. لم يرني، ولكني كنت أراه جيدًا، ولاحظت أنه هو أيضًا كان يُراقب الفتاة التي ترتدي الثوب الأخضر.

سألت آرتشي. «هل تعرف مَن تكون؟»

«إحدى الراقصات المُحترفات. يا إلهي، إنها بارعة في الرقص، ولكن المسكينة تبدو وكأنها تعيش حياة عصيبة. أودُّ أن أتحدَّث إليها.»

ولكن الموسيقى توقفت في تلك اللحظة، ورأيتُ أوديل يشير إلى الراقصة. فتوجهت نحوه في طاعةٍ وكأنها كلبتُه الأليفة، فقال شيئًا ما لرجل آخر بصحبته، رجلٍ ذي لحية سوداء، وخرج الثلاثة من الباب الذي يقع على الناحية الأخرى من القاعة. بعد لحظاتٍ لمحتُها وقد وضعت عباءة على كتفَيها وتخرج من نفس الباب الذي دخلنا منه.

ضحك آرتشي. وقال: «ربما كان ذلك الرجل الضخم الجثة زوجها. أراهن أنها تُنفق على كليهما من عملِها راقصةً في مثل هذا المكان، وأنه يضربها كل ليلة. سأتلو صلاتي الأخيرة قبل أن أُفكر في مواجهة هذا الرجل.»

الفصل الثامن

الراقصة الغامضة

أتذكر أيام الانتظار تلك؛ كانت من أسوأ أيام حياتي. كنت قد أصبحت في ذلك الوقت أمتلك قناعةً تامة بأن مِدينا هو حلُّ هذا اللغز برمته، ولكنني لم أكن قد توصلت حتى تلك اللحظة إلى أي شيءٍ يستحق الذكر، وكنتُ مُضطرًا إلى الانتظار مثل المريض الذي ظلَّ ينتظر بجوار بركة حتى يحرك شيء ماءها. كان عزائي الوحيد هو تلك الكراهية الخالصة العتيقة الطراز تجاه الرجل، التي أصبحت تملأ صدري. لم أحاول إقناع نفسي بأني أفهم ما يزيد على قسمٍ صغير من شخصية الرجل، ولكني كرهتُ القسم الذي فهمته. كنت تابعًا له كعبد، وكانت كل قطرةٍ من دمائي الحرة تفور في عروقي؛ ولكني قررتُ أيضًا أن أتظاهر بأني عبد ذليل يُقَبِّل الأرض تحت قدمَي طاغية. يومًا ما سأثأر لنفسي، ووعدتُ نفسي بأن أنتقِم منه على كل شيءٍ فعله معي. وفي الوقت نفسه، حمدت الرب على أن غروره يُعميه، ما سيحجُب عنه نقاط الضعف في تظاهري بالخضوع له.

لم نكن نفترق أغلب أيام الأسبوع. فقد تناولنا الغداء معًا يومَين من إجمالي ثلاثة أيام، وذهبنا بالسيارة إلى برايتون أكثر من مرة طلبًا للهواء الطلق. كما دعاني إلى حفل عشاء أعده في مجلس العموم على شرف أحد رجال الدولة الكنديين الذي جاء إلى بريطانيا في زيارة، واصطحبني إلى حفل راقص راقٍ للغاية في منزل الليدي أميسفورت، كما أوصى بدعوتي إلى حفلٍ في عطلة نهاية الأسبوع أُقيم في ويرلسدن لأنه كان سيحضره. نفذتُ جدوله بالكامل تأديةً للواجب، ولكن ليس دون استمتاع بوقتي. في واقع الأمر، كانت معاملته لي رائعة في حضور أشخاصٍ آخرين؛ كان يُعاملني بودٍّ شديد، وكان يسألني دائمًا عن رأيي، ويُعاملني باحترامٍ ويسمح لي بالكلام، لدرجة أن بعضًا من الأشخاص الذين التقيتُهم وكانت ثمة معرفة سابقة بيننا تساءلوا عن التغيير الذي طرأ عليَّ. وصل

لماري خطاب من أحد أبناء عمومتها يُخبرها فيه بأني أصبحتُ رجل مجتمع وأني أُبلي بلاءً حسنًا في هذا المجال؛ وأرسلت ماري الخطاب لي مُذيَّلًا بملاحظة تهنئة كتَبَتها بقلم رصاص. خلال تلك المناسبات، لم أكن أواجه أي صعوباتٍ في أداء مهمتي؛ فقد وقعتُ دون أن أشعر أسيرًا لسحر الرجل وكان من السهل عليَّ أن أؤدي الدور الذي يريد. ولكن أسلوبه معي كان يتغير عندما نصبح بمفردنا. فيتسلل الجفاف إلى نبرة صوته، وعلى الرغم من أنه كان لطيفًا بالقدر الكافي، فإنه لم يكن يكلف نفسه عناء تفسير الكثير من الأمور، وأصبح أسلوبه السلطوي مُعتادًا أكثر فأكثر. كنتُ معتادًا أن أعود إلى مكان إقامتي بعد هذه المناسبات وأنا أجزُّ على أسناني حنقًا. لم أعمل أبدًا في وظيفة أسوأ من الخضوع الطوعي لهذه السيطرة الوقحة.

حاولت مرارًا وتكرارًا، عندما كنتُ أنفرد بنفسي في غرفة نومي في النادي، أن أُجَمِّع الحفنة الصغيرة من الحقائق المؤكدة، ولكنها كانت تبدو دائمًا بقايا كثيرة من أحاجي مختلفة ولم تكن أي منها متوافقة مع أي من الأخريات. أخبرني ماكجيليفراي أنه لم يتوصل إلى شيء بشأن أوديل حتى تلك اللحظة، وأن المراقبين لميدان بالميرا لاحظوا أن المنزل المرصود لا يتلقى زيارات كثيرة فيما عدا التجار وعازفي الأرغن المُتجولين. ولم يرَ أي منهم سيدًا محترمًا يدخل المنزل أو يخرج منه، وعليه، يبدو أن تقديري لازدهار عمل مدام بِريدا كان خاطئًا. كانت ثمة امرأة دائمة الخروج من المنزل والعودة إليه، ولكنها لم تكن تخرج أبدًا سيرًا على قدمَيها، فكانت إما تركب سيارة أجرة أو سيارة خاصة، وعلى الأرجح أنها كانت المرأة نفسها في كل مرة، ولكنها كانت ترتدي دائمًا قلنسوةً وتُخفي ملامحها لتجعل التحديد المؤكد لهويتها أمرًا صعبًا. كانت ثمة الكثير من الملاحظات قليلة الأهمية؛ منها أن كميات كبيرة من الفحم أو حطب المدفأة تُوَصَّل إلى المنزل، وأن المرأة التي تُخفي ملامحها مرتَين فقط خرجت من المنزل مساءً ثم عادت بعد ساعتَين، ولكنها غالبًا كانت تخرج من المنزل نهارًا، وأن المُقيمين في المنزل يستيقِظون في وقت متأخر من النهار وينامون في وقتٍ مبكر من الليل، وأن صوتًا يشبه البكاء سُمع صادرًا من المنزل مرةً أو مرتَين ولكنه ربما كان صوت قِط. كان التقرير بوجهٍ عامٍّ هزيلًا، ورأيتُ أني إما اتبعت مسارًا خاطئًا، وإما أن عملاء ماكجيليفراي عديمو النفع.

ماذا كان لدي غير ذلك؟ شك واضح ومبرَّر في مِدينا. ولكن ما سبب شكي فيه؟ لم يكن سبب ذلك يرجع إلى طريقة تعامُله معي التي أكرهها فحسب، بل أيضًا لأنه كان يعمل في نوع قبيح من التنويم المغناطيسي، وأني كلما ازددتُ اقترابًا منه، قَلَّ إعجابي به.

أدركتُ أن السمعة التي يتمتع بها في المجتمع زائفة، ولكنه لم يقترف جرمًا يُمكنني اتهامه به سوى الغرور. كان يعمل لدَيه رئيس خدم كان ملاكمًا محترفًا في الماضي، كما أنه كان من رواد الملاهي الليلية. أتذكر أني كتبتُ كل ذلك، وجلستُ أحدق فيما كتبتُ ذاهلًا، شاعرًا بمدى تفاهة الأمر برمته. بعدها دوَّنتُ القصيدة ذات الأبيات الستة، وحدقت فيها أيضًا، وفكرتُ في الفتاة، والشاب، والصبي الصغير الذي يهوى الطيور وصيد الأسماك. لم أكن أملك أي دليل يربط بين مِدينا وحالات الاختطاف، فيما عدا اعتقاد توم جرينسليد أنه سمع منه المعطيات الثلاثة التي ظهرت في القصيدة بشكلٍ ما، ولكن من المُحتمَل أن يكون توم مخطئًا، أو أن مِدينا عرف هذه المُعطيات بطريقة لا غُبار عليها. لم أكن أملك دليلًا يكفي لاتهامه بأي شيء. ولكن، كلما زاد تفكيري في أمر مِدينا، زادت شخصيته غموضًا وخبثًا في ذهني. كانت لديَّ قناعة، راهنتُ عليها بحياتي، بأني إذا ما ظللتُ مُلازمًا له؛ فقد أتوصل إلى بعض الحقائق الضرورية الدامغة؛ لذا، من دون أملٍ كبير أو قوي، بل بثقة تامة، قررتُ للمرة المائة أن أدع المنطق يتدخَّل ويدعم تخيلاتي.

من باب الواجب، زرت الطبيب نيوهوفر مرة أخرى. استقبلني دون تكلف، وبدا أنه نسي حالتي حتى بحث عنها في مفكرته.

وقال: «نعم، لقد زرت مدام بِريدا. وصلني تقريرها. لقد عالجَت صداعك، ولكنك لا تزال مُتوعكًا قليلًا، أليس كذلك؟ نعم، إذا سمحت. اخلع معطفك وصديريتك.»

فحصني بدقةٍ بالغةٍ، ثم جلس على مقعد مكتبه وبدأ يضرب ركبته بنظارته.

ثم قال: «لقد أصبحت حالتك أفضل، أفضل كثيرًا، ولكنك لم تُشف بعد. سيتطلب الأمر وقتًا ورعاية، ويرجع برمته، بالطبع، إليك. هل تعيش حياة هادئة؟ نصف حياتك تقضيه في المدينة والنصف الآخر في الريف؛ ربما ليست الحياة الأمثل لتحسُّن حالتك. حسنًا، لا أظن أن حالتك ستتحسن إن ظللتَ تعيش هكذا.»

«لقد قلتَ شيئًا عن صيد الأسماك في النرويج عندما زرتك المرة الأخيرة.»

«لا، طبقًا لحالتك العامة، لا أنصحك بذلك. إن حالتك مختلفة قليلًا عما افترضتُ في البداية.»

قلت. «هل تهوى صيد الأسماك؟»

قال إنه بالفعل يهوى صيد الأسماك، وتحدث لبضع دقائق مثلما يتحدث البشر. كان يستخدم دومًا صنارة كاسل كونيل المكونة من قطعتَين، ولكن كان وضعها ضمن أمتعة السفر كابوسًا. أما الطعوم، فشدَّد على ذكر هارلوز؛ لا شك في أنهم أفضل من

يبيع الطعوم النرويجية. وارتأى أن ثمة اختلافات بين أنهار النرويج أكثر مما يظن أغلب الناس، وأن هارلوز يدركون ذلك.

واختتم حديثه بإعطائي بعض التعليمات البسيطة التي تتعلق بنظامي الغذائي والتريض.

سألته. «إذا ما عاد الصداع ليغزو رأسي، هل أذهب لزيارة مدام بِريدا مجددًا؟»

هز رأسه نفيًا. وقال: «الصداع لن يعود.»

دفعت له أتعابه، وبينما كنت أهم بالانصراف، سألته عما إذا كان سيحتاج إلى رؤيتي مجددًا.

فقال: «لن يكون هذا ضروريًّا. حتى فصل الخريف على الأقل. ربما أقضي قسمًا كبيرًا من هذا الصيف خارج لندن. وإذا شعرتَ بالمرض مجددًا، الأمر الذي لا أتوقع أن يحدُث، فلا بد بالطبع أن تأتي لزيارتي. وإذا ما كنتُ خارج المدينة، فيمكنك زيارة زميلي.» ودَوَّنَ اسمًا وعنوانًا على ورقة.

خرجت من المنزل متحيرًا للغاية. بدا الطبيب نيوهوفر خلال زيارتي الأولى مهتمًّا بصحتي للغاية، ولكنه كان يبدو الآن وكأنه يُريد التخلُّص منِّي. كان أسلوبه يُشبه تمامًا أسلوب تعامل طبيبٍ منشغل مع مريض متوهِّم. الغريب في الأمر هو أني بدأت أشعر بالمرض بالفعل، وربما كان هذا عقابي على تمارُضي سابقًا. ربما كانت تلك ردة فعل جسدي على قلقي الذهني، ولكني كنت أشعر بشعور غريب غير مُحدد أعتقد أنه يسبق إصابتي بالأنفلونزا. ولكني كنتُ حتى هذه اللحظة منيعًا ضد الأنفلونزا.

تلقيتُ تلك الليلة خطابًا آخَر من ساندي كان عبارة عن نصف ورقة مكتوب عليها بالآلة الكاتبة ويحمِل ختم بريد باريس.

> كانت فحوى الخطاب كالآتي: «حافظ على قُربك من إم. افعل كل ما يريده منك. وضِّح له أنك قد قطعتَ علاقتك بي دون رجعة. هذا أمر على جانبٍ كبير من الأهمية.»

ذُيِّل الخطاب بتوقيع «بوكان»، وهو اسم حصان كان ساندي يعتقِد أنه أحد خيول السباق الفائزة. كانت معرفته بسباقات الخيول مثل معرفتي باللغة الصينية.

استيقظتُ صباح اليوم التالي بطعم سيِّئ في فمي وشعور بأني ربما أُصاب بالملاريا. لم أُصَب بالملاريا منذ خريف عام ١٩١٧، وأزعجتني فكرة أني قد أُصاب بها مجددًا.

ولكني أصبحتُ في حالٍ أفضل عند الضُّحى، وبحلول الظهر، أدركتُ أني لن أمرض. ولكني كنتُ متوترًا مثل قِط وسط عاصفةٍ رعدية. انتابني ذلك الشعور الغريب بالترقُّب الذي اعتدت أن يُراودني قبل المعارك، وشعور خفي بالاضطراب ليس مُبهجًا بأي حالٍ من الأحوال؛ لم يكن قَلَقًا بالمعنى المُتعارَف عليه، بل شيء شديد الشبَه به. جعلتني هذه الأحاسيس أرغب في رؤية مِدينا، كما لو أن ثمة موضوعًا عالقًا بيننا يجب إنهاؤه.

ظل ذلك الشعور المشابه للشعور الذي ينتاب المرء أثناء جلوسه في غرفة استقبال طبيب الأسنان يُراودني طوال فترة ما بعد الظهر، وكدتُ أن أرتاح عندما وصلتني رسالة هاتفية في حوالي الخامسة من شارع هيل تطلُب مني التوجُّه إلى هناك في تمام السادسة. توجهتُ إلى نادي السباحة، حيث سبحت قليلًا وغسلت شعري بالشامبو، ثم توجهتُ إلى منزل مِدينا. في الطريق شعرت برجفةٍ في ساقَيَّ وببرودة في فُم معدتي، الأمر الذي أعاد لي ذكرى آلام الأسنان التي كنتُ أعاني منها خلال طفولتي. نعم، إنها هذه الآلام. كان شعوري مُماثلًا لشعور صبي صغير يترقَّب مغمومًا أن تُخلَع سِنُّه، ولم يتمكن كلُّ ما لدَي من توبيخٍ من إنهاء ذُعري. عندما وصلتُ إلى المنزل، بدا لي أكبر حجمًا وأكثر عزلةً مما رأيته من قبل، أظلمت تلك الليلة من شهر أبريل سريعًا وهبَّت رياح باردة مترِبة تحت سماء ملبدة بالغيوم.

كان أوديل هو من فتح لي الباب، وأدخلني إلى ردهة المنزل الخلفية حيث رأيتُ مصعدًا لم أكن أعرف أنه موجود. صعدنا بالمصعد إلى الطابق العلوي من المنزل، وأدركتُ أني على وشك الدخول مجددًا إلى المكتبة التي قضيت فيها سابقًا ساعات منتصف الليل الغريبة.

كانت الستائر مُسدلةً حاجبةً ضوء الغسق الربيعي الكئيب، وكانت الغرفة تُدَفَّأ بنار مدفأة كبيرة يحترق فيها الحطب، وكانت أيضًا الإضاءة الوحيدة في الغرفة. شممتُ رائحةً أخرى وسط رائحة الخشب المُحترق، فكانت ثمة بقايا نباتية تحترق في الفراغات بين خشب السنديان. لم تستحضر الرائحة الذكريات الكثيرة التي شممتُ فيها عبق البقايا النباتية في أماكن مُبهجة، بل ذكرى رائحة تلك الغرفة في ميدان بالميرا عندما رقدت معصوب العينَين وشعرت بأنامل خفيفة تلمس وجهي. انتابني فجأة شعور بأني قد أحرزتُ تقدمًا كبيرًا، وأن أمرًا مقدرًا على وشك الحدوث، وسقطَتْ عصبيتي من على كتفيَّ كالعباءة.

كان مِدينا واقفًا أمام المدفأة، لكنه لم يكن من استرعى انتباهي. كان ثمة شخص آخر في الغرفة، امرأة. كانت تجلس على المقعد عالي الظهر الذي كان مِدينا يجلس عليه الليلة السابقة، وكانت تجلس عليه وكأنها تجلس على عَرْش. أضاء ضوء نار المدفأة وجهها، ورأيتُ أنها قد بلغت من العمر أرذله، وأكسبتها الشيخوخة تلك البشرة الشمعية الشاحبة، إلا أن وهج النار صبغ بشرتها الشمعية بلون وردي. كان ثوبها مفرودًا وأسود وكأنه معطف طويل، وكانت تضع شرائط سميكة حول معصمَيها وعُنقها. كان شعرها رائعًا وكثيفًا، ومكومًا فوق رأسها، وكان ناصع البياض ناعمًا كالحرير. كانت تسند يدَيها على مسندي المقعد، وكانت يداها أكثر يدَين رقيقتَين وجميلتَين رأيتهما في حياتي رغم أنهما كانتا تُوحيان بامتلاكهما لقوة شديدة، كما لو كانتا مخالب طائر جارح.

ولكن وجهها هو ما أذهلني. كنتُ دومًا معجبًا بجمال كِبَر السن، خاصةً في النساء، ولكن جمال هذا الوجه كان جمالًا لم أحلُم بمثله من قبل. كان وجهها طويلًا، وملامحها كبيرة، ولكنها كانت متناسقة بشكلٍ رائع. عادةً ما يُوجَد في الوجوه المُسنة تغضُّن في عضلاتها أو اضمحلال لقسماتها، ما يجعلها تنحرف قليلًا عن المعنى المتعارَف عليه للجمال نحو جاذبيةٍ من نوعٍ مختلف. ولكن هذا الوجه كان خاليًا من التغضن والاضمحلال؛ فقد كان الفم حازمًا، ومنحنى الذقن دائريًّا، وقوس العينَين شامخًا مثل شابة فخورة.

ثم رأيتُ أن العينين اللتين ترمقان النار كانتا أكثر عينين مميزتين رأيتهما في حياتي. فحتى في هذا الضوء الخافت تمكنتُ من رؤية أنهما كانتا شديدتَي الزرقة. ولم تكن ثمة أي غشاوة أو ضعف بصر قد يفسد روعتهما. ولكني رأيت أيضًا أنهما ضريرتان. لا أعلم كيف عرفتُ ذلك، فلم تكن ثمة أي دلالة مادية عليه، إلا أن قناعتي بذلك كانت فورية وتامة. لم تكن هاتان العينان الرائعتان الشبيهتان بنجمتين تريان النور. أعين أغلب المكفوفين تُشبه كراتٍ زجاجية، نوافذ ميتة لمنزلٍ خالٍ، ولكنهما — كيف قد أصف هاتَين العينَين؟ — كانتا ستارتَين معتمتَين مسدلتَين في غرفة مليئة بالنور والحياة، كانتا أشبهَ بستائر مسرح تدور خلفها دائمًا أحداث درامية عظيمة. على الرغم من أن هاتَين العينَين كانتا كفيفتَين، بدا أنهما تشعَّان حيوية مُتوهجة، وأنهما تلمعان وتبرقان مثل الروح التي تقبع خلفهما.

أدركتُ أنه أروع وجه امرأة رأيتُه في حياتي. وأدركتُ في الوقت نفسه أني كرهتُه؛ فقد كان جمالُه شيطانيًّا، وكانت الروح في داخلِه تمور بكل الحقد النابع من الجحيم.

سمعت صوت مِدينا يقول: «هاناي، أحضرتُك إلى هنا لأني أردتُ أن أُعَرِّفك على أمي.»

تصرفتُ كما لو كنتُ مُمثلًا مسرحيًّا. فتقدمتُ نحو مقعدها، وأمسكتُ بإحدى يدَيها، وقبلتُها. بدا لي أن هذا هو التصرُّف المناسب. التفت الوجه نحوي، وشقَّت جمودَه ابتسامة، ابتسامةٌ تُشبه الابتسامات التي قد تراها على وجوه تماثيل الآلهة الإغريقية الرخامية.

خاطبَت المرأةُ مِدينا بلغةٍ لم أعرفها، وردَّ عليها. بدا أن أسئلةً وأجوبةً كثيرة تدور بينهما، ولكني لم أُكلف نفسي عناء محاولة البحث عن كلمة أعرفها. كنتُ منشغلًا بالصوت. لاحظتُ فيه تلك النبرة الناعمة التي ظلت تتردَّد في أُذنَي بينما كنتُ راقدًا في تلك الغرفة في ميدان بالميرا. واكتشفت مَن كان الشخص الثالث في ذلك المشهد.

ثم خاطبتني المرأة باللغة الإنجليزية، بلكنة لا تخلو من ذلك الإيقاع الغريب الذي حاولت تعقُّب مصدره بلا طائل.

«أنت صديق دومينيك، وأنا سعيدة بلقائك يا سير ريتشارد هاناي. لقد أخبرني ابني عنك. هلَّا جذبتَ مقعدًا وجلست بالقرب مني؟»

جذبتُ مقعدًا وثيرًا منخفضًا وطويلًا، وكان طويلًا ومنخفضًا للغاية لدرجة أن الجالس عليه سيُضطر إلى الاستلقاء. كان رأسي في نفس مستوى يدِها التي تضعها على مسند مقعدها. شعرتُ فجأة بتلك اليد تُوضَع على رأسي، وعرفتُ الآن لمستَها بعدما عرفتُ صوتها.

قالت: «أنا كفيفة يا سير ريتشارد، ومن ثَم لا يُمكنني رؤية أصدقاء ابني. ولكني أتوق إلى معرفة أشكالهم، ولديَّ أكثر من حاسَّة يمكنها أن تجعلني أعرف ذلك. هل تسمح لي بأن أُمرر يدي على وجهك؟»

قلت: «يمكنك فعل ما يحلو لك يا سيدتي. أتمنَّى لو كنتُ قادرًا على رد بصرك إليك.»

فقالت: «كلامك جميل. ربما تُصبح من المُقربين إليَّ.» وشعرت بالأنامل الرقيقة تعبث بجبهتي فوق حاجبَي.

كنتُ في وضعيةٍ تجعل نظري مُنْصَبًّا على الجزء المركزي المتوهِّج من النار، مصدر الضوء الوحيد في الغرفة، المُسدلة الستائر. كنت أعرف ما بصدد أن يحدث، فحولت بصري، متذكرًا التجربة السابقة، نحو الملفات الغارقة في الظلام الموضوعة على الأرفف السُّفلية خلف المدفأة. بدا الأمر وكأن الأنامل ترسم وشمًا برفقٍ على صدغَي، ثم بدأت ترسُم خطوطًا طويلة بنعومة عبر حاجبَي. شعرت بخمول مُبهج بدأ يزحف على عنقي

وعمودي الفقري، ولكني كنتُ مستعدًّا جيدًا، وقاومت هذا الشعور بسهولة. لا شك في أن ذهني كان منشغلًا؛ فقد كنتُ أخطط لأفضل طريقة لممارسة لعبتي. أرجعت رأسي أكثر فأكثر وأرحتُها على ظهر مقعدي المبطن، وتركت جفنَي ينسدلان.

كانت الأنامل الناعمة دقيقة للغاية، فتركت نفسي أسقط إلى الخلف بعيدًا عن متناولها قبل أن تتوقف عما تفعله.

قال الصوت: «أنت نائم. استيقظ الآن.»

لم أدرِ كيف سأتظاهر بالاستيقاظ، ولكنها جنَّبتني عناء التفكير في ذلك. فهسَّ صوتها مثل الأفعى فجأة. وقالت: «قف! أسرِع؛ هيا، لا تتلكأ.»

هببتُ واقفًا على قدمَي بحيوية بالِغة، ووقفت أُحدق في النار متسائلًا عما يجدُر بي فعله بعد ذلك.

قال الصوت مُجددًا بلهجةٍ آمرة كما لو كان صوت رقيبٍ في الجيش: «انظر إلى سيدك.»

أعطاني هذا الأمر دليلًا على ما يجدُر بي فعله. كنتُ أعرف أين يقف مِدينا، فرمقته عيناي مثل الخادمة التي ترمق سيِّدَها، كما ورد في الكتاب المقدس. وقفتُ أمامه ذاهلًا ومشدوهًا ومُطيعًا.

فصاح: «انزل. انزل على أطرافك الأربعة.»

فعلت كما أُمرت مُمتنًّا لأنه تبيَّن أن مُهمتي كانت سهلة للغاية.

«اتَّجِهْ ناحية الباب؛ لا، على أطرافك الأربعة، افتحه مرتَين، وأغلِقه مرتَين، وأحضر لي فتاحة الخطابات من على الطاولة البعيدة تحملها بفمك.»

أطعتُ الأوامر، ولا شك في أن شكلي كان غريبًا بينما أتبختر على أطرافي الأربعة عبر الغرفة، كنتُ رجلًا عاقلًا يتصرَّف وكأن به مسًّا من الجنون.

أحضرتُ فتاحة الخطابات، وبقيتُ على أطرافي الأربعة مثل الكلب. قال: «انهض»، فنهضتُ.

سمعتُ المرأة تقول بصوتٍ ملؤه النصر: «لقد انكسر تمامًا»، وضحك مِدينا.

وقال: «بقي الاختبار الأخير. وسأضعه فيه الآن. إذا فشل فيه، فذلك يعني أنه لا يزال بحاجةٍ إلى المزيد من الترويض. لن يُمكنه التذكُّر، فعقله الآن ملك لي. لا تُوجَد أي مخاطرة.»

سار نحوي، وصفعني على وجهي بقوة.

تقبلتُ الصفعة في خنوع تام. لم أكن أشعر بالغضب حتى. في الواقع كنت سأُعطيه خدي الآخر كما ينصُّ الكتاب المقدس، ولكني فكرتُ في أن هذه قد تكون مبالغةً في التظاهر.

ثم بصق في وجهي.

أُقِرُّ أن هذا الفعل أزعجني كثيرًا. كان هذا الفعل أشبَهَ بأفعال الزنوج الأفارقة القذِرين، وواجهتُ صعوبة في تقبُّله في خنوع. ولكني نجحتُ في تمالك نفسي. ثَبَّتُّ عينَي على الأرض، ولم أُخرج حتى منديلي لأمسح به خدي إلا بعدما أشاح بوجهه عني.

وسمعته يقول: «لقد انكسر تمامًا. الغريب في الأمر أن هؤلاء الإنجليز الجبارين يخضعون بسهولةٍ أمام أي شخصيةٍ أقوى من شخصياتهم. لقد جعلته سلاحًا مفيدًا طوع يدي، يا أُمي.»

لم أسترع المزيد من انتباههما بعد ذلك وكأني قطعة أثاث، وكنتُ كذلك بالفعل بالنسبة لهم. كنت نائمًا، أو بالأحرى مُستيقظًا في عالَم خيالي، ولم أتمكن من العودة إلى حياتي العادية حتى أمراني بذلك. كانا يحسبان أنه لا يُمكنني أن أتذكر شيئًا سوى ما يُريدان منِّي تذكُّره. كان مِدينا جالسًا في مقعدي، ووضعَتِ المرأة يدَها على رأسه، وكانا يتحدَّثان كما لو كانا وحدَهما في الصحراء. ظللتُ طوال تلك الفترة واقفًا في مكاني على السجادة مرتبكًا، لا أجرؤ على الحركة، وأتنفَّس بالكاد، خشية أن أكشف تظاهري برمته.

كانا يبدوان كلوحة فنية جميلة؛ «عودة الابن الضال» أو «كبار السن في المنزل» لسمبكينز، الأكاديمية الملكية، ١٨٨٧. لا، بحق السماء، لم يكن ثمة ما يدل على ذلك. كان مشهدهما الذي أراه أمامي مذهلًا وحزينًا. كان الضوء المتراقص الصادر عن النار يسقط على هيئتَين تتَّسِمان بالجمال والوقار العتيقَين. كانت الهيئة العامة للمرأة، وضعية جسدها المذهلة، وصوتها الناعم بموسيقاه الغريبة، عالَمًا خاصًّا لم يعرف السوقية قط، وكذلك كان الرجل الرشيق المُفعم بالحيوية وقسمات وجهه الفخورة. كانا أشبه بملكٍ وملكة في المنفى يُصدران مرسومًا بإراقة بحر الدم الذي سيُعيدهما إلى عرشهما. لاحظتُ للمرة الأولى أنه على الرغم من أنه ربما كان مِدينا شريرًا، فإنه أيضًا عظيم. نعم، الرجل الذي بصق عليَّ وكأني عامل في الإسطبل كان يمتلك أيضًا سمات أمراء. وأدركتُ أمرًا آخر. سوَّت لمسة المرأة الشعر فوق جبهته، والذي كان يُصففه في تصفيفة مربعة، ورأيت في الضوء الصادر عن النار هيئة رأسه في مقابل الستارة البيضاء خلفه، وكان مُستديرًا ككرة قدم. كنت قد شككتُ في ذلك عندما التقيتُه أول مرة، والآن تيقنتُ منه. بمَ يُنبئ رأس بهذا

الشكل؟ راودتني ذكرى غامضة بأني سمعتُ من قبل أنه يعني الجنون؛ الانحطاط على أقل تقدير.

كانا يتحدَّثان بسرعة وبلا توقف، ولكن ما أثار غضبي هو أني لم أتمكن من سماع إلا القليل من حديثهما. كانا يتحدَّثان بصوت خفيض، وكنتُ أبعد عنهما مسافة ثلاث ياردات، ولم أجرؤ على التحرك ولو لبوصةٍ واحدة مقتربًا منهما. كما أنهما كانا يتحدَّثان بلغةٍ لا أعرف منها كلمةً واحدة، ربما كانت لغة الشوكتاو، وربما كانت الأيرلندية. لو كنت أعرف تلك اللغة، كنت سأعرف حينئذٍ كل ما كنتُ أريد معرفته. ولكن، كان مِدينا يتحدث بالإنجليزية في بعض الأحيان، ولكن بدا لي أن المرأة كانت تحاول باستمرار أن تُعيده إلى التحدُّث باللغة الأخرى. كان كل ما سمعتُه جملًا غير كاملة أغاظتني بشدة.

كان ذهني مُنتعشًا ولا يهدأ. هذه المرأة هي الغازلة الكفيفة المذكورة في القصيدة. لا شك في ذلك. يُمكنني تخيُّلها تغزل بجوار نار تستعر في الفحم النباتي، تؤجج نار الكراهية والجنون القديمة، وتدندن أشعارًا مَنسية. «بجوار الشجرة المقدسة.» إنها ليست إجدراسيل! نعم، إنها جوسبل أوك. يا إلهي، يا لي من أحمق لأني لم أُخمِّن ذلك سابقًا! جعلتني سعادتي بحلِّ أحد الألغاز الثلاثة بشكلٍ صحيح تمامًا أرغب في الصراخ. هذان المُحتالان يملكان حلَّ الأحجية بأكملها، كل ما عليَّ فعله هو مواصلة أداء الشخصية التي أتقمَّصها حاليًّا حتى أتمكن من حلِّها. كانا يحسبان أنهما يتعامَلان مع أحمق تمكنا من تنويمه مغناطيسيًّا، ولكنهما كانا يتعاملان في الحقيقة مع رجل متَّقِد الذهن بصورة غير طبيعية لا تتناسب مع رجل إنجليزي مُسن بطيء الحركة. كنتُ أتمنى لو عرفت ما يتحدثان بشأنه. لا شك في أنهما كانا ينشران أنباءً مغلوطةً عن بلدي، أو يُخططان لتدمير حضارتنا من أجل حلمٍ جنوني.

قال مِدينا في نفاد صبر شيئًا عن «الخطر»، كما لو أن غرضه هو الطمأنة. ثم لم أتمكَّن من فهم شيءٍ مما يُقال طوال بضع دقائق، حتى ضحك وكرر كلمة «الثاني.» كنتُ أبحث عن ثلاثة أشخاص، وإذا كان ثمة «ثانٍ»، فلا بد من وجود «أول» وربما «ثالث.»

قال مدينا: «إنه أسهل من يمكن التعامل معه. ومن الضروري أن يعود جيسون. لقد قررت أن يخرج الطبيب من الصورة. ليس لوقت طويل؛ حتى منتصف الصيف فقط.»

شدَّ التاريخ انتباهي بشدة. وكذلك فعلت الكلمات التالية؛ فقد استطرد قائلًا:

«بحلول منتصف الصيف سيُسَيِّلون أموالهم ويُصَفُّون أعمالهم. فلا خوف من عدم نجاح خطتنا. لعلكِ تذكرين أننا نملك الأفضلية. ثقي بي، سيسير كل شيءٍ وفقًا للخطة، ثم سنبدأ حياةً جديدة ...»

ظننتُ أنها تنهَّدت، وتحدثت بالإنجليزية للمرة الأولى قائلة:

«أخشى في بعض الأحيان أن تكون قد نسيت وطنك يا دومينيك.»

لف ذراعه حول رأسها وجذبها نحو رأسه.

وقال: «محال يا أمي. تكمُن قوتنا في أننا نبدو وكأننا نسينا، ولكننا في الحقيقة لا ننسى.»

بدأتُ أشعر أن وقوفي على سجادة المدفأة هكذا مُرهق للغاية. كنتُ مضطرًا لأن أظل ثابتًا تمامًا، فربما سينظر مِدينا نحوي من وقتٍ لآخر، وكنت أعلم أن المرأة قوية السمع كالكلاب. ولكن بدأت ركبتاي ترتجِفان من التعب وبدأ رأسي يدور، وخشيتُ أن أسقط فجأة مغشيًّا عليَّ مثلما يحدث مع الجنود الذين يقفون حرسًا حول التوابيت الملكية. بذلتُ قصارى جهدي لكي أتغلَّب على التعب المتزايد، وأملتُ أن أتناساه عبر توجيه تركيزي بالكامل للجُمَل الناقصة التي أسمعها من وقتٍ لآخر.

كان مِدينا يقول: «لديَّ أخبار من أجلكِ. خاراما في أوروبا، ويقترح أن يأتي إلى إنجلترا.»

«هل ستقابله؟» ظننتُ أنني سمعتُ نبرة قلقٍ في صوتها.

«بالتأكيد. أُفَضِّل رؤيته على رؤية أي إنسانٍ آخر على وجه الأرض.»

«كن حذرًا يا دومينيك. أُفَضِّلُ أن تقتصر على معارفك القديمة. أخشى تلك المعارف الجديدة القادمة من الشرق.»

ضحك. وقال: «إنها لا تقلُّ قِدَمًا عن معارفنا، وربما أقدم. وجميع المعارف واحدة. لقد تذوقت تعاليمه بالفعل، ولا بد أن أتشرَّبها بالكامل.»

كان هذا آخِر شيءٍ سمعته، ففي هذه اللحظة، خرجتُ من المشهد بطريقةٍ لم أكن لأفعل أفضل منها ولو ظللتُ أفكر فيها مليًّا. فقد خارت ساقاي فجأة من تحتي، ودارت الغرفة من حولي، وسقطتُ على الأرض مغشيًّا عليَّ. ولا بد أني سقطت بقوة؛ فقد كسرتُ ساقَ إحدى الطاولات الصغيرة.

عندما استعدت وعيي، بعد دقيقةٍ أو اثنتَين على ما أظن، كان أوديل يبلل وجهي بالماء، وكان مِدينا يقف قريبًا منَّا مُمسكًا بزجاجة براندي وعلى وجهه أمارات جدِّيةٍ وقلق.

قال بطريقة صديق قلِق: «صديقي العزيز، لقد أرعبتني. هل أنت مريض؟»

«لم أكن أشعر أني بحالٍ جيدة طوال اليوم، وأظن أن جوَّ الغرفة الحار أفقدني الوعي. أنا آسف للغاية على حماقتي. يؤسِفني أنني حطمت أثاثك. أرجو ألا أكون قد أرعبت السيدة.»

«أي سيدة؟»

«والدتك.»

نظر لي بوجهٍ خالٍ تمامًا من التعابير، وأدركتُ أني ارتكبت خطأً.

«معذرةً؛ ما زلتُ أشعر بالدوار. ربما كنتُ أحلم.»

أعطاني كأسًا من البراندي ووضعني في سيارة أجرة. قبل مسافةٍ طويلة من النادي، كنتُ قد استعدت عافيتي، ولكن ذهني كان مزدحمًا بشدة بالأفكار. لم أكن قد وضعتُ يدي مصادفةً على خيطٍ واحد، بل على الكثير من الخيوط، وعلى الرغم من أنها كانت مُعقدة للغاية، كنتُ آمل أن أتمكن ببعض الحظ من تتبعها. أكلتُ أقل القليل على العشاء تلك الليلة، وكان ذهني مشوشًا للغاية ولم أتمكن من التفكير في أي شيء. فركبتُ سيارة أجرة إلى جوسبل أوك، وطلبت من السائق أن ينتظرني، ثم توجهتُ بعد ذلك إلى ميدان بالميرا. بدا المكان وكأنه كان مُهملًا ومُتعفنًا منذ قرونٍ كما بدا في هذه الليلة المعتمة العاصفة، وكان المنزل رقم ٤ يبدو وكأنه مقبرة مغلقة. فتحتُ البوابة بعدما تأكدتُ من أن لا أحد يراني، وتسللتُ نحو الباب الخلفي حيث يدخل التجار. كانت ثمة بعض مبانٍ إضافية مهدمة، وحديقة خلفية نما عشبها طويلًا وظهرت من وسطه مناشر غسيل قبيحة، بدا المكان أشبهَ بجبانة مُهملة. في هذا المنزل كان يوجد القَدَرُ الرهيب الأعمى الذي يغزل. وبينما كنت أتسمع ما يُوجَد داخل المنزل، سمعت من مكانٍ ما في الداخل صوت بكاء بطيء يُمزق نياط القلب. وتساءلتُ عما إذا كان هذا الصوت هو صوت الفتاة الصغيرة الغريبة الشكل.

الفصل التاسع

حينما تعرفت على ساحر قوي

أول ما فعلته صباح اليوم التالي هو زيارة هارلوز، بائعي معدات الصيد. كانوا يعرفونني جيدًا؛ فقد اعتدتُ على شراء صناراتي منهم، وكان أحد المساعِدين قد زارنا في فوسي لتعليم ماري كيفية استخدام صنارة الخيزران الخفيفة. ودخلتُ معه في حديثٍ طويل عن الأنهار النرويجية وخواصها، وسرعان ما أعطاني رأيه عن أفضل الطعوم. سألته عن النهر الذي يجدُر بي زيارته أولًا، وأخبرَني أنه خلال المواسم العادية يجدُر بي البدء بنهر نيردال وجزيرة سكارسو. ثم سألته عما إذا كان يعرف صديقي الطبيب نيوهوفر. فقال: «كان هنا عصر الأمس. سيذهب إلى جزيرة سكارسو هذا العام، ويأمُل أن يبدأ رحلة الصيد في الأسبوع الأخير من شهر أبريل. أظن أن هذا وقتٌ مبكر للغاية، رغم أن الناس يبدءون صيد أسماك السلمون في هذا النهر في السابع عشر من أبريل. أرى أن أنسب وقتٍ للصيد هو الأسبوع الأول من شهر مايو.» طرحتُ العديد من الأسئلة عن جزيرة سكارسو، وقيل لي إن أفضل مكانٍ للصيد في نهر ميردال هو عند منبع نهر ميردالفيورد. لا يوجد إلا مسطح مائي واحد يصلح للصيد يبلُغ طوله حوالي ثلاثة أميال قبل النهر الهادر، ولكن كل ياردة منه تستحقُّ العناء. أخبرتُه أني كنتُ آمُل أن أتمكن من الذهاب إلى مدينة ليردال في شهر يونيو، ولكني مُضطر إلى أن أتخلى عن هذه الفكرة هذا العام وأن أرتضي بالذهاب إلى اسكتلندا. اشتريتُ بكَرة خيط صيد جديدة، وكمية من طُعم أسماك السلمون البحري، وكتيب عن الصيد في النرويج.

ثم ذهبت للقاء ماكجيليفراي الذي كنتُ قد حددتُ معه موعدًا عبر الهاتف.

قلت له: «لقد أتيتُ لطلب المساعدة منك. بدأت أحرز تقدمًا، ولكن الأمر حسَّاس للغاية، ويجدُر بي أن أتحرَّك بحذَر شديد. بادئ ذي بدء، أريد منك أن تتبع تحركات الطبيب نيوهوفر الذي يسكن شارع ويمبول. سيذهب إلى النرويج في وقت ما خلال

الأسبوعين القادمين إلى جزيرة سكارسو من أجل الصيد، وستكون نقطة انطلاقه هي مدينة ستافانجر. اكتشِف الباخرة التي سيركبها واحجز لي أنا أيضًا قمرةً فيها. من الأفضل أن أستخدِم اسمي القديم، كورنيليوس براند.»

سألني مؤنِّبًا: «هل تُفكر في مغادرة إنجلترا في مثل هذا الوقت؟»

«لا أعلم. ربما أذهب وربما لا، ولكن في كلتا الحالتَين، لن أظل بعيدًا لفترة طويلة. على أية حال، اكتشِفْ ما يفعله الطبيب نيوهوفر. لنتحدَّث الآن عن الموضوع الأهم. هل قررتَ موعد القبض على العصابة؟»

«للأسباب التي ذكرتها لك، يجِب ألا يحدُث ذلك قبل منتصف الصيف. إنه عمل مُعقد للغاية، وعلينا أن نعمل وفق جدول زمني. لقد حددتُ العشرين من يونيو موعدًا مؤقتًا.»

«أظن أنه يجدُر بكم اختيار تاريخ أقرب.»

«لماذا؟»

«لأن العصابة تُخطط لتصفية أعمالها بحلول منتصف الصيف، وإذا لم تُسرعوا، فربما تسحبون شباككم من المياه لتجدوها خاوية.»

سألني وقد أحمرَّ من فرط الانفعال وجهه الخالي من المشاعر عادةً: «كيف عرفت ذلك بحق السماء؟»

«لا يُمكنني أن أُخبرك. لقد تعثرتُ في هذه المعلومة أثناء بحثي عن الرهائن، وأؤكد لك أنها صحيحة.»

«ولكن، يجدُر بك أن تُخبرني بالمزيد. إذا كنتَ تملك معلوماتٍ جديدة عما تُطلِق عليه «العصابة»، فمِن المُهم للغاية أن أعرفها.»

«لا أملك أي معلوماتٍ جديدة. لم أتوصَّل إلا إلى تلك المعلومة التي أخبرتُك بها. في واقع الأمر، لن يُمكنني إخبارك بأي شيءٍ آخر أيها العجوز إلا إذا أخبرتك بكلِّ شيء. صدِّقني، أنا أبذل قصارى وسعي.»

بعدما أمعنتُ التفكير في الأمر، كنتُ قد قررتُ أن أحتفظ بموضوع مِدينا لنفسي وساندي فقط. كانت فرصتنا الوحيدة في التغلُّب عليه هي ألا تُراوده أي شكوك بشأني، والحذَر من إخبار شخصٍ على شاكلة ماكجيليفراي فقد يثير شكوكًا من شأنها أن تُدمر كل ما حقَّقناه حتى الآن. زمجر ماكجيليفراي غير راضٍ عما قلت. وقال: «أظن أنك تُريد أن تؤدي المهمة بطريقتك. حسنًا إذن، سنُحدِّد العاشر من يونيو تاريخًا ليوم القبض على العصابة. لعلك تدرك بالطبع أن عملية القبض على الجميع يجب أن تتمَّ في الوقت نفسه؛

لهذا السبب تحتاج العملية إلى الكثير من التنظيم. بالمناسبة، تُواجهك المعضلة نفسها مع الرهائن. لا يمكنك أن تُحرِّر أحدهم من دون الاثنين الآخرين، وإلا ستنكشف العملية برمتها؛ ليس عمليتك فحسب، بل عمليتي أيضًا. هل تدرك ذلك؟»

قلت: «نعم، أدرك ذلك، وأدرك أيضًا أن العمل وفقًا لجدولك الزمني يقلل الوقت المتاح لي إلى ما يقلُّ عن الشهرَين. وإذا ما نجحتُ في مهمتي، لا بد أن أنتظر حتى الليلة السابقة لبدء عمليتك. أظن أنه لا يُمكنني أن أتحرك قبل التاسع من يونيو، أليس كذلك؟ ماذا لو عثرتُ على واحدٍ فقط من الرهائن الثلاث؟ سأنتظر حتى التاسع من يونيو لأُنقِذه من بين براثنهم. ثم تضرب أنت ضربتك، وماذا سيحدث للرهينتَين الأخرَيَين؟»

هز كتفَيه. وقال: «أخشى أنهما سيُلاقيان مصيرًا سيئًا. لعلك تُدرك يا ديك أن ثمة تحالفًا بين العصابة التي أريد تدميرها والأشخاص الذين اختطفوا الرهائن، ولكني أعتمد على أنهما جماعتان مختلفتان. قد أقبض على كل أفراد العصابة من دون أن يصِل خبر، ولو من بعيد، إلى الجماعة الأخرى. لا أعلم، ولكني على يقينٍ من أننا إذا ما عثرنا على الجماعة الثانية حتى، فلن نتمكَّن من إثبات وجود أي علاقة بين الجماعتَين. الجماعة الأولى مكونة من أشخاص أشرار للغاية، أما الجماعة الثانية فمكونة من فنانين عظماء.»

قلت: «لا فارق، آمُل أن أتمكن من العثور على رهينة واحدة على الأقل، ويتطلَّب هذا معرفة من اختطفوهم.»

«لن أتدخل في عملك، ولكني على استعدادٍ للتضحية بأي شيء حتى أعرف كيف تعمل وأين. سأمنحك المزيد من الحرية! ولكني أتساءل عما إذا كنتَ ستتمكن من الوصول إلى رأس الأفعى التي دبَّرَت الأمر برمته.»

قلت: «أنا أيضًا أتساءل عن هذا»، ثم انصرفت.

لقد كنتُ أتظاهر بالمرض، ويبدو أني سأنال الآن عقابي على ذلك بأن أمرض بالفعل. فقد شعرتُ بالإعياء لما تبقى من ذلك اليوم، وبحلول المساء أصبحتُ واثقًا من أن حرارتي قد ارتفعت. فكرتُ أنني ربما أُصبتُ بالأنفلونزا، فتوجهتُ بعد العشاء لزيارة طبيب التقيتُه في فرنسا. تجاهل الطبيب درجة حرارتي. وسألني: «ما نوعية الحياة التي كنتَ تعيشها على مدار الأسابيع الماضية؟» وعندما أخبرته بأني كنتُ أطوف لندن في انتظار تطورات عملٍ مُمل، قال إن هذه هي المشكلة. «أنت مُعتاد على حياة مفعمة بالنشاط في الهواء الطلق، ولكنك ظللتَ قابعًا داخل المدينة، تأكل كثيرًا ولا تتحرك بما يكفي. عُد إلى منزلك غدًا، وستستعيد عافيتك كاملةً.»

«أريد أن أظل مريضًا لبعض الوقت؛ فلنقل أسبوعًا.»

بدت الحيرة على وجهه، ثم انفجر ضاحكًا.

وقال: «حسنًا، إذا أردتَ سأُعطيك مذكرةً مكتوبًا فيها أنه يجب عليك العودة إلى الريف على الفور وإلا لن أتحمَّل عواقِب عدم الانصياع لذلك.»

«أودُّ ذلك، ولكن ليس بعد. سأتصل بك هاتفيًّا عندما أريد أن أفعل. وحتى ذلك الحين، هل تقول إني على خير ما يُرام؟»

«لا شيء يستعصي علاجُه على مباراة إسكواش والقليل من دواء إينو.»

«حسنًا، عندما تُرسِل تلك المذكرة، اكتب فيها أني بحاجة إلى أسبوع من الراحة في الفراش في منزلي — والزيارات ممنوعة — علاج عادي بالراحة.»

قال: «حسنًا. إنها وصفة ينبغي على جميع البشر اتِّباعها أربع مرات كل عام.»

عندما عدتُ إلى النادي، وجدت مِدينا في انتظاري. كانت زيارته الأولى لي هناك، وتظاهرتُ بأني سعيد برؤيته — تظاهرت بالإحراج والابتهاج — وأخذته إلى غرفة التدخين الخلفية حيث تحدثتُ سابقًا مع ساندي. أخبرته أني مريض، وبدا متعاطفًا معي بشدة. وعندما تذكرتُ خطاب ساندي الأخير، بدأتُ ألعن حظي. علَّقَ على دفءِ وعزلةِ الغرفة الصغيرة، التي كنَّا نجلس فيها معًا.

قلت: «لم تكن الغرفة هادئةً عندما كنتُ فيها آخِر مرة. فقد تعاركتُ هنا مع ذلك المجنون أربوثنوت قبل أن يسافر للخارج.»

رفع بصرَه نحوي عندما سمع الاسم.

«تعني أنكما تشاجرتما. كنتُ أحسبكما صديقَين قديمَين.»

«كنا كذلك في الماضي. أما الآن، فلا أودُّ أن أراه مرة أخرى طيلة حياتي.» فكرتُ في أنه يجدُر بي أن أؤدي دوري على الوجه الأمثل، رغم أن الكلمات اختنقت في حلقي.

نظر لي راضيًا.

وقال: «قلتُ لك إني لم أنجذب له على الإطلاق.»

صِحْتُ: «تنجذب له! لقد جُن الرجل تمامًا. لقد نسي أخلاقه، وما تربى عليه، وكل ما كان عليه ذات يوم. لقد عاش لفترة طويلة بين الشرقيين المُتكبرين حتى انتفخَ رأسه وأصبحَ في حجم اليقطينة. كان يريد أن يُملي عليَّ رغباته، وقلت له إني سأفكر في الأمر، و... حسنًا، دارت بيننا المشاجرة المعتادة. لقد عاد إلى الشرق، المكان الوحيد الذي أصبح مناسبًا له، و... لا! لا أريد أن تقع عيناي عليه مرةً أخرى أبدًا.»

كانت ثمة لمحة رضا في صوته؛ فقد ظن، كما أردتُه أن يفعل، أنَّ تأثيره عليَّ قد أصبح قويًّا بما يكفي لأن أقطع علاقة صداقةٍ قديمة للغاية. «أنا واثق من حكمتك. لقد عشتُ في الشرق وأعرف أمورًا عن أساليبهم. ثمة طريق المعرفة، وطريق الأوهام، واختار أربوثنوت الطريق الثانية. نحن صديقان يا هاناي، وثمة أمور كثيرة أودُّ إخبارك بها ذات يوم؛ ربما في القريب العاجل. لقد صنعتُ لنفسي مكانةً في العالم، إلا أن الهيئة التي يراها العالم ليست سوى جزءٍ يسير من حقيقتي. القوة الحقيقية الوحيدة هي المعرفة، وقد حُزتُ معرفةً ستكون معارف أربوثنوت تافهة مقارنةً بها.»

لاحظتُ أنه تخلى عن أسلوبه البسيط المُهذب المتواضع الذي رأيته خلال لقائنا الأول. فقد كان يتحدَّث إليَّ الآن بأسلوبٍ سلطوي ومتعجرف، يكاد يكون غرورًا.

استطرد قائلًا: «لم يحدث من قبل اقتران حقيقي بين الشرق والغرب. وأصبحنا نميل في العصر الحالي إلى وضع تفسيرات زائفة لكلمة قوة. أصبحنا نراها من منظورٍ مادي مثل المال، أو السيطرة على مساحات كبيرة من الأراضي. ولكنها لا تزال تعني، مثلما تعني دائمًا، السيطرة على أرواح البشر، وبالنسبة لمن يستطيع السيطرة عليها، سيكون كل شيءٍ آخر ثانويًّا. مِمَّ تنبع هذه القوة؟ ينبع جزء منها من معرفة مكنونات قلوب البشر، وهذا شيء مختلف تمامًا عن العبارات المُبتذلة الكثيرة التي يتشدَّق بها من يزاولون مهنة الطب النفسي. وينبع جزء آخر من الهيمنة الطبيعية للروح والتي تنبع بدورها من امتلاك بعض البشر لمقومات بشرية مُعينة تفوق غيرهم. يمتلك الشرق المعرفة السرية، ولكن على الرغم من أنه قادر على توفير الممارسة، فإنه غير قادر على توفير الممارِسين. أما الغرب، فيمتلك الأدوات، ولكنه لا يمتلك العلم الذي يُمكِّنه من استخدامها. لذا، كما قلت لك، لم يحدث من قبل اقتران حقيقي بين الشرق والغرب، ولكن إذا حدث، فإن نتاج هذا الاقتران سيحكم العالم.»

كنتُ أتشرَّب كلماته بكلتا أذنيَّ، وأغمغم بصوتٍ ينمُّ عن الموافقة. أوشكت أخيرًا على أن أحوز ثقته، ودعوت الربَّ أن يُلهمه المضيَّ قدمًا في حديثه. ولكنه بدا مترددًا حتى طمأَنَته نظرةٌ ألقاها على وجهي الذي اكتسى بأمارات الاحترام. وقال: «بعد غد، سيصل رجلٌ إلى لندن، رجلٌ آتٍ من الشرق، وهو أستاذٌ كبيرٌ في هذه المعارف. بمجرد أن تراه، ستُصبح من أتباعه. لن تفهم الكثير من تعاليمه، فلستَ إلا مبتدئًا، ولكنك ستكون في حضرة الحكمة نفسها.»

غمغمت بأن ذلك سيُشرفني.

«ستتفرغ تمامًا طوال ذلك اليوم. ربما نلتقي به في المساء.»

ثم انصرف بعدما أعطاني أكثر وداعٍ لا مبالٍ على الإطلاق. هنَّأت نفسي على حصولي على الوظيفة التي أردت، التابع الذي يؤخَذ انصياعه على أنه أمرٌ مُسَلَّمٌ به لدرجة أنه يُعامَل وكأنه قطعة أثاث. من وجهة نظر مِدينا، كان تصرُّفه مبرَّرًا، فلا بد أنه ظن أن سيطرته على عقلي الباطن أصبحت محكمةً للغاية، بعد كل الاختبارات التي مررتُ بها، وأن روحي أصبحت عجينةً طيعة بين يدَيه يُشكلها كيفما يحلو له.

في صباح اليوم التالي، ذهبت إلى فوسي وأخبرت ماري أن تتوقع عودتي في القريب العاجل لأقضي معها يومًا أو يومَين. لم يسبق مطلقًا أن أزعجتني بالأسئلة، ولكن لا بد أن شيئًا ما في وجهي أنبأها أني أتتبع خيطًا في القضية؛ فقد سألتني عن المستجدَّات وبدت مُصِرَّةً على معرفتها. أقررتُ لها أني توصلتُ إلى شيء ما، وقلتُ لها إني سأخبرها بكل شيءٍ عندما أعود للمنزل المرة القادمة. كان هذا الفعل حكيمًا، فماري عبقرية في حفظ الأسرار وكنتُ بحاجة إلى مخزنٍ لما توصلتُ إليه تحسبًا لفقداني ذاكرتي.

عندما عدتُ إلى المدينة وجدتُ رسالةً أخرى من ساندي، وصلت أيضًا من فرنسا، مُوَقَّعَةً باسم «آلان بريك»؛ كان ساندي لا يزال يستخدم أسماء خيول السباق الفائزة. لم تزد الرسالة عن سطرَين يُحثني فيهما مرةً أخرى على جعل مِدينا يُصدِّق أن صداقتنا قد انتهت وأنه سافر إلى منطقة شرق قناة السويس بلا رجعة.

كما وصلتني رسالة من ماكجيليفراي مفادها أن الطبيب نيوهوفر قد حجز مقصورة على متن الباخرة المغادرة إلى مدينة جودرون، التي ستغادر مدينة هول في السادسة والنصف مساءً، في اليوم الحادي والعشرين من الشهر، وأن ثمة حجزًا آخر باسم حضرة المُحترم سي براند، على متن الباخرة نفسها. ساعدني هذا على اتخاذ قراري، فكتبتُ رسالة إلى الطبيب أطلب منه فيها تلك المذكرة التي وعدَني بها، وأن يؤرِّخها باليوم التاسع عشر من الشهر. كنت منشغلًا بوضع خطة، فبدا لي أنه من واجبي أن أتَّبع الخيط الوحيد الذي تكشَّف لي، رغم أن هذا يعني أن أدع بقية المهمة بكاملها تتوقف. كنت أتوق إلى التحدُّث مع ساندي أكثر من أي وقتٍ مضى، ولكنه كان يؤدي دور المغفل في فرنسا ويرسِل لي رسائل لعينة. كما اتصلتُ بآرتشي رويلانس، وابتهجتُ عندما وجدته لا يزال في المدينة، وعرفت أنه يُقيم في ترافيلارز، وحددت معه موعدًا في صباح اليوم التالي.

قلت لآرتشي عندما التقينا: «آرتشي، أريد أن أطلب منك معروفًا كبيرًا. هل ثمة شيء مُهم قد يشغلك خلال الأسبوعين القادمَين؟»

أقر بأنه كان يفكر في العودة إلى اسكتلندا ليُراقِب زوجًا من طيور الطيطوي الأخضر الساق في عشِّه.

«كُن رجلًا خيِّرًا ودَع طيور الطيطوي الأخضر الساق وشأنها. قد أُضطَر إلى السفر إلى النرويج في اليوم الحادي والعشرين من الشهر، وأريد أن أعود إلى الوطن في أسرع وقتٍ ممكن. والسفن البخارية بطيئة للغاية.»

قال مقترحًا: «تريد مدمرةً.»

«اللعنة، لسنا في حالة حرب. كن منطقيًّا. أريد طائرةً، وأريدك أنت أن تجهزها لي.»

أطلق آرتشي صافرة طويلة عالية.

وقال: «أنت مليء بالمفاجآت يا ديك. ليس من السهل أن يكون المرء صديقك. أعتقد أن بوسعي إنجاز المهمة. ولكن يجدُر بك أن تختار طقسًا مناسبًا للطيران. وما أذكره عن النرويج أنها لا تحتوي على الكثير من أماكن الهبوط الجيدة. ما المكان الذي تريد الهبوط فيه؟»

أخبرته أني أريد الهبوط عند منبع نهر ميردالفيورد.

فقال: «يا إلهي! لقد ذهبت إلى هناك من قبل. جميع الأراضي هناك منحدرة مثل جوانب منزل.»

«نعم، ولكني كنت أدرس الخريطة، وثمة بعض الجزر الصغيرة الملائمة للهبوط بالقُرب من المنبع، وهي تبدو مستوية على الخريطة. أنا جاد تمامًا في ذلك يا صديقي العزيز. أنا منخرط في مهمة فشلها يعني خسارة أبرياء لحياتهم. سأخبرك كل شيء عنها قريبًا، ولكن حتى أفعل، عليك أن تثق بي.»

نجحت في إبهار آرتشي بالقدر المناسب، بل وإثارة لعابه للمشاركة في المغامرة، فلم يكن رجلًا يتخلَّف عن أي شيءٍ قد يتضمن مخاطرة ويتطلب جرأة. وعدني بزيارة هانسن، وهو رجل كان أحد زملائه في كتيبته في الجيش، وكان يُعتَقَد أنه طار عدة مرات عابرًا بحر الشمال. عندما هممتُ بالانصراف، رأيتُ أنه كان مسرورًا للغاية بالفكرة، فإن لم يكن سيستطيع مراقبة طيوره المباركة، فإن أقرب شيء تالٍ إلى قلبه هو أن تسنح له الفرصة لأن يكسر رقبته في مغامرةٍ ما.

توقعت أن يستدعيني مِدينا لألتقي بساحِرِه في جُحرٍ ما في إيست إند أو في منزلٍ مُستأجَرٍ في بلومزبيري. ما أثار دهشتي هو أني دُعيت إلى فندق كلاريدجز في التاسعة والنصف ذلك المساء. عندما وصلت إلى الفندق كان من الصعب أن أصدق أن مكانًا مُنارًا

بمثل تلك الأضواء المبهرة ويعج بهذا الزحام قد يُخفي أي شيءٍ غامض. كان ثمة حفل راقص عادي مُقام، وكان ثمة الكثير من الأشخاص الذين تناولوا عشاءً جيدًا يجلسون حول طاولاتهم المتناثرة ويشاهِدون. كان مِدينا واقفًا بجوار المدفأة يتحدَّث إلى رجلٍ يضع الكثير من الميداليات الصغيرة ونجمة، ورأيت أنه توم ماكين، الذي كان قائدًا للواء الفرسان في فرنسا. أومأ مِدينا لي في لامبالاة، وأحدث توم صخبًا عاليًا عندما رآني، فلم نكن قد التقَينا منذ سنوات.

قال موضحًا: «جئتُ مدعوًّا إلى عشاءٍ رسمي. وخرجت للحظات لكي أعطي بعض التعليمات الخاصة بسيارتي. كنتُ أخبر مِدينا عن الخدعة القذرة التي مارسَتْها الحكومة على جماعتي القديمة. كنت أقول له إن قلةً من أمثاله من أصحابنا الموجودين في بيت القرود اللعين ذاك في ويستمنستر هم الذين بوسعهم أن يُثيروا جلبةً حول ما يحدث. أنت تدعمني يا هاناي بالطبع. ما أريد قوله هو ...» وظل يتحدَّث ويُكرر عبارات على غرار «بالطبع»، و«إذا ما تبعتني»، و«هل تفهم ما أعني»، التي تُميز أسلوب الحديث البريطاني غير المترابط.

انسحب مِدينا من الحوار بلُطف. وقال: «معذرة يا توم، يجب أن أنصرف الآن. هل ستتناول العشاء مع برمينستر يوم الخميس؟ سنتحدَّث عن هذا الأمر حينئذ. أنا أتفق معك أن الأمر برمَّته مُشين للغاية.»

أشار مِدينا لي، واتجهنا معًا نحو المصعد. في الطابق الأول، حيث تُوجَد الأجنحة الرئيسية بالفندق، كان ثمة رجل هندي يعتمر عمامةً يقف في انتظارنا في الرواق. قادنا إلى غرفة استقبال، ثم اختفى عبر بابٍ قابلٍ للطي. تساءلتُ عن مدى غرور ذلك الساحر الشرقي ليسكن في غرفةٍ مثل تلك، فالمرة الأخيرة التي دخلتها كان يسكنها وليُّ عهدٍ أراد أن يتحدَّث معي عن مشكلة ما في الأناضول.

همس مِدينا بنبرة إجلالٍ مفاجئة في صوته: «أنت على وشك أن تقابل خاراما. ربما لا تعرف من يكون، ولكن ملايين في الشرق يُبجلونه وكأنه إله. كان لقاؤنا الأخير في كوخٍ يقع في طريق جبلي منعزل ووعرٍ في جبال كاراكورام، وها هو الآن يُقيم في هذا الفندق المُذهَّب حيث تُعزف موسيقى الرقص الغربي في الطابق السفلي. هذا مثال على توحيد كل القوى.»

فُتِحَ الباب، وأشار لنا الخادم بالدخول. دخلنا إلى غرفة كبيرة مفروشة بالنُّسَخ المعتادة طبق الأصل للأثاث الفرنسي؛ كانت حارَّةً للغاية، ويحمل هواؤها عبقًا، نفس

هيئة المكان الذي يجتمع فيه المُمولون الدوليون لإبرام صفقاتهم وهم يشربون البراندي ويُدخنون السيجار الضخم، أو حيث يلتقي نجوم السينما بأصدقائهم. كانت الغرفة مُبهرة الإضاءة، وخانقة ومبهرجة، يُمكنك القول إنه لا تُوجَد بيئة أكثر ابتذالًا من ذلك. ولكن عندما أعدتُ النظر، لم أشعر بأنها بيئة عامة؛ فقد لاحظتُ أنها تحمل الطابع الشخصي للرجل الجالس على الأريكة التي تُوجَد عند الجانب الآخر منها. أدركتُ أنني جالس أمام رجلٍ قادر على أن يحمِل معه أينما ذهب المناخ الذي يُفضله، ويمكنه تغيير مُحيطه كما يحلو له، سواء كان أحد أكواخ جبال البامير أو أحد مطاعم لندن.

أدهشني صِغَر سنِّه. كان شعره مُختفيًا تحت عمامة ضخمة، ولكن وجهه كان أملسَ وخاليًا من الشعر، ولم تفقد هيئته رشاقة الشباب، وفقًا لما رأيتُ منه. كنتُ قد توقعتُ أن يكون رجلًا مُسنًّا هزيلًا تصِل لحيتُه إلى مئزره، أو سيدًا بدينًا ذا وجهٍ أملس مثل الخصيان. كنتُ قد نسيت أن هذا الرجل من سكان التلال. فما أثار دهشتي أنه كان يرتدي ملابس سهرة عادية، وأنيقةً أيضًا، وفوقَها عباءة من الحرير الخفيف. كان قد رفع قدمَيه على الأريكة، ولكنه لم يكن يجلس مُتربِّعًا. أمال رأسه قليلًا عندما دخلنا، وانحنَينا كِلانا أمامه. تحدَّث مِدينا إليه بلغةٍ هندية ما، وردَّ عليه بصوتٍ أشبَهَ بخرخرة قطة ضخمة.

أشار لنا بالجلوس، ولم يكن ينظر إلينا، بل عَبْرَنا، وعندما كان مِدينا يتحدَّث، كنتُ أركز عينَي على وجهه. كان له ذلك الوجه النحيل البارز الوجنتَين الذي يُميز نسْلَ رجال التلال الصافي، لم يكن يُشبه وجوه المغول، بل أقرب شبهًا بوجوه العرب، نفس الوجه الذي تجِده لدى القوات البشتونية. ولكن على الرغم من أنه بدا صلدًا مثل الجرانيت، وقاسيًا مثل الشيطان، كان يحمل لمحةً لطيفةً ماكرةً وكريهة، مثل لُطف رجلٍ لا يحتاج أبدًا إلى توجيه لكمةٍ في ثورة غضب، فهو قادر على الوصول إلى مُبتغاه بطرُقٍ أخرى.

كان حاجباه مُستقيمَين وكثَّين، تلك الهيئة التي كنتُ أربطها دائمًا بموهبةٍ في الرياضيات، وكانا أعرض مما هو شائع لدى الشرقيين. لم أتمكن من رؤية عينَيه؛ فقد كانتا نصف مُغلقتَين طوال الوقت، ولكن كان ثمة شيء غريب يتعلَّق بمكانهما في رأسه، وكانتا مائلتَين بطريقةٍ غريبة على العكس مما تبدو عليه أعين الصينيين. كان فمه مرفوعًا عند كِلا ركنَيه كما لو كان يضحك بسخريةٍ على الدوام، ولكن كانت ثمة لمحة من المرح تكسو وجهه، ولكنه كان مَرَحًا جامدًا كما لو كان منحوتًا على وجه تمثال حجري.

كانت تلك من المرَّات النادرة التي أرى فيها إنسانًا وسيمًا للغاية ومُنفرًا للغاية في الوقت نفسه، ولكن امتزج الجمال والرُّعب معًا ليُعطياه مظهرًا ينضح بالقوة الغاشمة.

كنتُ متشككًا للغاية في هذا الساحر الشرقي، مثلما كنتُ متشككًا في أساليب مِدينا؛ فقد فشل في تطبيقها عليَّ. ولكن عندما نظرتُ إلى تلك الملامح الشريرة، تخيلتُ عالَمًا من المعارف الرهيبة، وبشاعة تعبقها رائحة الشر، وقوة أشبه بالريح العاتية أو الطاعون. لسببٍ ما، تذكرت حديث ساندي في نادي الخميس عن أن الخطر الحقيقي في العالم يكمن في سيطرة النفس على النفس. كان هذا الهمجي الأسمر هو كاهن هذه السيطرة القذرة، وكانت تعتمل في صدري في ذلك الحين رغبة جامحة في أن أوسِعَه ضربًا.

كان ينظر نحوي، وبدا أنه كان يطرح سؤالًا أجابه مِدينا. أظن أنه كان يسأله عما إذا كنتُ من مُريديه، أو أيًّا كانت الكلمة الصحيحة، تابعًا مُنكسرًا ومُطيعًا تمامًا.

ثم فوجئت بأنه يتحدَّث الإنجليزية، إنجليزية سليمة، مع تلك اللكنة الهندية التي يكثُر فيها التلفُّظ بالمقطع الصوتي تشي.

قال: «لقد قطعتَ شوطًا طويلًا في طريق المعرفة يا أخي. لم أكن أظن أن أحد أبناء العالَم الغربي يُمكنه أن يُحقق مثل هذا التقدُّم في مثل تلك الفترة القصيرة. لقد حزتَ اثنَين من مفاتيح السيادة الثلاثة؛ فقد تمكنتَ من جعل رجلٍ ينسى ماضيَه، وأن يبدأ حياةً جديدة خاضعة لإرادتك. ولكن، ماذا عن المفتاح الثالث؟»

شعرت أن نبرة صوت مِدينا تحمل لمحةً من خيبة الأمل. قال: «المفتاح الثالث هو ما أبحث عنه أيها المُعلم. ما الفائدة المرجوة من محو الماضي وفرض سيطرتي إن لم تكن دائمة؟ أريد المفتاح الثالث، لأُغلق الباب، حتى أسيطر على سجيني إلى الأبد. هل يُوجَد مفتاح كهذا بالفعل؟»

«المفتاح موجود، ولكن العثور عليه ليس بالأمر السهل. أي سيطرة تضعف بمرور الوقت، ويُمكن أن تنكسِر بسبب حادث، فيما عدا السيطرة على الأطفال الصغار، وبعض النساء، وضعاف العقول.»

قال مدينا بغضب: «أعلم هذا. ولكني لا أُريد تابِعين من الرُّضَّع والحمقى والنساء فقط.»

«قلت بعض النساء فقط. ربما يمكن السيطرة على نسائنا جميعهن، ولكن في حالة النساء الغربيات اللاتي يتمتعن بصلابةٍ تُكافئ صلابة الرجال، لن يمكنك السيطرة إلا على أكثرهن لينًا وضعفًا.»

«تلك هي المشكلة التي أُواجهها. أريد سيطرةً دائمة، ودون الحاجة إلى مراقبة دائمة من طرفي. حياتي حافلة، والوقت ثمين. أخبرني أيها المُعلم، هل ثمة طريقة لتحقيق ذلك؟»

استمعتُ إلى هذه المحادثة مرتعِدَ الفرائص. لقد عرفت خطط مِدينا الآن، وأدركتُ أنه هو العقل المدبر لعمليات الاختطاف. كما أدركتُ كيفية تعامُله مع الرهائن الثلاث، وكيفية عرضه للصفقات. كان القتلة أبرياء مقارنةً به، فالقتلة يأخذون الحياة فحسب، بينما يأخذ هو الروح نفسها. لقد كرهته وذلك المُحتال الأسمر أكثر مما كرهتُ أي شخصٍ في حياتي، وبذلت جهدًا خارقًا لأمنع نفسي من أن أُمسك بهما من عنقَيهما. عادت إلى ذاكرتي القصص الثلاث بعدما كدتُ أنساها وأُواريها في مؤخرة ذاكرتي خلف تجاربي الجديدة. رأيت وجه فيكتور المُجهَد مجددًا، وسمعت صوت السير آرثر واركليف المُتهدج، وتأجَّج غضبي بشدة وكاد يخنقني. كانت سرقة الأرواح هي أسوأ عمل شائن نشره الشياطين بين بني البشر. لا بد من أن مشاعري ظهرت على وجهي، ولكن لحُسن الحظ لم يكن الاثنان ينظران نحوي.

كان الهندي يقول وشبح ابتسامةٍ مقيتة يرتسِم على شفتيه: «ثمة طريقة، بالطبع توجَد طريقة. ولكنها طريقة من الصعب تنفيذها في بلدك، ولكن من المُمكن تنفيذها في بلدي. أعلَم أن شرطتكم ليست هينة، وأن لدَيك سمعة جيدة بين عامة الشعب، ومن الضروري الحفاظ عليها. ثمة طريقة أخرى قد تكون أبطأ، ولكن نجاحها مؤكد أيضًا، إذا ما نُفِّذَت بجرأة.»

بدا أن المُعلم يفتح عينَيه نصف المُغمضتَين، وظننتُ أني رأيت أن بياضهما معتمٌ، الأمر الذي يُصاحب تعاطي المخدرات.

وقال: «مَن تريده أن يكون عبدًا لك، عليك أن تسلُبه ذاكرته أولًا، ثم تُخضِعه لإرادتِك. ولكي تُحافظ على خضوعه لإرادتك، يجب أن تجعله في صحبتك دائمًا وأن تُعزز سيطرتك عليه. ولكن هذا أمر مُرهق، وإذا ما ابتعد عنك العبدُ ولم تره كثيرًا، ستضعف سيطرتك عليه، إلا في حالة الأطفال الصغار، كما قلتُ سابقًا. ثمة طريقة لترسيخ الرابط بينكما، وهو كالآتي. خُذ من تريد السيطرة عليه إلى حياةٍ مُماثلة للحياة التي اعتاد عليها سابقًا، وهناك، وسط المُحيط الذي يألفه، أحكِم سيطرتك عليه. سيتطلَّب تأثيرك وجود الألفة؛ فعلى الرغم من أن الذاكرة الواعية قد مُسحت، ستظل الذاكرة الباطنة قائمة، وبعد قليلٍ ستكون بمثابة طبيعته.»

قال مِدينا شارد الذهن: «فهمت. لقد خمنتُ ذلك بالفعل. أخبرني أيها المُعلم، هل يمكن التخلُّص من السيطرة بعد إنشائها؟»

«لن يمكن كسرُها بواسطة مَن يخضع لها. السيد فقط هو من يُمكنه إنهاؤها.»

بعد ذلك، عادا يتحدثان باللغة الأجنبية التي لا أفهمها. بدا لي أن المعلم بدأ يملُّ مِن المقابلة؛ فقد رنَّ جرسًا وعندما دخل الخادم، أعطاه بضع تعليماتٍ سريعًا. فنهض مِدينا وقَبَّلَ اليد التي مدَّها له المُعلم، وفعلتُ مثلما فعل بالطبع.

سأل مِدينا: «هل ستبقى هنا لفترة أطول أيها المُعلم؟»

«يومَين. ثم لدي ما أفعله في باريس ومكان آخر. ولكني سأعود في شهر مايو، وسأستدعيك حينئذٍ مرةً أخرى. فلتزدهر يا أخي. وليكن إلهُ الحكمة في عونك.»

هبطنا إلى الطابق السُّفلي حيث الحفل الراقص والعشاء. كان حفل العشاء الرسمي في نهايته، وكان توم ماكين يُهرع عبر الردهة مُتجهًا نحو مجموعة من أصدقائه الذين سيُكَرِّمون. تعين عليَّ أن أقول شيئًا لِمدينا لكي أختتم الأمسية، ومنحني التناقُض بين المشهدَين فكرةً. بينما كنا نرتدي معطفَينا، قلتُ إن الأمر يبدو وكأني أخرج من النور إلى الظلام. وافقني على ذلك. وقال: «كما لو أنك تسقُط من العالم الحقيقي إلى عالم الظلال.»

كان جليًّا أنه يرغب في أن يُترَك وحدَه لمتابعة أفكاره، فلم يُطلَب مني أن أسير معه إلى منزله. وكان لدَيَّ أنا أيضًا الكثير من الأمور التي كنتُ أريد التفكير فيها. عندما عدتُ إلى النادي، وجدت رسالة موقَّعة باسم «سبيون كوب»، وتحمل طابعًا بريديًّا إنجليزيًّا. وكان فحواها: «قابلني في اليوم الحادي والعشرين لتناول الإفطار في نُزُلٍ يُدعى «المرأة الصموت» على طريق فوسي وكأنك ذاهب من كولن إلى ويندراش. ثمة الكثير الذي أودُّ أن أُخبرك به.»

حمدتُ الربَّ على عودة ساندي إلى أرض الوطن مجددًا، رغم أنه يختار أماكن غريبة للقاء. كان ثمة شيء أريد أن أُخبره به أيضًا. جعلتني هذه الليلة أطَّلع على ما يدور في عقل مِدينا، وعلاوةً على ذلك، التمعت في ذهني خطة.

الفصل العاشر

تبادل الأسرار في نُزُلٍ على الطريق

كان أول ما فكرت فيه هو الذهاب إلى ماكجيليفراي لأُخبره عن خاراما الذي كنت واثقًا من أنه يخطط لأمر شيطاني. شككتُ في تورطه في بعض المؤامرات السياسية، وإلا ما الغرض من طوافه بعواصم أوروبا والإقامة في فنادق باهظة؟ ولكن بعدما أعدتُ التفكير في الأمر، قررتُ ألا أخبر الشرطة بشيء. فلم أكن أستطيع شرح ما يفعله خاراما من دون أن أشي بأمر مِدينا، وكنتُ مصرًّا على عدم فعل أي شيء من شأنه أن يُثير الشبهات حوله. ولكني حصلتُ على مذكرة من طبيبي يُوصي فيها بأن أرتاح لمدة أسبوع، فذهبت لرؤية مِدينا في صباح يوم التاسع عشر. وأخبرته بأني أشعر بتعبٍ شديد منذ بضعة أيام وأن طبيبي أمرَني بالعودة إلى منزلي والراحة في الفراش. لم يبدُ عليه السرور، فعرضتُ عليه رسالة الطبيب، وقلت بضع كلمات مبالَغ فيها، كما لو أني كاره للأمر برمَّتِه ولكني مُمزق بين رغباتي وواجبي. أظن أنه أعجبه أني عرضتُ عليه مذكرة الطبيب، كما لو كنتُ ملازمًا يطلب إجازة من قائده، فاستغلَّ الموقف على أية حال، وتظاهر بالتعاطف الشديد. وقال: «يؤسفني أنك ستغادر المدينة، فأنا أحتاجك بشدة. ولكني مستعد للتضحية في سبيل صحتك، وإن ارتحت لأسبوعٍ ستعود في كامل لياقتك. متى ستعود؟» أخبرته أني سأعود إلى لندن في اليوم التاسع والعشرين من الشهر، إذا لم يحدُث شيء. قلت: «سأعتكف. لن أكتب خطابات، أو أتلقَّى خطابات، ولن أستقبل زوارًا في المنزل، سآكل وأنام فقط. وأؤكد لك أن زوجتي ستحرُسني مثل تنين.»

بحثت، بعد ذلك، عن آرتشي رويلانس، ووجدتُه بمعنويات مرتفعة للغاية. كان قد التقى هانسن، واكتشف أن جزيرة فلاكسهولم القريبة من منبع نهر ميردالفيورد، تحتوي على مهبط جيد للطائرات. كانت جزيرة كبيرة منبسطة تتوسطها بحيرة، ولم تكن مأهولة فيما عدا مزرعة واحدة توجد عند طرفها الجنوبي. كان آرتشي يملك طائرة من طراز

سوبويذ، وقال إنه يثق فيها، ورتبت الأمور معه بحيث لا يتأخر في الوصول إلى جزيرة فلاكسهولم عن اليوم السابع والعشرين، وأن يُخيم هناك بأفضل طريقة ممكنة. كانت مهمته أن يراقب خلال النهار وصول أي قاربٍ بمحرك من نهر ميردالفيورد، وإذا ما رأى ضوءًا أخضر خلال الليل، عليه أن يستكشفه. أخبرته أن يأخذ معه مؤنًا كافية، فقال إنه ليس أحمقَ لكي يُهمل في المؤن. وقال إنه ذهب إلى متجر فورتنام آند مايسون، وأنه سيأخذ معه الكثير من الكحوليات والمعلبات. وأضاف قائلًا: «خذ معك جميع ملابسك يا ديك. سيكون البرد قارسًا في تلك الأنحاء في هذا الوقت من السنة.» كما رتب أن يُرسِل هانسن برقيةً إلى ستافانجر لتجهيز زورق بمحرك للسيد براند الذي سيصل على متن السفينة البخارية القادمة من مدينة هول في يوم الثالث والعشرين.

توجهت إلى فوسي تلك الليلة مرتاح البال إلى حدٍّ ما. كنت مرتاحًا لخروجي من لندن وإلى رائحة الهواء النقي، ولفكرة أني سأقضي أسبوعًا منخرطًا في أعمال أكثر اجتماعية من مجرد الطواف في أرجاء المدينة. وجدت بيتر جون في أتم صحة وجعلَتْ أزهارُ الربيع حديقةَ الضيعة في غاية الجمال.

أخبرتُ ماري أن الطبيب أمرني بالراحة في الفراش لمدة أسبوع وأن علاجي هو الراحة.

سألتني قلقة: «ديك، أنت لستَ مريضًا، ألست كذلك؟»

«لا، على الإطلاق، مجرد وعكة بسيطة. ولكن الرواية الرسمية ستكون أني بحاجةٍ إلى الراحة لمدة أسبوع، وليس مسموحًا لأحدٍ بالاقتراب مني. أخبري الخدم بذلك من فضلكِ، وأخبري الطاهي أن يطهو طعامًا للمرضى. سأخبر بادوك بما يجري، وسيُواصل التظاهر بأنه ينتظرني حتى أتعافى.»

«يتظاهر؟»

«نعم، سوف أقضي هذا الأسبوع في النرويج، إلا إذا عارض ساندي ذلك.»

«ولكني كنتُ أظن أن الكولونيل أربوثنوت لا يزال خارج البلاد، أليس كذلك؟»

«إنه كذلك بالفعل، من الناحية الرسمية. ولكني سأتناول الإفطار معه بعد غدٍ في نُزُل «المرأة الصموت»؛ لعلك تذكُرينه، النزُل الذي اعتدنا تناول العشاء فيه الصيف الماضي عندما كنتُ أصطاد السمك في كولن.»

قالت في كآبة: «ديك، ألم يحِن وقت أن تُخبرني المزيد عما تفعل؟»

وافقتها قائلًا: «أظن أنه قد حان»، وبعد العشاء في تلك الليلة، أخبرتُها بكل شيء.

طَرَحَت الكثير جدًّا من الأسئلة، أسئلة استقصائية، فكان ذكاء ماري ضعف ذكائي تقريبًا. جلسَتْ واضعةً ذقنها على يدِها تفكر لفترة طويلة.

ثم قالت أخيرًا: «أتمنَّى لو أني التقيتُ السيد مِدينا. عمتي كلاير وعمتي دوريا تعرفانه. أنا أخشاه، أخشاه بشدة، ولكني أظن أن خوفي منه سيقلُّ لو رأيتُه ولو لمرةٍ واحدة. هذا أمر مُريع يا ديك، وأنت تقاتل بأسلحة غريبة. تكمن أفضليتك الوحيدة في أنك صلبٌ مثل خشب السنديان. كم أتمنى أن أساعدك. من الصعب عليَّ أن أجلس ها هنا انتظر والقلق عليك يُعذبني، وأن أفكر طوال الوقت في أولئك المساكين. لا يُمكنني إخراج الصبي الصغير من أفكاري. لقد استيقظتُ من نومي عدة مرات فزعة، وكنت أذهب إلى غرفة نوم الأطفال لأعانق بيتر جون. لا بدَّ أن المُربية تظن أنني مجنونة. هل ترى أن ذهابك إلى النرويج هو التصرُّف الصحيح؟»

«لا أرى سبيلًا آخر. لدَينا دليل على مكان إحدى الرهائن، ولكني لا أعلم من يكون. ولا بد أن أتتبَّع هذا الدليل، وإذا ما عثرتُ على أحدهم؛ فقد يمنحني هذا خيطًا يُوصلني إلى الآخرين.»

قالت ماري: «سيظل اثنان مفقودَين، والوقت يمر سريعًا. وما أنت إلا رجل واحد. ألا يُمكنك الاستعانة بمَن يساعدك؟ هل يمكنك الاستعانة بالسيد ماكجيليفراي؟»

«لا. لدَيه مهمة يؤديها، وإذا ما جعلته يشارك في مهمتي، سنقوِّض المهمتَين.»

«حسنًا، ماذا عن الكولونيل أربوثنوت؟ ماذا يفعل؟»

«ساندي مشغول بما فيه الكفاية، وقد عاد إلى إنجلترا، حمدًا للرب. سأعرف المزيد عن خطته عندما ألتقِيه، ولكن ثقي أنها ستكون خطة محكمة. عندما أرحل، سيواصل ساندي العمل طوال الوقت.»

«لم ألتقِ به من قبل كما تعلم. ألا يمكن أن أراه لبعض الوقت بينما أنتَ في رحلتك؟ سيكون من الرائع أن أجد من يُواسيني. ديك، ألا يُوجَد ما يمكنني المساعدة به؟ لطالما تشاركنا كلَّ شيء، قبل حتى أن نتزوَّج، وأنت تعلم جيدًا أنه يمكن الاعتماد عليَّ.»

قلت: «أعلم ذلك يقينًا يا حبيبتي. ولكني لا أعرف بعدُ كيف يمكنكِ المساعدة. إذا عرفتُ كيف يمكنكِ المساعدة، سأطلُبها منك على الفور، فأنتِ عندي أفضل من كتيبة كاملة.»

«إنه الصبي الصغير المسكين. يُمكنني تحمُّل كل شيء آخر، لكن التفكير فيه يقودني إلى الجنون. هل التقيتَ بالسير آرثر؟»

«لا، تجنبتُ لقاءه. يُمكنني تحمل لقاء فيكتور والدوق، ولكني أقسم لكِ أني لن أتمكن من النظر إلى وجه السير آرثر حتى أُسلِّمه ابنه بيدي.»

بعد ذلك نهضت ماري ووقفت فوقي كما لو كانت ملاك الولادة.

وصاحت: «ستتمكن من فعل ذلك. لا تستسلِم أبدًا يا ديك. أومِن من كل قلبي أننا سننتصِر. يجب أن ننتصر وإلا لن أتمكن من تقبيل بيتر جون مجددًا ببالٍ مرتاح. أوه، أتمنَّى ... أتمنَّى لو كان بيدي شيء لأفعله.»

لا أظن أن ماري قد أُغمِضَ لها جفنٌ في تلك الليلة، وبدت في صباح اليوم التالي شاحبةً وظهرت في عينَيها تلك النظرة الشاردة الغريبة التي ظهرت فيهما عندما ودَّعتها في مدينة أميان في شهر مارس عام ١٩١٨، قبل الذهاب إلى الحرب.

قضيتُ يومًا رائعًا معها ومع بيتر جون متجوِّلَين في ضيعتنا الصغيرة. كان ذلك اليوم أحد أيام شهر أبريل التي تبدو وكأنه استعارها من نهاية شهر مايو، عندما يلتقي دفء الصيف مع بساطة الربيع وجمال ألوانه. كانت أزهار النرجس الكثيرة النامية في ظلال الأشجار شيئًا يُحمَد الربُّ عليه، وكانت ضفاف البحيرة الصغيرة سلسلةً واحدة من أزهار الحلحل الزرقاء والبيضاء، وكان كل وادٍ من أودية الغابة متألقًا بأزهار الربيع. قضينا فترة الصباح في تعميق البرك لتحويلها إلى مفرخة واحدة لأسماك السلمون الجديدة في البحيرة، وأظهر بيتر جون موهبة فذة كمهندس هيدروليكي. وأخيرًا تمكَّنَت مُربيته، التي كانت امرأة اسكتلندية في منتصف العمر من منطقة شيفيوت، من حملِه ليحصل على راحته الصباحية، وبعدما انصرفا، تركت ماري الحفر في المياه وجلست على إحدى الضفاف المكونة من الأصداف.

وسألتني: «ما رأيك بحقٍّ في المُربية؟»

قلت: «إنها أفضل ما يمكن الحصول عليه.»

«هذا ما أظنه أيضًا. أتدري يا ديك، أنا مُدققة للغاية فيما يتعلق ببيتر جون. أمنحه ساعاتٍ طوالًا من وقتي من دون أن يكون ذلك ضروريًّا. يمكن للمُربية أن تفعل كل شيءٍ أفضل مني. لا أجرؤ على تركه يغيب عن ناظرَي، ولكني واثقة من أنه يُمكنني تركه مع المُربية وبادوك لأسابيع دون أن أقلق على سلامته، والطبيب جرينسليد سيحضر على الفور في حال الاتصال به.»

وافقتها قائلًا: «بالطبع يمكنك ذلك، ولكنك تفتقدينه، مثلما أفعل أنا، فصحبتُه مُمتعة.»

قالت: «نعم، صحبته مُمتعة، ابني الحبيب.»

بعد ظهيرة ذلك اليوم، ركِبنا الخيل على مهَل في السهول، وعدتُ شاعرًا بالنشاط وكأني حصان سباق، وكنتُ جاهزًا لفعل أي شيء. ولكن في ذلك المساء، بينما كنا نسير في الحديقة قبل العشاء، عادت رغبتي في التحرُّر من تلك المهمة والعودة إلى حياتي الهادئة. وأدركتُ أن قلبي مُعلق بأرضي المبهجة، وأخافتني فكرة تعلُّقي الشديد بها. أظن أن ماري فهمت ما أشعر به؛ فقد أصرَّت على التحدث عن ديفيد واركليف، وقبل أن أخلد إلى الفراش، ذكرتني بذلك الغضب الصادق الذي يُعَد أفضل مقوٍّ للعزيمة. وراجعَت معي خططي بحرصٍ شديد. في يوم الثامن والعشرين، من المُفترَض أن أتمكن من العودة إلى المنزل، ولكن إذا داهمَني الوقت، سأرسل لها برقية وأتجه مباشرةً إلى لندن. وكان يجب الحفاظ على التظاهُر بأني طريح الفراش. ومراعاةً للأمن، كنتُ سأوقع كل برقيةٍ أرسلها باسم كورنيليوس.

في وقتٍ مبكر للغاية من صباح اليوم التالي، وقبل أن يستيقظ أحدٌ بفترة طويلة، أدرتُ السيارة الفوكسهول الكبيرة بمساعدة بادوك، وأخذت معي القليل جدًّا من الأمتعة، وتسلَّلنا بالسيارة بهدوءٍ في الطريق. كان بادوك، الذي يُمكنه قيادة السيارة، سيعود إلى المنزل في حوالي العاشرة، ويُخبر سائقي بأني أمرتُه بأن يأخذ السيارة الفوكسهول إلى أوكسفورد لأني أعرتُها إلى أحد أصدقائي لأسبوع. قدتُ السيارة مسرعًا إلى خارج الطرق الصامتة عبر التلال وعلى الطريق الروماني العظيم الذي يُشبه شريطًا مُمتدًّا عبر المُرتفعات. كانت الساعة قد تخطَّت السادسة بقليل عندما وصلت إلى نُزُل «المرأة الصموت» الذي كان رابضًا كبرج مُراقبة على حافة أحد المنحدرات عند تقاطُع أربع طرق. كان الدخان يتصاعد من مداخن النزُل، فخمنتُ أنَّ ساندي قد أمر بإعداد إفطار مُبكر. بينما كنتُ أوقف السيارة في أحد المباني المُلحقة بالنزُل، ظهر ساندي حاملًا حقائب قماشيةً مُرتديًا معطفًا صوفيًّا، وبدا مظهره مختلفًا عما اعتدت، ولوحت الشمس بشرته بصورة غريبة.

قال ساندي: «آمُل أنك جائع. صاحب النزُل رائع! إنه يعرف كيف يفتح شهية المرء. لقد طلبتُ بيضًا، وكلاوي، وسجق، ولحمًا باردًا، وبدا وكأنه كان يتوقع هذا الطلب. نعم. هذا هو مقر قيادتي حاليًّا، ولكن مقر القيادة العامة المُتقدِّم في مكانٍ آخر. بالمناسبة يا ديك، ثمة أمر آخر يجدُر بي أن أُنبهك إليه، اسمي هو: تومسون، ألكسندر تومسون، وأنا ناقد مسرحي يقضي عطلة عيد فصح متأخرة.»

كان الإفطار جيدًا مثلما قال ساندي، وبعد المضي بالسيارة في الهواء الطلق ورؤيته جالسًا أمامي، بدأتُ أشعر بحِملٍ ينزاح عن صدري.

فقلت: «وصلتني خطاباتك، ولكني أيقنتُ أن معرفتك بأسماء الخيول الفائزة في السباقات سيئة للغاية. كنتُ أظن أن النبلاء لا يصلحون لأن يكونوا نبلاء من دون هذا النوع من المعلومات.»

«أنا استثناء من هذه القاعدة. هل تصرفتَ بناءً على ما ورد فيها؟»

«أخبرتُ مِدينا أني قطعتُ علاقتي بك إلى الأبد، وأني لا أريد أن أراك ثانيةً. ولكن لماذا طلبتَ منِّي فعل ذلك؟»

«لأني كنتُ أريد أن أصرف انتباهه عني، وفكرت أنه إذا ما جعلناه يظن أننا تعاركنا وأنني رحلت إلى الأبد، فسوف يتركني وشأني. لقد كان يحاول جاهدًا أن يَغتالني.»

صحتُ قائلًا: «يا إلهي! متى حدث ذلك؟»

قال ساندي بهدوء وهو يَعُد على أصابع يده: «أربع مرات. مرة قبل أن أغادر لندن. أوه، لقد غادرتُ لندن بأعجوبة. وثلاث مرات في باريس، آخِرها منذ أربعة أيام. أظن أنه توقف عن مُراقبتي حاليًّا، فهو مُتيقن من أني قد أبحرتُ من مارسيليا أول أمس.»

«ولكن بحق السماء لِمَ يريد قتلك؟»

«حسنًا، لقد صدرت عني بعض التعليقات غير المناسبة عندما كنا نتناول العشاء في نادي الخميس. وهو يعتقد أني الرجل الوحيد على وجه الأرض الذي يُمكنه كشف أمره، ولن يغمض له جفن حتى يتأكد من أني خرجت من أوروبا ويقتنع بأني لا أشك في أمره. أرسلت إليك هذه الخطابات لأني كنتُ أريد أن يتركني وشأني؛ فقد كنت منشغلًا للغاية، ولا شيء يضيع الوقت مثل تفادي الاغتيال. ولكن كان هدفي الرئيسي هو حمايتك. ربما لا تُدرك ذلك يا ديك، ولكنك ظللتَ طوال ثلاثة أسابيع تسير على شفا هاوية وإحدى قدمَيك تكاد تزل لتسقط فيها. كنتَ عرضةً لخطر كبير، ولم أشعر براحةٍ في حياتي مثل التي شعرتُ بها عندما رأيتُ وجهك الكئيب العجوز هذا الصباح. لم تُصبح آمنًا من الخطر إلا بعدما اعتبر أن صداقتنا قد انتهت وأني انزحتُ عن الطريق وأنك أصبحتَ عبدَه الأعمى المطيع.»

قلت: «هذا صحيح. لم يكن يُوجَد عبدٌ يُشبهني منذ رواية كوخ العم توم.»

«جيد. هذا رائع، فهذا يمنحنا برج مُراقبةٍ داخل قلعة العدو. ولكننا لا نزال في بداية معركة كبيرة، ولا أحد يعرف مسارها. هل قيمتَ شخصية مِدينا؟»

«جزء بسيط منها فقط. هل قيَّمتَها أنت؟»

«ما زلتُ أحاول. فهو أكثر شخصية مُعقدة صادفتها في حياتي. ولكن علينا الآن أن نوحِّد معارفنا. هل أبدأ أنا؟»

«نعم. ابدأ بعشاء الخميس. ما الذي أثار غضبك حينئذ؟ أعتقد أن ثمة شيئًا قاله أغضبك.»

«يجدر بي أن أبدأ من قبل ذلك. لقد سمعت الكثير عن مِدينا في جميع أنحاء العالم، ولكني لم أتمكن من لقائه أبدًا. كان الجميع يكيلون له المديح، ولكن كان ينتابني دائمًا شعور غريب حيال الرجل. لقد أخبرتك عن لافاتر سابقًا. حسنًا، لم يكن ثمة شيء أثار غضبي حينئذٍ سوى شعوري بأن تأثيره على صديقي كان سيئًا. لذا، بدأتُ باستقصاء الأمور، وكما تعلم، أمتلك إمكانات في اكتشاف الأمور لا يمتلكها أغلب الناس. انتابني الفضول لأن أعرف ماذا كان يفعل خلال الحرب. تقول الرواية المعروفة إنه ضل طريقه خلال العامَين الأولَين من الحرب في آسيا الوسطى التي ذهب إليها في بعثة عِلمية، ثم أصبح بعد ذلك يعمل مع الروس، وأتم عملًا مهمًّا مع دينيكين. استقصيتُ صحة هذه القصة واكتشفت أنه ذهب إلى آسيا الوسطى بالفعل، ولكنه لم يقترب من أي جبهة قتال ولم يقترب من دينيكين ولو لمسافة ألف ميل. هذا ما كنتُ أعنِيه عندما قلتُ لك إني أعتقد أن الرجل كاذب كبير.»

«لقد جعل الجميع يُصدقون هذه القصة.»

«هذا هو مربط الفرس. لقد جعل العالم بأسره يصدق ما أراد. لهذا السبب، لا بد أنه شخص غير عادي، عبقري في الدعاية. كان هذا استنتاجي الأول. ولكن كيف تمكن من تحقيق ذلك؟ لا بد أنه مُنظم للغاية، ولكن لا بد من وجود شيءٍ آخر، وهو تلك الشخصية التي يمكنها أن تنتشر نفسها مثل الهواء، أو مثل تيار كهربائي لا يضعف مهما طالت المسافة. ولا بد أنه يمتلك قدرةً فذةً على التنويم المغناطيسي. لقد أُجرِيَت دراسة عن هذا في الشرق، واكتشفت أننا هنا لا نعرف إلا القليل عن سيطرة النفس على النفس. ولطالما آمنت، وحتى يومِنا هذا، أن هذا هو السحر الحقيقي. هل تذكر أني قلتُ شيئًا من هذا القبيل في عشاء الخميس؟»

أومأت برأسي أن نعم. «أظن أنك قلتَ ذلك لتختبر ردةَ فعله، صحيح؟»

«نعم. ولم يكن تصرُّفي هذا حكيمًا، فكان من السهل أن أجعله يتوخى الحذر. ولكني كنتُ محظوظًا أكثر مما أستحق، واستخرجتُ منه اعترافًا مذهلًا.»

«الاقتباس اللاتيني؟»

«الاقتباس اللاتيني. Sit vini abstemius qui hermeneuma tentat aut hom-inum petit dominatum. كدت أُصاب بحالة هستيرية عندما سمعته. اسمع يا ديك. كنتُ دومًا مهووسًا بالغوامض، وعندما كنتُ أدرس في جامعة أوكسفورد، كنت أضيع وقتي عليها بدلًا من المواد الدراسية. صحيح أني حللتُ ثالثًا ضمنَ أوائل الطلبة، ولكني اكتسبتُ الكثير من المعارف غير المعتادة. كان مايكل سكوت من بين الموضوعات التي درستُها. نعم، الساحر، ولكنه لم يكن ساحرًا، بل كان مفكرًا مبدعًا وصبورًا للغاية. كان حدوديًّا مثلي، وكنت قد بدأت كتابة سيرته الذاتية. واصلتُ دراسته، وعندما كنتُ أعمل في سفارتنا في باريس، كنت أقضي وقتَ فراغي في تقصي أي معلومات عنه في مكتبات أوروبا. نُشر أغلب أعماله في القرنَين الخامس عشر والسادس عشر، وكانت مُملةً للغاية، ولكن بعض أعماله كانت لا تزال مخطوطاتٍ لم تُنشر، ولطالما أملتُ في اكتشاف المزيد عنه؛ فقد كنتُ على يقينٍ من أن مايكل سكوت الحقيقي أكبر بكثيرٍ من المترجِم والمُعلق الذي نعرفه. كنتُ مؤمنًا بأنه علَّم الإمبراطور المجنون فرديناند بعض الأشياء الغريبة، وأن تعاليمه تتمحور حول كيفية سيطرة نفسٍ بشرية على أخرى. وتبين في نهاية المطاف أني مُحق. فقد عثرت على أوراق بخطِّ اليد في مكتبة فرنسا الوطنية كنت واثقًا من أنها تعود إلى مايكل. لعلك تذكر أن أحد أشهر أعماله هو كتاب «علم الفراسة»، ولكنه مجرد نقل عن أرسطو. كانت هذه المخطوطات جزءًا من كتاب «علم الفراسة» أيضًا، ولكنها كانت مختلفة عن الكتاب تمامًا، ففيها يدعي أنه يُقدِّم جوهر «سر الأسرار»، وهذا أمر يطول شرحه، وتعاليم طائفة «المعالِجين»، مع تعليقات مايكل عليها. كانت عبارة عن دليل للسيطرة الروحانية، وأؤكد لك أنها تناسِب العصر الحالي تمامًا، كما أنها أكثر تقدمًا بكثيرٍ من علوم المُحللين النفسيين الحاليين الأغبياء. حسنًا، جاء اقتباس مِدينا من هذه المخطوطات؛ فقد استرعَت انتباهي كلمة hermeneuma النادرة الاستخدام بمجرد أن تفوَّه بها. أثبت هذا لي أن مِدينا كان تلميذًا لمايكل سكوت، ومِن ثَم ظهرت لي مكنونات نفسه واضحةً جلية.»

«هو من كشف نفسه لك إذن، ولم تكشفه أنت.»

«بل أنا الذي كشفتُه. هل تذكر عندما سألتُه إن كان يعرف المرشد الروحي الذي كان يعيش عند قاعدة مَمرٍّ شانسي وأنت في طريقك إلى كيكاند؟ كان طرح هذا السؤال خطأً فادحًا، لهذا السبب كان يُحاول أن يمحوني من على وجه الأرض. فقد كان هذا الاقتباس من المُرشد الروحي الذي علَّمه أغلب فنونه.»

سألته. «هل يُدعى هذا المرشد الروحي خاراما؟»

حدق ساندي في وجهي كأنه رأى شبحًا.

ثم قال: «بحق السماء كيف عرفت ذلك؟»

«ببساطة لأني قضيتُ معه ومِدينا ساعةً كاملة منذ بضع ليالٍ.»

«يا للهول! خاراما في لندن! ديك، يا إلهي، هذا رائع. أسرع، أخبرني بكل ما حدث بالتفصيل المُمل.»

أخبرته بكل ما تمكنت من تذكره، وبدا وكأنه نسي مخاوفه وظهر الرضا على وجهه. وقال: «هذا أمر على جانب كبير من الأهمية. هل تُدرك المغزى من حديث مِدينا؟ إنه يريد فرض سيطرته على هؤلاء المساكين الثلاثة، ولكي يتمكن من ذلك نُصِحَ بأن يؤكد سيطرته في بيئة مُماثلة للتي عاشوا فيها خلال حياتهم السابقة. وهذا يمنحنا فرصةً ذهبية لتتبُّعهم. ولا يمكن لأحد أن ينهي تلك السيطرة إلا مَن فرضها في المقام الأول! كنتُ أعرف ذلك مسبقًا، ولكني لم أكن واثقًا مما إذا كان مِدينا يعرف ذلك أم لا. مِن المُهم للغاية أني اكتشفتُ ذلك.»

رجوته قائلًا: «أنهِ قصتك. أريد أن أعرف ماذا كنتَ تفعل في الخارج؟»

«واصلتُ دراساتي في مكتبة فرنسا الوطنية، واكتشفت صحة ما توقعته، وهو أن مِدينا، أو شخصًا مِثله، قد وصل إلى مخطوطة مايكل سكوت وحصل على صورة طبق الأصل منها. وسَّعتُ نطاق بحثي، فلم يكن مايكل هو الوحيد الذي كان يعمل في هذا المجال، وإن كان أبرزَهم. يا إلهي، ديك، من الغريب أن نُضطر إلى التنقيب بحثًا عن عَونٍ في ركام العصور الوسطى. عثرتُ على شيءٍ ما، ليس على جانبٍ كبير من الأهمية، ولكنه شيء مُفيد على الأقل.»

«ثم ماذا؟»

«كنتُ أتقصى ماضي مِدينا طوال الوقت، ولم يُثمر هذا عن الكثير، وقد أخبرتُك بأغلب ما توصلتُ إليه. ثم ذهبت للقاء رام داس؛ لعلك تذكر حديثي معك عنه. كنتُ أحسبه في ميونخ، ولكني وجدتُه في وستفاليا يُراقب رجال الصناعة الألمان. لا تذهب لقضاء عطلتك في ألمانيا أبدًا يا ديك، إنه بلد كئيب وغير مريح. كنتُ مُضطرًا للقاء رام داس؛ فقد تصادف أنه شقيق خاراما.»

سألته. «ما مدى أهمية شخصٍ مثل خاراما؟»

أجابني ساندي قائلًا: «فيما يتعلق بالمعرفة النظرية فهو لا يُضاهى، ولكن على مستوى المُمارسة العملية يأتي في المرتبة الثانية»؛ وكان هذا بالضبط ما قاله مِدينا.

«أخبرني رام داس بأغلب ما أردتُ معرفته. ولكنه لا يعرف أن شقيقه في أوروبا. بل وأظن أنه يَحسبه قد مات. هذا كل ما تحتاج إلى معرفته حاليًّا. هيا يا ديك، قصَّ عليَّ كل ما حدث معك بدقة.»

وصفتُ له، بقدْر الإمكان، التغيُّرَ التدريجيَّ في أسلوب تعامل مِدينا معي من الصداقة إلى التملُّك. وأخبرتُه أنه بدأ يتحدث معي بانفتاح، كما لو كنتُ تابعًا له، وأخبرتُه بتلك الأمسية الاستثنائية في شارع هيل عندما التقيتُ والدته.

صاح ساندي مذهولًا: «والدته!» وجعلني أقص عليه جميع التفاصيل عدة مرات؛ الصفعة على الوجه، والبصق، وفقداني الوعي في نهاية المطاف. بدا وكأنه يستمتع بالقصة كثيرًا. ثم قال: «رائع. إنك لم تؤدِّ عملًا بهذه الكفاءة من قبلُ أيها المُسن.»

قلت: «لقد عثرتُ على الغازلة الكفيفة على أية حال.»

«نعم. كنتُ قد خمنتُ ذلك إلى حدٍّ ما. لم أذكر لك ما سأقوله تاليًا، ولكن عندما دخلتُ ذلك المنزل في جوسبل أوك متنكرًا في هيئة الكهربائي، عثرتُ على عجلةِ غزلٍ في الغرفة الخلفية، وكانوا يحرقون فحمًا نباتيًّا في المدفأة. حسنًا، هذه هي النقطة الأولى.»

قلت: «أظن أني بصدد اكتشاف النقطة الثانية»، وأخبرته بالحوار الذي سمعتُه يدور بينهما حول الشخص «الثاني» وحول إرسال «الطبيب» إلى مكان ما، وكيفية اكتشافي أن الطبيب نيوهوفر في طريقه اليوم إلى جزيرة سكارسو. قلت: «هذا هو خيطنا الموثوق الأول، وأظن أنني يجِب أن أتبعه.»

«نعم. ما الذي فعله؟»

«سأسافر مساء اليوم على متن الباخرة جودرون، وسأتبع الرجل حتى أكتشف ما يُخطط له. يجدُر بي أن أتحرك وفقًا للمعلومات المحدودة التي نمتلكها.»

«أنت محق. ولكن هذا يعني أنك ستغيب لفترة طويلة عن لندن، والشخص الثاني مجرد شخص واحد من بين ثلاثة أشخاص.»

قلت: «سأغيب لأسبوع واحد فقط. لقد حصلتُ من مِدينا على إجازة مرضية لمدة أسبوع، ومن المُفترَض أني طريح الفراش في فوسي، ولا تسمح ماري لأحد بزيارتي. ورتبتُ مع آرتشي رويلانس أن يُقلَّني بطائرة في يوم الثامن والعشرين ويُعيدني إلى الوطن. لا أملك الكثير من الوقت، ولكن يمكن لرجل نشط أن يفعل الكثير خلال أسبوع.»

صاح: «أحسنت! لقد عادت روحك المُغامِرة مجددًا!»

«هل توافق على خطتي؟»

«بالطبع. وبغض النظر عما قد يحدُث، هل ستعود إلى مِدينا في يوم التاسع والعشرين؟ هذا لا يترك لنا سوى ستة أسابيع لإتمام باقي المهمة.»

قلت في كآبة: «بل أقرب إلى خمسة أسابيع»، وأخبرته عن الكيفية التي علمتُ بها أن العصابة تنوي تصفية أعمالها بحلول منتصف الصيف، ولهذا السبب قدَّم ماكجيليفراي تاريخ تحرُّكِه عشرة أيامٍ للقبض عليهم. «لعلك تُدرك الوضع الذي أصبحنا فيه. يجب عليه أن يقبض على جميع أفراد العصابة في الوقت نفسه، وعلينا أن نُحرِّر الرهائن الثلاث جميعهم، إن استطعنا، في الوقت نفسه. ويجب أن يتمَّ تحرير الرهائن في أسرع وقتٍ وإلا قد تعرف العصابة ما نُخطط له. لهذا السبب، إذا كان ماكجيليفراي سيضرب ضربته في العاشر من يونيو، علينا أن نكون مُستعدِّين بحيث لا تسبق ضربتنا التاسع من يونيو، وبالطبع، ليس بعده.»

قال: «فهمت»، ثم صمت قليلًا. ثم قال: «هل ثمة أي شيء آخر تريد أن تُخبرني به؟»

اعتصرتُ ذاكرتي فتذكرتُ أوديل. فدَوَّنَ اسم الملهى الليلي الذي رأيتُ فيه ذلك الخادم الذي لم أتمكن من تكوين انطباعٍ عنه. وذكرتُ أني طلبت من ماكجيليفراي أن يجمع معلوماتٍ عنه.

سألني قلقًا: «هل أخبرت ماكجيليفراي بأكثر من اللازم؟» وبدت الراحة على وجهه عندما أخبرتُه أني لم أذكر له موضوع مِدينا مطلقًا.

فقال أخيرًا: «حسنًا إذن، إليك ما سنفعله. ستسافر لمدة أسبوع بحثًا عن الدليل رقم اثنين. أنا على يقينٍ من أننا عثرنا على الدليل رقم واحد. أما الدليل رقم ثلاثة — ذلك الهراء عن حقول جنة عدن واليهودي ذي اللحية المصبوغة في متجر التُّحف في ماريلبون — فلا يزال يُراوغنا. وبالطبع، لم نعرف أي شيءٍ بعدُ عن الرهائن الثلاث. هناك الكثير مما لا يزال علينا فعله. كيف تتخيَّل الأمر برمَّته يا ديك؟ هل تفكر في أن الرهائن الثلاث، الفتاة، والشاب، والصبي، محبوسون في مكانٍ ما يحرسه أتباع مِدينا؟ هل تتخيل أننا إذا عثرنا على الأماكن التي تُخفيهم فيها العصابة، سنكون قد أتممْنا مهمتنا؟»

«هذا ما فكرت فيه.»

هز رأسه نفيًا. وقال: «الأمر أكثر تعقيدًا من ذلك. ألم يُخبرك أحد من قبل أن أفضل طريقة لإخفاء شخصٍ ما هي سلب ذاكرته؟ ألم تسأل نفسك لماذا يكون من الصعب العثور على شخصٍ فَقَدَ ذاكرته؟ تنشر الصحف باستمرار قصصًا شبيهة بتلك. حتى المشاهير، إذا ما فقدوا ذاكراتهم وهاموا على غير هدًى، لا يُعثَر عليهم إلا بمحض الصدفة.

يرجع ذلك إلى أن الشخصية البشرية تتحدَّد بعاداتها وعقلها أكثر بكثيرٍ من مظهرها. ويعني فقدان الذاكرة فقدان جميع المُحدِّدات الحقيقية للشخصية، ويتغير شكل الشخص بناءً على ذلك. لقد سلب مِدينا هؤلاء المساكين الثلاثة ذاكراتهم، وتركهم يَهيمون على غير هدًى مثل المُشردين. ربما كان ديفيد واركليف في هذه اللحظة يلعب في أحد مصارف لندن مع عشراتٍ آخرين من أطفال الشوارع، وقد لا يتمكن والده من التعرُّف عليه وسطهم. وربما أصبح ميركوت عاملًا في ميناءٍ أو معاونًا بحريًّا، ولن يُمكنك التعرُّف عليه إذا ما التقيتَه، على الرغم من جلوسك أمامه في ردهة الكلية كلَّ ليلةٍ طوال عام كامل. وربما أصبحت الآنسة فيكتور إحدى فتيات الجوقة أو بائعة قبعات أو إحدى مرافقات الرقص. انتظر لحظة. هل رأيتَ أوديل في أحد الملاهي الليلية؟ ربما كان لهذا علاقة بمهمتنا.» رأيتُ عينَيه تشردان في تفكير عميق.

فقلت: «ثمة أمر آخر نسيت أن أخبرك به. خطيب الآنسة فيكتور هنا، يقيم في فندق كارلتون هاوس تيراس. إنه من عائلة توربين، وكان ضمن جنود فرقتي في الجيش؛ ماركيز دو لا تور دو بين.»

دَوَّنَ ساندي الاسم. وقال: «خطيبها. قد يُفيدنا. ما انطباعك عنه؟»

«شجاع كأسد، ولكنه يحتاج إلى مَن يُراقبه، فهو يُحب التفاخر قليلًا.»

خرجنا بعد الإفطار وجلسنا في تعريشة تُطل على وادٍ فرعي غير عميق يمتد حتى جداول ويندراش القادمة من المرتفعات. كانت أصوات الصباح بدأت تصلنا من القرية الصغيرة في قاع الوادي، اهتزاز عربة، صوت «طَرقات» مطرقة حداد، ضجيج أطفال يلعبون. سيحل موسم شهر مايو لصيد الأسماك خلال أسبوعين، وأزهرت جميع أشجار القصاص والرباطية الدرهمية الأزهار. لم يتحدث ساندي، الذي ظلَّ بعيدًا عن إنجلترا لسنوات، لفترة طويلة، ولكنه كان غارقًا في هدوء المكان المُعبق برائحة الزهور. ثم قال أخيرًا: «يا للمسكين. لا يملك منظرًا مثل هذا ليقع في حُبه. إنه لا يشعر بشيءٍ سوى الكراهية.»

سألته عمن يقصد، فقال: «مِدينا.»

«أحاول فهم شخصيته. لن يُمكنك قتال رجلٍ إلا إذا فهمتَ شخصيته، وأشعر بالتعاطف معه إلى حدٍّ ما.»

«لا يُمكنني القول إني أتعاطف معه، ومن المؤكد أني لا أفهم شخصيته.»

«هل تذكر عندما قلتَ لي إنه لا يُوجد أي غرور في نفسه؟ كنتَ مخدوعًا تمامًا. إنه مغرور لدرجة الهذيان.»

واستطرد قائلًا: «هكذا رأيته. بادئ ذي بدء، ثمة عِرق لاتيني عتيق فيه، لكنه أيرلندي في الأساس، وهذا عادةً لا يكون خليطًا جيدًا. إنه أيرلندي مُقتلَع من جذوره، مثل أولئك الذين هاجروا إلى أمريكا. أعتقد أنه تشَرَّب من تلك المرأة المريعة — لم أُقابِلها في حياتي، ولكن يمكنني تخيلها بكل وضوح، وعلى يقينٍ من أنها مريعة — تشَرَّب منها تلك الكراهية المتَّسمة بالحقد للأشياء الخيالية؛ إنجلترا الخيالية، الحضارة الخيالية، ما يُطلَق عليه حُب الوطن. لا يُوجَد حُب في ذلك. ولكنهم يظنون أن ثمة حبًّا، ويتوقون إلى بساطة الماضي، وعجلات الغزل وحرق الفحم النباتي والتحدُّث بلغةٍ غريبة، ولكن كل هذا لا معنى له. ثمة الكثير من الأشخاص المُحترمين في أيرلندا، ولكن الأناس من نوعية المُجتثين من جذورهم تلك يتوقون بشدة إلى أمور لا تجِدها إلا في فجر التاريخ، كما أنهم تافهون وقساة مثل الآلهة الخيالية المذكورة في أساطيرهم. كل شيء يبدأ بتلك الكراهية الراسخة.»

«أتفق معك فيما يتعلق بالسيدة العجوز. إنها تُشبه الليدي ماكبث.»

«ولكن سرعان ما تتحول الكراهية إلى غرور. فإذا غزت الكراهية قلبك، تبدأ باحتقار الجميع، وعندما تحتقر الجميع فإنك تبالغ في تقدير النفس التي تحتقر الجميع. هكذا أرى الأمر، ولكن تذكر، لا تزال جوانب كثيرة من شخصيته غامضة لي، وليس هذا إلا تحسُّسًا لطريقي نحو فهمها بالكامل. يمكنني تخيُّل مِدينا في طفولته — لا أعرف البيئة التي نشأ في كنفها — مُدركًا لمواهبه العظيمة ووسامته الهائلة، وظل المُحيطون به يُطرون عليه حتى أصبح يظن نفسه إلهًا. لا تموت كراهيته، بل تتحول إلى عجرفة وغرور هائلَين، يَظهران، بالطبع، في صورة كراهية. ثم يكتشف في سنٍّ مبكرة قدرته الاستثنائية على التنويم مغناطيسيًّا؛ قد تسخر من ذلك؛ فقد تصادف أنك منيع ضد التنويم المغناطيسي، ولكن العالَم بأسره يعتبرها قدرة عظيمة. ويكتشف أمرًا آخَر؛ أنه يمتلك جاذبية استثنائية في أعين الناس ويمكنه أن يجعلهم يؤمنون به. لقد امتلك بعضُ أسوأ المحتالين في التاريخ هذه الموهبة. والآن، لنعُد إلى غروره. إنه يجعله راغبًا في مزاولة لعبته على أعلى مستوًى من الصعوبة. إنه لا يريد أن يكون ملكًا ضِمن منبوذين، بل يرغب في أن يسيطر على أكثر الأشياء الغريبة عنه، الأشياء التي يكرهها وفي الوقت نفسه يُعجَب بها مرغمًا ومتألِّمًا. لذا، يهدف إلى غزو مركز كل هذا، الجزء الأصح من مجتمعنا. وفوق كل هذا يريد أن يحتفي به الجميع وأن يكون جزءًا من أرفع الدوائر الاجتماعية.»

قلت: «لقد نجح في ذلك بالفعل.»

«لقد نجح، وهذا أكبر دليل نملكه على مهارته الهائلة. إن كل شيء فيه متميز؛ ملابسه، أسلوبه، تواضعه، إنجازاته. لقد حول نفسه إلى صياد طرائد مُمتاز. هل تعرف

لِمَ يُمكنه استخدام البندقية بمهارةٍ يا ديك؟ بسبب الإيمان، أو القَدَر إن شئتَ القول. غروره لا يسمح له بأن يعتقِد أنه قد يُخطئ هدفه. لكنه يُسيطر على نفسه جيدًا. إنه يعيش حياة النسَّاك، ورغم أن النساء يعشقنه، فإنه لا يُعيرهن أي اهتمام. لا تُوجَد أي شهواتٍ جسدية في شخصيةٍ من هذه النوعية. ثمة شغف واحد يتملَّكه يُنحِّي كل شيءٍ آخر جانبًا؛ ما أطلق عليه صديقنا مايكل سكوت «الرجل المُهيمن».»

«فهمت. ولكن كيف تُفسر الجانب الآخر من شخصيته؟»

«إنه يتعلَّق بالكامل بالكراهية الموروثة. بادئ ذي بدء، يجب بالطبع أن يكون ثريًّا، ومن ثَم فهو يكسب المال بالطريقة التي يعرفها ماكجيليفراي. ثانيًا، يريد أن يُنشئ جماعةً من العبيد المُخلِصين. وهنا يأتي دورك يا ديك. لطالما كانت هناك تلك الكراهية اللاإنسانية تختفي خلف غروره. إنه يريد الغزو بهدف التدمير، فالدمار هو أفضل غذاء لغروره. ستجد الأمر نفسه متأصلًا في حياة الطغاة الشرقيِّين، فعندما يطمح الإنسان لأن يكون إلهًا، يُصبح تجسيدًا للشيطان.»

قلت في حزن: «إنها فرضية صعبة.»

«وقد تكون فرضية مُستحيلة، ولكن بشرطٍ واحد. إنه مُعرَّض دائمًا لخطر فضح نفسه بسبب غروره. هل قرأتَ الفولكلور الأيرلندي القديم؟ إنه رائع، ولكن ستجد دائمًا شيئًا خياليًّا وسخيفًا يُشوِّه أجمل قصصه. إنهم يفتقدون ذلك الحسَّ السليم الجاد الذي تجده في الملاحم النوردية والإغريقية بالطبع. إنه يمتلك هذا العنصر الفظيع في دمِه. لهذا السبب أرسل تلك القصيدة التي تتحدث عن الرهائن الثلاث التي بدأت تَسلسُل الأحداث التي أوصلتْك إليه. وأمَلُنا هو أن يؤدي به غروره إلى المزيد من الطيش، وإن كنتُ أظن أنه أمل واهٍ.»

قلت: «لا أعلم شعورك حيال ذلك، ولكنِّي أكره هذا الرجل كراهيةً مُبرَّرة. إنني أتوق إلى حياةٍ هادئة، ولكني أُقسِم لك إني لن أهدأ حتى أردَّ له الصاع صاعَين.»

قال ساندي في أسف: «لن تتمكَّن من فِعل ذلك أبدًا. لا تدعنا نُطري على أنفسنا ونقول إننا سنقضي على مِدينا. لن نفعل. ذات يومٍ قال لي رجل حكيم جدًّا إن المرء غالبًا ما يُمكنه تحقيق النجاح في هذه الحياة إذا لم يكن راغبًا في الانتصار. في حالتنا هذه، هدفنا الوحيد هو النجاح. نريد تحرير الرهائن. نصر لا يُمكننا أن نأمُل أبدًا في تحقيقه. والسبب في ذلك، يا رجل، أننا حتى وإن حققنا كلَّ ما نهدف إليه، فلن يُمكننا ربط مِدينا بكلِّ ما حدث. إن أتباعَه مُخلصين؛ فقد سرق أرواحهم وأصبحوا يعملون تحت إمرتِه دون

تفكير. لنفترِض أن ماكجيليفراي قبضَ على العصابة الكبيرة بالكامل ولفَّ حبلَ المشنقة حول أعناقهم. لن يُوافق أيٌّ منهم على أن يكون شاهد ملك ويشي بِمدينا. لماذا؟ لأن لا أحد منهم يعرف أي شيءٍ يُدينه. إنهم عملاؤه غير الواعِين، ومن المُحتمل جدًّا أن أغلبهم لم يرَه من الأساس. وثِق أن حساباته المصرفية مرتبة بمهارة فائقة بحيث لا يمكن لأحدٍ أن يحصل منها على أي شيء.»

قلتُ بعناد: «لا فارق، أشعر بأني سأستطيع إفساد خُططه.»

«أكاد أجزم بأننا قادرون على إثارة الشبهات حوله، ولكني أعتقِد أنه أقوى منَّا بكثير. سيتقدَّم في مسيرته المِهنية العظيمة أكثر، وربما يُصبح رئيسًا للوزراء، أو نائب الملك في الهند — ويا لها من فرصة ثانية ستسنح له! — وينشر دواوين شعرية صغيرة راقية، كاملة وحزينة بقدْر مجموعة قصائد فتى شروبشاير. في الواقع، عادةً ما يكون التشاؤم أحد أشكال الغرور.»

كان منتصف النهار هو الموعد الذي يجب أن أنصرف فيه، إذا ما أردتُ أن أصل إلى مدينة هول في تمام السادسة. سألتُ ساندي عن اقتراحه لما يجدُر بي فِعله تاليًا، فقال إنه لا يعرف. ثم قال: «وضعي الحالي سيِّئ للغاية. إذا ما عرف مِدينا أني في إنجلترا، سيحلُّ الخراب؛ خرابٌ لك ولي. يجب أن يختفي السيد ألكسندر تومسون. يجب أن أتواصل مع ماكجيليفراي بطريقةٍ ما لأسأله عما إذا كان قد توصَّل إلى أي شيءٍ بخصوص أوديل. إني أتخيل أوديل. ولكن لن يكون ثمة ما يمكن فعله حتى تعود، وأظن أني سأذهب لصيد السمك.»

«وكيف سأتمكن من التواصل معك لو احتجت إليك؟»

«لا تُحاول فعل ذلك. يجب ألا تُحاول التواصُل معي على الإطلاق. هذا من أجل سلامة كِلَينا. وإذا أردتُ أن آتي إليك، سأفعل.»

عندما هممتُ بالرحيل، قال فجأة: «لم ألتقِ زوجتك من قبل يا ديك. هل تسمح لي بالذهاب إلى فوسي وأُعرِّفها بنفسي؟»

صحتُ قائلًا: «بالطبع. إنها أيضًا تتوق إلى لقائك. ولكن تذكَّر أنه من المُفترض أن أكون طريح الفراش في الطابق العلوي.»

عندما نظرت خلفي، كان واقفًا يُلوِّح لي بيده، وارتسمت على وجهه ابتسامته الشقية المُعتادة.

الفصل الحادي عشر

رأيُ مهندسٍ ألماني في أساليب الصيد الغريبة

وصلت إلى مدينة هول في حوالي السادسة، وتركت سيارتي في مرآبٍ في مدينة يورك، وأكملت رحلتي بالقطار. وضعتُ متاعي في حقيبة سفر صغيرة وحقيبة ظهر، وانتظرتُ على رصيف الميناء حتى رأيتُ الطبيب نيوهوفر يصل ومعه الكثير من الأمتعة وصندوق صنارات كبير. وعندما اطمأننتُ إلى أنه سيكون في مقصورته يُرتِّب أشياءه، صعدتُ أنا أيضًا إلى سطح الباخرة، وتوجهتُ إلى مقصورتي مباشرةً، وكانت مقصورةً مريحةً ذات سريرَين تقع في مقدمة الباخرة. أكلتُ الشطائر التي أحضرتها معي، وهيأتُ نفسي للنوم والقراءة طوال ستٍّ وثلاثين ساعة.

هبَّت رياحٌ قوية طوال تلك الليلة واليوم التالي، فبقيتُ راقدًا في قُمرتي محاولًا قراءة كتابِ حياة صموئيل جونسون للكاتب بوزويل، وأشكر الربَّ على أني لم آتِ إلى الحياة قبل ألف عامٍ لأكون أحدَ الفايكنج. لم أتخيل نفسي أجوب تلك البحار العاتية على متن سفينةٍ مفتوحة. استيقظتُ صباح اليوم الثالث والعشرين من الشهر لأجد أن حركة الباخرة المُضطربة قد توقفت، وعندما نظرتُ إلى الخارج عبر كوة المقصورة، رأيتُ مساحةً من المياه الخضراء التي تعكس أشعة الشمس، وشاطئًا صخريًّا، ومدينةً صغيرةً مَبانيها باللونَين الأبيض والأحمر. توقفتِ الباخرةُ جودرون عند مدينة ستافانجر لحوالي ساعة، فمنحتُ الطبيب نيوهوفر وقتًا كافيًا حتى يصل إلى الشاطئ قبل أن أتناول إفطارًا سريعًا في حانة الباخرة ثم أتبعه. رأيته يُغادر بصحبة رجلَين، ويركب زورقًا بخاريًّا كان متوقفًا بجوار رصيف الميناء. بعدما أصبح الساحل خاليًا، اتجهتُ إلى المدينة، والتقيتُ العملاء الذين أرسل إليهم آرتشي رويلانس برقيةً، وعرفتُ منهم أن زورقي البخاري

جاهز وينتظرني في المرفأ الداخلي حيث تُوجَد قوارب الصيد. صحبني موظف إلى هناك، وعرفني بيوهان، سائق زورقي، وكان نرويجيًّا ضخم الجثة مرحًا كثَّ اللحية لا يتحدَّث الإنجليزية جيدًا. اشتريتُ بعض المؤن، وبدأنا رحلتنا في تمام العاشرة. سألتُ يوهان عن الطريق إلى ميردال، فأشار إلى نقطةٍ صغيرة مُتحركة على بُعد بضعة أميالٍ أمامنا. وقال: «هذا قارب كريستيان إيج. إنه يُقلُّ صيادًا إنجليزيًّا إلى ميردال ونحن نتبعه.» أمسكتُ نظارتي المُقربة ونظرتُ نحو القارب، ورأيت نيوهوفر جالسًا في مؤخرته يدخن.

كان الجو رائعًا، مع تلك الأضواء الشمالية الغريبة التي تجعل الظُّهر يبدو وكأنه الصباح الباكر. استمتعتُ بكل لحظة من الرحلة، ويرجع هذا من جانبٍ إلى أنه قد أصبحت لدَي مهمة مُحددة، ومن جانبٍ آخر أني أتنشَّق الهواء الطلق الذي كنتُ أتوق له بشدة. لم أكن أَمَلُّ مُطلقًا من مشاهدة الحياة البرية؛ طيور الغاق والعيدر على الجزر الصغيرة، والفُقمات برءوسها المستديرة، التي تُشبه رأس مِدينا، التي كانت تغطس في المياه من على الجزُر الصخرية الصغيرة بمجرد اقترابنا منها. كان الهواء باردًا ومُنعشًا، ولكن عندما انعطفنا حول حافة ميردالفيورد وابتعدنا عن نسيم البحر وتوسطت الشمس السماء، أصبح الهواء في دفء هواء شهر يونيو. مرَرْنا بجزيرة كبيرة منبسطة يُغطيها عشب قصير ونتوءات صخرية بالكامل، وقال لي يوهان إن اسمَها فلاكسهولم. سرعان ما وَلَّيْنا وجهَينا شطر الشرق إلى داخل خليجٍ مُحاط بتلال سوداء شديدة الانحدار غطَّى الثلج أخاديدها. كان معي كتابان من تأليف بوزويل؛ كنت قد قرأت الأول على متن الباخرة، وبدأت أقرأ الثاني على متن الزورق، ولكنه سقط من يدي في البحر عندما نهضت فجأة لأشاهد سربًا من البط. فأعطيتُ النسخة الأولى إلى يوهان وارتضيتُ أنا بالتدخين والتأمل.

في عصر ذلك اليوم، ضاق الخليج حتى أصبح مَضيقًا، وأصبحَت جوانب التلال أكثر انحدارًا. كانت التلال أشبَهَ بجبالٍ مهيبة ذات جوانب شديدة الانحدار مثل حافة سلسلة جبال دراكنسبرج، وكلَّلتْ قِمَمَها الثلوج، فبدت أشبهَ بكعكة مُغطاة بالسكر قُطِّعت إلى شرائح. كانت الجداول تنبُع من أكاليل الثلوج على القمم وتسقط هادرةً على المنحدرات وسط سحابةٍ لامعة من الضباب لتتحوَّل إلى سَيلٍ جارف من مياه خضراء تتقافز فوق الحصى حتى تختلط بمياه البحر. أشعرَني المنظر الطبيعي والطقس بهدوءٍ مُمتع أبى أن تُعكره أي «ذكرى أو استشراف»، كما يقول أحد الشعراء. كان نيوهوفر أمامي — لم يغب زورقه عن ناظرينا على الإطلاق — وكانت مهمتي أن أكتشف ما يهدف إليه من دون أن يراني. تركت كيفية تحقيق ذلك للقدر.

خيَّم الظلام شيئًا فشيئًا، وضاق الخليج أكثر فأكثر، وهبط علينا الغسق، ولكن إن نظرت إلى الخلف نحو فم الخليج، كان يمكنك أن ترى شفقًا ساطعًا. افترضتُ أن نيوهوفر قد يذهب إلى ميردال والخليج الذي أمامنا، مُلتقى سكارسو مع البحر، ولكنه قرر التوقُّف عند هاوج، قرية تسبقها بمِيلَين تقع على الشاطئ الجنوبي. وصلنا إلى هاوج في حوالي الثامنة والنصف وكانت السماء مُضاءةً بغسق أرجواني جميل؛ فقد كانت القرية تقع تحت جرف عالٍ مباشرةً. أمليتُ على يوهان تعليماتي كاملةً: أن ينتظرني حتى أعود، وأن يحصل على ما يحتاج إليه من القرية. ويجب مهما حدث ألا يذهب إلى ميردال، أو أن يختفي عن الأنظار أو أن يحرك الزورق. بدا مرتاحًا لفكرة قضاء بضعة أيامٍ عاطلًا عن العمل؛ فقد رسا بي عند مرفأ خشبي صغير، وكان مرحًا للغاية، وتمنَّى لي التوفيق. لا يُمكنني تخيُّل ما ظن أنني أسعى إليه؛ فقد تركته حاملًا حقيبة ظهر على ظهري ومُمسكًا بعصًا متينة في يدي، ولم يكن مظهري يُوحي بأي مطاردة.

كانت معنوياتي أنا أيضًا مرتفعة أثناء سيري على الطريق التي تربط بين هاوج وميردال. كان الخليج الشمالي غارقًا في الظلمة عن يساري، والجبال ترتفع سوداء عن يميني، ورغم أني كنتُ أسير وسط الظلام، كنت قادرًا على رؤية شفَق أمامي حيث تلتقي التلال بوادي سكارسو، ذلك الشفق الجميل بلون التفاح الأخضر الذي يملأ سماء الليل الشمالية حتى في فصل الربيع. لم أكن قد رأيتُه من قبل، وأظن أن شيئًا في داخلي ارتبط بالمكان؛ فقد كان والدي يقول إن عائلة هاناي تنحدِر من النورديين. كنت أسمع صيحات طيور مبهجة قادمة من ناحية البحر، طيور البط والإوز وصياد المحار ودجاج الأرض، ثم كنتُ أسمع صوت ماء يتناثر بقوةٍ وكأن سمكة سلمون تتقافز فوق المياه الراكدة وهي في طريقها إلى سكارسو. تذكرت مُتحسرًا صناراتي التي تركتها حينما ظهرت أنوار ميردال أمامي بعدما انعطفنا مع الطريق عند مكانٍ ما، وبدا لي أنه من الأفضل أن أُفكر في خطوتي التالية.

لم أكن أعرف أحدًا من النرويج، ولكني اعتمدتُ على أن أعثر على بعض السكان المَحليين الذين يُمكنهم التحدُّث بالإنجليزية؛ فقد رأيتُ الكثير من النرويجيين في إنجلترا أو أمريكا. فكرتُ أن نيوهوفر قد يسكن في أحد الفنادق، وعليَّ أن أعثر على مكانٍ آخر للإقامة. بدأتُ أفكر في أن مهمة التجسُّس هذه قد تكون أصعب مما توقعت، فإن رآني سيتعرَّف عليَّ، ويجب ألا يحدُث ذلك. كنتُ، بلا شك، قد أعددتُ قصة رحلةٍ السياحة، ولكن من المؤكد أن الشك كان سيراوِده، ومن المؤكد أنه سيُخبر مِدينا. كان العثور على

مكانٍ أقضي فيه ليلتي هو أولويتي الأولى، ويجب أن أبدأ البحث على الفور. كنتُ قد وصلت إلى رصيف ميردال البحري الصغير الذي يبعُد مسافةً قصيرة عن القرية نفسها. كان العديد من الرجال جالسين يُدخنون على براميل ولفائف حبال، وكان الرجل الواقف عند نهاية الرصيف يحرس المكان حيث يرسو زورق كريستيان إيج الذي حضر نيوهوفر على متنِه. استدرتُ واتجهتُ نحو الرصيف؛ فقد بدا لي أنه مكان يصلح لجمع المعلومات.

ألقيتُ تحية المساء على الرجال، وكنت على وشك طلب النُّصح منهم فيما يتعلق بأماكن الإقامة عندما التفتَ الرجل الذي ينظر إلى البحر نحوي عندما سمع صوتي. كان مُسنًّا محنيَّ الظهر يرتدي معطف صيدٍ قديمًا. كانت الإضاءة سيئة، ولكن مظهره كان يبدو لي مألوفًا، ولكني لم أتمكَّن من تذكُّر اسمه.

تحدثتُ إلى النرويجيين بالإنجليزية، ولكن بدا جليًّا أني التقيتُ بمجموعةٍ لا تهتمُّ بتعلُّم اللغات. كانوا يهزون رءوسهم علامة عدم الفهم، وأشار أحدُهم نحو القرية كما لو كان يقول لي إني قد أعثرُ هناك على مَن يُمكنه فهمي. ثم تحدَّث الرجل الذي يرتدي معطف الصيد.

قال: «ربما يُمكنني مساعدتك. ثمة نُزُل جيد في ميردال، وهو ليس مزدحمًا في هذا الموسم.»

تحدَّث بإنجليزيةٍ ممتازة، ولكن بدا جليًّا أنه ليس إنجليزيًّا. إذ كانت ثمة إطالة واضحة في الحروف الحلقية.

قلت: «لا أظن أن النزُل سيكون مناسبًا لميزانيتي. جئتُ سائحًا وأريد مكان إقامة رخيصًا.»

ضحك جذلًا. وقال: «ربما يُوجَد مكان إقامة آخر. ربما كان لدى بيتر بوير فراش خالٍ. أنا ذاهب في نفس اتجاهه يا سيدي، ويُمكنني إرشادك إلى مكانه.»

التفتَ نحوي، وظهرت لي تفاصيل هيئته تحت ضوء الزورق. رأيتُ وجهًا لفحتْه الشمس يحمِل تعبيرًا ودودًا للغاية، ولحيةً كثة غير مهذبة. ثم تعرفت عليه، وكدتُ أصيح من فرط دهشتي من المُصادفة التي جمعتنا مجددًا.

سِرنا متجاورَين على طريق المرفأ حتى وصلنا إلى الطريق الرئيسية.

فقلت: «أظن أننا التقَينا من قبل، يا سيد جاوديان.»

فتوقف عن السير فجأة. وقال: «هذا اسمي بالفعل ... ولكني لا ... لا أظن أننا ...»

«هل تتذكَّر رجلًا هولنديًّا يُدعى كورنيليوس براندت كنتَ قد استضفتَه في منزلك الريفي ذات ليلةٍ يوم الخامس عشر من ديسمبر؟»

أخذ يُدقِّق في ملامحي.

ثم قال: «أتذكَّر هذا. كما أتذكَّر السيد ريتشارد هاناو، أحد مهندسي جوجنهايم، الذي تحدثتُ إليه في إسطنبول.»

قلت: «هذا أنا.» مرَّت لحظة لم أكن واثقًا خلالها من ردة فعلِه على هذا الكشف، ولكن طمأنني ما فعل تاليًا، وأدركتُ أني لم أكن مُخطئًا في تقديري للألماني الوحيد الذي أُعجبت بشخصِه من صميم قلبي. فقد بدأ يضحك، بودٍّ وسماحة.

صاح: «اللعنة! يا للرومانسية. لطالما تساءلتُ عما إذا كنتُ سأراك أو أعرف أخبارك مجددًا، ولكن ها أنت ذا! تخرج من وسط الظلام على شاطئ خليج نرويجي.»

قلت. «ألا تحمِل ضغينةً ضدي؟ كنتُ أخدم بلادي مثلما كنتَ تخدم بلادك. وتصرفتُ بشرَفٍ مثلما تصرفتَ أنت بشرف.»

ثم صاح: «ضغينة! إننا سيدان مُهذبان، كما أننا لسنا طفلَين. أنا سعيد أنك نجوتَ من الحرب. لطالما تمنيتُ الخير لك، فأنت رجلٌ جريء وشجاع.»

قلت: «لا، على الإطلاق؛ كنتُ محظوظًا فحسب.»

«بمَ أدعوك الآن؛ براندت أم هاناو؟»

«اسمي ريتشارد هاناي، ولكني حاليًّا أُطلق على نفسي كورنيليوس براندت، لسببٍ سأُخبرك به.» قررتُ فجأة أن أُسِرَّ إلى جاوديان بكل شيء. بدا لي وكأن القدَر قد أرسلَه لي لهذا الغرض بالتحديد، ولم أكن لأفوِّت هذه الفرصة.

جعلته كلماتي يتوقف عن السير فجأة.

وقال: «سيد هاناي، أنا لا أريد أسرارك. أظن أنك ما زلت منخرطًا في خدمة بلادك، أليس كذلك؟ لا أشكك في دوافعك، ولكن تذكر أني ألماني، ولا يُمكنني أن أشارك في مطاردة أحد أبناء بلدي، أيًّا كان الجرم الذي ارتكبه.»

حدقتُ في وجهه. وتلعثمت قائلًا: «ولكني لا أعمل في جيش بلادي. لقد تركت الجيش خلال الهدنة، وأصبحت مزارعًا.»

«هل يُسافر المزارعون الإنجليز إلى النرويج حامِلين أسماءً مستعارة؟»

«إنها مهمة خاصة أريد أن أشرحها لك. وأؤكد لك أنها لا تتضمَّن أي ألمان. أريد مُراقبة ما يفعله طبيب إنجليزي متأنق.»

قال بعد فترة صمت: «أنا أصدقك. ولكن وصل منذ ساعتَين رجل على متن زورق راسٍ في المرفأ هناك. قال إنه صياد وهو يُقيم في النزُل الآن. ولكني أعرف هذا الرجل؛ أعرفه حقَّ المعرفة. إنه ألماني خدم ألمانيا خلال الحرب سرًّا، في أمريكا وبلدان أخرى. لم أكن أُحبه، وأظن أنه سَبَّبَ لبلادي ضررًا بالغًا، ولكن هذا أمر بيننا نحن الألمانيين لنسويه، ولا يجب أن يتدخل فيه الأجانب.»

«ما أعرفه عن هذا الرجل هو أن اسمه الطبيب نيوهوفر من شارع ويمبول.»

قال: «حقًّا؟ لقد استعاد اسم والده مجددًا، والذي كان نيوهوفر. اسمه الأول هو كريستوفر. ماذا تريد منه؟»

«لا أريد منه شيئًا يرفضه ألمانيٌّ شريف مثلك»، وفي ذلك الوقت والمكان، قصصتُ عليه أمر مِدينا. صاح مرتعبًا.

وقال مترددًا: «سيد هاناي، هل أنتَ صادق فيما تقول؟»

«أُقسِم لك بكل ما هو مُقدس أني أخبرتك بالحقيقة المجردة، ولم أكذب في حرف واحد. ربما فعل نيوهوفر أمورًا تُحبذها خلال الحرب. ولكن كل هذا انتهى الآن. أنا أتبعه لأصِلَ إلى خيطٍ عن فعلٍ سيِّئ بدأ في إنجلترا. أريد أن أفسد خُطَط مُجرمين إنجليز، وأن أُنقذ أبرياء. علاوة على ذلك، نيوهوفر مجرد تابع. لا أريد منك أن تُساعدني في التغلُّب عليه، بل كل ما أريده هو معرفة ما يفعله.»

مدَّ الرجل يده لي. وقال: «أنا أُصدِّقك، وسأساعدك إن استطعت.»

أرشدني جاوديان عبر شارع القرية الطويل، ومرَرْنا بالنزُل الذي افترضتُ أن نيوهوفر ينام فيه الآن، ومنه إلى طريقٍ يمتدُّ حتى وادي سكارسو. أصبح النهر في مجال رؤيتنا، وكان ثمة تيار قوي مليء بالثلج الذائب، يهدر بانحناءاتٍ عظيمة عبر المرج تحت أضواء الشفَق البارعة الجمال. اتَّضح لي أنه يُقيم مع بيتر بوير الذي يملك سريرًا فارغًا، وعندما وصلنا إلى الكوخ الذي يبعد عن الطريق الرئيسية مسافة مائة ياردة على ضفة الجدول، وافق بيتر على منحي السرير الإضافي. أعدَّت لنا زوجة بيتر العشاء؛ بيضًا مخفوقًا، وسلمون مدخنًا، وبعضًا من البيرة النرويجية الممتازة، وبعد ذلك، أخرجتُ خريطتي واستكشفت المنطقة المُحيطة.

أعطاني جاوديان لمحة عن الأوضاع المُتردية في بلاده. بدا أن سقوط النظام القديم جرَّ معه الرجال الحكماء على شاكلته الذين عارضوا حماقاته، ولكنهم اصطفُّوا دعمًا له بدافع وطني عندما اندلعت الحرب. قال إن ألمانيا ليست بلدًا يصلح للمُعتدلين، وأن مقاليد

السلطة مِلك يمين رجال الصناعة المترهِّلين الذين يكدسون الثروات خارج البلاد بينما يخربون وطنهم داخليًّا. وقال إن المُعارضة الوحيدة جاءت من قِبل الشيوعيين الحمقى، وأنصار الملكية الذين يبغون المستحيل. «لا أحد يستمع لصوت العقل، وجُلُّ ما أخشى ألا يأتي الخلاص إلا بعد أن يُلاقي أبناء شعبي المساكين الأمرَّين. لقد سرَّعتُم أنتم معشر القوى الغربية العظمى من دمارنا، على الرغم من أنه كان بأيديكم أن تُنقذونا. أظن أن نواياكم كانت حسنة، ولكنكم كنتم عميانًا، فلم تُناصروا الرجال المُعتدلين، وتسبَّب تسرُّعكم في أن تلعبوا دور المُدمِّرين بين صفوفنا.»

بدا أنه أصبح فقيرًا مُدقعًا حاليًّا، كحال جميع المُنتمين إلى الطبقات المهنية. فكرتُ أنه من الغريب أن رجلًا مثله يملك سمعةً عالمية كمهندس، لا يُمكنه أن يَجني دخلًا كبيرًا في أي دولة يختارها. ثم أدركتُ أن ذلك يرجع إلى فقدانه الرغبة في جمع المال. لقد أدرك كُنهَ زيف رغبات البشر، ولم يعُد طامحًا في أي شيء. كان غير مُتزوج، ولم يكن ينوي أن يفعل، ووجد مُتعته في عيشته البسيطة في المناطق الريفية المنعزلة ومشاهدة الزهور والحياة البرية. كان صيادًا ماهرًا، ولكنه لم يستطع تحمُّل تكلفة منطقة صيد خاصة به، فاستأجر بضع مئات من الياردات من النهر من أحد المزارِعين، والتي لم يكن يصِلها ما يكفي من الماء لتدرَّ عليه إيجارًا جيدًا، وكان يصطاد الكثير من أسماك السلمون من البِرَك الجبلية أعلى التلال ومن نهر سكارسو من المنطقة التي تسبق النهر الهادر. بينما كان جالسًا في مواجهتي على الجانب الآخر من الموقد بعينَيه البُنيتَين العطوفتَين اللتَين يملؤهما الحزن، فكَّرت في مدى قُرب الشبَهَ بينه وبين رعاة الأغنام في المروج الاسكتلندية. كان قد نما في قلبي إعجاب بهذا الرجل منذ رأيته للمرة الأولى في شركة ستام، وزاد إعجابي به أكثر حاليًّا لدرجة أني كنتُ على استعدادٍ لتغيير فكرتي عن جميع الألمان بسببه.

سألته عما إذا كان قد سمع بوجود أي إنجليزيٍّ آخر في الوادي؛ شخص يحمل اسم جيسون، على سبيل المثال. فأجاب بالنفي؛ كان قد ظلَّ مُقيمًا هناك طوال ثلاثة أسابيع، ولكن موسم الصيد لن يبدأ إلا بعد أسبوعَين آخرَين، ولم يصل السياح الأجانب بعد. ثم سألته عن مَزارِع المراعي الجبلية، فقال إن القليل منها كان يعمل حاليًّا، فمراعي الجبال لم تينع بعد. قد تكون مزرعة أو اثنتان على ارتفاعاتٍ أقل مسكونة حاليًّا، ولكن ليس الكثير، مع أن الشتاء لم يكن قارسًا هذا العام، وحل الربيع مبكرًا. قال: «انظر إلى نهر سكارسو. عادةً ما يكون منسوبُه منخفضًا في شهر أبريل، لأن حقول الجليد لا تكون قد بدأتْ في الذوبان بعد. أما اليوم، فمنسوبه عالٍ وكأننا في منتصف شهر مايو.»

مرَّر أصبعه على الخريطة، المرسومة بمقياس رسمٍ بوصة لكل ميل التي اشتريتُها من لندن، وأشار إلى مواقع الحظائر عليها. كانت الحظائر في أغلبها تقع في مكانٍ بعيد عند شمال النهر، ويمكن الوصول إليها عبر ممرَّاتٍ تتخلَّل وديان روافده. كانت تُوجَد طريق جيدة تمتد بطول الوادي، ولكن لم تكن تُوجَد أي طرق جانبية تصلها بالواديَين المُوازيَين لها، وادي يورادال ووادي بريمندال. عثرتُ بالفعل على طريق مُعلَّمة على الخريطة تؤدي إلى وادي يورادال عبر مكانٍ يُدعى سناسن. قال جاوديان: «نعم، هذه الطريق هي الشيء الوحيد الذي يعترِض ما تُسمُّونه أنتم يا معشر العسكريين، الاتصال الجانبي. لقد سرتُ على هذه الطريق، وسأكون آسفًا على أي شخصٍ يُجربِّها في طقس سيِّئ. يمكنك أن ترى بدايتها من هذا المنزل؛ ثم تصعد بجوار الشلال عبر الوادي. لا يسكن سناسِن الكثير من البشر طوال العام، وأظن أنه يمكنك أن تُطلق عليها حظيرة مرعى جبلي. إنها كوخ يُئوِي المسافرين على هذه الطريق، وفي الصيف تكون جنةً مليئة بالزهور. ستندهش من الطريقة التي يستطيع بها المحليون عبور التلال حتى في الشتاء. تتبع سناسن المزرعة الكبيرة التي تقع على بُعد ميلَين شمالي النهر، والتي تُوجَد عندها أفضل منطقة صيدٍ في نهر سكارسو. ويُقال إن موسمًا رائعًا لصيد طيور الترمجان سيبدأ في وقتٍ لاحق من العام، وقد يكون ثمة موسم غير دائم لصيد الدِّبَبة. بالمناسبة، أظنُّ أن أحدًا ما أخبرني أن المزرعة بالكامل مملوكة، أو مؤجرة، لرجلٍ إنجليزي. أنتم أثرياء، ولا تتركون شيئًا في النرويج للفقراء.»

رحتُ في سباتٍ عميق كلَوح من الخشب، على فراشٍ صلبٍ غير مريح، مثل لوْح من الخشب، واستيقظتُ على ضوء الصباح الأزرق المُبهر، وصخب الطيور في غابة الصنوبر، وضوضاء طيور الشنقب في المروج السبخة، وجريان مياه نهر سكارسو الهادر وكأنه بحر. رأيتُ أن مياه النهر أوشكت على الوصول إلى الطريق المؤدية إلى الجسر الخشبي الطويل المؤدي إلى المزرعة الكبيرة التي تحدَّث عنها جاوديان. نظرت بمنظاري نحو الجهة المقابلة للشلال، ورأيتُ أن الطريق المؤدية إلى سناسن تمتد بجواره حتى تختفي مع انعطافة للوادي. وفوق هذه المنطقة، مسحتُ قمة التل التي كانت أقل ارتفاعًا بكثير من التلال على جانبَي الخليج. لم أرَ ثلجًا، وأدركتُ غريزيًّا أني إذا صعدت إلى هذه القمة، سأجد أرضًا مُنبسطة من المراعي الطينية مع تكدُّس الركام الثلجي القديم في الفرجات والمسارات بين أشجار القضبان القزمة.

بينما كنتُ أنتظر الإفطار، سمعت ضوضاء قادمة من ناحية الطريق الرئيسية، ورأيتُ عربتَين صغيرتَين، من تلك التي يُطلقون عليها اسم ستولكيار، تمُران. رأيت عبر منظاري الطبيبَ نيوهوفر يركب العربة الأولى، وكانت العربة الثانية مُحملةً بالكثير من الأمتعة. سلكَت العربتان الطريق التي تعبر الجسر الخشبي المؤدِّي إلى المزرعة الكبيرة، ورأيتُ الماء المُتناثر بفعل عجلاتهما عند الطرف البعيد منه، حيث تمر مياه النهر فوق الطريق. هذا يعني أن الطبيب نيوهوفر، أو صديقًا له، هو من استأجر منطقة الصيد الشهيرة تلك، والتي تقع ضِمن نطاقها منطقة صيد الطيور في المُرتفعات التي تقع خلفها. فكرتُ في أنه يجدُر بي أن أقضي اليوم في اكتشاف المزيد عن سناسِن، ورأيتُ أنني محظوظ بحصولي على مركز قيادة في برج المُراقبة الممتاز هذا المُتمثل في كوخ بيتر بوير.

لن أقترب من الطريق المؤدية إلى سناسِن قبل أن أرى بنفسي ما يفعله نيوهوفر، فجلستُ وجاوديان ننتظِر بصبرٍ خلف نافذة كوخ بيتر بوير. في حوالي العاشرة، ظهر مُهران مُحمَّلان بعدة الصيد يقودهما صبيٌّ ذو شعر أشقر عند بداية الطريق وسلكوا الطريق الصاعدة عبر الوادي ببطء. بعد ساعة، ظهر الطبيب نيوهوفر مُرتديًا بدلة خاكية اللون وعليها عباءة من قماشِ الماكنتوش المطاطي. سار خارجًا من المزرعة بثقةٍ وواجه الطريق الشديدة الانحدار بمهارةٍ تُماثل سكان الجبال. أردتُ أن أنطلق أنا أيضًا في إثره، مع الحفاظ على مسافةٍ كافية بيننا، ولكن جاوديان وضَّح لي بتعقُّل أن عدد أماكن الاختباء ضئيل للغاية، وإذا ما رأى رجلًا يسير على هذه الطريق المُنعزلة، فمِن المؤكد أنه سيرغب في معرفة مَن يكون.

جلسنا في الهواء الطلْق بعد الغداء تغمُرنا أشعة شمسٍ مُمتعة، وجاءتنا المكافأة على صبرِنا تدريجيًّا عندما رأينا المُهرَين يعودان مُحمَّلَين بعدة من مختلف الأحجام والأنواع. ولكنهما لم يتوقفا عند المزرعة الكبيرة، بل عبرا الجسر الخشبيَّ وسلكا الطريق الرئيسية نحو ميردال. استنتجتُ أن هذه أمتعة الرجل الذي استأجر نيوهوفر المزرعة بعده، الذي سيعود إلى مدينة ستافانجر على متن زورق كريستيان إيج. بحلول وقت العصر، ظهر الرجل نفسه؛ جيسون، أو أيًّا كان اسمه. رأيتُ شخصَين يهبطان من أعلى الوادي عبر طريق سناسِن، ثم يتوقَّفان عند نهاية الطريق ويُودِّع أحدهما الآخر. استدار أحدهما ليعود أدراجَه، ورأيتُ أنه نيوهوفر، سائرًا على الطريق المنحدِرة إلى أعلى بخطًى واسعة كما لو كان معتادًا على العيش وسط التلال. أما الآخر؛ فقد عبَر الجسر، وكان قريبًا منَّا بشكلٍ كبير؛ ورأيتُ عبر منظاري أنه شابٌّ متأنِّق يرتدي سروال ركوب خيول أنيقًا ومعطف مطر فاخرًا.

كنتُ في غاية الرضا عما توصلتُ إليه. رأيت نيوهوفر يُعفي سلفه من خدمته، مثلما خطَّط مِدينا تمامًا، وعرفتُ أين يُقيم. أيًّا كان سِرُّه، فهو مَخفي في سناسِن، ومن ثَم أصبحت سناسِن هي وجهتي. نصحَني جاوديان بأن أنتظر إلى ما بعد العَشاء، عندما يكون ثمة ضوء يكفي لأن نرى طريقنا، ولكن من دون أن يكشف عن وجودنا. فاضطجع كِلانا ونِمنا أربع ساعات، وانطلقنا في حوالي العاشرة والنصف نشيطَين وكأننا طفلان في عمر سنةٍ واحدة.

كانت ليلة صافية معتدلة ساكنة، وعلى الرغم من زحف الظلام على أدغال التل وثناياه، كانت السماء مضاءةً بوهَج أرجواني فاتح. شعرت وكأني خرجت في رحلة صيد وكنتُ أستمتع بكل لحظة أثناء سيري تَصحبني تلك المتعة المدهشة المُترقِّبة التي يشعر بها المرء خلال أي مطاردة. كان الشلال يعزف موسيقى هادرة على يسارنا، ومياهه تدمدم عند اصطدامها بالحُفَر والنتوءات بصوتٍ يُشبِه صوت الانهيارات الثلجية. كانت تُحيط بنا أنواع شتى من الطيور، ولكن كان عليَّ أن أخمِّن أنواعَها عبر أصواتها وأحجامها، فلم يكن من المُمكن رؤية أي ألوانٍ في عالَم الظلال ذاك الذي كنَّا نسير فيه.

شيئًا فشيئًا اقتربنا من القمة وضرَبَت وجوهنا ريحٌ خفيفةٌ باردةٌ قادمة من ناحية الشمال من الجبال التي تُغطيها الثلوج. بدت المنطقة وكأنها سهلٌ وعرٌ شاسعٌ وكانت كلُّ حفرة فيها تلمَع وكأنها مليئة بالثلج أو الماء. كانت ثمة أشكال ضخمة مُعتمة أمامنا، خمنتُ أنها التلال التي خلف وادي يورادال. لم يكن من السهل حاليًّا البقاء على المسار الذي أصبح متشابكًا لتفادي حفر المُستنقعات، وتكرَّر انحرافي وجاوديان عنه أكثر من مرة للقفز من فوق جذوع أشجار العرعر. وفجأة، وجدتُ نفسي أمام عمود حديدي، ودُهشت عندما رأيتُ أسلاكًا تمرُّ فوقي. أومأ جاوديان برأسه. وقال: «يوجد هاتف في سناسن.»

كان يحدوني الأمل في أن أرى ضوءًا في المنزل حتى أستدلَّ إليه من بعيد. ولكننا لم نُدرك اقترابنا منه إلا بعد أن أصبحنا قريبين للغاية منه، فتوقفنا على مسافةٍ قصيرة من الطريق المؤدية إليه، والتي كانت مظلمة كقاع بئر. لا بدَّ أن سكان المنزل كانوا قد آوَوا إلى الفراش مبكرًا، فلم تكن تُوجَد أي دلالةٍ على وجود حياة في داخله. كان مبنًى خشبيًّا من طابقَين، وكان متين البنيان يُحيط سقفه أفريز عريض. بجوار المنزل، انتصبت حظيرة أو جرن كبير، ومن خلفه مبانٍ مُلحقة أخرى ربما كانت زرائب أو معامل ألبان. سِرنا خلسةً حول المكان، وأدهشَنا سكونه التام. لم يكن هناك صوت لحيوانٍ واحد يتحرك في

المزرعة، وعندما طار سِرب من البط البري فوق رءوسنا أجفلنا من الصوت، مثلما يجفل اللصوص من صوت صرير ألواح الأرضيات.

نظرًا لعدم وجود أي حياةٍ أو نشاط واضح، لم يكن هناك أي شيءٌ يُمكننا فِعله في تلك اللحظة، فسلكنا الطريق عائدين أدراجنا نحو المنزل وهبطنا إلى الوادي الضيق بسرعةٍ كبيرة؛ فقد كان البرد قارسًا على قمة التل المُنبسطة. قبل أن نخلد إلى النوم، اتفقنا أن يذهب جاوديان صباح اليوم التالي إلى سناسن وكأنه سائح عادي ويتحجَّج بأي حجةٍ لكي يدخل المنزل، بينما آخُذ أنا جولةً طويلة حول الهضبة مع مُراعاة البقاء على مسافة معقولة من المنزل للتأكد من عدم وجود أي تهديدٍ في هذه المنطقة المقفرة.

كان صباح اليوم التالي صافيًا كسابقه، وانطلقنا في حوالي العاشرة. أمضيتُ يومًا رائعًا لكنه لم يكن مثمرًا على الإطلاق. اتجهتُ نحو شمال نهر سكارسو إلى المنطقة الهادئة منه، ثم تسلقتُ جدار الوادي الشمالي عبر أخدود مُحاط بدغل انتهى قبل أن أصل إلى القمة بمسافة طويلة وتركني لأكمل تسلق المسافة المُتبقية متعلقًا بركامٍ صخري مُتقلقل للغاية وألواح مؤذية من الجليد. بلغتُ الهضبة المُنبسطة في مكان أقرب لاتجاه الشرق حيث كانت الهضبة أكثر ارتفاعًا، وكنتُ أُطِل على قاع الوادي حيث تمرُّ الطريق المؤدِّية إلى يورادال. اتجهت نحو الشمال عابرًا المروج الطينية وبقايا الركام الثلجي، الذي كانت الزهور تنمو عبر فجواته، حتى أوشكتُ على الوصول إلى الحافة المطلة على وادي يورادال، ونظرتُ عبره إلى مجموعة القمم الصخرية المُخطَّطة والملطخة بالجليد. كان وادي يورادال عميقًا للغاية فلم أتمكن من رؤية أي شيءٍ فيه، فتحركتُ غربًا ورأيت الطريق نحو ميردال شمالي سناسن. ثم مسحت المنطقة خلف سناسن، وحصلت على رؤية جيدة للمنزل من على بُعد حوالي نصف ميل. كانت اثنتان من مداخنه تطلقان الدخان، ووصلتني أصوات أعمال المزرعة الصادرة من الفناء. لم تكن تُوجَد أي دلالة على وجود ماشية، ولكن بدا أن شخصًا ما كان يُجهز السقائف لموسم الصيف. انتظرتُ لما يزيد على الساعة، ولكني لم أرَ أي إنسانٍ طوال هذه الفترة، فاستدرت عائدًا أدراجي، وهبطتُ جدار الوادي الضيق بحذَر، مُستكشفًا كل ركنٍ منه تحسبًا للقاء نيوهوفر مصادفةً.

وجدتُ أن جاوديان قد عاد قبلي. وعندما سألته عما إذا كان الحظ قد حالفه، هز رأسه نفيًا.

وقال: «تقمصتُ شخصية مسافر مُتعَب، وطلبت بعض الحليب. فأعطتني امرأةٌ قبيحةٌ جعةً. وقالت إنه ليس لدَيها أي حليب حاليًّا، وإنها تنتظِر عودة الماشية من

الوديان. لم يكن من السهل حملُها على الكلام، كما أنها صماء. قالت إن سيدًا إنجليزيًّا استأجر منطقةَ صيد طيور الترمجان، ولكنه يسكن مزرعة تريسيل. هذا هو اسم المزرعة الكبيرة المطلة على نهر سكارسو. ورَفَضَت الإفصاح عن المزيد، ولم أرَ أي أحدٍ آخر في المزرعة. ولكني لاحظت أن مزرعة سناسِن أكبر مما ظننت. ثمة غرَف ملحقة بخلفية المنزل، تلك التي ظننا أنها حظائر. ثمة مساحة كافية لإخفاء إنسان.»

سألته عما إذا كان لدَيه أي خطط، فقال إنه يفكر في الإقدام على خطوة جريئة في اليوم التالي بأن يذهب إلى المزرعة مباشرةً ويسأل عن نيوهوفر، وسيقول إنه رآه يمرُّ أمام كوخ بيتر بوير. لم يكن يُحِب الرجل، ولكنه لم يتشاجر علنًا معه من قبل. وافقتُ على هذه الخطوة، ولكني قررتُ في الوقت نفسه أن أفعل شيئًا ما بنفسي هذه الليلة. كنتُ قد بدأت أشعر بالقلق؛ فقد شعرت بأن الوقت المُتبقي لي أصبح قصيرًا للغاية؛ إذ كنا وقتئذٍ في الخامس والعشرين من أبريل، وكان يجِب أن أعود إلى لندن في اليوم التاسع والعشرين، وإذا لم أعُد، فسيذهب مِدينا إلى فوسي ليسأل عني، وسيراوِدُه الشك. قررتُ أن أذهب الليلة بمفردي إلى سناسِن وأقوم بعملية سطو وُدِّية صغيرة.

تحركت في حوالي الساعة الحادية عشرة، ووضعت مُسدسي في جيبي بجوار قنينتي وبعض الشطائر ومصباح كهربي؛ فقد فكرت في أنه من غير المُستبعَد حدوث أي شيء. عبرتُ الجسر والجزء الأول من الطريق سريعًا؛ فقد كنت أرغب في توفير أطول وقتٍ مُمكن لمهمَّتي. كادت عجلتي تتسبب في هلاكي، فبدلًا من استكشاف مُحيطي والإنصات لأي شيءٍ خارج عن المألوف، كنت أُهرول صاعدًا التل كما لو أني أريد تحقيق رقم قياسي في المشي. ومن عناية الرب بي أني كنتُ قد وصلت إلى منطقة شَكَّلَت فيها صخرةٌ ناتئةٌ منعطفًا حادًّا عندما أدركتُ فجأةً أن شخصًا آتيًا على الطريق في اتجاهي. تمددتُ متواريًا في الظل، ورأيتُ أن الشخص القادم هو نيوهوفر.

لم يرَني أو يسمعني؛ فقد كان هو أيضًا مشغول البال. كان يهبط نحو الوادي بسرعةٍ معقولة، وبدا أنه انطلَق في عجلةٍ من أمره، فلم يكن يرتدي قبعةً. وكان شعره الأشقر الطويل أشعث، وكانت ملامح وجهه تبدو أكثر حدة بفعل القلق.

تساءلت في نفسي عما حدث، وكان أول ما فكرت فيه هو أن أتبعه نحو سفح التل. ثم فكرتُ أن عدم وجوده في سناسِن يمنحني فرصةً ذهبيةً لدخولها. ولكن إذا كان بقية القاطنين في المزرعة مُستيقظين، فربما كان ثمة مسافرون آخرون على الطريق ويجدُر بي أن أمضي بحذر. عندما أصبحت قريبًا من قمة جدار الوادي، تحت حافة الهضبة المُنبسطة

مباشرةً، كانت ثمة رقعة كبيرة من الأشجار — أشجار القضبان والعرعر والصنوبر التي أمالَتْها الرياح — ففي هذا المكان كان الشلال ينساب بطريقةٍ تُشبه الكوب، بعد أن يسقط من على حافة الهضبة وقبل أن يندفِع بقوة نحو الوادي. كان مُمكنًا في هذا المكان أن أعثر على طريقٍ بديلة نحو الطريق المؤدية إلى المزرعة، فدخلتُ بين أشجار التوت المُتشابكة والصخور المُغطاة بالطحالب.

ولم أكن قد تقدمتُ عشر ياردات عندما أدركتُ أن شخصًا آخر أو شيئًا آخر في الدغل. سمعتُ صوت انغماسٍ في الماء أمامي، ثم صوت تكسر جذع شجرة مهترئ، ثم جلبة سقوط حجر. ربما كان حيوانًا، ولكني خَطَر لي أن لا حيوان بريًّا سيتحرك بمثل هذه الرعونة. وحدَها أحذية البشر هي القادرة على إصدار مثل تلك الانزلاقات الخرقاء.

إذا كان هذا الشخص من مزرعة سناسِن، فماذا يفعل خارج الطريق؟ هل يُراقبني؟ قررتُ أن أُجري بعض المراقبة أنا أيضًا. فجثوتُ على أربع وزحفت متواريًا في اتجاه الصوت. كان الظلام دامسًا في ذلك المكان، ولكني تمكنتُ من رؤية ضوء خافت حيث كانت الأشجار أقل كثافة حول الجدول.

ولم يمرَّ وقت طويل حتى وصلتُ إلى حافة المياه الثائرة. توقفت الأصوات، ولكنها عادت فجأة مُجددًا على مقربةٍ مني، وسمعت صوتًا عنيفًا كما لو أن جزءًا من ضفة النهر قد انفصل. يبدو أن الرجل، أو أيًّا كان، كان يُحاول عبور النهر. كانت محاولة عبور النهر مخاطرة؛ فقد كان النهر عريضًا وماؤه يتدفَّق بسرعةٍ كبيرة. زحفتُ بضع ياردات عكس اتجاه التيار، وعندئذٍ رأيتُ ما كان يحدُث عبر فُرجة بين الأشجار.

شَكَّلَت شجرة صنوبر ساقطة جسرًا صاخبًا يؤدي إلى صخرة ضخمة أصبحت بقية مياه النهر تقفز من فوقه. كان رجل راكعًا على الجذع ويبدأ التحرك عليه. ولكني رأيت الجذع المُهترئ يسقط في النهر، وكان ما رأيته تاليًا هو الرجل وهو يُصارع التيار. حدث كل ذلك في جزءٍ من الثانية، ولم أدرِ بنفسي إلا وأنا أنحني فوق الحافة وأُمسك بذراع الرجل. جذبتُ الذراع، وثبتُّ إحدى ساقَي في صخرة، وجررتُ الرجل نحو الحافة خارج تيار النهر الهادر. لم يبدُ مُصابًا؛ فقد عثر على موطئٍ لقدمِه، ولم يحتج إلَّا لمساعدةٍ بسيطة مني حتى يتمكن من الوقوف بجواري.

ثم أصابني الذهول عندما هاجمني بضراوة. كان هجومه يُشبه هجوم حيوان بري، وكان مفاجئًا لدرجة أني سقطت على ظهري. شعرت بيدَيه تضغطان على عنقي، فتأجَّج غضبي، وأمسكتُ بِمِعصمَيه ولويتُهما. ثم وضعتُ ساقًا فوق ظهره وأصبحتُ فوقه، ومن

ثَم أصبح هو تحت رحمتي. بدا أنه أدرك ذلك أيضًا؛ فقد رقد في هدوءٍ ولم يُحاول المقاومة.

قلت غاضبًا: «بحق اللعنة، ما الذي دفعك لفعل هذا؟ كنتَ ستغرق لولاي، ثم تحاول أن تخنقني.»

أخرجتُ مصباحي ونظرت إلى وجهه. كان شابًّا هزيلًا يرتدي ملابس خشنة مصنوعة منزليًّا مثل الملابس التي يرتدِيها الفلاحون النرويجيون. كان وجهه شاحبًا ونحيلًا تُزينه أسخف وأخف لحيةٍ رأيتها في حياتي، وكان شعره مقصوصًا بطريقة سيئة كما لو أنه قُص باستخدام مقص أشجار. كانت العينان اللتان تنظران إليَّ مليئتَين بالذُّعر والضراوة وكأنهما عينا غزال.

كررت قولي: «ما الذي دفعك لفعل هذا؟» وأدهشني أنه أجابني بالإنجليزية.

قال: «دعني أنهض، فأنا مُتعب ولا أقوى على العراك. سأعود معك.»

سقط الضوء على وجهي.

وقلت مهدئًا إياه: «لا تقلق يا فتى. ستعود معي، ولكن ليس إلى تلك المزرعة اللعينة. لعلك تذكر أننا التقَينا من قبل. أنت اللورد ميركوت، ورأيتُك العام الماضي تمتطي حصان «الأمير الأحمر» في مهرجان «البرلمان».»

كان جالسًا يُحدِّق في وجهي وكأنه رأى شبحًا.

ثم سألني: «من أنت؟ أخبِرني أرجوك، من تكون؟»

«اسمي هاناي. أعيش في ضيعة فوسي في كوتسوولد. دعوناك ذات مرة على العشاء قبل حفل هايثروب الراقص.»

كرر متلعثمًا: «هاناي! أتذكر ... أظن ... أنني أتذكر ... أتذكر الليدي هاناي. نعم ... وضيعة فوسي. إنها تقع على الطريق بين ...»

ثم نهض بسرعةٍ واقفًا.

وقال: «أرجوك يا سيدي، أخرجني من هنا. إنه يطاردني؛ الشيطان الجديد ذو الوجه الطويل، الرجل الذي أحضرني هنا في الأساس. لا أعلم ماذا حدث لي، ولكني أُصبتُ بالجنون لفترةٍ طويلة، ولم أسترد عقلي إلا منذ بضعة أيام. ثم تذكرتُ، وهربت. ولكنهم يُطاردونني. أوه، أسرع، أسرع! فلنختبئ.»

قلت شاهرًا مسدسي: «اسمع يا فتى. سأطلق النار على أول رجل يَمَسُّك، وأنا لا أُخطئ الهدف. أنت في أمانٍ الآن وكأنك في منزلك. ولكن هذا المكان لا يصلح للحديث،

ولديَّ الكثير الذي أريد أن أُخبرك به. سأصحبك معي إلى مسكني في الوادي. ولكنهم يُطاردونك، لذا لا بد من أن نتصرَّف بتعقل. هل أنت قادر على السير؟ حسنًا، نفِّذ ما آمُرك به بالضبط، وقبل أن تمرَّ ساعة ستكون جالسًا تشرب كوبًا كبيرًا من الشراب وتتصفَّح مواعيد انطلاق السفن من هذه الجزيرة.»

في تقديري أن رحلةَ العودة هذه مِثالٌ جدير بالثناء على التوجيه الدقيق واتخاذ القرارات اللازمة لضمان إرشاد الصبيِّ إلى برِّ الأمان. كان الفتى المسكين مُصابًا بسوء تغذية شديد وكان يرتجف من فرط الانفعال، ولكنه تقدم بشجاعة، وأطاعني كحمَل وديع. تعمَّدنا التحرُّك خارج الطريق لكي نخفي آثار أقدامِنا بين العشب، وسلكنا كلَّ منعطف وكأننا جنديَّا استطلاع في مهمةِ استكشاف. قابلنا نيوهوفر عائدًا إلى المزرعة، ولكننا سمعناه قادمًا قبل أن يصِلَنا بوقتٍ طويل، وكنا متواريَين جيدًا عندما مر بنا. كان يسرع الخُطى للغاية لدرجة أني سمعتُ صوت لهاثه. بعد ذلك، أصبح الطريق عبر المرج آمنًا، ولكننا عبرنا الجسر بحذَرٍ شديد بعدما تأكدنا من أن لا أحد حولنا. في حوالي الواحدة والنصف، كنتُ أفتح مصراع نافذة غرفة نوم جاوديان، وأوقظه، وأرجوه أن يُعِد بعض الطعام والشراب.

سألني ناعسًا: «هل دخلتَ سناسِن؟»

قلت: «لا، ولكني عثرتُ على ما كنتُ أبحث عنه. أحد الرهائن الثلاث جالس الآن في غرفتك.»

الفصل الثاني عشر

عودتي إلى العبودية

أطعمنا ميركوت اللحم المُعلب والبسكويت وقنينة جعة، وأكل طعامه كصبيٍّ صغير يتضوَّر جوعًا. الغريب في الأمر أن ذُعره زال فجأة. أظن أنه عندما رآني، الأمر الذي جعله يتذكَّر ماضيه، شعر بأنه لم يعُد مشردًا، وبمجرد أن أصبح واثقًا من هويته، عادت إليه رباطة جأشه الطبيعية. كان يرتاح كثيرًا للنظر إلى جاوديان، ولم أتخيَّل مُهدئًا أفضل من النظر إلى هذا الوجه المُسن العطوف الحكيم. أقرضتُه منامة، ولففتُه جيدًا بالغطاء لأمنع البرد من التسلُّل إليه، وجعلتُه ينام في فراشي، وشعرت بالرضا عندما رأيتُه يغطُّ على الفور في نومٍ عميق.

في صباح اليوم التالي، التقيتُ وجاوديان ببيتر بوير وأخبرناه أن صديقًا شابًّا إنجليزيًّا لنا قد تعرَّض لحادثٍ خلال نزهة سير وسيُقيم معنا ليومٍ أو يومَين. كان من المُستبعد أن يعلن نيوهوفر عما فقد، ولم يكن بيتر ممَّن يُثرثرون كثيرًا على أية حال، وأخبره جاوديان، الذي أعرفه منذ سنوات، أننا نريد إبقاء مسألة وجود ضيفٍ معنا سرًّا قدر الإمكان. ظل الفتى نائمًا حتى منتصف النهار، بينما ظللتُ أنا مستيقظًا أراقب الطريق. ظهر نيوهوفر مبكرًا، واتجه نحو قرية ميردال حيث قضى القسم الأكبر من فترة العصر. من المحتمل أنه كان يتقصى أمر الفتى، ولكن كان من مصلحته أن يتحرَّى بسرِّية. ثم عاد إلى تريسيل، ورأيت في وقتٍ لاحق خيالًا لشخص مغموم يسير على الطريق المؤدية إلى سناسِن. ربما فكر في أن جثمان الفتى الهارب يرقد في إحدى البرك التي صنعها الشلال أو ربما جرفه تيار نهر سكارسو إلى البحر، وتراءى لي أن هذا لا يتفق على الإطلاق مع ما تلقى من تعليمات.

عندما استيقظ ميركوت أخيرًا وتناولَ إفطاره، بدا مختلفًا. كان الخوف قد ذهب من عينَيه، وعلى الرغم من أنه كان يتلعثم كثيرًا وبدا أنه يُواجِه صعوبة في جمع شتات

نفسه، ظهر جليًّا أنه بدأ يستعيد رباطة جأشه. كان أكثر شيءٍ يتوق إليه هو أن ينظف نفسه، وكان هذا الأمر يتطلب مجهودًا كبيرًا، فلم يكن قد استحمَّ منذ أسابيع. ثم أراد أن يستعير منِّي شفرتي للحلاقة ليحلِق لحيته، ولكني تمكنتُ من منعه عن فعل ذلك في الوقت المناسب؛ فقد كنتُ أفكر في الأمر، وتوصَّلت إلى أن حلاقته للحيتِه لن تُفيدنا. كانت وجهة نظري أنه قد استعاد ذاكرته، ولكن كانت لا تزال ثمة فجوات فيها؛ أي أنه تذكَّر على نحوٍ مثالي ماضيه كلَّه حتى غادر أوكسفورد في السابع عشر من فبراير، كما تذكر الأحداثَ التي وقعت خلال الأيام القليلة الماضية، ولكن الأحداث التي وقعت بين هاتَين المرحلتَين الزمنيتَين كانت لا تزال ضبابية.

عندما عاد إلى شقته في تلك الليلة من شهر فبراير، كان قد عثر على رسالة تتعلَّق بحصان كان يُريد شراءه، كانت رسالة عاجلة تطلُب منه الحضور على الفور إلى إسطبل خيول مُعين. كان لدَيه الوقت الكافي ليفعل، قبل أن يرتدي ملابسه لحضور عشاء، فانطلق من فوره مُغادرًا المنزل، وشاء القدر ألا يلتقِيَ بأحد على الدرَج، ولم يرَه أحد أيضًا في الشارع لأن الليلة كانت ضبابية. لم يكن يذكر أي شيءٍ مما حدث بعد ذلك. فقد استعاد وعيَه في شقة في لندن، حسِبها دار رعاية، ورأى طبيبًا — يُمكنني تخمين من كان هذا الطبيب — ثم فقد وعيَه مجددًا. بعد ذلك، لم تكن ذاكرته سوى ظلام دامس يتخلله بضع نقاط مضيئة كانت عبارة عن أحاسيس جسدية. فقد تذكر أنه كان يشعر ببردٍ شديد وكان يشعر بالإعياء في بعض الأحيان، كما تذكر رائحة البرافين، ورائحة القش العَطِن، ورائحة شراب معسول كان يجعله يُصاب بالغثيان. كما تذكر وجوهًا؛ وجه امرأة عجوز عبوس كانت تسبُّه، ووجه رجل بدا وكأنه يضحك دائمًا، وكان يخشى ضحكته أكثر من السباب.

أظن أنه لا بد أن لعنة مِدينا كانت قد بدأت تنحسِر خلال تلك الأيام الأخيرة، وأن الحارس، جيسون، أو أيًّا كان اسمه، لم يتمكن من تقويتها. فلم يعُد ميركوت يرى جيسون رجلًا مرعبًا، بل تهديدًا؛ وغدًا شابًّا فظًّا يكرهه. ومع تشذيب الفروع المتشابكة أمام الذاكرة، بدأت الذاكرة نفسها تظهر جلية. رأى مَشاهد من حياته في ألسيستر، كانت تظهر في البداية على أنها مشاهد عامة، ولكنها سرعان ما بدأت تُظهِر أحداثًا شارك فيها. ثم بدأ الاشتياق، اشتياق شغوف بشيءٍ كان يُدرك يقينًا أنه يخصُّه. لم يمرَّ الكثير من الوقت قبل أن يُدرك أنه اللورد ميركوت رغم أنه كان يرتدي أسمالًا رثةً مثل المُتشردين وكان قذرًا مثل وقَّاد القطار. ثم بدأ يتوصَّل إلى استنتاجات مُذهلة. لقد حدث له شيء

ما؛ كان في أرض أجنبية، أرض لم يكن يعرفها، أُسيئت مُعاملته وأُسِر، ولا بد أن يهرب ويعود إلى عالَمه القديم السعيد. كان يفكر في الهرب دون هدى، من دون أي خطة؛ إذا ما تمكن من الهرب من هذه المزرعة اللعينة، فسوف يتذكر بصورةٍ أفضل، ستحدُث له أمور، أمور سيتمكن من تذكرها.

ثم جاء جيسون، وجاء نيوهوفر، وكاد نيوهوفر يُصيبه بالجنون من فرط الخوف؛ فقد كان وجه الطبيب يختلط بصورة غير طبيعية بذاكرته المشوشة في الفجوات بين عالَمه القديم وعالَمه الجديد. كان من الجنون أن يفكر في الهرب الآن، ولكنه كان يُفضل الهرب من نيوهوفر حتى وإن لم يكن سيذهب إلى أي مكان. تحيَّن فرصته، وواتته الفرصة في حوالي الثامنة من الليلة السابقة، عندما كان بقية مَن في المنزل يتناولون العشاء. وقادته غريزته إلى ميردال. سمع صوت خطواتٍ تتبعه، فتوارى بين الأشجار. ثم ظهرتُ أنا، وحسبني عدوًّا، فهاجمني يائسًا من نجاته. ثم ناديتُه باسمه، الأمر الذي أصلح تخبُّط ذاكرته. ثم «استعاد نفسه» حرفيًّا، وأصبح مجددًا خريج كنيسة المسيح، وكان لا يزال مصدومًا وفزعًا، ولكنه عاقل.

السؤال الذي كان يؤرِّقني هو إذا ما كان الشفاء قد اكتمل، إذا ما كان نيوهوفر قد تولَّى مهمة نائب مِدينا وأعاد إحياء اللعنة. لم أكن أعتقد أنه قادر على فعل ذلك، ولكني لم أكن واثقًا. لم يكن ثمة مَناص من المخاطرة على أية حال.

كرَّر ميركوت طلبَه باستعارة شفرتي للحلاقة. كان يدخن سيجارة تركية كما لو أن كل نفخةِ دخانٍ يُخرِجها تُقربه أكثر من الفردوس. رغم أنه كان أشعث الشعر، رث الملبس، طويل اللحية، فكانت لا تزال ثمة لمحة من ذلك الشاب الثري الرياضي الذي كان. كان يريد معرفة متى ستُبحر السفينة، ولكن بدا أنَّ الذعر الذي كان يتخلَّل نفاد صبره كان قد اختفى.

قلت له: «اسمع. لا أظن أنه يجدُر بك المغادرة بعد. هناك الكثير من الأمور التي أريد أن أُخبرك بها بعدما أصبحتَ قادرًا على تحمُّل سماعها.»

قصصتُ عليه ملخَّصًا لقصة ماكجيليفراي، وقصة الرهائن الثلاث. وأظن أنه شعر ببعض الراحة عندما أدرك أن ثمة آخرين واقعِين في نفس الورطة مثله. فقال: «يا إلهي! يا لها من مسألة لعينة! وأنا الوحيد الذي تمكنتَ من معرفة مكانه. ألا يوجد أي خيط يدلك على مكان الفتاة والصبي؟»

«لا شيء على الإطلاق!»

قال: «يا لهما من مِسكينَين» ولكني لا أظن أنه استوعب الموقف حقًّا.

«أصبحتَ تُدرك الآن مدى صعوبة موقفنا. حدد ماكجيليفراي موعد القبض على العصابة في العاشر من يونيو. ولا يمكننا أن نُحرِّر الرهينتَين قبل يوم التاسع من يونيو وإلا قد تشك العصابة في الأمر. لقد أعدوا كل شيءٍ كما أخبرتُك من أجل تصفية أعمالهم. علاوة على ذلك، لا يمكننا تحرير أحد الرهينتَين من دون الآخر، إلا إذا فقدنا، في يوم التاسع من يونيو، الأملَ في تحرير الرهينتَين معًا. هل تفهم ما أعنِيه؟»

لم يبدُ عليه أنه فعل. قال: «كل ما أريده هو العودة إلى المنزل في أسرع وقت.»

قلت: «من المؤكد أنك تريد ذلك. ولكن لا بد أن تُدرك أن هذا مُستحيل، على الأقل حتى نُحْكِم قبضتنا عليهم.»

حدَّق في وجهي، ورأيتُ الخوف يُعاود الظهور في عينَيه.

وقال: «هل تعني أنك تريد منِّي أن أعود إلى ذلك المكان اللعين؟»

«هذا ما أعنيه تمامًا. إذا ما أمعنتَ التفكير في الأمر، ستجد أنها الطريقة الوحيدة لنجاح مهمتنا. لا يجدُر بنا أن نفعل شيئًا من شأنه إفساد فرصة تحرير الرهينتَين الأُخرَيين. أنت رجل نبيل، وأصبحتَ ملزمًا بمجاراتنا في لعبتنا.»

صاح قائلًا: «ولكني لا أستطيع فعل ذلك. يا إلهي، لا يمكنك أن تطلب مني ذلك.» ظهرت نبرة باكية في صوته واتَّسعت عيناه.

فقلت: «أعرف أنني أطلب منك الكثير، ولكني أعلم أنك لن ترفُض. لم يعد ثمة خطر مُحدِق بك الآن؛ فقد استعدتَ ذاكرتك، وأصبحت تعرف أين تكون. ويرجع إليك أمر إذا ما كنت ستخادع سجَّانك. لقد أصبح هو المخدوع الآن. ستؤدي دور الفتى القروي الساذج وستسخر منه طوال الوقت في سريرتك. سيظل السيد جاوديان هنا ليُراقبك، وعندما يحين الوقت — ولن يزيد عن خمسة أسابيع — سأمنحك إذنًا كاملًا بأن تفعل في الطبيب نيوهوفر أي شيء تريد.»

قال مولولًا وسقط فكُّه السُّفلي وكأنه طفل مذعور: «لا أستطيع، لا أستطيع.»

ثم تكلم جاوديان. وقال: «أظن أنه من الأفضل أن نؤجِّل الحديث في هذا الموضوع. سيفعل اللورد ميركوت ما يراه صائبًا من وجهة نظره. لقد فاجأته بطلبك هذا. أرى أنه من الأفضل أن تخرج للتمشية يا هاناي. جرب الجزء الجنوبي من النهر، ثمة الكثير من الأشياء التي يُمكنك رؤيتها هناك.»

ثم تحدَّث معي عند الباب. وقال: «الفتى المسكين مُحطم تمامًا. لا يمكنك أن تطلب منه أن يتخذ قرارًا صعبًا مثل هذا بينما أعصابه لا تزال هشة. هلَّا تركته معي؟ لديَّ بعض الخبرة في التعامُل مع مثل هذه الحالات.»

عندما عدتُ على موعد العشاء، بعد جولة تسلُّقٍ درَّبَت كل عضلةٍ في جسدي، وجدتُ جاوديان يُعَلِّم ميركوت لعبة صبر جديدة. قضَينا أمسيةً مُمتعةً للغاية معًا، ولاحظتُ أن جاوديان يُوجِّه دفة الحديث نحو موضوعات يمكن للفتى المشاركة فيها، وتجعله يتحدَّث عن نفسه. تحدث معنا عن طموحاته في مجال السباقات، ورغبته في امتطاء حصان في السباق الوطني الكبير، وآماله في رياضة البولو. علِمنا أنه كان سيلتحق بالحرس الملكي، ولكنه مُنِح عامًا واحدًا ليجوب العالَم بعدما أنهى دراسته الجامعية، ووضعنا معًا برنامجًا لرحلته. أخبرَه جاوديان، الذي سافر إلى جميع أنحاء العالم تقريبًا، عن أماكن في آسيا لم يذهب إليها سائحٌ من قبل، حيث تُنَظَّم رحلات صيد مُذهلة في غاباتٍ بِكر، وشاركته تَوقي إلى بضع مُقاطعات في أفريقيا لم يُفسدها البشر بعد. بدا عليه الحماس الشديد؛ فقد كان يملك في داخله روحَ مُستكشِف، وسأل في تواضُع عما إذا كنا نظنُّ أنه قادر على تنفيذ بعض الخطط التي اقترحناها عليه. فأخبرناه بأنه لا شك في ذلك. قلت له: «إنها ليست في مثل صعوبة ركوب الخيل في السباق الوطني.»

عندما تركناه لينام، ابتسم جاوديان في سرور. وقال: «لقد بدأ يستعيد ثقته.»

ظلَّ الفتى نائمًا اثنتَي عشرة ساعة، وعندما استيقظ، كنتُ قد انصرفت؛ فقد فكرتُ في أنه من الأفضل أن أتركه مع جاوديان. كان يجدُر بي أن أنجز مهمتي في ذلك اليوم؛ فقد كان اليوم السابع والعشرين من أبريل. سِرت بمحاذاة الخليج نحو هاوج، وأخبرت يوهان بأن يستعدَّ للانطلاق صباح اليوم التالي. سألته عن حالة الطقس الذي كان لا يزال صافيًا، فحدَّق في السماء وتشمَّم الهواء، وقال إنه يظن أنه سيظل على هذه الحال ليومٍ أو يومَين آخرَين. وأضاف قائلًا: «ولكنَّ السماء ستُمطر قريبًا، وستهب رياح. وضوضاء النهر عالية للغاية.»

عندما عدت، استقبلني جاوديان عند الباب. وقال: «لقد تعافى الفتى. وسيتحدَّث إليك بنفسه. إنه فتًى شجاع وسيؤدي تلك المهمة العصيبة على الوجه الأمثل.»

حياني ميركوت بخجلٍ واستحياء.

وقال: «يؤسِفني أن أقول إنني تصرفتُ بطريقةٍ سيئة بالأمس يا سيدي. كنت خائفًا للغاية، وأشعر بالخِزي من نفسي، فلطالما اعتقدتُ أني شجاع.»

قلت: «يا بُني العزيز، لقد مررتَ بأمورٍ من شأنها أن تُحطم أعصاب ثور.»

«ما أريد قوله لك إنني بالطبع سأفعل ما تُريد منِّي فعله. لا بد أن أستمر في تأدية دوري من أجل الآخرين. ذلك الصبي الصغير المسكين! كما أني أذكر الآنسة فيكتور جيدًا؛ أقمتُ في نفس المنزل الذي تُقيم فيه ذات مرة. سأعود إلى المزرعة عندما تأمُرني بذلك. وثِق في أني أتطلع لذلك بكامل إرادتي. وأعِدك بأني سأؤدي دور الساذج حتى يظن الطبيب نيوهوفر أنني أصبحتُ لقمة سائغة. كل ما أطلبُه منك هو أن تسمح لي بتصفية حسابي معه عندما يحين الوقت. فثمة حسابٌ كبير أودُّ أن أُصفِّيَه معه.»

«أعِدُك بذلك بالتأكيد. اسمع يا ميركوت، إذا كنتَ لا تُمانع ما سأقول، أظن أنك تُحسِن التصرف بصورةٍ رائعة. أنت شابٌّ شجاع.»

فقال وقد تورَّدت وجنتاه: «أوه، لا بأس. متى تُريد منِّي أن أبدأ؟ أودُّ أن أقضي ليلةً أخرى في فراشٍ نظيف، إذا أمكن.»

«لك ما طلبت. في ساعةٍ مبكرة من صباح الغد، سأصحبك إلى بوابة السجن. وأُريدك أن تثرثر كثيرًا عندما ترى نيوهوفر، وأن تتظاهر بأنك غير قادر على التحدُّث عن أيٍّ من أفعالك. وسأتركك لتواصِل خداعه. ستكون الأسابيع الخمسة القادمة مُملَّة للغاية بالنسبة لك، ولكن يجب عليك أن تكظم غيظك وتلتزم بما اتفقنا عليه. وتذكَّر، سيظل جاوديان هنا طوال الوقت وعلى تواصل دائم مع أصدقائك، وعندما يحين اليوم الموعود، ستتلقى تعليماتك منه. وبالمناسبة، سأترك لك مُسدسي. وأريد منك أن تُخفيه جيدًا، فمن المُستبعَد أن يفتش نيوهوفر جيوبك. بالطبع لا أريد منك أن تستخدمه، ولكنك قد تكون مرتاحًا لفكرة أنه في حوزتك.»

أخذ الفتى المُسدَّس مسرورًا. وقال: «لا تخشَ من أن أستخدمه. ما أُضمِره لنيوهوفر هو أسوأ ما يمكن أن يُضمره رجل على الإطلاق. إنه أثقل مني وزنًا بقليل، ولكن هذا لن يُعيقني.»

في ساعةٍ مبكرة للغاية من صباح اليوم التالي، أيقظنا ميركوت، وبينما كانت السماء تتحوَّل من الأزرق إلى الفيروزي، سلكنا طريقنا عبر المروج الغارقة في الضباب وصعدنا نحو الطريق المؤدية إلى سناسن. خرجنا من الطريق عندما وصلنا إلى قمة التل، وبحثنا عن مسارٍ دائري يوصلنا إلى مؤخرة المزرعة، ولكننا، قبل ذلك، جعلنا ميركوت يتجوَّل بين أشجار الدغل حتى أصبح وجهه قذرًا وعلقت الكثير من فروع الأشجار والتراب في شعره الأشعث. ثم صافحه كلانا، وعثرنا على مخبأ داخل أجمة من أشجار العرعر، وراقبناه وهو يمضي قدمًا.

كان يبدو بائسًا في ذلك الصباح البارد المعتم أثناء اقترابه من باب المزرعة. ولكنه كان يؤدي دوره ببراعة؛ فقد تعثر من فرط التعب، واصطدم بالباب بقوة، وطَرَقَه بوهَن. بدا وكأنه قد مرَّ دهر كامل قبل أن يُفتَح الباب، ثم بدا وكأنه تراجع إلى الخلف في رُعب. صاحت المرأة التي فتحت الباب بصوتٍ أجش مُستدعيةً شخصًا ما من الداخل، ثم ظهر نيوهوفر مرتديًا ملابس النوم. أمسك نيوهوفر ميركوت من كتفَيه وبدأ يهزه، وأدى الفتى الشجاع دور المجنون ببراعة واضعًا يدَيه على رأسه ليحميها ويئنُّ كأنه أرنب. ثم رأيناه يُجَر إلى الداخل. كان من المؤسِف أن نترُكه هكذا، ولكني طمأنتُ نفسي بالتفكير فيما سيُفعَل بنيوهوفر في خلال خمسة أسابيع.

أسرعنا عائدين إلى كوخ بيتر بوير، وبعدما تناولنا إفطارًا سريعًا، انطلقنا نحو هاوج. اتفقتُ مع جاوديان على أن يُبلغني بأي تطوراتٍ باستخدام البرقيات، وسأفعل المِثل. وعندما يُحدَّد يوم تحرير الرهائن، عليه أن يتَّجِه إلى سناسن مباشرةً ويتصرف مع الطبيب كما يحلو له، وعليه أن يتأكد من أن الطبيب لن يتمكَّن من التواصُل مع مِدينا ليوم أو يومَين. وسيكون ثمة زورق بخاري مُنتظرًا في ميردال ليُقلَّهما إلى ستافانجر، لأنني طلبت منه أن يصحب ميركوت ويضعه على متن سفينة إنجليزية. كما رتَّبتُ معه أن يمنحه ما يكفي من المال، فلم يكن ميركوت يملك بنسًا واحدًا.

انطلقنا من فورنا؛ فقد كان عليَّ أن أصل إلى فلاكسهولم سريعًا، ومع مرور فترة الصباح، لم أعُد مُتيقنًا من حالة الطقس. كانت الريح التي ظلَّت تهبُّ علينا خلال الأيام الماضية عبارة عن نسيمٍ خفيف قادم من الغرب، أما الآن، فبدا أنها تُغير اتجاهها نحو الشمال، وتزيد من قوَّتها. كان الوضع هادئًا داخل الخليج الذي يقع عميقًا بين التلال، ولكن عندما وصلتُ إلى ناصية الأرض المُنبسطة عند الساحل الشمالي، رأيتُ أن الرياح تهب بقوة؛ فقد رأيت عبر منظاري عاصفة ثلجية صغيرة. كما شعرت فجأة ببردٍ شديد. جعلت يوهان يزيد من سُرعته، وبعد الظهر مباشرةً، كنا قد خرجنا عبر فمِّ الخليج من بين الجدران الصخرية التي تحمينا إلى المنطقة التي يُصبح عندها الخليج أكثر اتساعًا. كانت الريح تهبُّ في هذه المنطقة قوية إلى حدٍّ ما، كما أن أمواج البحر كانت عالية للغاية. كانت ثمة عواصف ماطرة تضربنا من جهة الشمال، وظلَّت الرؤية منعدمة طوال خمس دقائق أو نحوها. كان يومًا عاصفًا عاديًّا من أيام شهر أبريل، مثل تلك الأيام الربيعية عندما تذهب لصيد أسماك السلمون في اسكتلندا، وكان شُغلي الشاغل أن أَلحق بالسفينة التي ستُغادر ستافانجر لدرجة أني لم ألتفت لذلك الطقس العاصف على الإطلاق. ولكن

لم يكن ثمة وقتٌ كافٍ للسفينة، فبعد أقلَّ بقليلٍ من أربع وعشرين ساعة، كان يجب أن ألتقي مِدينا. وتساءلت عما إذا كان آرتشي رويلانس قد وصل. وتساءلتُ أيضًا عما إذا كان بمقدور طائرة أن تُحلق في رحلة عودة فوق هذه الفراسخ من البحر العاصف.

بعد قليل ظهرت الخطوط الخضراء لجزيرة فلاكسهولم عبر رذاذ الماء المُتناثر، وعندما بدأ يُوهان يتَّجِه نحو الجنوب الغربي في اتجاه ستافانجر، أمرتُه أن يستمرَّ في المُضي إلى الأمام ويهبط بي على الجزيرة. أخبرتُه أن صديقًا لي يُخيم هناك، وأن يختًا إنجليزيًّا سيأتي لأخذنا بعد يومٍ أو يومَين. بدا جليًّا على وجه يوهان أنه يظنُّني جُنِنت، ولكنه نفذ ما أمرتُه به. وقال: «لن تجد أحدًا على الجزيرة في هذا الوقت من السنة. فالمُزارعون من روزماير لا يأتون إلى هنا إلا في شهر يونيو، عندما يبدأ موسم صناعة القش. كما أن مراعي الشتاء فقيرة وشحيحة.» كان ما أخبرَني به يصبُّ في صالحي، فلم أكن أرغب في أن يرى أحد الأمر الجنوني الذي سنُقْدِم عليه.

عندما اقتربنا من الجزيرة، لم أرَ أي دلالةٍ على وجود حياة على ساحلها، سوى عددٍ كبير من طيور العيدر، وعقاب جميل جالس على صخرة ناتئة وكأنه كائن جريفين مرسومٌ على شعار نبالة. كنتُ أحدِّق في الطائر، فلم أكن قد رأيتُ عقابًا سوى مرتَين فقط من قبل، وعندئذٍ انحرف يوهان بالقارب إلى داخل خليج صغير تُجاور مياهه العميقة حاجزًا مرجانيًّا مسطحًا. وقال لي إن هذا هو مكان الرسو العادي للوصول إلى البر الرئيسي. ألقيتُ حقيبة الأمتعة وحقيبة الظهر على الشاطئ، وودَّعت يوهان ودفعت له ببذخ، وراقبت الزورق الصغير يُبحر جنوبًا حتى اختفى وسط عاصفة. وبعد ذلك، شاعرًا بحمق ما أفعله، حملتُ أمتعتي وواصلت السير إلى عمق الجزيرة، كما لو كنت روبنسون كروزو.

كانت الأمطار تهطل بمعدل ثابت، مطرًا خفيفًا، وكانت تهبُّ من وقتٍ لآخر عاصفةٌ قوية تضرب وجهي وتُثير البحر. فكرتُ أنه طقس لا يصلح للطيران، خاصةً لو كنتَ ستطير لمئات الأميال فوق المُحيط! عثرتُ على المزرعة التي كانت تتألف من بضع مبانٍ خشبية وشيء يُشبه حظيرة ماشية حجرية، ولكن لم يكن بها بشر. عندئذٍ أخرجتُ خريطتي، واستنتجتُ منها أنه من الأفضل أن أتَّجِه نحو منتصف الجزيرة حيث يبدو أن هناك أرضًا منبسطة عند أحد أطراف البحيرة. كنتُ أشعر باكتئابٍ شديد؛ فقد كنت أسير مثل بائعٍ متجولٍ مُمسكًا بحاجياتي في يدي في جزيرة نرويجية غير مأهولة، وكان عليَّ

أن أكون في لندن في مساء اليوم التالي. بدت لي لندن في تلك اللحظة بعيدة المنال بنفس قدْر القمر.

عندما وصلتُ إلى حافة البحيرة المركزية، حدثت انفراجة وجيزة في حالة الطقس، وأطللتُ من مكاني على بحيرةٍ رماديةٍ صغيرةٍ تُحيطها مروجٌ شديدة الخضرة. وسط المروج عند الطرف الشمالي من الجزيرة، سُررت برؤية شيء يبدو وكأنه طائرة رابضة، وشيء يبدو وكأنه خيمة صغيرة بالقرب منها. كما رأيتُ حلقاتٍ من الدخان تتصاعد من بين مجموعةٍ من الصخور المجاورة. لقد وصل آرتشي الشجاع، وارتفعت معنوياتي. هبطتُ التل مسرعًا، وأثناء ما كنت أصيح رأيتُ شخصًا يُشبه المُستكشفين القطبِيِّين يخرج من الخيمة.

صاح: «مرحبًا، ديك. هل حالفك الحظ؟»

قلت: «حظ وافر. ماذا عنك؟»

«رائع. وصلت إلى هنا بعد رحلة عصيبة كانت الحافلة خلالها تتصرف وكأنها حَمَل. وقضيتُ ليلةً رائعةً بين الطيور؛ يا إلهي! هذه الجزيرة أرضُ صيدٍ ممتازة للطيور. كنتُ أخرج في دوريات مُراقبة من فوق قِمم التلال طوال فترة الصباح بحثًا عنك، ولكن الطقس ساء للغاية، فعُدت لأحتمي داخل الخيمة. الغداء يوشِك على أن يكون جاهزًا.»

سألته بقلق: «ماذا عن حالة الطقس؟»

قال وهو يشمُّ رائحة الهواء: «لا تكُن سخيفًا. أنا واثق من أن العاصفة ستهدأ عند غروب الشمس. هل تخشى السفر ليلًا؟»

أبهجتني روح دعابة آرتشي وهدوءُه كثيرًا. يجدُر بي القول إنه خُلِق لهذه الحياة؛ فقد هيأ لنفسه سُبل الراحة، وأطعمَني وجبةً من أشهى ما أكلتُ في حياتي؛ حساءً مُكونًا من أطعمة مُعلبة مع الكاري، وبودنج الخوخ، وتشكيلة مما أطلَق عليه «مُقَبِّلات». ولكي نُحافظ على دفء جسمَينا، شربنا النبيذ البندكتيني في أكوابٍ مصنوعة من قرون الحيوانات. لم يتمكن من الحديث عن أي شيءٍ سوى الطيور التي عَشِقَها، وقال إنه سيعود إلى جزيرة فلاكسهولم ويُخيم فيها لأسبوع كامل. كان قد رأى تشكيلةً مُتميزةً من الطيور، نوعًا من طيور المِخطاف، التي أثلجت رؤيتها صدرَه. عندما سألته عن الرحلة التي نحن بصدد القيام بها، لم يُكلف نفسه عناء الإجابة؛ فقد كان منشغلًا للغاية في تفكيره في الطيور التي تعيش في النرويج.

قلت: «آرتشي، هل أنت واثق من أنك قادر على عبور بحر الشمال؟»

«لن أقول إني «واثق». فدائمًا ما تنطوي هذه الرحلات على مقامرة، ولكني آمُل أن يُحالفنا الحظ في عبوره. ستهدأ الرياح، كما أنها رياح أرضية، وستكون أهدأ عندما نرتفع فوق سطح الأرض لبضع مئاتٍ من الأقدام. علينا أن نرسُم مسارًا باستخدام البوصلة على أية حال حتى لا يُمثل لنا الظلام مشكلة.»

سألته: «ماذا عن حالة الطائرة نفسها؟» كنتُ أشعر بعصبيةٍ شديدة لم أجد لها سببًا.

«إنها رائعة. ولكن لا يمكن للمرء أن يعرف ما قد يحدُث بالطبع. إذا ما انحرفنا عن مسارنا المُستقيم لمسافة كبيرة؛ فقد ينفدُ منَّا الوقود».

«وماذا سيحدث في هذه الحالة؟»

«هبوط اضطراري.»

«ولكن ماذا سيحدث، بافتراض أننا لم نكن قد وصلنا إلى اليابسة عند حدوث ذلك؟»

قال آرتشي جذِلًا: «أوه، عندئذٍ سنكون في ورطة.» ثم أضاف وكأنه يحاول تهدئتي: «ربما تلتقِطُنا سفينة عابرة أو قارب صيد. عرفت أشخاصًا كانوا مَحظوظين لهذه الدرجة».

«ما هي احتمالات وصولنا بأمان؟»

«خمسين بالمائة. لا يُوجَد احتمال له أفضلية خلال السفر جوًّا. ولكننا سنكون على ما يُرام. لا تقلق، إن دجاج الأرض يقوم بهذه الرحلة دائمًا دون توقف.»

لم أطرح عليه أي أسئلة أخرى؛ فقد كنت أعلم أني لن أتمكن من حملِه على تجاوز موضوع دجاج الأرض. لم أكن سعيدًا، ولكن جعلني هدوء آرتشي أشعر بالخجل من نفسي. شربنا كوبَين رائعَين من الشاي، ثم بدأت الريح تهدأ بالفعل، وتبددت الغيوم كاشفةً عن سماء صافية. أصبح البرد قارسًا، وكنت مُمتنًّا لكل قطعة ملابس تُغطي جسدي، وكنتُ أحسد آرتشي على معطفه الجلدي الثقيل. أصبحنا جاهزَين في حوالي التاسعة، وتحرَّكنا بالطائرة في هدوء تام، وانطلقنا على مساحةٍ عشبية مفتوحة، وطِرنا فوق البحيرة حتى نتمكَّن من تجاوز التل، وانحرفنا نحو الغرب، وكان الأُفُق يبدو وكأنه غلافٌ من الذهب يهبط على بحرٍ من الذهب الذائب.

كان الحظُّ حليفَنا تلك الليلة، وتبدَّدت جميع هواجسي. بغضِّ النظر عن البرد، الذي كان قارسًا للغاية، استمتعتُ بكل لحظة من هذه الرحلة، وفي ساعة مبكرة من الفجر، رأينا خطًّا أسود تحتنا، والذي كان ساحل أبردين. تزوَّدنا بالوقود في مكانٍ ما في

كينكاردين، وتناولنا إفطارًا رائعًا في الفندق المحلي. سار كل شيءٍ بسلاسة، وكنا لا نزال في ساعة مبكرة من الصباح عندما أدركتُ أننا نعبر مرتفعات شيفيوت. هبطنا في مدينة يورك عند الظهر، وركب آرتشي قطار لندن، بينما آخُذ أنا سيارتي من المرآب وانطلقتُ نحو أوكسفورد. ولكن قبل أن أفعل، أرسلتُ برقيةً إلى ماري أطلب منها أن تُرسِل برقيةً إلى مِدينا تُخبره فيها أني سأصل إلى لندن في السابعة والربع. كانت رحلتي نحو الجنوب مُمتعة، وتركتُ السيارة في أوكسفورد، ووصلتُ إلى رصيف محطة بادينجتون في الوقت المُحدَّد لأجد مِدينا في انتظاري.

كان يتعامل معي بلُطف.

قال: «صديقي العزيز، هل أصبحتَ بخير، كما آمُل؟»

«بخير حال، شكرًا لك. مُستعد لأي شيء.»

«تبدو بشرتُك وكأن الشمس لوَّحتها أكثر مما كانت عندما غادرت المدينة».

«كان الطقس رائعًا في منزلي. وقضيتُ أغلب وقتي راقدًا في شُرفتي تغمرني أشعة الشمس.»

الفصل الثالث عشر

زيارتي لحقول عدن

كان ثمة تغيرٌ طرأ على مِدينا. لاحظتُ ذلك في اليوم التالي عندما تناولتُ الغداء معه، ولاحظتُ ذلك بشكلٍ خاص خلال العشاء التالي الذي تناولناه في نادي الخميس الذي حضرته بصفتي ضيفَه. كان تغيرًا طفيفًا لم يكن أحد غيري ليُلاحظه، لكنه كان واضحًا للغاية لي لأني كنت أراقبه مثلما يُراقب الوشق فريسته. أصبح تعامُله الواثق مع العالَم من حوله أقل مما كان بقليل، وعندما نكون وحدنا كان أكثر صمتًا من ذي قبل. لم أظن أنه بدأ يشك في وجود أي خطر مُحدِق بخُططه، لكن موعد تنفيذها كان يقترب، وحتى ثقته الباردة أصبحت تتخلَّلها بعض الاضطرابات العصبية. استنبطتُ أنه بمجرد حدوث التصفية الكبيرة للأعمال وإدراكه للأصول التي ستكون الأساس الذي تقوم عليها مسيرته المهنية الرئيسية، فلن يهمه ما يحدث للرهائن. ربما يطلق سراحهم، وربما يعودون ذاهِلين إلى حياتهم القديمة غير قادرين على قول أي شيء عن فترة غيابهم، وإذا ما تسرَّبت قصتهم، فستظهر مقالات في الدوريات الطبية عن حالات فقدان الذاكرة غير المسبوقة تلك. كنت واثقًا من أنهم لم يتعرضوا لأذًى دائم حتى الآن. ولكن إذا ما فشلت تصفية الأعمال، فالربُّ وحدَه يعلم مصيرهم. ربما لن يراهم أحد مُجددًا، لأنه إذا ما فشل أسرُهُ لهم في درءِ تعرُّض خُططه لكارثة، فسيسعى إلى تأمين نفسه، وفوق كل شيء، سيسعى إلى الانتقام. لعقليةٍ مثل عقليته، قد يُصبح الانتقام هوسًا.

جعلتني حقيقة أني تمكنتُ من حلِّ أحد الألغاز ووصولي إلى إحدى الرهائن في حالة دائمة من القلق. كان وقتنا ينفد سريعًا، وكان لا يزال هناك مِسكينان مُختفِيان في عالمه السفلي المظلم. كان الصبي الصغير هو أكثر من يشغل تفكيري، وربما جعلني انشغالي به أكثر غباءً في تناول أمورٍ أخرى. كانت أفكاري منصبَّةً دائمًا على لُغز «الغازلة الكفيفة» الذي لم أحرِز فيه أي تقدُّمٍ يُذكر. لم يتوصل مراقبو ماكجيليفراي إلى أي شيءٍ ليبلغونا

به. ولم تكن ثمة فائدة من زيارة مدام بريدا مرة أخرى والمرور بنفس الهراء السابق مُجددًا. كان كل ما استطعت فعله هو ملازمة مِدينا وتمنِّي أن يحالفني الحظ. كنت قد قررتُ أنه إذا طلب مني مجددًا أن أُقيم معه في منزله في شارع هيل، فسأقبل، على الرغم من أنه قد يكون قرارًا عصيبًا من نواحٍ شتَّى.

كنت أشتاق إلى ساندي، ولكن لم يصلني أي خبر عنه، وكان قد شدد عليَّ ألا أحاول التواصل معه. كان الصديق الوحيد الذي التقيته خلال تلك الأيام الأولى من شهر مايو هو آرتشي رويلانس الذي بدا وكأنه نسي أنه اسكتلندي واستقر في لندن طوال الموسم. بدأ ممارسة رياضة البولو، التي لم تكن رياضةً آمنة لرجل مُقوس الساقَين، كما فتح منزله في شارع جروسفينور واستقر في جزءٍ منه. كان يعلم أني مُنشغل بمهمة عويصة، وكان يرغب بشدة في الاشتراك فيها، ولكن كان يجب أن أكون حذرًا في التعامُل مع آرتشي. كان من أفضل من أعرف، ولكنه لم يكن يستطيع أن يكتم سرًّا. فرفضتُ أن أخبره بأي شيءٍ حاليًّا، ونبَّهتُ توربين، الذي كان من أصدقائه القدامى، أن يفعل المثل. تناول ثلاثتنا العشاء معًا ذات ليلة، واستدرج آرتشي ذلك المسكين توربين ليقع في فخ اكتئابه.

فقال له: «أنت مغموم الليلة. سمعتُ أنك ستتزوج، وأظن أن هذا هو سبب غمِّك. ماذا تطلق على ذلك؛ حماية الذات؟ ابتهج يا بُني. إن الأمر ليس سيئًا كما يبدو. انظر إلى ديك.»

غيرتُ دفةَ الحديث إلى موضوعاتٍ أخرى، وأخذنا رأيه في المسرح المعاصر. كان آرتشي يُدرِّس التمثيل المسرحي، وكانت له آراء قوية عن الدراما. فقال إنه لا بد من وجود أحداثٍ تُثيره وإلا سيغطُّ في النوم منذ الفصل الأول، ولكن المسرحيات التي أثارت اهتمامه كانت نادرة، لذا، كان يظلُّ نائمًا في هدوءٍ حتى يُوقِظه الحضور ويُوجِّهونه إلى خارج المسرح. كان يُحب المسرحيات التي تتضمَّن إطلاق نارٍ وأحداثًا هزلية صاخبة؛ أي شيءٍ فيه ضوضاء. ولكنه شاهدَ عددًا من المسرحيات الجادة التي وجد أنها تُساعده على النوم. كانت ثمة مسرحية استهجنها على وجه الخصوص؛ وكانت تتحدَّث عن المصاعب التي واجهتها امرأة خمسينية وقعت في حُب ابن زوجها.

قال شاكيًا: «كانت مُريعة. مَن ذا الذي يمكن أن يهتمَّ بما فعلته تلك العجوز الشمطاء؟ أؤكد لك أن جميع من كانوا يجلسون حولي استهجنوا القصة أيضًا. قال لي أحدُهم إنها إحدى الروائع التي تتحدَّث عن المفارقات التراجيدية الساخرة. أي مفارقة يا ديك؟ دار في خلدي أنها تُشبِه تلك النبرة التي كان يتحدَّث بها قائدك في الجيش عندما

كنتَ تُقْدِم على فعلٍ أحمق يُبرِزه بأن يُطري على ذكائك. آه، بالمناسبة، هل تذكر تلك الفتاة التي كانت ترتدي ثوبًا أخضر التي رأيناها في المرقص؟ لقد رأيتُها في المسرح، أنا واثق من أنها هي نفس الفتاة، وكانت تجلس في إحدى المقصورات مع رفيقها المُلتحي. لم يبدُ عليها أنها كانت مُستمتعةً بالعرض. هل تعلم مَن تكون وماذا كانت تفعل هناك؟ أتظن أنها روسية؟ أعتقد أن تلك المسرحية السخيفة كانت مترجمة عن الروسية. أودُّ أن أرى تلك الفتاة ترقص مجددًا.»

كان الأسبوع التالي خاليًا بالكامل من أي أحداث، فيما عدا القلق الذي كان يعتريني. أبقاني مِدينا على مقربةٍ منه طوال الوقت، وكان عليَّ أن أتخلَّى عن أي فكرةٍ تتعلَّق بذهابي إلى فوسي لقضاء ليلةٍ مع أُسرتي. كنت مشتاقًا بشدةٍ إلى المكان وإلى رؤية بيتر جون، ولم تُرِحني خطابات ماري، لأنها كانت تزداد سوءًا في كل مرة. كنتُ آمُل في أن يتصرَّف مِدينا طبقًا لنصيحة خاراما التي نَصَّت على أنه لكي يُحْكِم سيطرتَه على ضحاياه، عليه أن يأخذهم إلى مكان مفتوح ويُمارس طقوسه عليهم في بيئةٍ اعتادوا عليها. لن يُساعدني هذا كثيرًا مع الصبي الصغير، ولكنه قد يمنحني خيطًا يُوصلني إلى الآنسة فيكتور. كنت آمُل أن أراه يصرُّ في إحدى الحفلات الراقصة على الرقص مع امرأةٍ ما، أو أن يدعوها للذهاب معه إلى منزله، أو أي شيءٍ من هذا القبيل، فحينئذٍ قد أمتلك سببًا للشك. ولكن لم يحدُث ذلك أبدًا. لم يتحدَّث مِدينا إلى أي امرأةٍ غير معروفة في حضوري. بدأتُ أظن أنه رفض الأخذ بنصيحة الرجل الهندي لأنها تنطوي على مخاطرة كبيرة.

علاوة على ذلك، عاد خاراما إلى المدينة مجددًا، وأخذني مِدينا معه لزيارته. كان الرجل قد ترك فندق كلاريدج وأصبح يعيش في منزلٍ صغير في إيتون بلايس، ومن دون أناقة وبهرجة الفنادق الكبيرة، بدا أكثر شرًّا وقُبحًا. ذهبنا لزيارته في منزله ذات ليلة بعد العشاء ووجدناه جالسًا القرفصاء على الأريكة المُعتادة في غرفة مضاءة بمصباحٍ وحيد تعبقها رائحةٌ غريبة. بدا أنه تخلى عن لباسه الغربي؛ فقد كان يرتدي ثوبًا فضفاضًا، واستطعتُ أن أرى قدمَه الحافية القذرة من تحته عندما تحرك ليُعَدِّل الستائر.

لم يُولِياني الكثير من الاهتمام كما لو كنتُ ساعةً قديمة في الغرفة، وما أثار حفيظتي أنهما ظلَّا يتحدَّثان طوال الوقت بلغةٍ شرقية. لم أفهم أي شيءٍ مما قيل، ولكني استنبطتُ أنهما يتحدَّثان عن حالة مِدينا الذهنية. كانت ثمة نبرة عصبية واضحة في صوت مِدينا. وبدا أنه يطرح تساؤلات ملحَّة، وكان الرجل الهندي يُجيبه في هدوءٍ مُطَمْئِنًا. هدأ صوت مدينا تدريجيًّا، وأدركتُ فجأة أنهما كانا يتحدَّثان عنِّي. ارتفعت عينا خاراما نصف

المُغمضتَين نحوي لثانية واحدة، والتفت مِدينا نصف التفاتة نحوي. طرح الرجل الهندي بعض الأسئلة عني، وأجابه مِدينا في لامبالاة وهو يهزُّ كتفَيه، مُطلِقًا ضحكة خفيفة. أثارت الضحكة غضبي. بدا أنه كان يقول إني أصبحتُ مستعدًّا ومُؤَمَّنًا وجاهزًا لاستخدامي.

لم تُبهجني هذه الزيارة، وفي اليوم التالي، عندما أخذتُ إجازة من صحبة مِدينا، لم يكن يوجَد ما أفعله أفضل من التجوال في أرجاء لندن بعقلٍ مزدحم بأفكار كئيبة. ولكن، كان لهذا التجوال دون هدًى نتائجه، لحُسن الحظ. كان اليوم هو الأحد، وعند حافة مُتنزَّه باترسي، صادفتُ مجموعةً صغيرةً بائسةً من أعضاء جيش الخلاص تؤدي طقسًا تحت زخَّات المطر. توقفتُ لأسمع، دائمًا ما أفعل، فأنا ذلك الرجل العادي الذي يجِب أن يقف ليُشاهد أي عرضٍ يجري في الشارع، سواء كان حادث سيارة أو عرضَ دُمى. استمعتُ إلى نهاية خطبةٍ كان يُلقيها رجلٌ بدينٌ يُشبه موظفًا عموميًّا تخلَّى عن الفساد، وبضع كلمات من سيدةٍ ذات نظارات تبدو عليها الجدية. ثم غنَّت المجموعة نشيدًا صاحَبَه عزفُ آلة الترومبون، ويا للعجب! كان النشيد الذي كان صديقي القديم توم جرينسليد يُدندن لحنَه في غرفة نومِه في فوسي. كانوا يُغنون قائلِين: «هناك حيث يعثر المُتعَب لنفسه على ملاذٍ ومأمن.»

«على الضفة الأخرى من نهر الأردن،
حيث الحقول الخضراء لجنة عدن.
حيث تُزهر شجرة الحياة وتسكن.
هناك ستجد لنفسك الملاذ والمأمن.»

شاركتهم الغناء بحماسة، وتبرعت بكراونين إلى صندوق التبرعات؛ فقد بدا لي ما حدث منذ لحظات بُشرى خير.

لقد كنتُ أتجاهل هذا الجزء من اللُّغز، وفي ذلك المساء، وفي تلك الليلة، ظللتُ أُقلِّبه في عقلي حتى كدت أُجن.

«حيث ينثر الزارع بذوره في أخاديد جنة عدن.»

كان هذا هو نص البيت المذكور في القصيدة، وطبقًا لما تَذكَّره توم جرينسليد، فإن المكافئ لهذه الصورة هو متجر صغير للتحف في شمال لندن يُديره يهودي ذو لحية مصبوغة. لا شك في أنه يجب أن تكون ثمة صلة بين الصورتَين، ولكني لم أتمكن من العثور عليها. كان اللغزان الأوَّلان واضِحَين للغاية لدرجة أنه كان من المنطقي أن يفترض

المرء أن الثالث سيكون مثلهما. لم أرَ أي بارقةِ أمل، وسقطتُ أخيرًا نائمًا وعبارة «حقول جنة عدن» تُغرد في ذهني.

استيقظت ووجدتُ أن الهوس نفسه لم يُفارقني، بل أُضيفَت إليه عباراتٌ أخرى. كانت إحدى العبارات «ساحات اللعب في إيتون»، التي قال شخصٌ ما شيئًا ما عنها، وتساءلتُ للحظاتٍ عما إذا كنتُ لم أتمكَّن من الإمساك بالخيط الصحيح. كانت إيتون مَدرسة كاد بيتر جون أن يلتحِق بها، لذا فلها علاقة بالصِّبية، وقد يكون لها علاقة بديفيد واركليف. ولكني تخليتُ عن هذه الفكرة بعد الإفطار، فلم تكن لتُفضي إلى أي شيء. كانت الكلمة «عدن» وبقية البيت «نثر البذور». ثمة حقول أخرى تشغل فكري لها أسماء على غرار حقول توتهيل وحقول بانهيل. كانت هذه أسماء أماكن في لندن، وكان هذا ما أريد. لم تَرِد في الدليل أيُّ أسماءٍ مثل «حقول جنة عدن»، ولكن أليس من المُحتمَل أنه كان ثمة في الماضي مكان يحمل هذا الاسم الغريب؟

قضيتُ فترة الصباح في مكتبة النادي العامرة أقرأ عن لندن القديمة. قرأت كل شيء عن حدائق فوكسهول، ورانيلا، وكريمورن، وغيرها من العديد مِن المزارات القديمة الأخرى، ولكني لم أجد شيئًا يفيدني. ثم تذكرت أن واحدة من هوايات بوليفانت، لورد أرتينسويل، هي دراسة لندن العتيقة، فاتصلت به هاتفيًّا ودعوت نفسي على الغداء.

كان مسرورًا برؤيتي للغاية، وكنت سعيدًا للغاية بالعودة إلى المنزل الواقع في شارع بوابة الملِكة آن الذي قضيتُ فيه بعضًا من أهم الفترات في حياتي.

قال بوليفانت: «لقد قبلتَ المهمة التي راسلتُك بخصوصها. كنتُ أعلَم أنك ستقبلها. كيف حالك؟»

«لستُ بخير حال. إنها مهمة عويصة ولا أملك الكثير من الوقت. أريد أن أطرح عليك سؤالًا. أنت مُلِم بلندن العتيقة. أخبرني، هل صادفت خلال أبحاثك اسم «حقول جنة عدن»؟»

هز رأسه نفيًا. «ليس حسبما أذكر. في أي مكان في لندن؟»

«أتصوَّر أنها ستكون في مكانٍ ما شمال شارع أوكسفورد.»

فكر قليلًا. ثم قال: «لا. فيمَ تفكر؟ هل هو اسم حديقة خاصة أم مُتنزه؟»

«نعم. تمامًا مثل كريمورن أو فوكسهول.»

«لا أظن ذلك، ولكننا سنبحث في الأمر. أملك مجموعةً جيدة من الخرائط والمُخطَّطات القديمة، وبعض الأدلة العتيقة.»

وعلى ذلك، ذهبنا إلى مكتبته بعد الغداء وبدأنا العمل. في البداية لم تدُلنا الخرائط، ولا الكتب، على شيء. عُدنا في بحثنا إلى القرن السابع عشر وأوائل القرن الثامن عشر عندما كان الناس يخرجون لصيد الثعالب فيما أصبح الآن مُتنزَّه ريجينت وكانت مقاصل تايبرن تقف بالقرب من قوس الرخام. بعد ذلك، وبمحض الصدفة، فكرت في أن أُقرِّب البحث من زمننا الحالي، وعثرت على كتيب يعود إلى تاريخ الحرب الأمريكية تقريبًا تبيَّن أنه دليل لمناطق الترفيه في المدينة للمواطنين. كان يضمُّ معلومات عن جميع «أقبية نبيذ التفاح» و«بساتين الانسجام» التي لا بد أنها كانت حاناتٍ وضيعة، وأماكن في الضواحي لمصارعة الديوك ومصارعة الكلاب. فتحتُ صفحة الفهرس، وتهللَتْ أساريري عندما رأيتُ كلمة «عدن».

قرأت الفقرة جهرًا، وأعتقد أن يدَيَّ كانتا ترتعشان. كان المكان، كما كنتُ آمُل، شمال شارع أوكسفورد فيما أصبح يُطلَق عليه الآن اسم ماريلبون. قرأتُ من الكتاب: «افتتح السيد أسكيو حدائق جنَّة عدن لتكون منتجعًا صيفيًّا للنبلاء وهواة الصيد في العاصمة. يُمكنك أن ترى فيها في عصر أي يومٍ اللورد فلان، والدوق علان، يتجوَّلان بين الأشجار الظليلة الصغيرة تصحبهما حوريات الحديقة، ويصل إلى سمعَيهما من ناحية التعريشات المجاورة أصوات قرع الكئوس وصخب النرد المُبهج، وأصوات الغناء المتناسِقة لفرقة السنيورا فُلانة الإيطالية.» كان يُوجَد الكثير من الوصف المكتوب ولكني اكتفيتُ بما قرأت. كانت هناك خريطة للندن في الكُتَيب، وأمكنني باستخدامها أن أرسم حدود تلك الجنة المُبهمة.

ثم أحضرتُ خريطةً حديثةً وحددتُ الموقع عليها. كان المكان صغيرًا للغاية، بضعة فدادين ليس أكثر، وأصبح مُغطًّى حاليًّا بحي يُحاوطه شارع ويليسلي، وطريق آبويث، وشارع ليتل فاردل، والإسطبلات التي تقع خلف ميدان رويستون. دَوَّنتُ ما توصلتُ إليه في مُفكرتي وهممتُ بالانصراف.

قال اللورد أرتينسويل: «تبدو مسرورًا، يا ديك. هل عثرتَ على ما كنت تبحث عنه؟ غريبٌ أنَّني لم أسمع هذا الاسم من قبل، ولكن يبدو أنه اسم مكان يقع في أكثر نواحي لندن مللًا خلال أكثر حقب التاريخ مللًا.» رأيتُ أن اللورد أرتينسويل كان مُستاءً، فهواة الآثار يكرهون أن يتفوق عليهم أحد في هوايتهم.

قضيتُ بقية فترة العصر أتجول فاحصًا الحي المُمل فحصًا دقيقًا. كان المكان الذي أردتُ العثور عليه هو متجر تُحَف، وظننتُ في البداية أني سأفشل. كان طريق آبويث

حيًّا فقيرًا لا يحتوي على متاجر إلا بعض الصيدليات الأجنبية السيئة السمعة، ومتجر حلويات صغيرًا قذرًا كان صبية صغار قذرون يلعبون أمام بابِه. بدا أن سكان الحي في أغلبهم أجانب. كانت الإسطبلات خلف ميدان رويستون عديمة النفع بالطبع؛ فقد مرَّ زمن طويل منذ امتلك أي من سكان هذا الميدان عربة، وبدا أنها أصبحت تُستخدَم في الأساس مرآبًا للشاحنات ذات المحركات وسيارات النقل التي يمتلكها أحد تُجار الفحم. كان شارع ويليسلي، أو على الأقل الجزء الذي رأيتُه منه، مشغولًا بالكامل بمعارض العديد من شركات السيارات الأمريكية. أما شارع ليتل فاردل، فكان مكانًا مُثيرًا للفضول. كان به مبنًى واحدٌ غريب ربما كان موجودًا عندما كانت حقول جنة عدن في أوج ازدهارها، وبدا أنه أصبح حاليًّا مَخزنًا للأثاث من نوعٍ ما، وكانت أغلب نوافذه مُغلقة. ربما كانت بقية مباني الشارع مبنيةً منذ أربعين عامًا، وكانت أغلبها مقراتِ متاجر صغيرة للبيع بالجملة، مثل تلك التي تجدها في الأزقة الخلفية لمنطقة المال والأعمال في لندن. كان هناك مخبز فرنسي كبير عند ناصية الشارع، وصانع أُطُر لوحات، وصانع ساعات، ومتجر نظارات قديم. جُبتُ المكان مرتَين، وأُصِبتُ بالإحباط عندما لم أعثُر على أي شيء يمكن أن يكون متجرًا للتحف.

جُبت الشارع مرة أخرى، ثم لاحظتُ أن المبنى القديم، الذي بدا وكأنه مخزن للأثاث، متجرٌ أيضًا من نوعٍ ما. ألقيتُ نظرةً خاطفةً عبر النافذة المُتسخة في الطابق الأرضي، ورأيتُ ما بدا لي وكأنه بُسُطٌ فارسيةٌ ووجهٌ لطيف لتمثال منحوت في حجَرٍ أملس. بدا الباب وكأنه لم يُستخدَم قَط، ولكني حاولتُ فتحه فانفتح، ورنَّ جرس عند الجانب الخلفي من المبنى. وجدتُ نفسي في مكانٍ صغير يُغطيه التراب، وكان مزدحمًا مثل غُرَف التخزين بصناديق، وسجاجيد، وبُسُط، وخردوات. كانت أغلب محتويات المكان من التُّحف، ولكن لم ترَ عيني غير الخبيرة أنها ذات قيمةٍ كبيرة. كانت البُسُط التركمانية على وجه الخصوص من بين الأشياء التي يُمكنك أن تشتري العشرات منها من أيِّ مكانٍ في الشام.

التقتْني امرأة يهودية شعثاء ترتدي أقراطًا من ماسٍ زائف.

قلت لها وأنا أخلع قبعتي لتحيتها: «أنا أهوى التحف. هل يمكنني فحص المعروضات؟»

قالت: «نحن لا نبيع للأفراد. لا نبيع إلا للمتاجر.»

«يؤسِفني ذلك. ولكن هل يُمكنني فحص المعروضات؟ إذا ما أعجبني شيء، يمكنني إحضار تاجر تُحف أعرفه ليشتريه.»

لم تُجبني، ولكنها داعبت قرطها بأصابع يدِها المُمتلئة القذرة.

تفحصتُ بعضًا من البُسُط والسجاجيد، وتأكد انطباعي الأول. كانت في أغلبها رديئة، وكانت خزانة مشروبات أزلتُ عنها الغطاء مزيفة تزييفًا رديئًا للغاية.

قلت مشيرًا إلى جزءٍ من الزخارف الفارسية: «أعجبتني هذه الخزانة. هلَّا أخبرتِني بسعرها؟»

كررَتْ ما قالته سابقًا كما لو كانت صلاةً تحفظها: «لا نبيع إلا للمتاجر.» كانت عيناها الضيقتان، اللتان لم ترفعهما عن وجهي، خاليتَين من أي تعبير.

قلت: «أتوقع أن لدَيك الكثير من المعروضات الأخرى في الطابق العلوي. هل تسمحي لي بإلقاء نظرة عليها؟ لن أقضي في لندن إلا اليوم فقط، وربما أجد شيئًا أحتاجُه بشدَّة. أعي أنكم تُجار جملة، ولكن يُمكنني أن أُرتب شراء أي شيءٍ منكم عبر تاجر. أنا أفرش منزلًا ريفيًّا بالأثاث.»

أبدى وجهها لمحة حياة للمرة الأولى منذ رأيتُها. وهزَّت رأسها بقوة. وقالت: «لا نملك أي مخزونٍ آخر حاليًّا. إننا لا نحتفظ بمخزون كبير. تأتي البضائع وتُباع يومًا بيوم. ولا نبيع إلا للمتاجر.»

«حسنًا، أعتذِر عن إضاعتي لوقتكِ. وداعًا.» عندما غادرتُ المتجر، شعرتُ أني قد توصلتُ إلى اكتشافٍ مُهم. هذا المتجر واجهة زائفة. لا يوجد الكثير من المعروضات القيمة التي قد تُثير اهتمام أي تاجر تُحَف، ولن تُمكِّن جميع الأرباح الناتجة عن بيع هذه المعروضات أصحاب المتجر من شراء سجائر فرجينيا.

عُدتُ إلى الحي مجددًا بعد العشاء. كان مظهر الحياة الوحيد موجودًا في أزقة طريق آبويث، حيث كانت مجموعةٌ من النساء القذرات يقفنَ على الرصيف يثرثرن. كانت نوافذ شارع ويليسلي مغلقةً وكان صامتًا بالكامل من أوله إلى آخره. وكذلك كان شارع ليتل فاردل. لم يكن أحدٌ يسير بهما، ولم أرَ شعاعَ ضوءٍ واحدًا يتسلل عبر أي نافذة، وبدا المكان برمَّتِه وكأنه جُبٌّ صامتٌ في وسط صخب مدينة لندن، كان أشبَهَ بمقبرة. توقفتُ عند متجر التحف، ورأيتُ أن نوافذه مُعتمة تمامًا وأن الباب الهشَّ القديم أصبح مغلقًا بإطارٍ خارجي قوي من الحديد مُثبت في حفرة صغيرة عند نهاية الرصيف ووُضع عليه قفل ضخم. كانت مصاريع نوافذ الطابق الأرضي متينة، ربما كانت متينة بصورةٍ مُبالغ فيها مقارنةً بالمعروضات العديمة القيمة في الداخل. عندما نظرت إلى تلك النوافذ، راودني شعور قوي بأن المبنى خلف هذا الحاجز ليس خاليًا من الحياة مثلما كان يبدو

من مظهره، وأن ثمة حياةً في مكان ما داخله، وأن أمورًا تحدث ليلًا يُهمني للغاية أن أعرفها. ذهبتُ صباح اليوم التالي لزيارة ماكجيليفراي. وسألته: «هل يُمكنك أن تُعيرني لصًّا مُحترفًا؟ لليلة واحدة فقط. أريد رجلًا لا يطرح الكثير من الأسئلة وقادر على كتمان الأسرار.»

قال ماكجيليفراي: «لم أعُد أشعر بالدهشة عندما تكون موجودًا. لا. لا نحتفظ بلصوصٍ مُروَّضين هنا، ولكن يُمكنني أن أعثر لك على رجلٍ يعرف عن اللصوصية أكثر من مُحترفيها. لِمَ تريد لصًّا؟»

«الأمر ببساطة أني أريد دخول منزل مُعين الليلة، ولا أرى سبيلًا لفعل ذلك سوى الدخول عنوة. أظن أنك قادر على ترتيب الأمر بحيث لا يتدخل رجال الشرطة المسئولون عن الحي. في واقع الأمر، أُريد مساعدتهم في إخلاء محيط المكان».

شرحتُ له تفاصيل الأمر، وأريته مخططًا للمنطقة. اقترحَ أن أحاول الدخول من خلفية المنزل، ولكني كنتُ قد استطلعتُ هذا الجانب ورأيتُ أنه من المُستحيل الدخول منه؛ فقد بدا المنزل وكأنه مُلتصق بمنازل الشارع الذي خلفه. وفي واقع الأمر، لم يكن هناك باب خلفي. كانت طريقة بناء المبنى بالكامِل غريبةً للغاية، ولكني كنتُ أشعر أن المدخل الموجود في شارع ليتل فاردل هو الباب الخلفي. أخبرتُ ماكجيليفراي بأني بحاجة إلى خبير قادر على إدخالي عبر واحدة من نوافذ الطابق الأرضي، وأن يستبدلها بالكامل بحيث لا يوجد أثر لدخولنا في صباح اليوم التالي. فدق جرسًا وطلب حضور السيد آبيل. استُدعي السيد آبيل، وعندما وصل، رأيت أنه رجل ضئيل الحجم ضعيف الجسم يُشبه التجار القرويين. شرح ماكجيليفراي للسيد آبيل المطلوب منه، وأومأ الرجل أنه فهِم. وقال إن المهمة لن تشكل أي صعوبةٍ على رجل متمرِّس مثله. واقترح أن يستكشف المكان بعدَ موعد إغلاقه مباشرةً، وأن يبدأ العمل في حوالي العاشرة. ووعدَني أني إذا ما وصلت إلى المكان في العاشرة والنصف، فسيكون قد جهَّز وسيلةً لدخول المكان. ثم سأل عن رجال الشرطة الذين يعملون في أقرب نقطةٍ من المكان، وطلب وضع رجال شرطة مُعيَّنين في الخدمة تلك الليلة بحيث يُمكنه أن يُرتب الأمور معهم. لم أرَ في حياتي أحدًا يؤدي مهمة على هذه الدرجة من الدقة بمثل هذه الثقة العملية.

سأل ماكجيليفراي: «هل تُريد أن يُرافقك أحد في الداخل؟»

قلت لا. ارتأيتُ أنه من الأفضل أن أستكشف المكان بمفردي، ولكني كنتُ بحاجةٍ إلى شخص يكون جاهزًا لمعاونتي في حال تعرُّضي لمتاعب، وفي حال عدم عودتي، بالطبع، في غضون ساعتَين، يأتي ليبحث عني.

قال: «ربما نُضطر للقبض عليك بتُهمة السطو على المنزل. كيف ستفسر دخولك المكان عنوة إذا لم تجد شيئًا مُريبًا في الداخل وأيقظت حارس المكان المحترم من نومه؟»

قلت: «لا بد أن أُجازف.» لم أكن أشعر بالقلق تجاه هذه النقطة. فالمكان إما سيكون فارغًا أو مشغولًا بأشخاصٍ لن يطلبوا مساعدة الشرطة.

بعد العشاء، ارتديتُ بدلةً صوفيةً قديمةً وحذاءً ذا نعلٍ مطاطي، وبينما كنتُ أجلس في سيارة الأجرة، بدأت أُفكر في أني أتعامل باستخفاف شديد مع مهمة الليلة. كيف سيتمكن ذلك الرجل الضئيل آبيل من تجهيز مدخلٍ من دون أن يُنبه الحي بأكمله لما يفعل حتى مع تواطؤ رجال الشرطة معنا؛ وإذا ما وجدتُ أحدًا بالداخل، ماذا سأقول له؟ لا تُوجَد قصة مُقنعة يمكن قولها عن التسلُّل إلى منزل شخصٍ آخر، وحضرتني فجأة صورة المرأة اليهودية ذات القرطَين تشق بصراخها سكون الليل، ومُغادرتي المنزل بصحبة رجال الشرطة إلى السجن وسط حشدٍ من الرعاع الذين يسكنون طريق آبويث. حتى إن عثرت على شيءٍ مريب في الداخل، فلن يبدو مُريبًا إلا لي وفيما يتعلق بمشكلتي فقط، ولن يكون مريبًا في نظر القانون. لم يكن من المُرجَّح أن أعثر على شيءٍ مُخالف للقانون، وحتى إن فعلت، فكيف سأُبرِّر وجودي داخل المنزل؟ داهمَني فجأة شعورٌ بالخوف، وكدتُ أُحجِم عن المهمة التي تنتظرني، ولكني تراجعتُ عن ذلك بسبب ذلك الشعور الغريب المؤرِّق الذي يعتمِل في صدري بأنه من واجبي أن أُقْدِم على هذه المخاطرة؛ وأني إن تقاعستُ، سأُفوِّت أمرًا على قدرٍ عظيم من الأهمية. ولكني أؤكد لكم أني لم أكن سعيدًا على الإطلاق عندما صرفتُ سيارة الأجرة عند ناصية ميدان رويستون واستدرتُ وسرتُ في شارع ليتل فاردل.

كانت ليلةً معتمة تُنذر بهطول أمطار، وكان المكان مضاءً بأنوار خافتة. ولكن ما أثار غيظي أني رأيتُ على الجهة المُقابلة من متجر التُّحف موقدًا يحتوي على فحمٍ ساخن وذلك الملجأ الصغير الذي كان يعني أن ثمَّة إصلاحات تجري في جزءٍ من الشارع. كان يُوجَد ذلك النطاق المعتاد المحاط بالحبال، والمُزيَّن بمصابيح حمراء، وكومة من الركام، وحفرة في المكان الذي نُزِعَت منه بعض من أحجار الرصيف. كان هذا هو سوء الحظ في أوضح صورِه، أن يختار مجلس مقاطعة بورو هذا المكان وهذا الوقت تحديدًا لفحص البالوعات. ولكن انتابني شعورٌ خجولٌ بالراحة؛ فقد قضى هذا على مُغامرتي. وتساءلتُ عن السبب الذي منع ماكجيليفراي من ترتيب الأمر ترتيبًا أفضل.

واكتشفتُ أني ظلمتُه. فقد رأيتُ وجه السيد آبيل المُهذَّب يطلُّ عليَّ من الكوخ.

وقال بأدب: «بدا لي أن هذه أفضل خطة. فقد مَكَّنَتني من انتظارك هنا من دون أن أُثير الشكوك. لقد التقيتُ الرجال المُكلَّفين بالخدمة في النقطة القريبة، وكل شيءٍ على خير ما يرام هناك. وهذا الشارع هادئ تمامًا، ولا تستخدِمه سيارات الأجرة كطريقٍ مختصرة. ستجد الباب مفتوحًا. ربما كان من الصعب فتح النوافذ، ولكني ألقيتُ نظرةً على الباب أولًا، وكان ذلك الإطار الحديدي الضخم مجرد خدعة. كان المزلاج الذي يُغلقه القفل مثبتًا في العارضة الجانبية للإطار، إلا أن الإطار نفسه كان مثبتًا في الجدار بواسطة قفلٍ أصغر كثيرًا من القفل الأول، كنتَ ستكتشف وجوده لو دققتَ النظر. فتحتُ لك هذا القفل؛ كان الأمر سهلًا.»

«ولكن ثمة باب آخر، باب المتجر، الذي يتسبَّب في دقِّ جرسٍ في الداخل.»

قال، وشبح ابتسامةٍ على شفتَيه: «وجدتُ هذا الباب مفتوحًا. أيًّا كان من يستخدِم هذا المكان بعد ساعاتِ عمله الرسمية، لا يريد أن يُحدِث الكثير من الضوضاء. الجرس مفصول. كل ما عليك فعله هو دفع الباب والدخول.»

كانت الأحداث تُجبرني على تجاهل رغبتي في الإحجام عن هذه المهمة.

قلت: «ماذا لو دخل أحدٌ وأنا في الداخل؟»

«ستسمع صوته وستتصرَّف بِناءً على ذلك. بوجهٍ عام، يا سيدي، أميل إلى الاعتقاد بأن ثمة أمرًا مُريبًا يدور داخل هذا المكان. هل معك سلاح؟ لا. هكذا أفضل. لا يُخول لك وضعُك استخدام سلاح، كما يُقال، وربما يكشف السلاح وجودك.»

«ماذا ستفعل لو سمِعْتني أصرخ؟»

«سأهبُّ لنجدتك. وإذا لم تعُد في غضون، ما رأيك؟ ساعتَين، سأدخل المبنى وسيكون معي أقرب شرطي للمكان. وسيمنحنا الباب المفتوح مبررًا لدخولنا.»

«ماذا لو خرجتُ مسرعًا؟»

«لقد فكرتُ في ذلك. إذا كانت بداية دخولك جيدة، فسيكون لديك وقتٌ كافٍ لتختبئ»، ثم أشار بإبهامه نحو الكوخ. وقال: «وإذا حوصرتَ، سأتمكن من منعهم عن ملاحقتِك.»

جعلتني الطريقة العملية الهادئة للرجل الضئيل أتحمَّس. تأكدت من خلوِّ الشارع، ثم فتحتُ الإطار الحديدي، ودفعتُ باب المتجر لأفتحه، ثم أغلقتُه برفقٍ خلفي.

كان المتجر مُظلمًا كالقبر، ولم يكن يتسلَّل شعاع ضوء واحد عبر النوافذ المُغطاة جيدًا. شعرتُ بخوف شديد بينما كنتُ أسير على أطراف أصابعي بين البُسُط والطاولات. أطرقتُ السمع، ولكني لم أسمع أي صوتٍ سواءً من الداخل أو من الخارج، فأضأتُ

مصباحي الكهربي وانتظرتُ دون أن أُصدر صوتًا. ولكني لم أسمع صوتًا أو أرى حركة. بدأتْ قناعتي بخلو المبنى تزداد، وعندما زادت ثِقتي قليلًا بدأتُ أتحرك لأستكشف المكان.

لم يكن المكان يمتدُّ مسافةً طويلةً نحو خلفية المبنى كما تصورت. سرعان ما وصلتُ إلى جدارٍ كُدِّسَت عليه مُخلفات كثيرة، وهكذا انتهى تقدُّمي في هذا الاتجاه. كان الباب الذي دخلَتْ منه المرأة اليهودية على يميني ودخلتُ عبرَه إلى مكانٍ صغيرٍ يُشبه المطبخ، به حوض، وخِزانة أو اثنتان، وموقدٌ غازي، وفِراش في ركنِه؛ من نوعية الغرف التي يشغلها الحراس عادةً في المنازل المَعروضة للإيجار. نظرتُ عبر نافذةٍ ذات علوٍّ كبير في الجدار، ولكني لم أرَ مدخلًا آخر سوى المدخل الذي دخلتُ منه. فعدت إلى المتجر وجربتُ الممرَّ ناحية اليسار.

لم أعثر في البداية على شيءٍ سوى أبوابٍ موصدة، كان واضحًا أنها خزانات. ولكنَّ أحدَها كان مفتوحًا، ورأيتُ على ضوء مصباحي سلالم تنحدِر بشدة لأعلى؛ من نوعية السلالم التي تؤدي إلى العُليَّات في المنازل القديمة. اختبرتُ العوارض الخشبية؛ فقد خشيتُ من أنها قد تصدر صوتًا، واكتشفتُ أن الدرج بالكامل كان قد تمَّ تجديده. لا يمكنني القول إنني كنت أودُّ الغوص في هذا الصندوق، ولكن لم يكن ثمة شيء آخر لأفعله سوى الاستسلام.

وجدتُ بابًا عند قمة الدرَج، وكنت على وشك أن أحاول فتحه عندما سمعتُ صوت خطوات أقدام على الجانب الآخر منه.

تسمرتُ في هذا المكان الضيق، متسائلًا عما سيحدث لاحقًا. اقترب الرجل من الباب؛ فقد كان صوت الأقدام يعود لرجل، وارتعبتُ عندما أدار مقبض مزلاجه. إن فتح الباب، سيكتشف وجودي؛ فقد كان يحمِل مصباحًا، والرب وحده يعلم ما الذي يمكن أن يحدُث بعد ذلك. ولكنه لم يفتح الباب؛ فقد اختبر مقبض المزلاج ثم أغلقَه بالمفتاح. ثم سمعتُ صوت خطوات أقدامه يبتعِد.

كان هذا مُحبطًا إلى حدٍّ ما، فعلى ما كان يبدو أصبحتُ معزولًا عن بقية المنزل. انتظرتُ بضع دقائق حتى يصفو الجو، ثم حاولتُ فتح مقبض المزلاج متوقعًا أن يكون موصدًا. ولكني ذُهلتُ عندما انفتح الباب؛ فالرجل لم يُغلق المزلاج، بل فتحه. قد يعني ذلك أمرَين لا ثالث لهما. إما أنه ينوي الخروج في وقتٍ لاحق عبر هذا الطريق، وإما أنه ينتظر قدوم شخصٍ ما ويريد أن يُسَهِّل له الدخول.

استعدتُ هدوئي في تلك اللحظة. وتأجَّجَت رغبتي في الاستمرار؛ فقد كانت ثمة لعبة يتعين أن ألعبها وهدف يجب أن أُحقِّقه. نظرتُ حولي في الممر الذي وجدتُ نفسي فيه،

وأدركتُ السبب في طريقة البناء الغريبة التي حيرتني. كان المَبنى القديم المُطل على شارع ليتل فاردل رفيعًا للغاية بسمك غرفة واحدة فحسب، وكان مُلحقًا بمبنى أكبر وأحدث بكثير أصبحتُ أقف داخله الآن. كان المَمرُّ عريضًا ذا سقفٍ عالٍ فُرِشَت أرضيتُه بالكامل بالسجاد، ورأيتُ توصيلاتٍ كهربيةً عند كلٍّ من نهايتَيه. أقلقني ذلك، فإن جاء أحد وأضاء الأنوار، لم يكن في المَمرِّ مكان يكفي لإخفاء صرصور. فكرتُ أن أؤَمِّن خطةً هي أجرأها، فسِرْتُ على أطراف أصابعي حتى نهاية الممر، ورأيتُ ممرًّا آخر، خاليًا أيضًا، مُتعامدًا على الممرِّ الذي أسير فيه. كان هذا بلا طائل، ففتحتُ بجرأة بابَ أقرب غرفةٍ منِّي عنوةً. وحمدًا للرب! لم يكن أحد بالغرفة، وعليه، أصبحَت لدي قاعدة للاستطلاع.

كانت غرفة نوم مفروشة بأثاثٍ فاخر من متجر وارينج آند جيلو، وارتعتُ عندما لاحظتُ أنها غرفة نوم امرأة. فقد رأيتُ طاولة زينة امرأة بما عليها من فُرَش تمشيط شعر ضخمة والكثير من العطور والمساحيق. وكانت ثمة خزانة ملابس مواربٌ بابها مليئة بالفساتين المُعلقة على شماعات. بدا أن صاحبة الغرفة غادرتها منذ فترة وجيزة؛ فقد كانت أغطية الفراش غير مرتبة وكان ثمة خفٌّ موضوع بجوار طاولة الزينة، بدا وكأنه رُكِل من القدمين في عجلة.

جعلني المكان أشعر برعبٍ شديد. شعرتُ وكأني أسطو على شقة أناس مُحترمين ودخلتُ غرفة سيدة راقية، وتخيلتُ في ذهني الفضيحة المدوية التي لن يتمكن أحدٌ من إسكاتها. بدا لي آبيل الضئيل الجالس في هذه اللحظة في كوخه ملاذًا آمنًا تفصلني عنه فراسخ عدة من العوائق. فكرتُ أنه من الأفضل أن أعود إليه في أقرب وقتٍ مُمكن، وكدتُ أهِمُّ بالانصراف عندما حدث أمر جعلَنِي أُحجم فجأة عن ذلك. كنتُ قد تركتُ باب الغرفة مواربًا بعدما دخلتها، وكنتُ بالطبع قد أطفأت مصباحي اليدوي بعد فحصي الأول للغرفة. كنتُ واقفًا في ظلامٍ دامس، ولكني رأيت في تلك اللحظة ضوءًا يصدر من الممر.

ربما كانت المرأة المتعجلة صاحبة الغرفة، وسقط قلبي من بين أضلعي. ثم رأيتُ أن أنوار الممر لم تُضأ، وأيًّا كان من يُصدر الضوء، فإنه يستخدم مصباحًا يدويًّا مثلي. كان وَقْعُ الأقدام آتيًا من الطريق الذي كنتُ قد أتيتُ منه. هل هو الرجل الذي كان قد فُتِح من أجلِه البابُ الذي عند قمة الدَّرَج؟

كان رجلًا بالفعل، وأيًّا كان السبب الذي جاء به إلى هنا، فهو لا يتعلق بالغرفة التي أقِف فيها. راقبتُه عبر الفُرجة التي تركها الباب الموارب، ورأيتُ خيالَه يمرُّ أمامي. كان متعجلًا يسير بخفَّةٍ وسرعة، وفيما عدا المعطف الداكن الذي يرتدِيه وياقته المرفوعة التي

تُخفي وجهه وقبعته الناعمة السوداء، لم أتمكن من رؤية شيء. سار الرجل في الممرِّ وبدا عليه التردُّد عند نهايته. ثم استدار نحو غرفةٍ على اليسار واختفى داخلها.

لم أكن أملك سوى الانتظار، ولم أنتظر طويلًا لحُسن الحظ؛ فقد كنتُ قد بدأت أتوتر. عاد الرجل يظهر حاملًا شيئًا ما في يدِه، وبينما كان يسير في اتجاهي، لمحتُ وجهه. وتعرفتُ عليه على الفور؛ فقد كان الرجل الحزين المكتئب الذي رأيتُه عندما ذهبتُ إلى منزل مِدينا للمرة الأولى، عندما كنتُ أستيقظ من غيبوبتي. كان هذا الوجه قد انطبع في ذاكرتي لسببٍ ما، وكنت أنتظر أن أراه مجددًا. كان وجهه حزينًا وبائسًا، ولكنه كان مُحببًا أيضًا ولكن بطريقة غير مألوفة؛ لم يكن ثمة شيء منفر به على أية حال. ولكن جاء من عند مِدينا، وجعلتني هذه الفكرة أنفض عن ذهني أي ذرة تردُّد. كنتُ مُحقًّا في تخميني؛ هذا المكان يخصُّ مِدينا، إنه حقول جنة عدن المذكورة في القصيدة. منذ ثانية مضت، كنت أشعر بالإحباط والتخبط، ولكني كنت أشعر الآن بأني منتصر.

مرَّ الرجل من أمام الباب الذي كنت أقف خلفه، واستدار ليسير في الممر المتعامد على الممر الأول. خرجتُ من الغرفة لأتبعه، ورأيتُ الضوء يتوقف عند الباب الذي عند قمة الدرج، ثم يختفي. كان أول ما فكرت فيه هو أن أتبعه، وأن أمسك به في المتجر، وأستخرج منه الحقيقة، ولكني نفضت تلك الفكرة عن رأسي على الفور، فهي ستتسبب في كشف المهمة برمَّتها. وقررتُ أن أُحاول اكتشاف المزيد. يجب أن أدخل الغرفة التي كانت سبب زيارتِه لهذا المكان.

كنت سعيدًا لخروجي من غرفة النوم تلك. ووقفتُ في الممر أُنصِتُ، ولكني لم أسمع أي صوت. كان ثمة صوت في الهواء، ولكن بدا أنه آتٍ من الخارج، كان صوتًا يُشبه عزف أرغن أو فرقة موسيقية من بعيد. استنتجتُ أن ثمة كنيسة قريبة حيث يتدرَّب صبية الكورال.

كانت الغرفة التي دخلتها غريبة جدًّا. بدا جزءٌ منها وكأنه متحف، وجزء آخر وكأنه مكتب، وجزء آخر وكأنه مكتبة. كان متجر التحف مليئًا بأشياء عديمة القيمة، ولكن أمكنني من نظرةٍ واحدة أن أُدرك أنه لا توجد أشياء عديمة القيمة هنا. كانت ثمة لوحات إيطالية جميلة، كنتُ أعرف بعض المعلومات عنها، فماري من هواة جمعها، وطقم من الجِرار الصينية الخضراء بدا أصليًّا. وكانت توجد لوحة بدت جيدة بما يكفي لأن تكون بريشة هوبيما. أما فيما يخص بقية محتويات الغرفة، فكانت ثمة العديد من الخزانات الراقية الصُّنع، ولكن لم تكن تُوجَد أي أوراق في أي مكان، وكانت جميع أدراج طاولة

الكتابة مُقفلة. لم أكن أستطيع السطو على الخزانات وأدراج الطاولة، حتى لو كنت أريد ذلك. كنتُ متيقنًا من أن أكثر المعلومات التي احتاجها قِيمةً توجَد في بقعةٍ ما من هذا المكان، ولكني لم أكن أعرف كيفية الحصول عليها.

كنتُ على وشك المغادرة عندما أدركتُ أن صوت الموسيقى الذي سمعته في الممر كان أعلى بكثيرٍ هنا. لم يكن صوت صبية كورال يتدربون، فلم تكن الموسيقى دينية، بل كانت موسيقى تُعزَف على كمان وطبول، وكان إيقاعها راقصًا. هل هذا المبنى الغريب مجاور لمرقص؟ نظرت إلى ساعتي ورأيت أن الساعة اقتربت كثيرًا من الحادية عشرة، وأنَّني قضيتُ حوالي عشرين دقيقة داخل المنزل. كنت حاليًّا في حالةٍ من الثقة الطائشة، فقررتُ أن أُجري المزيد من البحث.

سمعتُ الموسيقى آتية من مكان ما جهة اليسار. كانت النوافذ تُطل، حسبما خمنت، على شارع ويليسلي، الأمر الذي أظهر لي أني أسأت الحكم على هذا الشارع الرئيسي. ربما كان يوجد مَرقص مَبني وسط مَعارض السيارات. على أية حال، أردتُ أن أرى ما يُوجَد بعد هذه الغرفة، فلا بد من وجود مدخل آخر لها غير المدخل عبر متجر التحف. وبالفعل عثرت على باب بين خزانتي كتب مُغطًّى بستارة، يؤدي إلى ممر آخر.

هنا كان صوت الموسيقى أعلى، وبدا أني في مكان أشبه بالكواليس التي توجد خلف خشبة المسرح حيث توجد الكثير من الغرف بكل الأشكال والأحجام. كان الباب في نهاية الممر موصدًا، وأدى بابٌ آخر فتحتُه إلى دَرَجٍ خشبيٍّ آخر. لم أكن أرغب في النزول إلى الأسفل بعد، ففتحتُ بابًا آخر، ثم أغلقتُه بهدوء. فالغرفة التي فتحتُ بابها كانت مُضاءة، وشعرتُ بأن ثمة أُناسًا داخلها. كما أن صوت الموسيقى ارتفع بشدة عندما فتحتُ الباب.

وقفت للحظةٍ مُترددًا، ثم فتحتُ الباب مجددًا. كنتُ أشعر أن الضوء داخل الغرفة لا يصدُر من أي شيءٍ داخلها. وجدتُ نفسي داخل حجرة صغيرة فارغة، ومتربة، وكئيبة تُشبه تلك المتاجر الصغيرة في شارع ستراند، حيث تكون الواجهات الأمامية المصنوعة من الزجاج السميك أعلى ارتفاعًا من المتجر نفسه، وثمة مسافة بين السقف والطابق الذي يعلوه. كان أحد جدران الغرفة زجاجيًّا بالكامل، ومصراع نافذة به مواربًا، وتسلَّلَت عبر الزجاج أشعةُ الكثير من المصابيح الآتية من مكانٍ ما خلفه. تحركتُ نحو الأمام بحذرٍ شديد حتى أتمكن من النظر ورؤية ما كان يحدُث في الأسفل.

أظن أني كنتُ أعرف ماذا سأرى خلال الثواني الأخيرة قبل وصولي إلى الجدار الزجاجي. كان المرقص نفسه الذي زُرته قبل بضعة أسابيع مع آرتشي رويلانس. رأيتُ

نفس الزخارف الصينية الزائفة، والأنوار اللامعة، وفرقة الزنوج الموسيقية، والَمنظر العام المبهرج نفسه. لم يتغيَّر شيء سوى أن المكان كان أكثر ازدحامًا بكثير من زيارتي السابقة له. أضاف ضجيج الضحكات والثرثرة الصادرة من الَمرقص مزيدًا من النشاز إلى الموسيقى القبيحة، ولكن كان ثمة ابتهاج عربدة شديد ينبعث من الأصوات الصادرة عن المرقص، شعور طاغٍ يصدُر عن شيءٍ سوقي ولكنه يتسم بالحيوية والحماسة. على حواف القاعة، كان يجلس الحشد المعتاد من الرجال والنساء السوقيين الأجانب يشربون المشروبات الروحية والشمبانيا، ويختلط معهم اليهود البدناء واللاتينيون ذوو الوجوه المليئة بالكدمات ووجوه مُشربة بالحمرة لِصبيةٍ جامعيين أو مُجندين يتصوَّرون أنهم يرَون ما يجب أن تكون عليه الحياة. ظننتُ للحظاتٍ أني رأيتُ آرتشي، ولكن كان مَن رأيتُ شخصًا يشبهه، وكان وجهه النحيل شديد الحمرة يصنع تناقضًا غريبًا مع وجه المرأة الجالسة بجواره الأبيض الشديد الشحوب.

كان الرقص أكثر جنونًا وحيوية مما كان عليه خلال زيارتي السابقة. وكان ثمة المزيد من الحيوية في حركة الراقصات اللاتي يُشبهن عرائس الماريونيت، واضطررتُ للاعتراف بأنهن يُجِدنَ عملهن، على الرغم من عدم تقديري له. كان جميع أزواج الراقصين بارعين في الرقص، ومن وقتٍ لآخر كان شخص أخرق يحاول الرقص بينهم، ولكنه لم يكن يبقى طويلًا. لم أرَ الفتاة ذات الثوب الأخضر التي أعجبت آرتشي، ولكن كان ثمة الكثير من الفتيات اللائي يُشبهنها. كان أكثر شيءٍ مُنفر رأيته هو الرجال، فكانوا إما هياكل عظمية شاحبة أو لاتينيين بُدناء متأنِّقين تأنقًا مُبالغًا فيه، وكان بعضهم يضع مساحيق تجميل بإفراط مثل النساء.

كان هناك رجل شعرتُ نحوَه بنفورٍ أكثر من الباقِين. كان شابًّا طويل القامة ذا خصرٍ نحيل للغاية، ووجه أبيض، وعينَين خدرتَين خاويتَين. كانت شفتاه حمراوين مثل شفاه الراقصات، وأكاد أجزم أنه كان يضع على وجنتَيه حُمرة تجميل. كان منظره قبيحًا. ولكن يا للعجب! كان بارعًا في الرقص. لم يكن مظهره يُشير إلى أنه يتمتع بأي حيويةٍ لدرجة أنك قد تحسبه جثة مُغلفة بقوى شيطانية أجبرتها على التلوي في رقصة موت سرمدية. لاحظتُ أنه لم يفتح جفنَيه نصفَ المُنسدلَين على الإطلاق.

تلقيتُ فجأة صدمةً قوية. فقد أدركتُ أن هذه الدمية ليست إلا صديقي القديم، ماركيز دو لا تور دو بين.

لم أكن أفقتُ من الصدمة الأولى عندما تلقيتُ صدمةً أقوى. كان صديقي يرقص مع امرأةٍ ذات شعرٍ فاتحٍ بدرجةٍ تدلُّ على أنه غير طبيعي. لم أتبيَّن ملامح وجهها بوضوحٍ في

البداية؛ فقد كانت تدفن وجهها في صدره، ولكنها كانت ترتدي ثوبًا عاريًا ومُشينًا. كانت المرأة أيضًا بارعة في الرقص، وكانت رشاقة جسدها النحيل ظاهرةً على الرغم من ملابسها المبتذلة. ثم أدارت وجهها نحوي، ورأيتُ شفتَيها الحمراوَين ووجهها المُغطَّى بمساحيق التجميل الوردية والبيضاء الباهتة المُميِّزة لطبقتها الاجتماعية. إنها جميلة أيضًا ...

ثم تلقيتُ صدمةً أخرى كِدتُ أسقط بسببها عبر النافذة. فقد كانت تلك الراقصة التي يختفي وجهها تحت مساحيق التجميل هي زوجتي الحبيبة ووالدة بيتر جون.

الفصل الرابع عشر

السير أرتشيبالد رويلانس يشارك في المهمة

بعد ثلاث دقائق، كنتُ قد عدتُ إلى متجر التحف. أطفأتُ مصباحي اليدوي، وفتحتُ الباب المؤدِّي إلى الشارع دون صوت. كان ثمة وَقْع أقدامٍ تسير على الرصيف، فعدتُ إلى داخل المتجر حتى مرَّت. خرجتُ بعد ذلك إلى الشارع الهادئ ورأيتُ موقِد آبيل الصغير يلمع أمامي، وبرز وجهُ آبيل الصغير الحاد القسمات من داخل كوخه.

سألَني جذِلًا: «هل كل شيءٍ على ما يُرام يا سيدي؟»

قلت: «نعم. لقد عثرتُ على ما كنتُ أبحث عنه.»

«أتى رجلٌ بعد دخولك المبنى بفترةٍ قصيرة. من حُسن الحظ أني أغلقتُ البابَ بعد دخولك. لم يقضِ في الداخل سوى خمسِ دقائق أو أقل. كان يرتدي معطفًا أسود خفيفًا وكان يرفع ياقته ليُخفي وجهه، بدا رجلًا محترمًا، ومُسنًّا، ربما كان كاهنًا. أمرٌ غريبٌ يا سيدي، ولكني خمنتُ وقت عودتك جيدًا، وفتحت الباب لك. إذا لم تعُد تحتاجني سأُخلي الموقع.»

سألته: «هل يُمكنك فعل ذلك وحدك؟ ثمة الكثير الذي يلزم تنظيفه.»

غمز لي في جِدِّيَّة. وقال: «لن يكون ثمة أثر لأي شيءٍ في خلال ساعة. لدَي أسلوبي في إنجاز الأمور. طابت ليلتُك يا سيدي، وشكرًا لك.» كان أشبه بموظف استقبال في فندقٍ يودع أحد النزلاء.

اكتشفتُ أن الساعة تخطَّت الحادية عشرة والنصف، فسِرتُ نحو طريق توتنهام كورت، وركبتُ سيارة أجرة، وطلبتُ من السائق أن يتَّجِه إلى شارع جريت تشارلز في ويستمنستر. ماري في لندن، ويجب أن ألتقيها على الفور. لقد اختارت أن تُشارك في

المهمة، على الأرجح بتحريضٍ من ساندي، وكان يجب أن أكتشف ما كانت تفعله بالضبط. كان الأمر صعبًا للغاية بالفعل بتتبع ساندي لمساره الخاص ومنعي عن التواصُل معه، ولكن إذا كانت ماري مشارِكة في المهمة أيضًا، فسيكون الأمر برمَّته فوضويًّا تمامًا إلا إذا اطلعتُ على خُططها. أعترف أنني شعرتُ بعصبية شديدة. لا يُوجَد إنسان في العالم أراه أكثر حكمةً منها، وكنتُ على استعدادٍ لأن آتِمنها على حياتي في أصعب المواقف، ولكني كنتُ أكره فكرة تورُّط امرأةٍ في أمرٍ على هذا القدر من البشاعة والخطورة. كانت شابةً جميلة للغاية، ولن تسلم من التحرُّشات. ولكني تذكرتُ أنها شاركت في أمورٍ أكثر بشاعة من ذلك، وتذكرتُ كلمات بلنكيرون العجوز: «لا يمكن إخافتها ولا يمكن إفسادها.» بدأتُ بعد ذلك أشعر براحةٍ نبعت من شعوري بأنها تُشاركني المهمة؛ وجعلني ذلك أشعر بأني أقل وحدة. ولكن لم يكن ذلك جيدًا لبيتر جون. يجب أن ألتقِيَها على أية حال، وخطر لي أنها قد تُقيم مع عمَّاتها اللاتي يقُمنَ في ويموندام، وأنني على أقل تقديرٍ قد أعرف أخبارًا عنها هناك.

كانت النساء اللاتي يقُمن في ويموندام سخيفات، ولكن كان يعمل لديهنَّ رئيس خدَم قادر على جعل حي مونمارتر في باريس راقيًا. كنت أنا وهو على وفاقٍ دومًا، وأظن أن سلواه الوحيدة فيما يتعلق ببيع ضيعة فوسي هي أني وماري من اشتراها. كان منزل العمَّات في شارع جريت تشارلز هو أحد تلك المنازل الجديدة الجميلة التصميم التي زيَّنت بها حركة حكم الأثرياء الفكرية أزقة ويستمنستر.

سألتُ رئيس الخدم: «هل عادت السيدة؟»

«ليس بعدُ يا سير ريتشارد، ولكنها قالت إنها لن تتأخر. أتوقع وصولها في أي لحظة.»

«أظنُّ إذن أني سأدخل وأنتظرها. كيف حالك يا برنارد؟ هل اعتدت على حياة المدينة أم ليس بعد؟»

«حالي تتحسَّن يا سير ريتشارد، شكرًا لك. لقد سعدتُ للغاية بوجود الآنسة ماري هنا، إذا ما سمحتَ لي بالحديث عنها. لا تزال الآنسة كلير في باريس، والآنسة ويموندام تحضر حفلًا راقصًا الليلة، ولن تعود حتى ساعة متأخرة جدًّا. كيف الحال في فوسي يا سيدي، إذا ما سمحتَ لي بالسؤال؟ وكيف حال السيد الصغير؟ لقد أرتني الآنسة ماري صورته. إنه سيد شاب وسيم يا سيدي، وشديد الشبَه بك.»

«غير معقول يا برنارد. إنه نسخة طبق الأصل من أمِّه. أحضر لي شرابًا يا صديقي الطيب. إبريقًا من الجعة، إذا كانت لديك، فحلقي جاف كحجر شحْذ.»

شربتُ الجعة وانتظرت في غرفة صغيرة كانت ستُصبح أنيقة لولا حب عمَّات ماري للألوان المبهرجة. كنت أشعر بالسعادة مجددًا، فقد كانت صورة بيتر جون موضوعة فوق رفِّ المدفأة، وكنتُ أتوقع ظهور ماري عند عتبة الباب في أي لحظة.

عادت قُبيل منتصف الليل. وسمعتُها تتحدث إلى برنارد في الردهة، ثم سمعت صوت خطواتها السريعة خارج باب الغرفة التي أجلس فيها. كانت ترتدي ملابس مبتذلة، ولكن لا بدَّ أنها حاولت تنظيف وجهها في سيارة الأجرة، فقد كان أغلب مسحوق التجميل قد أُزيل من على وجهها تاركًا إيَّاه شاحبًا للغاية.

صاحت وهي تُلقي عباءتها وتعدو إلى ما بين ذراعَي: «أوه، حبيبي ديك. لم أتوقع حضورك إلى هنا على الإطلاق. هل ثمَّة خطب ما في منزلنا؟»

«على حدِّ علمي، لا، فيما عدا أنه أصبح مهجورًا. ماري، ماذا أتى بكِ إلى هنا؟»

«أنتَ لستَ غاضبًا يا ديك، أليس كذلك؟»

«على الإطلاق؛ أشعر بالفضول ليس أكثر.»

قالت: «كيف عرفتَ أنَّني هنا؟»

«خمنتُ. رأيتُ أن الاحتمال الأرجح أن أجدكِ هنا. لقد رأيتُكِ ترقصين الليلة. اسمعيني يا حبيبتي، إذا ما وضعتِ الكثير من مساحيق التجميل والألوان، ثم ألصقتِ وجهكِ في صدر توربين المسكين، فلن يكون من السهل عليه أن يُحافظ على نظافة قميصه.»

«أنت ... رأيتني ... أرقص! هل كنتَ في ذلك المكان؟»

«لا يُمكنني أن أقول إنني كنتُ داخله. ولكني شاهدتُ العرض من الشرفة. وخطر لي أنه كلما بكَّرنا بحديثنا، كان أفضل.»

«الشرفة! هل كنتَ داخل المنزل؟ لا أفهم.»

«وأنا مثلكِ تمامًا. لقد اقتحمتُ منزلًا مُعينًا في أحد الشوارع الجانبية لأسبابٍ مُعينة تخصُّني. وفي خلال ذلك، قد يجدُر بي أن أذكر أني شعرت بخوفٍ شديد لم أشعر بمثله في حياتي. وغامرت كثيرًا قبل أن أصل إلى مكانٍ سمعت فيه صخب مشاجرة تبينتُ فيما بعد أنها موسيقى رقص. وعثرت في نهاية المطاف على غرفة صغيرة قذرة بها نافذة، وذُهِلتُ عندما وجدت النافذة تُطل على مرقص. أعرف هذا المرقص، فقد زُرتُه مرةً من قبل بصحبة آرتشي رويلانس. كان هذا الأمر غريبًا بما يكفي، ولكن تخيَّلي مدى دهشتي عندما رأيتُ زوجتي تضع مساحيق تجميلٍ ثقيلة وكأنها فتاة جِيشا يابانية، وترقص مع أحد أصدقائي القُدامى الذي بدا وكأنه يحاول محاكاة تماثيل الشمع.»

بدا أنها لم تسمع كلمةً مما قلت. ثم قالت: «ولكن بينما كنتَ في المنزل! هل رأيتَ أحدًا؟»

«رأيتُ رجلًا وسمعتُ صوت آخر. سبق لي لقاء الرجل الذي رأيتُه في منزل مِدينا في ساعةٍ متأخرة من الليل.»

«وماذا عن الآخر؟ هل رأيتَه؟ هل سمعتَه يخرج من المنزل؟»

قلت: «لا.» وشعرت بالحيرة من انفعالها. «لِمَ أنتِ مهتمة بالشخص الآخر لهذه الدرجة؟»

«لأني أظن، بل أنا واثقة من أنه كان ساندي؛ الكولونيل أربوثنوت.»

لم أكن أتوقَّع ذلك على الإطلاق. فصحتُ قائلًا: «مُحال! هذا المكان أحد أوكار مِدينا. والرجل الذي رأيتُه كان خادم مِدينا أو مساعده. هل تعنين أن ساندي كان يستكشف هذا المنزل؟»

أومأتْ برأسها أن نعم. «في الواقع، إنها حقول جنة عدن.»

«آه، أعلم ذلك. لقد اكتشفتُ ذلك بنفسي. هل تعنين أن ساندي اكتشف ذلك أيضًا؟»

«أجل. كنتُ هناك لهذا السبب. لهذا السبب كنتُ أعيش حياةً مُقززة، وأرتدي الآن ملابس تُشبه ملابس الراقصات.»

قلت بجدية: «ماري، لن يتحمَّل عقلي الرقيق أي صدمات عنيفة أخرى. هل تُمانعين أن تجلسي بجواري وتقُصِّي عليَّ بالتفصيل كل ما كنتِ تفعلينه منذ أن ودَّعتُكِ في فوسي؟»

قالت: «بادئ ذي بدء، زارَني ناقدٌ مسرحيٌّ خلال العطلة، السيد ألكسندر تومسون. وقال إنه يعرفكَ وأنك اقترحتَ عليه أن يَزورني. جاء إلى فوسي ثلاث مرات، ولكنه جاء مرةً واحدةً فقط إلى المنزل. والتقيتُه مرتَين في الغابة. أخبرَني بالكثير من الأمور الجيدة، ومن بينها أنه لن ينجح في مهمته، وأنك لن تنجح في مهمتك، إلا إذا ساعدتكما. كان يُفكر في أنه إذا ما فُقِدَت امرأة، فامرأة أخرى فقط هي من يُمكنها العثور عليها. وتمكَّن من إقناعي في نهاية المطاف. لقد قلتَ بنفسك يا ديك إن المُربية تتمتَّع بالكفاءة الكافية التي تؤهلها لتولِّي أمر بيتر جون بمفردها، والطبيب جرينسليد ليس بعيدًا عنهما. إنها تُخبرني بأحوالهما كل يوم، وهو على خير ما يُرام وسعيد.»

«لقد أتيتِ إلى لندن. ولكن متى؟»

«يومَ عودتكَ من النرويج.»

«ولكني كنتُ أتلقى خطاباتٍ منكِ بانتظام خلال تلك الفترة.»

«كان هذا ترتيبًا بسيطًا بيني وبين بادوك. لقد أسررتُ إليه بكل شيء. كنتُ أُرسل إليه مجموعة من الخطابات، وكان هو يُرسِل خطابًا واحدًا كل يوم.»

«لا بدَّ أنكِ هنا منذ أسبوعَين إذن. هل التقيتِ ساندي؟»

«التقيتُه مرتَين. لقد رتَّب لي شخصيتي الزائفة، وعرَّفني على شريكي في الرقص، ماركيز دو لا تور دو بين، الذي تدعوه توربين. أظن أني قد مررتُ بأكثر وقتٍ عصيبٍ ومُرهقٍ قد تمرُّ به امرأة على الإطلاق. لقد دخلتُ أوساط الخلاعة، وكان عليَّ أن أكون أكثرهنَّ خلاعة. أتعلَمُ يا ديك؟ أظن أني مُمثلة بارعة! كنت أتحدَّث بصوتٍ حاد، وأُطلق ضحكاتٍ عالية مُبتذلة، وأنظر بعينَين جريئتَين، وعندما كنتُ أرقد في فراشي في الليل، كانت وجنتاي تحمرَّان خجلًا من جرأتي. أعرف أن هذا لن يُعجبك، ولكن لا يمكنك أن تكره ما حدث أكثر منِّي. ولكن كان لا بد من فِعله. لم أستطع أن أكون «متخاذلة»، كما اعتاد السيد بلنكيرون أن يقول.»

«هل حالفكِ الحظ؟»

قالت في إرهاق: «أوه، نعم. لقد عثرتُ على الآنسة فيكتور. وفي الواقع، لم يكن الأمر صعبًا جدًّا. عندما عقدتُ صداقاتٍ مع أولئك الأشخاص الغريبي الأطوار المُعتادِين على ارتياد هذه الأماكن، لم يكن من الصعب تحديد من منهم مُختلف عن الآخرين. كانوا جميعهم مجرد دُمًى، ولكن كانت الدمية التي كنتُ أبحث عنها أكثرهم شبهًا بالدُّمى. كنتُ أبحث عن فتاةٍ بلا عقل أو روح، وعثرتُ عليها. كما أني حصلتُ على دليلٍ بدأتُ من عنده. أوديل.»

«الفتاة ذات الثوب الأخضر.»

أومأتُ بالإيجاب. «لم أكن واثقة منها بالطبع حتى جعلتُ عشيقها يُساعدني. إنه رجل طيب، صديقك الماركيز الفرنسي. لقد أدى دوره ببراعة. لن يُفيد أن نحاول إيقاظ أوديل فيكتور الآن. لم نثِق في أنها ستكون قادرةً على الحفاظ على نفس مظهرها دون إثارة الرِّيبة، حتى يأتي يوم تحرير الرهائن. ولكن ثمة أمر يجب فعله، وتلك هي مُهمتي بالتحديد. لقد أصبحنا صديقتَين، وكنا نتحدث، وجعلتها تتعلق بي قليلًا، كما لو كانت كلبًا يتعلق بصاحبه. وهذا سيوفر لي فرصة إتمام الخطوات المُتبقِّية سريعًا عندما يحين الوقت. لا يمكنك أن تستعيدَ روحًا مختفيةً دفعةً واحدةً إلا بعد أن تُرسي أساسًا ما. علينا أن نكون حذِرين جدًّا، فثمة من يُراقبها عن كثب، ولكني أظن، بل أثق، أن كلَّ شيءٍ يسير حسب الخطة.»

صحت قائلًا: «أوه، أحسنتِ! تلك كانت الرهينة الثانية. ويُمكنني أن أقول لكِ إنني عثرتُ على الرهينة الأولى.» قصصتُ عليها مُلخصًا لما فعلتُ في النرويج. «اثنان من الرهائن المساكين سيخرجان من الأسر على أية حال. إني لأتساءل إن كان يجدُر بنا أن نُخبر فيكتور والدوق بالخبر. من شأن ذلك أن يُخفِّف من قلقهما.»

أجابتني: «لقد فكرتُ في ذلك، ولكن الكولونيل أربوثنوت رفض رفضًا قاطعًا. قال إن هذا قد يتسبَّب في إفساد كل شيء. إنه يأخذ المهمةَ على محمل الجد للغاية. وكذلك أفعل أنا. لقد رأيتُ السيد مِدينا.»

سألتُ في ذهول: «أين؟»

«جعلتُ عمَّتي دوريا تصحبني إلى حفلٍ كان أحد حضوره. لا تقلق. لم أتعرف إليه، ولم يسمع اسمي على الإطلاق. ولكني راقبتُه، وكنت أشعر بخوفٍ لم أشعر به من قبل في حياتي لأني كنتُ أعرف مدى خطورة الموقف. إنه جذاب للغاية؛ لا، ليس جذابًا، بل مُغْوٍ، وهو بارد وقاسٍ مثل الفولاذ البارد. أنت تعلم انطباعاتي عن الناس التي لا يُمكنني تفسيرها؛ تقول إنها لا تخطئ أبدًا. حسنًا، شعرتُ وكأنه إنسان خارق. تنبعث منه الثقة والقوة كأنه إله، ولكنه إله من عالَم ضائع. وأدركتُ أنه، مثل إلهٍ أيضًا، يبتغي امتلاك أرواح الناس. إن طلاح البشر يبدو صلاحًا مقارنةً بفخر هذا الشيطان بشروره. أظن أنني لو كنتُ قادرةً على ارتكاب جريمة قتل، لكانت حياته هي التي أودُّ أن أُنهِيَها. سأشعر حينها بمثل ما شَعَرَتْ به شارلوت كورداي عندما قَتَلَتْ جون بول مارا. أوه، إنني أشعر بالرعب منه.»

قلتُ بحسم: «أما أنا فلا أخشاه، وأتعامل معه عن قُرب أكثر من غالبية الناس.» جعلني مقدار ما حقَّقنا من نجاح أشعر بالثقة.

قالت: «الكولونيل أربوثنوت قلِقٌ عليك. خلال مرَّتَي لقائنا في لندن، لم يتوقف عن الحديث عن ضرورة أن تظل قريبًا منه. أظن أنه كان يريد مني أن أُحذرك. كان يقول إن الطريقة الوحيدة لقتال شخص يمتلك سلاحًا بعيد المدى هي أن تلتحِم معه. ديك، ألم تُخبرني بأن السيد مِدينا اقترح عليك أنه يجدُر بك أن تُقيم معه في منزله؟ شغل هذا الأمر تفكيري طويلًا، وأعتقد أنها الخطة الأكثر أمانًا. فبمجرد أن يرى أنه قد ضَمِن ولاءك، سينسى أمرك.»

«سيكون وضعي عسيرًا للغاية، فلن أتمكن من التحرك بحرية. ولكني مع ذلك أعتقد أنكِ مُحِقَّة. قد تصبح الأمور محمومة للغاية مع اقتراب اليوم الموعود.»

«علاوةً على ذلك، قد تكتشف شيئًا عن الرهينة الثالثة. هذا الصبي الصغير يفطر قلبي. ربما تمكن الاثنان الآخران، يومًا ما، من الهرب دون مساعدة، ولكن إذا لم نعثر على هذا الصغير فسيظل مفقودًا إلى الأبد. يقول الكولونيل أربوثنوت إنه، حتى إذا ما عثرنا على الصبي، فقد يكون من الصعب استعادة عقله إلى حالته الأولى. إلا إذا ... إلا إذا ...»

كان وجه ماري قد تجهَّم، إذا ما أمكن استخدام هذه الكلمة لوصف امرأة بهذه الدرجة من الرقة والوداعة. كانت تضمُّ يدَيها معًا بقوة، وأطلت من عينَيها نظرة شاردة مُتوترة.

هتفت: «سأعثر عليه. اسمع يا ديك. هذا الرجل يحتقر النساء ويُلغيهن من حياته تمامًا، ولكنه قادر على استخدامهنَّ كأدوات. ولكن ثمة امرأة على استعدادٍ للتضحية بكل نفيسٍ وغالٍ في سبيل التغلُّب عليه. عندما أفكر في ديفيد الصغير، يُجَن جنوني ويغزو الإحباط صدري. أنا أخاف من نفسي. ألا تملك أي أملٍ تُمدني به؟»

قلت في كآبة: «لا أملك أي بارقة أمل. ماذا عن ساندي؟»

هزَّت رأسها بالنفي. «إنه صغير للغاية، ذلك الصبي المسكين، ومن السهل إخفاؤه.»

«لو كنا في وسط أفريقيا، كنتُ سأجر مِدينا من عنقه، وأُثبِّته في الأرض بالأوتاد وأظل أُعَذِّب فيه حتى يتقيأ.»

هزَّت ماري رأسها نفيًا مجددًا. «تلك الأساليب عديمة الجدوى في حالتنا هذه. سيسخر منك، فهو ليس جبانًا؛ لا أظن أنه كذلك على الأقل. كما أنه واثق من أنه مَحمِيٌّ بصورةٍ رائعة. هذا بالإضافة إلى أنه مُحصَّن بسمعته الجيدة وشعبيته، وعقله الأكثر ذكاءً من عقولنا جميعًا. يمكنه أن يلقي بتعويذة العمى على العالم بأسره؛ على جميع الرجال، وتقريبًا على جميع النساء.»

جعلني وصول الآنسة ويموندام أنهض لأنصرف. كانت لا تزال غريبة الشكل كعادتها دائمًا، بشعرِها الكثيف المصبوغ بلونَين الذي تكوِّمه فوق وجهها الأبيض الطويل. كانت ترقُص في مكانٍ ما، وبدت منهكةً ومتحمسة في نفس الوقت. قالت لي: «كانت ماري تقضي وقتًا طيبًا. ولا يُمكنني مجاراة شبابها وحيويتها في سنِّي هذه. هل تُقنعها بأن تُغير من تصفيفة شعرها؟ إن تصفيفة شعرها الحالية عتيقة الطراز فيبدو مظهرها بالكامل نشازًا. لقد تحدثت نانسي ترافيرس عن ذلك الليلة. قالت إذا ما غيَّرت ماري من مظهرها بالطريقة الصحيحة، فستكون أجملَ امرأةٍ في لندن. بالمناسبة، لقد التقيتُ صديقك آرتشي رويلانس في بارمينترز. سيتناول الغداء معنا هنا يوم الخميس. هل ستأتي يا ريتشارد؟»

أخبرتُها بأني لستُ واثقًا من خُططي وأني أظن أنني قد أكون خارج المدينة. ولكني رتبتُ الأمور مع ماري قبل انصرافي بأن تترك لي رسائل في النادي تُخبرني فيها بأي مستجداتٍ تأتي من ساندي. بينما كنتُ أسير عائدًا إلى مكان إقامتي، أُصِبتُ بعدوى لوعَتِها على ديفيد واركليف الصغير. كان ذلك هو أثقل الأمور وطأةً في المهمَّة برمَّتها، ولم أرَ أي بادرة أمل فيه، فرغم أن كل شيءٍ آخر كان يسير وفقًا لخطة، ربما لن نتمكن أبدًا من مُعاقبة مِدينا على جرائمه. كلما زاد تفكيري في الأمر، زادت قناعتي بضعف موقفنا القانوني ضده. ربما نتمكَّن من تحرير الرهائن، ولكننا لن نتمكن أبدًا من إثبات أن له علاقة بهم. يمكنني أن أُقدم دليلًا دامغًا ضده بالطبع، ولكن من الذي سيُصدقني ويكذِّبه؟ كما أنه لا يُوجَد أحد يدعم قصتي. فبافتراض أنني اتهمته بالخطف، وقصصت ما أعرفه عن الغازلة الكفيفة، ونيوهوفر، وأوديل، ماذا سيحدث؟ سيسخر العالم منِّي، وربما أضطر لدفع تعويضات كبيرة عن التشهير. كنتُ واثقًا من أن تابعِيه لن يخونوه؛ لا يمكنهم ذلك؛ حتى وإن أرادوا، فهم لا يعرفون أي شيء. لا، كان ساندي مُحقًّا. ربما حقَّقنا قدرًا من النجاح، ولكننا لن ننتصر. ومع ذلك كان النصر وحدَه هو الذي سيمنحنا النجاح الكامل، لأنه فقط عندما نكسر أنفه، وترتعد فرائصه رعبًا، سنتمكَّن من استعادة الصبي الصغير. سِرتُ في الشوارع الخالية ونار اليأس تضطرِم في صدري.

كان ثمة أمر واحد يُحيرني. ماذا كان ساندي يفعل في ذلك المنزل خلف متجر التحف، إن كان هذا هو ساندي حقًّا؟ أيًّا من كان في المنزل لا بد أنه كان على علاقة بالرجل الحزين المكتئب الذي كنتُ أراقبه من وراء باب غرفة النوم. كان هذا الرجل من حاشية مِدينا؛ لم يكن لدَي أي شك في دقة ذاكرتي. هل كان ساندي يتعاون مع شخصٍ من داخل معسكر العدو؟ لم أعرف كيف كان هذا مُمكنًا، فقد أخبرني بأن مِدينا يمثل خطرًا على حياته، وأن فرصة نجاته الوحيدة تكمُن في إقناع مِدينا بأنه خارج أوروبا. عندما ذهبتُ إلى فراشي، كان أمر واحد واضح في ذهني. إذا طلب مني مِدينا أن أُقيم معه في منزله، سأوافق. ربما كان ذلك أكثر أمانًا، ولكني لم أكن أهتم كثيرًا بالأمان، بل أهتم بمدى الفائدة التي ستعود عليَّ. ربما أكتشف شيئًا عن الرجل الحزين المكتئب.

ذهبتُ صباح اليوم التالي للقاء مِدينا، فقد أردتُ أن يعتقد أني لا أطيق الابتعاد عنه. كان مسرورًا للغاية بشأن أمرٍ ما، وقال إنه سيذهب لقضاء يومَين في الريف. جعلني أبقى لتناول الغداء معه، وعندها تمكنتُ من إلقاء نظرةٍ أخرى على أوديل الذي بدا أكثر بدانة. قلتُ لنفسي: «يبدو أن ذهنك يا صديقي لم يعُد يعمل بكفاءته المعهودة. إنك لم

تعُد تساوي وزنك خردةً حتى.» كنتُ آمُل أن يذهب مِدينا في عطلة، فقد كان يتحدَّث عن الأمر كثيرًا مؤخرًا، ولكنه قال: «لا أمَل في ذلك.» كان ذاهبًا إلى الريف من أجل العمل؛ كانت هناك ضيعة، كان هو أحد أمنائها، تحتاج إلى بعض الاهتمام. سألته عن مكانها في إنجلترا، فقال شروبشاير. كان يُحب هذا المكان وواتته فكرة أن يشتري منزلًا هناك عندما يُصبح لدَيه المزيد من وقت الفراغ.

قادني هذا الموضوع إلى الحديث عن شِعره. دُهِش عندما عرف أني كنتُ أدرس كتيباته، ورأيتُ أنه اعتبر ذلك دلالةً على إخلاصي له. ذكرتُ بعض التعليقات المُتملِّقة عن مناقب أشعاره، وقلتُ إن الجهلة أمثالي حتى، يُمكنهم رؤية مدى براعتها. كما قلتُ إني أراها حزينة إلى حدٍّ ما.

قال: «حزينة! إننا نعيش في عالَمٍ أحمق يا هاناي، وعلى مَن يتمتع بالحكمة أن يحافظ على سعادته. يفقد النصرُ بعضًا من متعته عندما يتحقق على حساب الحمقى.»

ثم سألَني عما يؤخِّرني. «لقد أخبرتك منذ أسابيع أني أريدك أن تأتي لتُقيم معي في منزلي. وها أنا أُكرر عرضي لك، ولن أقبل الرفض.»

تلعثمت قائلًا: «هذا كرم كبير منك. ولكن، ألن أُعيق حركتك؟»

«لا، على الإطلاق. فالمنزل، كما ترى، واسعٌ كأنه ثكنة عسكرية. سأعود من شروبشاير يوم الجمعة، وأتوقَّع منك أن تنتقِل للسكنى هنا مساء الجمعة. وربما نتناول العشاء معًا.»

كنتُ مسرورًا، فقد منحني هذا مهلةً ليومٍ أو اثنين لأضع خطة. غادر مِدينا المدينة عصر ذلك اليوم، وقضيتُ أنا أمسيةً مفعمة بالقلق. كنت أريد أن أكون مع ماري، ولكن بدا لي أنه كلما قلَّت لقاءاتنا، كان أفضل. كانت ماضيةً قُدُمًا في تنفيذ مهمتها، وإن ظهرتُ أنا في الوسط الذي تتعامل معه، فقد أُخرِّب كل شيء. لم يكن اليوم التالي أفضل من سابقه؛ فقد كنتُ في الواقع أتوق لعودة مِدينا حتى أشعر بأنني أفعل شيئًا ما، فلم يكن هناك أي شيءٍ لأفعله، وعندما أكون عاطلًا، تغزو الأفكار عن ديفيد واركليف ذِهني لتُعذبني. ذهبتُ إلى هامبتون كورت وأخذتُ جولةً طويلةً على ضفة النهر سيرًا على قدمَي؛ ثم تناولتُ الغداء في النادي، وجلستُ في غرفة التدخين الخلفية الصغيرة، مُتفاديًا أي شخصٍ أعرفه، ومحاوِلًا أن أقرأ كتابًا عن الترحال في شِبه الجزيرة العربية. غفوتُ جالسًا في مقعدي، واستيقظتُ في حوالي الحادية عشرة والنصف، وكنتُ أجرُّ قدمَيَّ جرًّا نحو الفراش عندما أتى خادمٌ وأخبرني بأن هناك من يريد التحدُّث إليَّ عبر الهاتف.

كانت ماري؛ كانت تتحدَّث من شارع جريت تشارلز، وكان صوتها حادًّا وقلقًا.

قالت لاهثةً: «لقد وقعَت حادثة مؤسِفة يا ديك. هل أنت وحدك؟ هل أنت واثق من أن لا أحد بجوارك؟ لقد أفسد آرتشي رويلانس كل شيء. لقد أتى إلى المرقص الليلة، وكانت أديلا فيكتور موجودة، ومعها أوديل. كان آرتشي قد رآها من قبل، كما تعلم، ولا بد أنه انجذب لها بشدة. لا! لم يتعرف عليَّ، فعندما رأيتُه، وقفتُ بعيدًا. ولكن لا شك في أنه تعرَّف على الماركيز. كان يُراقِص أديلا، وأظن أنه قال لها شيئًا لا يليق؛ على أية حال جعل نفسه مُلفتًا للنظر. ونتيجة هذا، تقدم أوديل نحوهما ليأخذها بعيدًا؛ أظن أنه يتشكَّك في أي أحدٍ على شاكلة آرتشي، ووقع بينهما شجار. لم يكن المرقص مزدحمًا، حوالي دزينة من الزبائن فقط، وأغلبهم من الأشقياء. سأل آرتشي عن الحقِّ الذي يُخَوِّل أوديل أن يسحب الفتاة بعيدًا، ففقد أعصابه، واستُدعي مدير المكان، الرجل ذو اللحية السوداء. دعم المديرُ أوديل، فأقدم آرتشي على تصرُّفٍ غبي للغاية. قال إن اسمَه هو السير أرتشيبالد رويلانس، وإنه لن يسمح ليهودي أن يُملي عليه ما يفعل، والأسوأ أنه قال إنه صديق الماركيز دو لا تور دو بين، وإنه سيتفق معه على إغلاق هذا العرض، وإنهما لن يتركا فتاةً مسكينةً تتلقى الأوامر من مُتنمِّرٍ أمريكي حقير. لا أعلم ما حدث بعد ذلك. كان النساء يَجرين خارج المكان، وكان عليَّ أن أحذو حذوهن. ولكنها مشكلة عويصة يا ديك. لست قلقةً على آرتشي، رغم أنه ربما يكون قد أُوسِع ضربًا، بل على الماركيز. إنهم بلا شك يعلمون من يكون، وكل شيءٍ عنه، ويتذكرون علاقته بأديلا. ولا شك في أنهم سيستخدِمون طريقةً مريعةً ليتأكدوا من أنه لن يُعرضهم للخطر مجددًا.»

صرختُ قائلًا: «يا إلهي، يا لها من كارثة! ماذا بيدي أن أفعل؟ لا يُمكنني التدخل!»

أتاني صوتها مُترددًا يقول: «لا. أظن أنه لا يمكنك ذلك. ولكن يمكنك أن تُحذِّر الماركيز، إن لم يكن شيء قد حدث له بعد.»

«فرصة تحذيري له ضئيلة. أولئك الأشخاص لا يُضيعون وقتًا. ولكن، اذهبي إلى فراشكِ، ونامي يا عزيزتي. سأبذل أقصى ما في وسعي.»

كان أقصى ما في وسعي في تلك الساعة من الليل محدودًا للغاية. اتصلتُ بمنزل فيكتور، وكما توقعتُ لم يكن توربين قد عاد بعد. ثم اتصلتُ بمنزل آرتشي في شارع جروسفينور، وجاءتني الإجابة نفسها عنه. لم أكن سأستفيد شيئًا من ذهابي إلى أزقة ماريلبون، فذهبتُ إلى فراشي وقضيتُ ليلةً مريعة.

وفي ساعة مبكرة للغاية من صباح اليوم التالي، وصلتُ إلى شارع جروسفينور، وحصلتُ على بعض الأخبار. فقد تلقى خادمُ آرتشي اتصالًا من أحد المستشفيات مفادُه

أن سيده تعرض لحادث، ويطلبون منه الحضور وإحضار بعض الملابس. فأعدَّ حقيبة، واتجهنا معًا إلى المستشفى على الفور، ووجدنا آرتشي المسكين راقدًا في الفراش، وكان من الناحية الرسمية ضحية حادث سير. لم تكن حالته تبدو بالغة السوء، ولكن وجهه كان في حالة يُرثى لها، فكانت ثمة هالات زرقاء حول عينَيه وضمادة تُغلف فكه، وعندما غادرَت المُمرِّضة الغرفة، التفتَ نحوي.

وقال بصوتٍ أشبه بالصفير من بين أسنانه المُحطمة: «لعلك تذكر ما قلتَه عن الملاكم ذي أزرار الأكمام الماسية. لقد تشاجرتُ معه ليلة أمس وأوسَعني ضربًا. لا يُمكنني أن أجاري ملاكمًا محترفًا، وأبطأتني ساقي المُصابة.»

قلت: «لقد ورطتَ نفسكَ في الشجار ولكنك تصرفتَ بنُبل. ما الذي جعلك تتشاجر في مرقص؟ لقد جعلتَ موقفي في المهمة التي أتولَّاها عصيبًا.»

سألني: «ولكن كيف؟» ولكن منعته الضمَّادة على فكه، التي كادت تسقط، من مواصلة الحديث.

فقلت له: «لا تشغل نفسك بالكيفية حاليًّا. أريد أن أعرف ما حدث بالضبط. إن الأمر أهم بكثير مما تظن.»

قصَّ عليَّ القصة نفسها التي سمعتُها من ماري، ولكن مُطَعَّمة بكثير من العنف. أنكر أنه أفرط في تناول الشراب أثناء العشاء؛ «لم أشرب إلا كوبًا صغيرًا من الويسكي والصودا، وكأسًا واحدةً من الخمر.» كان يبحث عن الفتاة ذات الثوب الأخضر منذ فترة، وعندما وجدها، لم يكن ليفوِّت فرصة التعرف إليها. «فتاة صغيرة حزينة لا يُمكنها أن تدافع عن نفسها بأي شيء. لقد تعرضَتْ للاستغلال بقسوةٍ من قِبَلِ بعض الخنازير، يُمكنك أن ترى ذلك في عينَيها، وأظن أن الملاكم هو الجاني. على أية حال، لم أستطع تحمُّل أن يأمرها وكأنها أَمَة. فأخبرتُه بذلك، ثم ظهر رجل ذو لحية سوداء وبدآ يتشاجران معي. ثم ارتكبتُ فعلًا أحمق لعينًا. حاولتُ أن أجعلهما يتراجعان بإخبارهما بهويتي، وكان توربين موجودًا، فذكرتُ اسمه أيضًا. كان تصرفًا دنيئًا منِّي، ولكني تصورتُ أن لقب ماركيز سيُخيف تلك المجموعة.»

«هل شارك في العراك؟»

«لا أعرف؛ أظن أني رأيتُ من يجرُّه من رقبتِه في البداية. على أية حال، وجدتُ نفسي في مواجهة الملاكم، واسودَّت الدنيا أمام عيني، وكنتُ أُفضِّل لو تعاركتُ مع دزينة من الرجال. لم أبقَ إلا جولةً واحدة، فقد أعاقتني ساقي المُصابة، على ما أظن. كِلْتُ له لكمةً أو

لَكْمَتَين على وجهه القبيح، وأظن أنه كَالَ لي لكمةً قاضية. بعد ذلك، لا أذكر أي شيءٍ مما حدث حتى أفقتُ في هذا الفراش شاعرًا وكأني خرجتُ من مفرمة. يقول الناس هنا إنني أُحضِرتُ بواسطة شرطيَّين، ورجل يقود سيارة قال إنني ارتطمتُ بمقدمة سيارته عند ناصية أحد الشوارع وآذيتُ وجهي. كان الرجل شديد القلق عليَّ، ولكنه رفض ذِكر اسمه وعنوانه. كرمٌ زائدٌ من عمال النظافة أن يبذلوا قصارى جهدهم لعدم انتشار الفضيحة. ديك، هل تظن أن هذا الخبر قد يصل إلى الصحف؟ لا أريد أن يتصدَّر خبر تورُّطي في هذا الشجار السوقي عناوين الصحف، فأنا أفكر في الترشح للبرلمان.»

«لا أعتقد أنك ستسمع كلمة أخرى عن هذا الأمر، إلا إذا أفرطتَ أنت في الحديث عنه. اسمع يا آرتشي، عِدني أنك لن تقترِب من هذا المكان مجددًا أبدًا، ولن تبحث عن الفتاة ذات الثوب الأخضر تحت أي ظرف. سأُخبرك بأسباب طلبي هذا يومًا ما، ولكني أريدك أن تثق في أنها أسباب وجيهة. ثمة أمر آخر. عليك أن تبتعِد عن توربين. كل ما آمُله هو ألا تكون قد تسببت له الليلة الماضية في ضررٍ لا يمكن إصلاحه بسبب حماقتك.»

حاول آرتشي باستماتة تبرير موقفه. فقال: «أعلمُ أني تصرفتُ بدناءة. سأذهب إلى توربين بمجرد أن أخرج من هنا وأعتذِر له. ولكنه بخير، أنا واثق من ذلك. لم يكن يسعى إلى الشجار مثلي. أظن أنه طُرِدَ إلى الشارع ولم يستطع الدخول مجددًا.»

لم أُشارك آرتشي تفاؤله، وسرعان ما تحولَتْ مخاوفي إلى يقين. خرجتُ من المستشفى إلى شارع كارلتون هاوس تيراس مباشرةً، ووجدتُ السيد فيكتور يتناول إفطاره. وعرفتُ أن الماركيز دو لا تور دو بين كان يتناول عشاءه في الخارج ليلة أمس، ولم يعُد منذ ذلك الحين.

الفصل الخامس عشر

اكتشاف نبيل فرنسي للخوف

سمعت القصة التي سأُدونها الآن من توربين مرتَين، الأولى قبل أن يفهم أغلب أحداثها، والثانية بعدما فهم بعضًا من أحداثها، ولكني أشكُّ في أنه سيتمكن من استيعاب ما حدث له بشكلٍ كامل حتى يوم مماته.

لم تسنح لي الفرصة لتعريفكم بتوربين كما ينبغي، ولستُ واثقًا من أن أوان فعل ذلك قد فات على أية حال. كنتُ معجبًا بهذا الرجل الفرنسي كثيرًا، ولكني أعتقد أنه لا يوجَد عِرق على الأرض أصعب في فهمه على البريطاني العادي من هذا العِرق. فيما يخصُّني، يُمكنني فهم الجندي الألماني السابق بسهولة. كنت أعلم أنه شجاع مثل المُقاتلين الوحشيين، ومتهور للغاية، ولكنه يمتلك تلك الحكمة الداخلية التي ورثها عن أسلافه اللاتينيين والتي تجعل تهوُّره أقل خطورة من الإنجليز على المدى الطويل. كان سريع الانفعال، وحادَّ المزاج، ومبدعًا، ويجدُر بي القول بشكلٍ عام إنه سريع التأثر بالمؤثرات مثل تلك التي يستخدمها مِدينا. ولكني حذَّرتُه مسبقًا. وأخبرته ماري بالخطوط العريضة للمهمة، وكان يؤدي الدور الذي حدَّدَتْه له ماري بطاعةٍ تامة كأنه طفل مهذب. ولكني أخطأت في تقدير قدرته على التحكُّم في انفعالاته. لقد رأى الفتاة التي يُحب تعيش حياةً مُهينة، ولا شك في أنه كان يُعذبه ألا يفعل شيئًا لإنقاذها. ولكنه لم يُحاول أن يُعيد لها ذاكرتها، بل انتظر أوامر ماري في طاعة، وأدَّى دور الراقص المُدعي الأبله ببراعةٍ تُقارب الكمال.

عندما بدأ العراك مع آرتشي، وبدأ الجميع يركضون من حوله، شعر أنه يجدُر به ألا يشارك. ثم سمع آرتشي يذكر اسمه الحقيقي، وأدرك ما سيُسببه ذلك من خطر، فلم يكن ثمة أحد يعرفه سوى ماري، فكان معروفًا باسم السيد كلود سيمون من بوينس أيرس. عندما رأى صديقه يواجِه الملاكم، انطلق دون أن يشعر لمساعدته، ولكنه توقف في الوقت

المناسب واستدار ليعدو نحو الباب. كان الرجل ذو اللحية السوداء يُحدق فيه، ولكنه لم يقل شيئًا.

بدا أن ثمة الكثير من الهرج والمرج عند قاعدة الدرج. أمسكَت واحدة من الفتيات بذراعه. وهمست له: «هذه الطريق غير مناسبة. ثمة معركة تدور هناك. ثمة طريق أخرى إلى الخارج. لا تُريد أن يتصدَّر اسمك عناوين الصحف غدًا.»

تبعها إلى ممرٍّ جانبي صغير كان خاليًا تقريبًا ومُظلمًا تمامًا، وهناك تَركَته. كان على وشك البدء في البحث عنها عندما رأى رجلًا لاتينيًّا ضئيل الحجم كان يعرف أنه أحد السُّقاة. قال الرجل: «اصعد الدَّرَج يا سيدي. ثم انحرف في الممر الأول ناحية اليسار، ثم اهبط الدرج. وستخرج في فناء مرآب أبوللو. أسرع أيها السيد قبل أن تصِل الشرطة.»

أسرع توربين صاعدًا الدَّرَج الخشبيَّ الشديد الانحدار، ووجد نفسه في ممرٍّ آخر مضاء جيدًا يوجَد باب عند كِلا طرفَيه. اختار الباب ناحية اليسار وحاول فتحه مُتسائلًا كيف سيستعيد قبعته ومعطفه، وماذا حدث لماري. انفتح الباب بسهولة، وبسرعة خطا خطوتَين للأمام. أُغلِق البابُ من خَلفِه، ووجَد نَفسَه في ظلامٍ دامس، فاستدار إلى الخلف ليفتَحه مجددًا ليحصل على بعض الإضاءة. ولكنه لم ينفتح. وبانغلاق هذا الباب، أصبح معزولًا عن العالم.

في البداية شعر بالغضب، ولكن بعد قليل، بعدما أدرك موقفه، أصبح قلقًا قليلًا. بدا المكان صغيرًا، ومُظلمًا تمامًا، ومكتومًا كأنه داخل خزانة. كانت الفكرة الرئيسية التي تدور في ذهنه في تلك اللحظة هي أن موضوع إلقاء القبض عليه وسط مشاجرةٍ في مرقص لن يكون مفيدًا لسمعته، فقد ذكر آرتشي بغبائه اسمَه الحقيقي، وربما كان الضرر الناتج عن ذلك شديدًا. ولكنه سرعان ما أدرك أنه خرج من خطرٍ ليتورَّط فيما كان على الأرجح خطرًا أسوأ. كان محبوسًا في خزانةٍ لعينة في منزلٍ يعلم جيدًا أن يخصُّ مجموعة من عتاة الإجرام.

بدأ يتحسَّس مُحيطه، ووجد أن المكان أكبر مما كان يظن. كانت الجدران عارية، وبدا أن الأرضية غير مفروشة، ولم يكن ثمة أي أثاث من حوله، ولم تكن ثمة نوافذ، وفقًا لما تمكَّن من رؤيته. لم يتمكن من العثور على الباب الذي دخل عبره، والذي لا بد أنه رُكِّبَ ليكون بنفس مستوى الجدران تمامًا من الداخل. بعد هنيهة أدرك أنه يتنفَّس بصعوبة، الأمر الذي سبب له الذعر، فدائمًا ما كان يرى أن الخوف من الاختناق هو الرعب الوحيد الذي لا يمكن لأي إنسانٍ أن يتخلَّص منه مهما بلغت شجاعته. كان يتنفس بصعوبة

وكأنه دفن وجهه بقوة في وسادة. ثم تمالك نفسه بصعوبة، فقد أدرك أنه إذا ما ترك نفسه للهستيريا، فسيختنِق بسرعة أكبر.

ثم يقول إنه شعر بيدٍ تضغط على فمه. لا بد أنها تهيؤات، فقد أقر بأن المكان كان خاليًا، ولكن اليد عادت لتضغط على فمه المرة تلوَ الأخرى، يد كبيرة ناعمة تحمل رائحة الورود. بدأت أعصابه تفور، ولم تعد ساقاه قادرتَين على حملِه. هبطت عليه سحابة من الورود، وبدا أن تلك اليد المريعة المترهلة، التي بدت في ضخامة تل، كانت تخنقه. حاول أن يتحرك، أن يبتعِد عنها، وقبل أن يُدرك ما حدث، وجد نفسه راكعًا على ركبتَيه. حاول جاهدًا أن ينهض واقفًا على قدمَيه، ولكن كانت اليدان تضغطان عليه وتُثبِّتانه أرضًا، واكتنفته تلك الرائحة الحلوة المُثيرة للغثيان التي لا تُحتمَل، بين طياتها الكريهة. ثم فقد وعيَه.

لا يعرف كم بقي فاقدًا للوعي، ولكنه يظنُّ أنه ظلَّ كذلك ساعات عدة. وعندما استعاد وعيَه، لم يعُد داخل الخزانة. كان راقدًا على أريكة في غرفةٍ شعر برحابتها، فقد تمكن من التنفُّس جيدًا، ولكن كان الظلام لا يزال دامسًا وكأنه في قاع بئر. كان يشعر بصداعٍ قوي، ويشعر بأنه يريد التقيؤ وبأنه أبلَهُ مثل بُومة. لم يتمكن من تذكُّر كيفية وصوله إلى هنا، ولكن عندما سقطت يدُه على صدر قميصه، وكان لا يزال يرتدي ملابس السهرة، تذكر صياح آرتشي. كان هذا آخِر ما يتذكَّره بوضوح، وأفاقته هذه الفكرة، فقد ذكرته بالخطر الكبير المُحدق به. أخبرَني أنه في البداية كاد يختنق من الذعر، فقد كان يشعر بضعفٍ مُثير للاشمئزاز؛ ولكنه كان لا يزال يمتلك تعقلًا كافيًا جعله يسيطر على أعصابه. ظل يردِّد لنفسه: «يجب أن تكون رجلًا بحق. حتى إذا تعثرتَ وسقطتَ في الجحيم، يجب أن تكون رجلًا بحق.»

ثم سمع صوتًا يتحدَّث وسط الظلام، وبسماعه لهذا الصوت، اختفى أغلب ما كان يشعر به من ذُعر. لم يكن صوت شخص يعرفه، ولكنه كان صوتًا جميلًا، وكان يتحدث إليه بالفرنسية. لم تكن فرنسيةً عادية، بل اللكنة الفرنسية التي يتحدثها أهله في الوادي في جنوب البلاد، تلك اللهجة المليئة بالإدغامات السلسة الخاصة بمنطقة نشأته. بدا أن الصوت يُخفف عنه الصداع والدوار، ويُهدئ جميع أعصابه المتوترة، ولكنه كان يزيد من ضعفه. كان واثقًا من ذلك. كان هذا الصوت الودود يُعيده طفلًا من جديد.

لم يتذكَّر بوضوح ما قاله هذا الصوت. يظن أن الصوت ذكَّره بحياته خلال طفولته، القلعة القديمة التي تقع في منطقةٍ منعزلة فوق تلال الحجر الجيري، وأشجار الكستناء

المكسوة بالريش في قاع الوادي، والبرك ذات المياه الصافية حيث تعيش أسماك السلمون الضخمة، وفصول الشتاء المكسوة بالثلوج عندما تخرج الذئاب من الغابة وتصل إلى أبواب المزارع، وفصول الصيف الحارة عندما يكون لون الطرق أبيض مُبهرًا للأعيُن، ويتحول العشب النامي على سفوح التلال إلى اللون الأصفر مثل الذرة. كانت تلك الذكريات مُختلطة، وأيًّا كان ما يقوله الصوت، كان تأثيره أقرب إلى عذوبة الموسيقى من الكلمات المنطوقة. كان للصوت تأثير مُهدئ خفَّف من اضطراب نفسه، لكنه سلبَه رجولته. كان يتحوَّل تدريجيًّا إلى عاجزٍ ذليل، وبليد مثل طفل ضعيف.

توقف الصوت عن الحديث، وشعر برغبة عارمة في النوم. وفجأة، بينما كان بين النوم واليقظة، رأى ضوءًا، نجمًا يلمع أمامه وسط الظلام. زاد لمعان النجم ثم خبا، ولم يتمكَّن من إبعاد عينَيه عنه. كان يُدرك في ثنايا عقله أن ثمة أمر شيطاني يحدُث، أمر يجب أن يُقاومه، ولكنه لم يتمكن من تذكر سبب شعوره هذا.

اتسع الضوء حتى أصبح شبيهًا بتلك الدائرة التي يصنعها جهاز عرض الصور على الشاشة. وبدأت رائحة غريبة تعبق الهواء من حوله، ليست رائحة الورد المَقيتة تلك، بل رائحة حريفة نفاذة حيَّرَتْه كونها مألوفة. أين شمَّها من قبل؟ ببطء بدأ يتشكل منها عالَم كامل من الذكريات.

كان توربين قد خدم قبل الحرب لبضع سنواتٍ في أفريقيا ضمن الجيش الاستعماري برُتبة ملازم في وحدة الصبايحية، وخرج ضمن العديد من البعثات الهندسية والعسكرية إلى الصحراء جنوب الحدود الجزائرية. لطالما كان يتفاخر أمامي بتلك الأيام الغابرة المجيدة، ذلك الشاب الذي لم يعُد من هناك. كانت هذه الرائحة هي رائحة الصحراء، الصحراء التي لا يمكن نسيانها أو ترويضها، والتي تمتدُّ من البحر المتوسط حتى غابات وسط أفريقيا، المكان الذي هام فيه يوليسيس على غير هدًى، عندما كان بحرًا، المكان حيث لا يزال سحر سيرسي وكاليبسو مُقيمًا، بقدْر ما يعلم العالم.

ووسط هالة الضوء، ظهر وجه، وجهٌ يسقط عليه الضوء بتركيز شديد لدرجة أن جميع خطوطه الظاهرة والخفية أصبحت أكثر وضوحًا. كان وجهًا يحمل ملامح شرقية، وجهًا عربيًّا نحيلًا بارز الوجنتَين ذا عينَين مسحوبتَين بصورة غريبة. لم يكن قد رآه من قبل، ولكنه الْتقى شيئًا مشابهًا عندما كان منخرطًا في السحر البدائي الصحراوي، والقُدور التي تفور ونيران الأعشاب الخضراء. كان في البداية وجهًا فقط، يختفي نصفُه، ثم بدا وكأنه يتحرك حتى ظهرت العينان، كما لو أن أنوارًا أُضيئت فجأة ليلًا بينما ينظر المرء إلى منزلٍ غارق في الظلام من الخارج.

شعر في أعماق كيانه بشعور كاد ينساه، بسحر ورعب الصحراء. كان وجهًا قاسيًا غير بشري، يعلم الربُّ وحدَه ما يُخفيه من أهوال وآثام عتيقة، ولكنه كان حكيمًا كأبي الهول وسرمديًّا كالصخور. بينما كان يُحدق في الوجه، بدا وكأنه يسيطر عليه ويُغلفه، وعلى حدِّ وصفه، يمتصُّ روحه من جسده.

لم يُخبره أحد عن خاراما. كان هذا هو الخطأ الوحيد الذي ارتكبَته ماري، وكان من الطبيعي أن يحدث، فلم يكن من المُرجَّح أن يلتقي بالرجل الهندي. ومن ثم، لم يكن عقله المسكين المشوش يملك أي شيءٍ لمساعدته في مقاومة هذا الكيان المُسيطر. ولم يحاول أن يفعل. قال إنه شعر أنه يسقط في سُباتٍ لذيذ، مثل غيبوبة تزحف على عقل إنسان يتجمَّد حتى الموت.

لم أتمكن من حمل توربين على تذكُّر إلا القليل مما حدث تاليًا. تحدث الوجه إليه، ولكنه لا يعلم إن كان قد تحدث إليه باللغة الفرنسية أم بلُغة أفريقية ما — كان يعتقد أنها الفرنسية — ولكنه واثق من أنها لم تكن الإنجليزية. فهمتُ مما قال أن العينَين والملامح كانت مهيبة لأقصى درجة، بينما كان الصوت ودودًا غالبًا. أخبرتُه أنه كان في خطر مُحدق، وأن الأمل الوحيد في النجاة يكمن في الاستسلام التام. إن حاول أن يتصرف بإرادته الحرة، سيهلك، وستوقظه مؤشرات كافية، عما يَعنيه هذا الهلاك، من سُباته وتُدخله في نوباتٍ من الفزع الطفولي. قال الصوت: «جسدك ضعيف ولا يقوى على الحركة، فقد وضع الله يدَه عليه.» وأدرك توربين فعليًّا أنه لا يملك قوة هُريرة حتى. «لقد سلمت إرادتك إلى الله حتى يعيدها هو إليك.» كان هذا أيضًا حقيقيًّا، فلم يكن توربين قادرًا على استحضار طاقة تُمكنه من تمسيد شعره، إلا إذا أُمر أن يفعل. قال الصوت: «ستكون في أمانٍ طالما ظللتَ نائمًا. ستظلُّ نائمًا حتى آمُرك بأن تستيقظ.»

ربما نام بالفعل، فقد كانت ثمة فجوة كبيرة في إدراكه. ما تذكَّره تاليًا هو أنه كان يرتجُّ فوق شيء له عجلات، ثم تدحرج فجأة على جانبه عندما انحرفت المركبة في منعطفٍ حاد. لم يستغرق استيقاظه هذه المرة وقتًا طويلًا. وجد نفسه في سيارة كبيرة مُرتديًا معطف المطر، وقُبعته ملقاة على المقعد المجاور له. كان جسده مُسجًّى بطوله الكامل تقريبًا، وكان مسنودًا في وضعية مريحة بوسائد. أدرك كل هذا سريعًا، ولكنه استغرق وقتًا أطول حتى تمكن من تذكُّر الماضي، ثم أصبح كل شيء مشوشًا وغامضًا. كان أكثر ما يتذكَّره بوضوح هو ذلك التحذير الذي يُخبره بأنه في خطرٍ جسيم، وأنه لن يكون في أمانٍ إلا إذا لم يفعل شيئًا. كان هذا التحذير مُنطبِعًا في ذهنه، وأدرك أنه حقيقي بسبب عجز

أطرافه التام عن الحركة. تمكن بشِق الأنفس من أن يقلِبَ جسده من الرقود على جانبه إلى الرقود على ظهره، وكان يُدرك أنه إذا حاول الوقوف على قدمَيه، فسيسقط مكومًا على الأرض. أغمض عينَيه وحاول أن يفكر.

بدأ يستجمع أحداث الماضي تدريجيًّا. فتذكر صياح آرتشي، والأحداث التي سبقت ذلك، وماري، والفتاة ذات الثوب الأخضر. وسرعان ما هبطت عليه الحقيقة كالصاعقة. لقد اختُطف مثل بقية الرهائن، ومُورست عليه الحيل نفسها التي مُورست عليهم. ولكنها لم تؤثر إلا على جسده. عندما أدرك هذه الحقيقة المذهلة، شعر توربين بالفخر. لقد سلبه شيطانٌ ما قوته الجسدية، ولكنه لا يزال يملك روحه، وذاكرته، وإرادته. كان لا يزال يشعر بلمحة مما مرَّ به من خوف، كان الأمر أشبه بفترة النقاهة التالية للإصابة بالأنفلونزا، ولكن لم يُورثه هذا إلا شعورًا بالغضب. من المؤكد أنه لن يسمح بأن يُهزم. لقد أخطأ الخنازير في حساباتهم هذه المرة؛ ربما يرون أنهم جعلوه عاجزًا، ولكنه عاجز يقِظ، وواعٍ، وقوي الإرادة، وسيغتنم أول فرصة تسنح له ليردَّ لهم الصاع صاعَين. رفع غضبه من معنوياته. كان طوال حياته رجلًا مُتفانيًا عندما يُحب، وعنيفًا عندما يكره. كان يكره الألمان، والماسونيين الأحرار، والشيوعيين، ونواب بلده، ومنذ اختفاء أديلا، وجَّه غضبه العارم نحو أشخاصٍ لا يعرفهم؛ والآن أصبح يركز كراهيته كاملة على الأشخاص المسئولين عما حدث الليلة. الحمقى! ظنوا أنهم حصلوا على حمل وديع، بينما كانوا يتعاملون طوال الوقت مع نمر كسيح.

كانت ستائر السيارة مُسدلة، ولكن عبر بعض الحركات الصغيرة المؤلمة، تمكن من رؤية رجل يجلس في المقعد الأمامي المجاور للسائق. وتمكن بالتدريج من أن يرفع طرف الستارة عند يدِه اليُمنى، ورأى أن الليل قد خيم، وأن السيارة تمضي في شوارع عريضة شبيهة بشوارع الضواحي. من صوت هدير المحرك، خمن أن السيارة من نوع رولز رويس، ولكنها ليست من الطرازات الأحدث. بعد قليل لم تعُد سرعة السيارة ثابتة، وأدرك أن السيارة تركت شوارع الضواحي ودخلت طرقًا ريفية. علَّمته جولاته الكثيرة بسيارته الدولاج الكثير عن الطرق المؤدية إلى خارج لندن، ولكن رغم محاولاته، لم يتمكن من تحديد أيٍّ من المعالم المألوفة له. كان القمر قد اختفى خلف الأفق، فافترض أن الوقت قد اقترب من منتصف الليل؛ كانت ليلة معتدلة وصافية، ولم تكن حالكة الظلمة، وتمكن من رؤية حانة وكنيسة، ولكن لم يبدُ أن السيارة كانت تمر بأي قرية. ربما كان السائق يتعمد أن يسلك طرقًا لا يستخدمها الناس عادةً، وتأكدت فكرته هذه بواسطة المنعطفات الحادة والأجزاء ذات الأسطح المختلفة من الطرق.

سرعان ما اكتشف أن جهوده لاستطلاع الطريق مؤلمة للغاية، فتخلى عنها، وشغل نفسه بوضع خطة. لا شك في أنه يجِب أن يؤدي دور الحمَل الوديع. لم تكن هذه المهمة تبدو صعبة بالنسبة له، فلطالما تخيَّل نفسه مُمثلًا. كانت المشكلة تكمُن في حالته البدنية. لم يعتقد أن بنية جسمانية قوية مثل بنيتِه قد تتعرض لضرر دائم من أحداث الليلة. الليلة! لا بد أنه غاب عن الوعي لأكثر من ليلة واحدة، فالشجار الذي تورط فيه آرتشي حدث في وقتٍ قريب للغاية من منتصف الليل. لا بد أنه أصبح في منتصف الليلة التالية. تساءل عما يفكر فيه السيد فيكتور، وماري، وهاناي. أصبح يتعيَّن الآن على هاناي المسكين أن يبحث عن أربعة مفقودين بدلًا من ثلاثة! لقد حصل هؤلاء الشياطين على سجين سيُذيقهم الأَمَرَّين. لا بد أن جسده سيستعيد عافيته قريبًا، إلا إذا أقدموا على خطوات لإبقاء حالته هكذا. جزَّ توربين على أسنانه عندما خطرت له هذه الفكرة. ربما كان من الصعب الاستمرار في تأدية دور الحمل الوديع لفترة طويلة.

ما تذكَّره تاليًا هو أن السيارة انعطفت لتدخل عبر بوابة، ثم تسير في طريق تحفُّه الأشجار على جانبَيه. وبعد دقيقة أخرى، توقفت السيارة أمام باب منزل، وحمله السائق والرجل الآخر الجالس في المقعد الأمامي خارج السيارة، وأدخلاه إلى ردهة. ولكنهما، قبل ذلك، وضعا عصابةً داكنة على عينَيه، وظل مستسلمًا لهما لأنه لم يكن قادرًا على تحريك ذراعَيه أو ساقَيه. شعر بأنه يُحمل صعودًا على درج سُلَّم قصير، ثم عبَرَ ممرًا طويلًا إلى داخل غرفة نوم مُضاءة بمصباح. شعر بأيدٍ تخلع ملابسه عن جسده — بينما ظلَّت عيناه معصوبتَين — وألبسته منامة لم تكن تخصُّه، فقد كانت واسعة وقصيرة للغاية في الوقت نفسه. ثم أُحضر طعامٌ، وقال صوتٌ بلغة إنجليزية إنه من الأفضل أن يتناول طعام العشاء قبل أن يخلد إلى النوم. نُزعت العصابة عن عينَيه، ورأى ظهرَي رجُلَين يختفيان عبر الباب.

لم يكن قد شعر حتى هذه اللحظة بجوع أو عطش، ولكن رؤية الطعام جعلته يُدرك بأنه أصبح مُجوفًا مثل الطبلة. أدار رأسه ورأى أن الطعام موضوع على طاولة بجوار فراشه، وبدَت وجبة شهية مكونة من اللحم البارد والجالانتين، والبيض المخفوق، والسلطة، والجبن، وزجاجة نبيذ أحمر صغيرة. كانت روحه تتُوق إلى الطعام، ولكن ماذا عن أطرافه الواهنة؟ هل هذا نوع تعذيب جديد على شاكلة تعذيب تنتالوس؟

زادت شهيتُه للطعام، ووجد نفسه يتحرك نحوَه كما لو كان آليًّا. كان يشعر بخدَر في سائر جسده، كما لو أن ثمة إبرًا ودبابيس في كل مكان، ولكن من المؤكد أنه أصبح أقل

ضعفًا مما كان في السيارة. فقد تمكن من مدِّ ذراعِه اليُمنى في البداية، وعندما طوى كوعَه ومعصمه، شعر وكأن الحياة بدأت تزحف عائدة إلى جسده. ثم كرَّر الأمر نفسه مع ساقه اليُمنى، وبعد قليلٍ أدرك أنه أصبح قادرًا على الزحف بضعَ بوصاتٍ نحو حافة الفراش. سرعان ما تقطعت أنفاسُه، ولكن لم يكن ثمة شكٌّ في أنه يزداد قوة. مكَّنه شعور مفاجئ بالعطش من أن يُمسك بزجاجة النبيذ، وبعد بضع محاولات فاشلة مع السدادة، تمكَّن من رفع الزجاجة إلى فمه. وتمكن من ملء فمه بالشراب، رغم انسكاب الكثير منه. غمغم قائلًا: «رائع، خمر جيدة مُعتقة. كان سيُصبح من الأفضل لو كانت الزجاجة تحتوي على كونياك.»

ولكن بدا وكأن النبيذ قد بثَّ فيه روحًا جديدة. فقد وجد أنه أصبح قادرًا على استخدام كلتا ذراعَيه، وبدأ يأكل البيض المخفوق بنهَمٍ مبعثرًا الكثير من الطعام على الطاولة. كان يشعر في تلك اللحظة أنه قد استعاد عافيتَه، وبدأ يأكل اللحم البارد، حتى أجبرَه تقلُّص في كتفِه اليسرى على الرقود على ظهره فوق الوسادة. سرعان ما اختفى التقلُّص، وأصبح قادرًا على إنهاء وجبته بسلاسةٍ حتى آخِر ورقة خسٍّ في طبق السلطة، وآخر قطرةٍ في زجاجة النبيذ الأحمر. كان توربين الذي عاد ليرقد على ذلك الفراش هو نفسه ذلك الشاب المفعم بالحيوية الذي قاده القدَر الليلة الماضية إلى ذلك الباب اللعين وسط الظلام. ولكن عقله كان مشوشًا للغاية.

كان يتوق إلى التدخين، ولكن سجائره كانت في جيب ملابس السهرة التي خُلِعَت عنه. فبدأ يفعل مع ساقَيه ما حقَّقه بالفعل مع ذراعَيه، وحقق النتائج المُبهجة نفسها. فكَّر في أنه من الأفضل أن يكتشف إذا ما كان قادرًا على الوقوف أم لا بما أنه بمُفرده. فبدأ يحاول، وتدحرج من على الفراش على الأرض، وصدم رأسه بالطاولة الصغيرة وأسقط الطِّباق على الأرض بِدَويٍّ عالٍ.

ولكنه نجح بعد بضع عثرات في أن يقف على قدمَيه وتمكن من السير ببطء في الغرفة. كان من الجليِّ أنَّ الوهن يُغادر جسده، فبغض النظر عن التيبس الطبيعي في مفاصله، فقد شعر أن عافيتَه عادت إليه. ولكنه لم يكن يعرف ما يعنيه أيٌّ من ذلك. كان يَميل إلى الاعتقاد أنه بطريقةٍ ما وازن الكفة مع أعدائه، وأنه أصعب مِراسًا مما توقعوا. من المؤكد أنهم لم يُسببوا ضررًا لعقله بسحرهم، ويبدو أنهم فشلوا أيضًا في إيذاء جسده. زادت تلك الفكرة من جرأته. كان المنزل هادئًا؛ لِمَ لا يخرج ليستكشفه قليلًا؟

حاول فتح الباب في حذر، ودُهِشَ عندما وجده مفتوحًا. كان الممرُّ مضاءً بمصباح زيتٍ مُعلق، ومفروشًا بسجادة عتيقة الطراز، وزُيِّنَت جدرانه بمجموعة من لوحات

الزهور. فَكَّر توربين في أنه لم يرَ في حياته منزلًا يبدو أكثر براءةً وعائليةً من هذا المنزل. كان يعتبر نفسه سريعًا في رصد أقلِّ دلالات الخطر في أي موقف، ولم يكن ثمة خطر في هذا المكان. خطا خطوة أو خطوتَين في الممر، ثم توقف، فقد ظن أنه سمع صوتًا. نعم، لا شك في ذلك. كان صوت ماءٍ يندفع من صنبور. هناك من يستعدُّ للاستحمام في المنزل.

ثم تسلل عائدًا إلى غرفته في الوقت المناسب. فقد كان ذلك الذي يستعدُّ للاستحمام يقترب بخطواتٍ سريعة ويَصدُر عنه صوت حفيف أقمشة. أغلق باب غرفته عندما مرت الخطوات أمامه، ثم فتحه وأخرج رأسه من فُرجته. رأى رداء نومٍ ورديًّا، ومِن فوقه تبرُز عنق رقيقة وشعر أسود كثيف. كان هو، بالذات، يعرف هذه الهيئة.

بدا أن مكانه هو السرير، فدسَّ نفسه بين الأغطية مجددًا وحاول أن يفكر. كانت أديلا فيكتور في المنزل؛ هذا يعني أنه وقع في أيدي من اختطفوها، وأصبح أسيرًا رابعًا لديهم. ولكن ما الذي دفع هؤلاء المُجرمين اليقظين لأن يضعوهما معًا في السجن نفسه؟ هل هم آمنون للغاية، وواثقون من قوتهم تمامًا، لدرجة أن يُقدِموا على هذه المخاطرة الجنونية؟ أجَّجت غطرستهم الغضب في صدره. وأقسم بكلِّ القديسين أنه سيجعلهم يندمون. سيُحرر المرأة بنفسه حتى وإن كان ذلك يعني أن يُحوِّل المنزل رمادًا وأن ينحر أعناق جميع قاطنيه. ثم تذكر مدى حساسية المهمة، والحاجة إلى فعل ذلك في توقيتٍ مُعين حتى لا يخسروا الرهينتَين الأُخريَين إلى الأبد، وجعلته تلك الفكرة يئنُّ من فرط غضبه.

سمع طرْقًا على باب الغرفة، وعبره رجل ليأخذ طاولة الطعام. كان يبدو خادمًا إنجليزيًّا عاديًّا، بياقتِه المُنشَّاة ومعطفه الأسود الأنيق ووجهه النظيف الخالي من أي تعبير.

قال الخادم: «معذرة يا سيدي، متى تودُّ أن أحضر لك ماءً لحلاقة لحيتك؟ لقد أصبحنا في ساعةٍ متأخرة من الليل، فاسمح لي أن أقترح العاشرة صباحًا.»

وافق توربين، ولم يكد الخادم ينصرف حتى ظهر زائرٌ آخر. كان الزائر رجلًا نحيلًا شاحبًا لم يعتقد أنه رآه من قبل، رجل ذو شعر رمادي ورأس كئيب مُدلًّى. وقف عند طرف الفراش يُحدق في توربين الراقد على الفراش بنظراتٍ ودودة. ثم تحدَّث إليه بالفرنسية بلهجة سكسونية سليمة.

قال: «هل أنت مرتاح يا سيدي؟ مُمتاز. لا تقلق. نحن أصدقاؤك. ليلة سعيدة.»

الفصل السادس عشر

أصبح وقتنا ضيقًا

تناولتُ غدائي ذلك اليوم مع ماري وحدَها، فعمَّتاها سافرتا إلى باريس، وكان من الصعب أن تجد في عموم الجزُر البريطانية زوجَين بائسَين أكثر منَّا. لم يظهر قلق ماري، التي لطالَما كانت مثالًا يُحتذى به في الهدوء، إلا في صورة شحوبٍ في وجهها. أما أنا، فكنتُ مُتململًا كديكٍ صغير.

صِحت قائلًا: «أتمنَّى لو أني لم أشارك في الأمر مُطلقًا. إنني أُسبِّب ضررًا أكثر مما أُسبِّبُه من نفع.»

عارضَتني قائلة: «لقد عثرتَ على اللورد ميركوت.»

«نعم، وفقدتُ توربين. لا يزال الأوغاد مُتقدِّمين علينا بثلاث خطوات. ظننَّا أننا عثرنا على اثنَين من الرهائن، وها نحن نفقد الآنسة فيكتور مجددًا. وتوربين! لن يَجدوه لقمةً سائغةً، وربما يُقدِمون على اتخاذ تدابير عنيفة معه. سيُلازمونه، والفتاة، والصبي الصغير مثل الغراء؛ فما حدث ليلة أمس سيزرع الشكوك في صدورهم.»

قالت ماري المُتفائلة دائمًا: «أشك في هذا. لقد أشركه السير آرتشي في المهمة من أجل مكانته فحسب. بدا غريبًا أنه كان في صحبة أديلا، ولكنه لم يتحدث إليها بكلمةٍ واحدة خلال المرَّات التي رآها فيها. لا بدَّ من أنهم لاحظوا هذا. أنا قلقة على السير آرتشي. يجب أن يُغادر لندن.»

«اللعنة عليه! سيغادر لندن بمجرد أن يخرج من المُستشفى عصر اليوم. لقد أصررتُ على أن يفعل، وكان يريد ذلك على أية حال. لقد وصلَتْه أخبار مؤكدة أن طائر طيطوي أخضر يُعشش في مكانٍ ما. سيكون مُفيدًا أن يُحَوِّل آرتشي انتباهه إلى الطيور. إنه يجد صعوبةً في التعامُل مع أي شيءٍ آخر. والآن، أصبح علينا أن نعود مجددًا إلى نقطة البداية.»

قاطعتني قائلة: «ليس نقطة البداية.»

«قريبون منها. لن يُعيدوا الآنسة فيكتور إلى تلك الحياة مجددًا، وكل عملكِ ذهب أدراج الرياح يا عزيزتي. كان من سوء الحظ غير المُعتاد أنكِ لم تبدئي بإيقاظها، فربما فعلتْ شيئًا بنفسها. ولكنها لا تزال دُمية بين أيديهم، وتأكَّدي أنهم سيُخفونها في مكانٍ لن تتمكَّني من الوصول إليه أبدًا. ولم يتبقَّ لنا إلا ثلاثة أسابيع فقط.»

وافقتْني ماري قائلةً: «إنه حظ عسر. ولكن، ديك، أشعر بأننا لم نفقد أديلا فيكتور. أعتقد أننا، بطريقةٍ أو بأُخرى، سنتمكن من التواصُل معها مجددًا. لعلك تذكُر كيفية تصرُّف الأطفال عندما يفقدون كرةً؛ يرسِلون كرةً أخرى في إثر الأولى على أمَل أن تعثر إحداهما على الأخرى. حسنًا، لقد أرسلنا الماركيز في إثر أديلا، وأشعر أننا سنعثر عليهما معًا. لطالما فعلنا ذلك ونحن أطفال.» صمتَت بعدما قالت كلمة «أطفال»، ورأيتُ الألمَ باديًا في عينَيها. «آه، ديك، الصبي الصغير! إننا لم نقترِب حتى من معرفة مكانه، وهو أكثر من يعتصِر قلبي من الرهائن.»

كنتُ فاقدًا الأمل تمامًا، فلم أتمكَّن من قَول أي شيءٍ للتخفيف عنها.

ثم صِحْتُ قائلًا: «وممَّا يزيد الطين بلَّة، أنه يتعيَّن عليَّ أن أذهب للإقامة في منزل مِدينا بدايةً من الليلة. أكرَه هذه الفكرة كثيرًا.»

قالت: «إنها آمَن طريقة.»

«نعم، ولكنها تمنعني عن المشاركة. سيُراقبني مثل الصقر، ولن أتمكن من أن أُقدِم على خطوةٍ واحدة بمُفردي، كل ما سأفعله هو أن أجلس في مكاني آكُل وأشرب وأتملَّق غروره. يا إلهي، أُقسِم أني سأتشاجر معه وأكسر رأسه.»

«ديك، ألن تستطيع أن — كيف تقول هذا؟ — تتمالك نفسك؟ الأمر كله يعتمد عليك. أنت كشافنا داخل مقر قيادة العدو. وحياتك تعتمد على أداء دورك ببراعة. قال الكولونيل أربوثنوت ذلك. كما أنك قد تكتشِف شيئًا مذهلًا. قد يكون الأمر سيئًا لك، ولكنه لن يستمرَّ طويلًا، كما أنه الطريقة الوحيدة لننتصِر.»

هذه هي ماري التي أعرفها. كان جسدها يرتجِف من فرط قلقِها عليَّ، ولكنها كانت مِقدامةً لا ترتضي بالخيارات اليسيرة.

أضافت قائلة: «ربما تتوصَّل إلى معلوماتٍ عن ديفيد واركليف.»

«أتمنَّى أن أفعل. لا تقلقي يا حبيبتي. سألتزم بأداء دوري. ولكن اسمعي، علينا أن نضع خطة. سأكون معزولًا عن العالَم بشكلٍ أو بآخر، ويجب أن تكون لدَي قناة اتصال

مفتوحة. لن يُمكنكِ أن تتَّصلي بي في ذلك المنزل، ولن أجرؤ على أن أتَّصِل بكِ من هناك. فرصتنا الوحيدة هي النادي. إذا كانت لديكِ أي رسالة، اتَّصلي بكبير الحراس واطلُبي منه أن يُدونها. وسأرتِّب معه أن يحتفظ بالرسائل سرًّا، وسأذهب لآخُذها منه عندما تُتاح لي الفرصة لذلك. وسأتَّصل بكِ من وقتٍ لآخر لأُعلِمك بأحدث المُستجدات. ولكن يجب أن أكون حذرًا للغاية لأنه من المُرجَّح أن مِدينا سيُراقبني عن كثب. هل أنتِ على تواصُل مع ماكجيليفراي؟»

أومأت برأسها بالإيجاب.

«ومع ساندي؟»

«نعم، ولكن الأمر يستغرق بعض الوقت؛ يومًا على الأقل. لا يُمكننا التواصُل بطريقة مباشرة.»

«حسنًا، إليكِ الخطة. أنا سجين، ولكني أمتلك مهارات. أنا وأنتِ يُمكننا أن نتواصل بطريقةٍ ما. وكما قلتِ، لم يتبقَّ لنا إلا ثلاثة أسابيع أخرى.»

«لن نتمكَّن من تحقيق أي شيءٍ إذا لم يكن لدَينا بعض الأمل.»

«تلك هي الحياة يا عزيزتي. علينا أن نمضي حتى النهاية على أمل أنَّ الحظَّ سيتغير في الدقائق العشر الأخيرة.»

وصلتُ إلى شارع هيل بعد موعد الشاي ووجدتُ مِدينا جالسًا في غرفة التدخين الخلفية، يكتب خطابات.

قال: «عزيزي هاناي، تصرَّف وكأنك في بيتك. ثمة علبة سيجار على هذه الطاولة.»

سألته: «هل قضيتَ وقتًا جيدًا في شروبشاير؟»

«بل سيئًا. قدتُ سيارتي عائدًا إلى هنا هذا الصباح، وانطلقتُ في ساعةٍ مبكرةٍ للغاية. تطلَّبَ منِّي عملٌ مضنٍ انتباهي كاملًا. معذرةً، ولكني سأتناول عشائي في الخارج الليلة. يتكرَّر الأمر نفسه كلما أردت لقاء أصدقائي، تحدُث فورة عمل مفاجئة.»

كان مِضيافًا للغاية، ولكن أسلوبَه لم يكن يحوي الأريحية التي اعتاد على أن يَمتلكها. كان يبدو وكأنه على وشكِ الانفجار بسبب أمرٍ ما، ومنشغل الفكر كذلك. خمنتُ أنه ربما يُفكر في أمر آرتشي رويلانس وتوربين.

تناولتُ عشائي بمفردي وجلستُ بعد العشاء في غرفة التدخين، لأن أوديل لم يقترح عليَّ مُطلقًا أن أجلس في المكتبة، ولكنِّي كنتُ على استعداد للتضحية بالكثير في مقابل استكشاف هذا المكان. نمتُ وأنا أقرأ مجلة «فيلد»، وأيقظَني مِدينا في حوالي الحادية

عشرة. كاد أن يبدو مرهقًا، وهو أمر نادر الحدوث له؛ كما أن صوتَه كان أجَش. ألقى ملاحظةً تافهةً عن حالة الطقس، وعن شِجار في مجلس الوزراء لم ينتهِ بعد. ثم قال فجأة: «هل التقيتَ أربوثنوت مؤخَّرًا؟»

أجبتُه، وقد ظهرت الدهشة جلية في صوتي: «لا. كيف يمكن أن أفعل ذلك؟ لقد عاد إلى الشرق.»

«هذا ما ظننتُه. ولكن قيل لي إن أحدًا رآه في إنجلترا مرة أخرى.»

شعرتُ لثانيةٍ بالرعب من أنه عَلِم بلقائي مع ساندي في حانة كوستوولد وزيارته إلى فوسي. ولكن طمأنتني كلماته التالية.

«نعم. في لندن. خلال الأيام الماضية.»

كان من السهل عليَّ أن أتظاهر بالدهشة. «يا له من مجنون! لا يُمكنه أن يبقى في مكانٍ واحد لأسبوع. لا يُمكنني أن أقول سوى أنني آمُل ألا يحاول لقائي. فلا رغبةَ لديَّ في أن أراه مجددًا.»

لم يقُل مِدينا شيئًا. اصطحبني إلى غرفة نومي وسألني عما إذا كنتُ أريد أي شيء، وتمنَّى لي ليلةً سعيدة، وتركني بمفردي.

بدأ واحدٌ من أغرب الأسابيع التي عشتُها في حياتي. عندما أتذكَّر ما حدث خلاله، أجده كابوسًا غير منطقي، ولكن كان ثمة حدث أو حدثان مُميزان وكأنهما شعاب مرجانية وسط أمواجٍ هائجة. عندما استيقظتُ صباح أول يوم قضيتُه تحت سقف منزل مِدينا، كنتُ أعتقد أنه يشك في أمري بطريقةٍ أو بأخرى. وسرعان ما أدركتُ أن هذه الفكرة لا أساسَ لها من الصحة، وأنه يراني عبدًا مسلوبَ الإرادة؛ ولكني أدركتُ أيضًا أن شكًّا في أمرٍ ما قد استحوذ على عقله. ربما زلة آرتشي بالإضافة إلى أخبار ساندي هما ما تسبَّب في ذلك، وربما كان السبب في ذلك القلق الطبيعي الذي ينتاب شخصًا يقترب من الوصول إلى هدفٍ صعب المنال. استنتجتُ، على أية حال، أن هذا التوتر الذهني الذي يشعر به سيُصعِّب الأمور عليَّ بلا شك. فسيضعني تحت مراقبة مشدَّدة حتى وإن لم يكن يشكُّ في أمري. كان يُملي عليَّ الأوامر وكأني طفل صغير، وإن لم يفعل، كان يُعطي اقتراحات، والتي كانت تُمثل لي، كتابع مسلوب الإرادة، أوامر.

كان شديد الانشغال ليلًا ونهارًا، ومع ذلك لم يترك لي وقتًا أختلي فيه بنفسي. كان يريد أن يعرف كل ما أفعل، وكنتُ أخبره بما أفعل بصدق، فقد كنتُ أشعر أن لديه طرُقَه الخاصة لاكتشاف الحقيقة. كنت أعلم أن اكتشاف كذبةٍ واحدة سيُدمر كل ما فعلت

تدميرًا تامًّا، لأنني إن كنتُ واقعًا تحت سيطرته، كما كان يعتقد، فمن المُستحيل أن أكذب عليه. ومِن ثَم لم أكن أجرؤ على زيارة النادي كثيرًا، فربما يرغب في معرفة ماذا أفعل هناك. كنت في وضع شائك للغاية فرأيتُ أنه من الأفضل ألا أخرج من شارع هيل إلا إذا طَلب منِّي أن أصحبه. أخذتُ رأي ماري في ذلك، وأقرَّتْ أنني أتعامل مع الأمر بحكمة.

باستثناء مجموعةٍ من الخادمات، لم يكن يُوجَد خدم آخرون في المنزل سوى أوديل. التقيتُ الرجل المكتئب الحزين الوجه مرتَين على الدرج، ذلك الرجل الذي رأيتُه خلال زيارتي الأولى للمنزل، والذي رأيته منذ أسبوع في المنزل خلف متجر التحف. سألت عمَّن يكون، وقيل لي إنه سكرتير خاص يساعد مِدينا في عملِه السياسي. استنبطتُ أنه لا يُقيم في المنزل باستمرار، وأنه لا يأتي إلا عندما تكون ثمة حاجة لخدماته.

قالت ماري إن الرجل الآخر الذي رأيتُه في المنزل في شارع ليتل فاردل كان ساندي. إن كانت مُحقة، فقد يكون هذا الرجل صديقًا، وتساءلت عما إذا كان يجدُر بي التواصُل معه. عندما رأيته أول مرة، لم يرفع عينَيه لينظر في عينيَّ على الإطلاق. وفي المرة الثانية، استدرجتُه عبر بضع أسئلة طرحتها عليه أن ينظر نحوي، ولكنه التفت نحوي بوجهٍ خالٍ من التعبير تمامًا وكأنه وجه سمكة قُدَّ. استنتجت أن ماري قد أخطأت، فقد كان هذا الرجل تابعًا لِمدينا، فجميع سمات شخصيته دمَّرتها إرادة مِدينا تمامًا.

أصبحتُ أرى مِدينا الآن عن كثب، وكنتُ أرى حقيقته عارية، وعاد الانطباع الذي أخذتُه عنه خلال لقائنا الأول ليَبرُز جليًّا من جديدٍ بعدما غطَّته جميع الأحداث التي وقعت بعد ذلك. كان قناع «الرجل الخلوق» قد سقط بالطبع؛ رأيتُ تحت أخلاقه المُصطنعة ذاتَه الحقيقية. كان يجلس ليتحدَّث إليَّ في تلك المكتبة المُريعة حتى ساعة متأخِّرة من الليل، حتى أشعر أنه والغرفة أصبحا كيانًا واحدًا، وأن هذا الإنسان وحدَه قد امتصَّ جميع الخدع التي استخدمها الشيطان على مرِّ العصور. عليك أن تُدرك أن أي شيءٍ يقوله لا تشوبه شائبة طبقًا للمفهوم المعتاد. لو أن حديثَه كان يُسجَّل على فونوغراف، كان يمكن أن يُشغَّل في مدرسة للفتيات دون أن يخدش حياءهن. لم يكن حديثه يتضمَّن أي سبابٍ أو عنف. لا أُصدق أنه قد يرتكب أيًّا من تلك الأخطاء البشرية التي نعنيها عندما نستخدِم كلمة «إثم». ولكني على يقينٍ تامٍّ من أنَّ أكثر الناس الذين سيُحاسبون أمام الله فسقًا كانت صحائفهم أكثر نقاءً من صحيفته.

لا أجد كلمة تصف انبهاري به سوى كلمة «شر». بدا أنه يحاول إفناء جميع المعايير الأخلاقية المتعارَف عليها، بقايا الشرف الصغيرة والطيبة المُترنحة التي نحاول أن

نستخدِمها لنقي أنفسنا عواصف الكون. حَوَّلَت عجرفته، التي استحوذت عليه، حياتَه إلى كونٍ عارٍ تأجَّجت فيه روحُه مثل النار. التقيتُ على مدار حياتي رجالًا أشرارًا، رجالًا كانوا يستحقُّون إنهاء حياتهم دون إسهاب في التفكير أو الحديث، ولكن إذا ما كُلِّفتُ بالحكم عليهم، كنتُ سأعثر على بقايا دفينة من اللُّطف وبقايا ضئيلة من المشاعر الجيدة. كانوا بشرًا على أية حال، وكانت وحشيتُهم انحدارًا في إنسانيتِهم، ولم تكن نقيضها. كان مِدينا يصنع من حولِه جوًّا يُشبه الهواء البارد الصافي الذي لا يُمكن لشيءٍ أن يعيش فيه. كان شريرًا بكل ما تحمِله الكلمة من معنًى، ولم يكن يملك أي معايير يمكن ربطها بالحياة العادية ولو من بعيد. أظن أن هذا هو السبب الذي دفع البشر لابتكار مفهوم الشياطين. بدا أنه دائمًا ما يسمح لي بلمحة من لُغزٍ عتيق لشرورٍ أقدم من النجوم. أظنُّ أن أي شخصٍ لم يُجرب قدرته على التنويم المغناطيسي لن يلاحظ شيئًا في حديثه إلا براعته المنقطعة النظير، وأن أيَّ شخصٍ واقع تحت سيطرته بالكامل سيكون أقلَّ انبهارًا منِّي بحديثه لأنه نسِيَ معاييره الخاصة ولن يكون باستطاعته إجراء أي مقارنة. كنتُ في الوضع الذي يُمَكِّنُني من الفهم والشعور بالرعب. يا إلهي، يُمكنني أن أقول لكم إنني اعتدتُ أن أذهب إلى النوم مكتئبًا والخوف يتملَّكني، وأشعر في الوقت نفسه باشمئزاز عنيف منه وبغضاء لا مثيل لها. كان من الجليِّ أنه مجنون، فالجنون يعني تغيير أنماط التفكير التي اتفق البشر على كونها ضروريةً للحفاظ على تماسُك العالم. كان رأسه يبدو مستديرًا مثل الرصاصة، رأس لن ترى مثله حتى بين جماجم سكان الكهوف، وكانت عيناه تشعَّان بلونٍ أزرق يُشبِهُ شروقَ شمس الموت على صحراء قطبية قاحلة.

ذات يوم أفلتُّ من الإمساك بي بشقِّ الأنفس. كنتُ قد ذهبت إلى النادي لأرى إن كانت ثمة أي رسائل من ماري، ووجدتُ بدلًا من ذلك برقية طويلة من جاوديان في النرويج. كنتُ قد فتحتها لأقرأها عندما فوجئتُ بمِدينا يقف بجواري. كان قد رآني أدخل النادي، فتبِعَني لكي نَسير معًا إلى المنزل.

كنتُ قد رتبتُ مع جاوديان أن نتراسل باستخدام شفرة بسيطة، ولحُسن الحظ اتخذ صديقي الأمين احتياطاته وجعل أحد أصدقائه يرسِل الرسالة من كريستيانيا. لو كانت البرقية تحمِل ختم ميردال، لكان أمري قد انتهى.

كانت الطريقة الوحيدة للخروج من المأزق هي الجرأة، رغم أني استخدمتُها مرتعبًا.

صحت: «مرحبًا، لقد وصلتْني برقية من أحد أصدقائي في النرويج. هل أخبرتُك بأني كنتُ أحاول الحصول على منطقةٍ للصيد في ليردال في شهر يوليو؟ كدتُ أنسى الأمر برمته. بدأت أسأل أصدقائي في شهر مارس، والآن وصلني الرد الأول.»

أعطيتُه الورقتَين فنظر إلى المكان الذي أُرسِلَت منه الرسالة.

وقال: «إنها مشفرة. هل تُمانع أن تفك الشفرة الآن؟»

«إذا لم تمانع الانتظار لبضع ثوانٍ. إنها شفرة بسيطة من اختراعي، ويُمكنني فكُّها بسرعةٍ كبيرة.»

جلسنا إلى إحدى الطاولات في الردهة، وأمسكتُ قلمًا وورقةً من مُفكرتي. أعتقد أني أخبرتُكم سابقًا أني بارع في الشفرات، وتلك الشفرة تحديدًا يُمكنني قراءتها بسهولة. دونتُ بعض الحروف والأرقام، ثم كتبتُ فحوى الرسالة وأعطيتُه إلى مدينا. وكان ما قرأه هو التالي:

> «منطقة الصيد شمال ليردال متوفرة في أول الشهر. إيجارها مائتان وخمسون جنيهًا ويزداد مائة أخرى في شهر أغسطس. يمكنك استخدام أي صنانير تريد. يوجَد قارب في كل بركة. ويمكن ترتيب الحصول على مياه المدِّ من أجل صيد السلمون البحري. إذا قبِلتَ العرض، برجاء الرد بكلمة «نعم». يجب أن تصل في موعدٍ أقصاه التاسع والعشرون من يونيو. أحضر معك كميةً كبيرة من القريدس المعبأ. يمكنك ركوب قارب سريع من بيرجن. أندرسن، جراند أوتيل، كريستيانيا.»

ولكني كنتُ طوال الوقت أكتب أكاذيب، كنت أقرأ الشفرة الصحيحة وأحفظ الرسالة الحقيقية عن ظهر قلب. كانت الرسالة الحقيقية التي أرسلها جاوديان كالآتي:

> «تعارك صديقُنا مع حارسه وأوسعه ضربًا. استوليت على المزرعة وأخَفْتُ الأخير حتى أطاعني. سيظل أسيرًا لدى أحد حلفائي حتى آمُره بإطلاق سراحه. في خلال ذلك، أرى أنه من الأفضل أن نُحضر صديقنا إلى إنجلترا ونبدأ يوم الاثنين. سأُبرق لك عنوانًا في اسكتلندا وأنتظر تعليماتك. لا خطر يتعلَّق برسائل على الحارس إرسالها. لا تقلق، كل شيءٍ على خير ما يُرام.»

بعدما حفظتُ الرسالة جيدًا، مزقتُ البرقية إلى قطعٍ صغيرة وألقيتُها في سلة المهملات.

سألني مِدينا: «حسنًا، هل ستذهب؟»

«لا. لستُ في مزاجٍ مُهيأ لصيد أسماك السلمون حاليًّا.» أخذت نموذج برقية من على الطاولة وكتبت: «معذرة، عليَّ إلغاء ترتيبات ليردال»، ووقعتُها باسم «هاناي»، وكتبتُ العنوان «أندرسن، جراند أوتيل، كريستيانيا»، وأعطيتُ البرقية إلى البوَّاب ليُرسلها. لا أعرف ماذا حدث لهذه البرقية. من المُحتمَل أنها لا تزال معلقةً على لوحة الفندق تنتظر وصول أندرسن الغامض.

في طريق عودتنا إلى شارع هيل، تأبَّط مدينا ذراعي، وكان يتعامَل معي بودٍّ جم. قال: «آمُل أن أذهب في عطلة، ربما بعد بداية شهر يونيو. ربما بعد يومٍ أو يومَين. قد أسافر إلى الخارج لبعض الوقت. أودُّ أن تأتي معي.»

حيَّرني هذا الطلَب كثيرًا. لم يكن مِدينا يستطيع مُغادرة المدينة قبل تصفية الأعمال الكبرى، ولم يكن يملك دافعًا لمحاولة تضليلي فيما يتعلق بهذا الأمر بعدما أصبحتُ أُقيم في منزله. تساءلت عما إذا كان ثمة خطبٌ ما جعلَه يُغير الموعد. كانت أولى أولوياتي حاليًّا هي اكتشاف ذلك، وبذلت أقصى ما في وسعي لأستدرِجَه لكي يكشف عن خططه. ولكني لم أستطع استخراج أي شيءٍ منه فيما عدا أنه يأمُل أن يأخذ عطلةً مبكرةً، وكلمة «مبكرة» قد تنطبق على منتصف شهر يونيو وكذلك أوَّلِه، فقد كنا في السابع والعشرين من شهر مايو.

في عصر اليوم التالي، عند موعِد الشاي، دُهشت عندما رأيتُ أوديل في غرفة التدخين يتبعه توم جرينسليد بقامته الطويلة النحيلة. لم أسعد في حياتي برؤية أحد مثلما سعدتُ برؤيته، ولكني لم أجرؤ على التحدث إليه وحدَنا. سألت الخادم: «هل سيدك في الطابق العلوي؟ هل تُخبره بأن الطبيب جرينسليد هنا؟ إنه أحد أصدقائه القدامى.»

كان لدَينا حوالي دقيقتَين قبل أن يأتي مِدينا. همس جرينسليد قائلًا: «لقد أرسلتني زوجتك. لقد أخبرتني بكلِّ شيءٍ عن المهمة التي تؤديانها، وارتأت أن هذه أكثر الخطط أمانًا. كلَّفَتني بأن أخبرك بأن لديها أخبارًا جديدة عن الآنسة فيكتور والماركيز. إنهما في أمان. هل لديك أي أخبار عن الصبي؟»

رفع صوته بمجرد دخول مدينا. وقال: «صديقي العزيز، تُسعدني رؤيتك. لقد أتيتُ إلى لندن من أجل استشارة، وفكرتُ في زيارة هاناي. لم يكن لدي أدنى أمَل في قضاء بعض الوقت مع رجلٍ كثير الانشغال مثلك.»

كان مِدينا لَبِقًا للغاية؛ لا، لا تنطبق عليه هذه الكلمة، فلم يظهر في أسلوبه أي تعالٍ. سأل بطريقةٍ لا تخلو من ودٍّ عن عيادة جرينسليد، وأنه أصبح يُحب حياة الريف الإنجليزي بعدما طاف الكثير من الأصقاع. تحدث بلمحةٍ من الندم على وديان الرواسب الطفالية الضخمة والأراضي المستوية العاصفة في آسيا الوسطى حيث التقَيا أول مرة. أحضر أوديل الشاي، وكنا أسعد ثلاثة أصدقاء يجلسون معًا في لندن. طرحتُ بعض الأسئلة العادية عن فوسي، ثم ذكرتُ بيتر جون. الْتقط جرينسليد طرف الحديث؛ أخبرَني لاحقًا أنه فكر في أن هذا الموضوع سيُمكننا من فتح قناة يُمكننا التواصل عبرها في المستقبل.

قال ببطء: «أظنُّ أنه بخير. كان يشعر بألَم في بطنه من وقتٍ لآخر، ولكني أظن أن هذا يرجع إلى الطقس الحار وتناول الهليون للمرة الأولى. الليدي هاناي قلقة، إنك تعرف طبيعتها، كما أن جميع الأمهات في العصر الحالي يُفكِّرن باستمرار في الْتهاب الزائدة الدودية. لذا، أتابع الرجل الصغير بنفسي. لا تقلق يا ديك.»

أنسِب إلى نفسي فضل إدراكي لما يقصده الطبيب. تصرفتُ وكأني لم أسمع الكثير ممَّا قال، وكما لو أن ضيعة فوسي وأُسرتي بعيدون تمامًا عن تفكيري. ثم أعدتُ دفَّة الحديث إلى حيث تركها مِدينا، وتصرفتُ مع توم جرينسليد كما لو أني مللتُ من وجوده، ولم أوجِّه له الكثير من الحديث بعد ذلك. عندما نهض لينصرف، كان مِدينا هو من صحِبه إلى الباب. سيطرتُ على نفسي بصعوبة بالغة، فقد كنتُ على استعدادٍ للتضحية بأي شيءٍ من أجل الجلوس معه والتحدُّث طويلًا، رغم أني أدركتُ أنه لا يجدُر بي أن أُصدق ما قاله من أخبار عن بيتر جون.

عَلَّقَ مِدينا عندما عاد قائلًا: «صديقك الطبيب هذا رجل محترم.»

قلتُ في لامبالاة: «لا. إنه وغد مُمل بثرثرته القروية تلك. ولكني لا أتمنَّى له إلا الخير، فهو السبب في صداقتي معك.»

لا بدَّ أن أعتبر هذا الموقف من المواقف التي كنتُ محظوظًا فيها، فقد بدا أنه جعل مِدينا يشعر بالرضا بصورةٍ لم أرها من قبل. ثم سألني: «لماذا لا تجلس إلا في هذه الغرفة؟ يمكنك استخدام المكتبة كما يحلو لك، وجَوُّها في الصيف أفضل من أي مكانٍ آخر في المنزل.»

قلتُ في تواضع: «فكرتُ أني قد أزعجك أثناء عملك.»

«لا، على الإطلاق. كما أني أوشكتُ على الانتهاء من عملي. بعد الليلة يُمكنني أن أستريح، وسأُصبح رجلًا عاطلًا.»

«ثم تذهب في عطلة.»

«ثم أذهب في عطلة.» ارتسمت على شفتَيه تلك الابتسامة الطفولية المبهجة التي كانت واحدة من أجمل خُدَعه.

«هل ستذهب قريبًا؟»

«إذا سار كل شيءٍ على خير ما يرام، سأذهب في القريب العاجل. ربما بعد الثاني من يونيو. بالمناسبة، ثمة عشاء في نادي الخميس في الأول من يونيو. أريد أن تكون ضيفي مجددًا.»

ها هو أمر يتعين التفكير فيه. زادت قناعتي بأنه ورفاقه قد قدَّموا موعد تصفية الأعمال؛ لا بدَّ أنهم شكُّوا في شيءٍ ما، ربما بسبب وجود ساندي في إنجلترا، ولم يكونوا ليُعرِّضوا العملية برمَّتها للخطر. ظللتُ أدخن تلك الليلة حتى التهب لساني وذهبتُ إلى فراشي والقلق ينهشني. كان طابع المسألة المُلِح يزيد من حدةِ التوتر الذي كنتُ أشعر به، فلا بد أن يعرف ماكجيليفراي بذلك على الفور، وكذلك ماري. كان ميركوت آمنًا، ويبدو أن ثمة فرصة لإنقاذ توربين والآنسة فيكتور، ويجب اغتنام تلك الفرصة على الفور إذا ما تغيَّر اليوم الموعود. أما الصبيُّ الصغير، فلم يكن ثمة أمل في إنقاذه. ولكن كيف الوصول إلى الحقيقة؟ شعرتُ وكأني رجل يرى نفسه في كابوس يقف على السكك الحديدية ويقترب منه قطار سريع ولا يعرف كيفية الصعود إلى الرصيف مرة أخرى.

لم يفارقني مِدينا في صباح اليوم التالي. صحبني في سيارته إلى الحي التجاري في المدينة، وانتظرته حتى أنهى أعماله، ثم زار منزلًا في شارع كارلتون هاوس تيراس يبعُد بضعةَ منازل عن منزل فيكتور. أعتقد أنه منزل رئيس حزبه في مجلس اللوردات. بعد الغداء أدخلني إلى غرفة المكتبة. وقال: «أنت لا تقرأ كثيرًا، ويبدو أنك تجد مُختاراتي من الكتب مملةً. ولكن ثمة مقعد وثير يُمكنك أن تغفو فيه.»

قالها ثم خرج من الغرفة وسمعتُ صوت عجلات سيارته وهي تبتعِد. شعرت بالذعر يزحف على جسدي عندما وجدتُ نفسي بمفردي في ذلك المكان اللعين الذي أعلم أنه مطبخ الشيطان الذي يُعد فيه جميع خُططه. كان ثمة هاتف موضوع على مكتبه، الهاتف الوحيد الذي رأيتُه في المنزل على الرغم من ثقتي بوجود هاتفٍ آخر في غرفة رئيس الخدم. فتحتُ دليل الهاتف وعثرت على رقم هذا الهاتف، ولكنَّه لم يكن الرقم المكتوب على السماعة.

لا بدَّ أنه هاتف خاص يُمكِّنه من الاتصال بأي شخصٍ يريد، ولكن لا يمكن لأحدٍ أن يعرف رقمه إلا أصدقاءه المُقربين فقط. لم يكن ثمة شيء آخر أثار اهتمامي في الغرفة، فيما عدا صفوف الكتب العديدة، فقد كان مكتبه عاريًا وكأنه مكتب مدير بنك.

تصفحتُ بعض الكتب، ولكنها كانت جميعها تتحدَّث عن موضوعات أعلى بكثيرٍ من مستوى ثقافتي. كان أغلبها كتبًا قديمة، وكان الكثير منها مكتوبًا باللغة اللاتينية، وبدا على بعضها أنها كُتُب ثمينة، فقد أنزلت أحدَها من على الرف ووجدتُه موضوعًا في صندوقٍ جلدي في داخله كتاب مُهترئ رفيع ملفوف في قطعةٍ من جلد الشامواه. ولكني وجدتُ عند أحد الأركان مجموعة كبيرة من الكتب التي تتحدَّث عن السفر، فاخترتُ أحد كتب أوريل ستاين وجلست على أحد المقاعد الوثيرة وهو بين يدَي. حاولت التركيز على الكتاب، ولكني لم أفلح. لم يتمكن عقلي القلِق من فهم الجُمَل المكتوبة، ولم أتمكن من قراءة الخرائط. فنهضت مجددًا، وأعدتُ الكتاب إلى مكانه على الرف، وبدأت أذرع الغرفة جيئةً وذهابًا. كان يومًا مُملًّا تتوقَّف فيه المتاجر عن العمل، وكان في الشارع عربة مياه تزيل التراب، وكان الأطفال يتَّجهون نحو المُتنزَّه بصحبة مُربياتهم. لم أتمكن من إيجاد مُبرر لقلقي، ولكني كنت أشعر وكأني امرأة راقية مُصابة بالجنون. شعرت أن ثمة شيئًا في مكانٍ ما من هذه الغرفة يُهمني كثيرًا أن أعرفه.

اتجهتُ ناحية المكتب العاري. لم يكن ثمة شيء على سطحه سوى حامل حِبر فضي على هيئة بومة، وصينية فضية تحتوي على أقلام وأشياء أخرى متنوعة، وعلبة جلدية تحتوي على ورقِ ملاحظات ودفتر ورق نشَّاف. لم أكن أصلُح كلص، فقد كنتُ أشعر بالتوتُّر والخجل من نفسي، بعدما أنصتُّ لسماع صوت أي أقدامٍ في الخارج، وأنا أُحاول فتح الأدراج.

كانت جميع الأدراج مُغلقة، جميعها فيما عدا درج واحد صغير تحت سطح المكتب مباشرةً بدا وكأنه لا يصلح إلا لِحفظ أحد تلك الألواح الكبيرة التي يُدوِّن عليها الرجال الكثيرو الانشغال التزاماتهم. لم يكن هناك أي لوح، ولكني وجدتُ ورقتَين.

كانت الورقتان مأخوذتَين من مُفكرة ذات أوراق سائبة، وكانت كلتاهما تحمِلان التواريخ نفسها، الأسبوعان بين يومِ الاثنين الموافق التاسع والعشرين من مايو، ويوم الأحد الموافق الحادي عشر من يونيو. الخانات الأولى للأيام كانت مملوءة بمُدخلات مكتوبة بخط يدِ مِدينا الأنيق، مُدخلات مكتوبة باختزالٍ ما. كانت هذه المدخلات تتقارَب وتتداخَل أكثر حتى يوم الجمعة الموافق الثاني من يونيو؛ وبعد ذلك التاريخ، لا يوجَد شيء. كانت

الورقة الثانية على النقيض تمامًا من الأولى. فكانت تلك الخانات خاليةً حتى يوم الثاني من يونيو؛ وبعد هذا التاريخ وحتى الحادي عشر من يونيو، كانت مليئة بالملاحظات.

حدقت في الورقتَين، وخمنتُ غريزيًّا ما تحمِلانه من معنى. كانت الورقة الأولى تتضمَّن الخطوات التي سيُقْدِم عليها مِدينا حتى يوم تصفية الأعمال الذي مِن الواضح أنه سيكون اليوم الثاني من يونيو. بعد ذلك سيأتي الهدوء والراحة، إذا ما سار كل شيءٍ على خير ما يرام. ولكن إذا لم تسر الأمور كما يُرام، فالورقة الثانية تتضمَّن خططَه، خطط لم أشك للحظة في أنها تتضمَّن استخدام الرهائن، فسلامة الرهائن هي أولى أولويات رجال مُهمِّين مُعينِين. تأكد تفسيري للأمر بكلماتٍ مدونة كاملة على الورقة الأولى في خانة يوم الثاني من يونيو. كانتا كلمتَين باللغة اللاتينية Dies irae، وأسعفتني لُغتي اللاتينية بالكاد لأنْ أُترجمهما إلى «يوم الدينونة».

اختفى رُعبي بالكامل في تلك اللحظة، ولكن تضاعف قلقي ألف مرة. يجب أن أتواصل مع ماكجيليفراي على الفور؛ لا، في ذلك مخاطرة كبيرة، سأتواصَل مع ماري. حدقتُ في الهاتف وقررتُ أن أثِق في حظِّي.

اتصلتُ بمنزل عائلة ويموندام دون مشاكل. ردَّ عليَّ برنارد رئيس الخدم، وقال إن ماري موجودة في المنزل. ثم سمعتُ صوتها بعد بضع ثوان.

قلت: «ماري، لقد تغيَّر الموعد إلى الثاني من يونيو. هل فهمتِ ما أقول، حذِّري الجميع. لا أعلم سبب قلقِك على هذا الصبي.»

فقد أدركتُ أن مِدينا كان عند مدخل الغرفة. أغلقتُ الدُّرج الصغير بركبتي والورقتان في داخله، وأومأتُ له وابتسمتُ واضعًا يديَّ على سماعة الهاتف.

وقلت: «اعذُرني على استخدام هاتفك. في واقع الأمر، زوجتي هنا في لندن وقد أرسلَتْ لي رسالة تطلُب فيها أن أتصل بها. إنها تشعر بالقلق على الصبي.»

وضعتُ السماعة على أُذني مجددًا. سمعتُ صوت ماري حادًّا ورفيعًا.

«هل تسمعيني؟ أنا في مكتبة السيد مِدينا، ولا يُمكنني أن أُزعِجه بالتحدُّث عبر هاتفه. لا يُوجَد سبب يدفعك للقلق على بيتر جون. لطالما كان جرينسليد مفرطًا في التدقيق، ومن الأفضل أن يهدأ فلا سبب يدعوه إلى القلق. ولكن إذا كنتِ تريدين استشارة طبيب آخَر، فلِمَ لا تفعلين؟ علينا أن نحسم قرارنا الآن، فربما أسافر خارج البلاد في بداية شهر يونيو. نعم، بعد الثاني من يونيو.»

لحُسن الحظ كانت ماري سريعة البديهة.

فقالت: «الثاني من يونيو قريب للغاية. لمَ تُفاجئني بمثل هذه الخُطط يا ديك؟ لا يمكن أن أعود إلى المنزل من دون أن أراك. أعتقد أني سآتي إلى شارع هيل.»

قلت: «حسنًا، افعلي ما يحلو لكِ.» وضعت سماعة الهاتف ونظرت إلى مِدينا بابتسامة امتعاض. «يا للنساء المُزعجات! هل تمانع أن تأتي زوجتي لزيارتي هنا؟ إنها لن تهدأ حتى تراني. لقد راودَتْها فكرة جنونية هي أن تصطحب جرَّاحًا معها لتستشيره فيما يتعلق بزائدة الصبي الدودية. محض هراء! ولكن تلك هي طبيعة النساء.»

كان من الجليِّ أنه لم يشكَّ في شيء. فقال: «بالطبع، لتأتِ الليدي هاناي لزيارتك هنا. سندعوها لشُرب الشاي. أعتذِر أنَّ غرفة الاستقبال غير متاحة حاليًّا. كانت ستُعجبها مُجسَّماتي كثيرًا.»

وصلت ماري بعد عشر دقائق، وأدَّت دورها ببراعةٍ منقطعة النظير. كانت تجسيدًا حيًّا لأمٍّ مرتاعة تقتحِم الغرفة. بدت عيناها وكأنها كانت تبكي، ولم تراعِ ضبط وضعية قُبعتها أو تصفيف شعرها.

بعد الغمغمة ببعضِ عبارات الاعتذار لِمدينا، انتحبَت قائلة: «آه، أكاد أموت قلقًا. إنه يُعاني من ألَمٍ فظيع في بطنه، وأخبرتْني المُمرضة ليلة أمس أنه محموم. زرتُ السيد دوبسون-راي، ويُمكنه أن يذهب معي بحلول الخامسة إلا الربع. إنه صبي صغير غالٍ، يا سيد مِدينا، وأشعر أنه يجدُر بي أن أكون شديدة الحذَر في كل ما يتعلق به. إذا قال السيد دوبسون-راي إنه بِخير، فأعدكما أني لن أزعجكما مُجددًا. أظن أن رأي طبيبٍ آخر سيسرُّ الطبيب جرينسليد، فهو يبدو مُتطلعًا لذلك وليس قلقًا. أوه، لا، جزيل الشكر لك، ولكن لا يُمكنني البقاء لتناوُل الشاي. ثمة سيارة أجرة في انتظاري، وربما يفوتني القطار. سأذهب لاصطحاب السيد دوبسون-راي من شارع ويمبول.»

غادَرَت بنفس الطريقة العاصفة التي دَخَلَت بها، ولم تتوقَّف إلا لتعديل وضعية قُبعتها أمام إحدى المرايا في الردهة.

«بالطبع سأُرسل لك برقيةً بعد أن يفحصه الجراح. ديك، سآتي إليك على الفور إذا كان ثمة خطْب به، وسأُحضر المُمرضات. ابني الصغير المسكين! هل قلتَ إنك ستسافر بعد الثاني من يونيو يا ديك؟ أتمنَّى أن تتمكن من السفر. أنت بحاجة إلى عطلةٍ تقضيها بعيدًا عن أُسرتك المتعبة. إلى اللقاء يا سيد مِدينا. كان كرمًا منك أنِ احتملتَ أُمًّا سخيفة. فلترعَ ديك ولا تجعله يقلق.»

ظللتُ محافِظًا على مظهر الزوج نافد الصبر مع لمحةٍ من الخجل. ولكني أدركتُ في تلك اللحظة أن ماري لم تكن تتحدَّث دون هدف، بل كانت تقول شيئًا من المُفترَض أن أفهمه.

ظلت تُكرر وهي تركب سيارة الأجرة: «ابني الصغير المسكين! أُصلي للرب أن يكون بخير، أظنُّ أنه سيكون بخير يا ديك. كم أتمنَّى، أوه كم أتمنَّى أن ... تُريح بالك ... قبل الثاني من يونيو.»

عندما التفتُّ لأنظر إلى مِدينا، كنتُ أشعر أن الصبيَّ الصغير المسكين المقصود لم يكن بيتر جون.

الفصل السابع عشر

مساعدة كاهن ميدان بالميرا

على مدار الأسبوعين الأخيرين، بدأ شخص جديد في الظهور في ميدان بالميرا. لا أعلم إن كان مخبرو ماكجيليفراي قد أخبروه بوجوده، فلم أرَ أيًّا من تقاريرهم، ولكن من المؤكد أنهم يعرفون بأمره، إلا إذا كانوا يقضون كامل وقتهم في الحانة المجاورة. كانت مساعدة كاهن من النوع المألوف، امرأة تقترب من منتصف العمر، عانس على ما يبدو، ترتدي ثوبًا أسود خالصًا، وتُحيط رقبتها بفراءٍ رخيص رغم دفء الطقس، وتحمل حقيبة يد سوداء قديمة. كان قوامها مقبولًا، ولا تزال تحمل بقايا من الشباب، باستثناء شعرها، الذي بدا من الجزء اليسير المرئي منه أن الشيب قد اشتعل فيه والذي كانت تُصففه بطريقة مسطحة تمامًا وتربطه بقوة وتلفُّه خلف رأسها في شكل كعكة عتيقة الطراز. كانت رثة الملبس، ولكن ليس تمامًا، فقد كان مظهرها العام يُوحي بأناقة ذابلة، وكان الناظر يلاحظ أنها تسير بطريقةٍ أنيقة. كانت تحمل عادةً حزمة من الأوراق إلى جانب حقيبتها السوداء، وكذلك مظلة رخيصة غير ملفوفة جيدًا في جميع الأوقات وجميع حالات الطقس.

كانت تزور منزل الطبيب ذا اليافطة النحاسية، ومُعلم الموسيقى، والعديد من المنازل المستأجرة. بدا أنها على علاقة بكنيسة سان جود الكبيرة التي تبعُد عن الميدان مسافة ربع ميل، التي جاء كاهن جديد مُفعَم بالحيوية ليعمل بها. كانت متحمسة تمامًا للكاهن، فكانت تُطري على جديتِه وفصاحته، وكانت تتحدَّث كثيرًا عن فتنة شبابه مثلما تفعل النساء المُسنَّات العازبات عادةً. كما أنها لم تكن تُمانع التحدث عن نفسها وقول إن عملها كان تطوعيًّا، وأنها امرأة نبيلة محدودة الموارد لكن مُستقلة، وأنها تمتلك شقة في هامبستيد، وأن والدها كان فيما مضى قسًّا في إيستبورن. كانت تحب كثيرًا أن تتحدَّث عن عائلتها مع أولئك الراغِبين في سماعها. كان تتعامل ببساطة ولُطف من دون أي تسلُّط أو

تعالٍ، ما جعل الناس ينجذبون إليها ويرغبون في سماعها بينما قد يصدُّون آخرين، فلم يكن سكان ميدان بالميرا من المهذَّبين، أو الصبورين، أو المتديِّنين.

كان هدفها هو إدراج خدم منازل الميدان المُثقلين بالعمل في بعضٍ من مؤسسات كنيسة سان جود. كانت تلك الكنيسة المُستنيرة تتضمن جميع أنواع الأنشطة؛ مجموعات الكورال، واجتماعات الأمهات، وأندية العطلات الريفية، وفصول تعليم الكبار. كانت توزع رزمًا من الكتب التي تتحدَّث عن «المجتمع المناسب للفتيات»، و«اتحاد الأمهات»، وأشياء من هذا القبيل، وكانت تُحاول الحصول على وعود من السكان بحضور بعضٍ من الفعاليات التي تنظمها كنيسة سان جود. لا أظن أنها حققت نجاحًا كبيرًا مع الطبيب أو معلم الموسيقى، رغم أنها كانت توزع حزم الكتب لديهما عادةً. كانت الخادمات الصغيرات مقهورات ومُرهقات لدرجة أنهنَّ لا يستطعن فعل شيء سوى الاستماع لها عند عتبات المنازل ويقُلن: «نعم سيدتي.» ولم يكنَّ يسمحن لها بمقابلة سيداتهن، فيما عدا واحدة من خادمات المنازل المستأجرة التي كانت تتبع الكنيسة الميثودية البدائية، ومن ثم كانت تعتبر كنيسة سان جود أداة من أدوات الشيطان. ولكن حظها كان أفضل مع الخادمة في المنزل رقم ٤.

كانت الفتاة منحدرة من قرية في كِنت، وبدا أن مساعِدة الكاهن قد طُلب منها أن تزورها، من قبل قس أبرشيتها السابقة. كانت شابَّةً ذات وجه مسطح ضخم الملامح، بطيئة الحديث والحركة، ومُتشككة بطبيعتها. حيَّت مساعِدة الكاهن ببرود في البداية، ولكنها أصبحت أكثر ودًّا بعدما ذكرت مساعِدة الكاهن بعض الأسماء المألوفة لها، وقبلت منها نسخةً من مجلة كنيسة سان جود. بعد يومَين، أثناء خروجها في جولة العصر، التقت مساعِدةَ الكاهن وقبِلت أن تسير معها قليلًا. كانت الفتاة تهوى الملابس، وكان ذوقُها في اختيار الملابس أفضل من أغلب بنات طبقتِها، وكانت تطمح لما هو أفضل. كانت تمتلك قبعةً جديدة أعجبت رفيقها، ولكنها اعترفت بأنها لم تكن راضية عنها تمامًا. أظهرت مساعدة الكاهن معرفةً بالموضة لا يمكن للمرء أن يستنبِطها من ملابسها المُتواضعة. كانت تُشير إلى أماكن القص الخاطئة، وكانت قادرة على تصحيح تلك الأخطاء بسهولة، وكانت الفتاة، التي تُدعى إلسي أوتوايت، توافِقها. كانت مساعدة الكاهن تقول لها: «يُمكنني أن أصحح لكِ الخطأ في خلال عشر دقائق. ربما تَدعينني لزيارتك عندما تتوفر لك نصف ساعة من وقت الفراغ، ويُمكننا أن نُصححه معًا. أنا ماهرة في صناعة القبعات، وكنتُ أساعد أخواتي طوال الوقت.»

زالت الكُلفة بينهما، وأصبحت الآنسة أوتوايت المتحفظة صديقتها. كانت تحب عملها، ولم يكن ثمة سبب للشكوى، فكانت تحصل على راتبٍ جيد، والأهم أنها لم تكن تتعرَّض لأي ضغوط. قالت: «أنا أهتم بشئوني، والمدام تهتم بشئونها.» كانت المدام امرأةً أجنبية، وتصرفاتها غريبة، ولكن ثمة جانب طيب أيضًا في شخصيتها. لم تتدخَّل في عملها مُطلقًا، إلا للضرورة، كما أنها لم تكن مُزعجة. كانت الآنسة أوتوايت تحصل على هدايا جميلة في الكريسماس، ومن وقتٍ لآخر، كان المنزل يُغلَق وتعود إلى كِنت مع حصولها على بدل غذاء. لم يكن عملها مرهقًا، ولكن كان ثمة الكثير من الزوَّار، زبائن المدام. «إنها خبيرة تدليك، كما تعلمين، ولكنها حسنة السمعة للغاية.» عندما سُئلَت عما إذا كان هناك سكان آخرون في المنزل، تحدثت بتحفظ. وأقرت قائلة: «لا يمكنك أن تطلق عليهم أعضاء دائمين في العائلة. ثمة امرأة مسنَّة، عمة المدام، تأتي للإقامة معنا من وقتٍ لآخر، ولكني لا أراها كثيرًا. وتخدمها المدام بنفسها، وثمة غرفة مخصصة لها في المنزل. وبالطبع هناك …» بدا أن الآنسة أوتوايت قد تذكرت أمرًا مفاجئًا، وغيرت الموضوع.

أبدت مساعِدة الكاهن رغبتها في التعرُّف إلى المدام، ولكن الخادمة لم تشجعها على ذلك. «إنها ليست مثلكِ. فهي لا تؤمن بالكنائس أو بالرب أو بأمور من هذا القبيل؛ لقد سمعتها تقول ذلك بنفسها. لن تتمكني من جعلها تقترب حتى من كنيسة سان جود يا آنسة.»

«ولكن إذا كانت امرأة ماهرة وودودة، سأودُّ لقاءها. ربما نصحتني بشأن بعض المسائل الشائكة في هذه الأبرشية الكبيرة. وربما ساعدتنا في نشاط العطلات الريفية.»

مطَّت الآنسة أوتوايت شفتَيها، وبدا أنها لا تظن أن تلك الفكرة جيدة. وقالت: «يجب أن تكوني مريضةً وعصبية لكي تهتمَّ بكِ المدام. سأخبرها باسمكِ إذا أردتِ، ولكني لا أظن أن المدام ستستقبلكِ في منزلها.»

رُتِّبَ في نهاية المطاف أن تذهب مساعدة الكاهن إلى المنزل رقم ٤ في عصر اليوم التالي وأن تُحضر معها المواد اللازمة لإصلاح القبعة. ذهبت إلى المنزل في الموعد المُحدد، ولكن الآنسة أوتوايت المضطربة صرفتها. قالت: «إننا مشغولون كثيرًا اليوم، ولا أملِك دقيقةً واحدة حتى لنفسي.» اقترَحَت عليها أن تأتي يوم الأحد، ولكن مساعِدة الكاهن كان لديها الكثير من الالتزامات في ذلك اليوم، فحُدِّدَ موعدٌ آخر في مساء الثلاثاء التالي.

تلك المرة سار كل شيء على خير ما يرام. لم تكن المدام في المنزل، وقضت مساعِدة الكاهن ساعةً مع الآنسة أوتوايت في غرفتها أنجزا فيها ما جاءت من أجله. سرعان ما

حولت أصابِعها السريعة القبعةَ، التي اشترتها الخادمة من متجر كوينز كريسنت مقابل عشرة شلنات وستة بنسات، إلى نسخةٍ قريبة الشبَه من القبعات الأعلى سعرًا. أبدت اهتمامًا بريئًا بسكان المنزل، وطرحت الكثير من الأسئلة التي أجابتها الآنسة أوتوايت على الفور بعدما اعتدل مِزاجها. تحدثت عن عادات المدام، ونوبات غضبها النادرة، وشغفها بجميع اللغات ما عدا الإنجليزية. قالت الآنسة أوتوايت: «أسوأ ما في أولئك الأجانب هو أنكِ لن تتمكَّني أبدًا من التأكد مما يظنونه عنكِ. نصف الوقت الذي أقضيه مع المدام وعمَّتها أسمعهما يتحدثان بلغةٍ وثنية ما.»

عندما همَّت مساعِدة الكاهن بالمغادرة، كانت قد حصلت على فكرة عامة عن المنزل الذي أبدت فضولًا غير مُتوقع بخصوصه. ولكن قبل أن تُغادر مباشرةً، حدث أمر غير مُتوقع. سُمِعَ صوتُ مفتاح المدام يدور في مزلاج الباب، ودخلت الآنسة أوتوايت في نوبة هلعٍ قصيرة. همست قائلة: «اسمعي يا آنسة، سأُخرجكِ من باب المطبخ.» ولكن لم تُبدِ ضيفتها أي أمارة على الإحراج. وقالت: «أودُّ أن ألتقي المدام بريدا. وهذه فرصتي لأن أفعل.»

بدت الدهشة على وجه المدام الأسمر البدين، مع لمحةٍ من الضيق، عندما رأت المرأتَين. تحدثت الآنسة أوتوايت محاولةً أن تشرح الموقف بسرعة أظهرت مدى توترها. قالت: «هذه السيدة التي تعمل في كنيسة سان جود يا مدام. جاءت إلى هنا لتؤدي عملها وهي تعرف أناسًا من رادهيرست، حيث نشأت، ولقد دعوتُها إلى الدخول إن لم يكن لديك مانع.»

قالت مساعِدة الكاهن: «يسرني لقاؤكِ يا مدام بريدا. آمُل ألا تمانعي زيارتي لإلسي أوتوايت. أنا بحاجةٍ إلى مساعدتها في أعمال «المجتمع المناسب للفتيات».»

جاء الرد بنبرة مهذبة: «أظن أنكِ أتيتِ إلى هنا من قبل. رأيتكِ في الميدان بضع مرات. لا مانع لدَيَّ في أن تحضر أوتوايت اجتماعاتكم، ولكن يجدُر بي أن أُنبهكِ إلى أنها لا تملك الكثير من وقت الفراغ.» لم يكن ثمة شك في أن المرأة أجنبية، ولكن لم تحمِل لُغتها الإنجليزية أي لكنة غريبة.

«هذا لطفٌ منكِ. كان يجدُر بي أن أستأذنكِ أولًا، ولكنكِ لم تكوني في المنزل عندما جئتُ، وأصبحتُ وإلسي صديقتين بمحض الصدفة. أرجو أن تسمحي لي بالمجيء مجددًا.»

ظلت المدام بريدا تراقب الزائرة عبر إحدى النوافذ وهي تهبط الدَّرَجَ وتعبر البوابة الخضراء وتختفي وسط ظلمة الميدان الآخذة في التزايد.

عادت السيدة مجددًا بعد أربعة أيام؛ لا بد وأن ذلك، حسبما أظن، كان يوم التاسع والعشرين من مايو. بدت الآنسة أوتوايت مضطربة عندما فَتَحَت الباب. وقالت: «لا يمكنني التحدث إليكِ الليلة يا آنسة. لقد أمرَتْني المدام أن آخُذكِ إلى غرفتها مباشرةً عندما تأتين.»

قالت المرأة: «يا للُطفها! سأستمتع بالتحدُّث إليها كثيرًا. لقد أحضرتُ لكِ هديةً جميلةً يا إلسي، قُبعة أهدتها لي إحدى صديقاتي، ولكنها لا تناسِب عجوزًا مثلي. سأُعطيها لكِ إن قبلِتِها. سأحضرها في خلال يومٍ أو يومَين.»

أُدخِلَت مساعدةُ الكاهن إلى غرفةٍ كبيرةٍ على يمين الردهة حيث تستقبل المدام مرضاها. لم يكن أحد في الغرفة سوى فتاة صغيرة غريبة المظهر ترتدي ثوبًا من الكتان، أشارت لها أن تتبعَها عبر الباب القابل للطيِّ الذي يفصل بين هذا الجزء من المنزل والجزء الخلفي منه. فعلت المرأة شيئًا غريبًا، فقد حملت الفتاة الصغيرة، وظلت تحمِلها بين ذراعَيها للحظات، ثم قَبَّلَتها؛ كانت هذه عادةً عاطفيةً تتبعها جميع النساء اللاتي لم يُنجِبنَ وكَرَّسنَ أنفسهن لخدمة الرب. ثم عبرت البابَ القابل للطي.

وجدَت نفسها في مكانٍ غريب، أكبر بكثير مما يمكن تخمينه من مظهر المنزل، وعلى الرغم من الجو الدافئ، كانت ثمة نار مدفأة موقدة، نار تستعر ببطء مُصدرةً دخانًا خفيفًا أزرق اللون. كانت المدام بريدا هناك، ترتدي فستانًا مفتوح الصدر كما لو أنها تتناول عشاءها خارج المنزل، وكانت تبدو جميلة، وغامضة، وأجنبية جدًّا تحت ضوء المصابيح المُظلل. جلست امرأةٌ مسنةٌ رائعة على مقعد وثير بجوار المدفأة، وكانت تضع شيئًا يُشبه الوشاح على شعرها الذي كان في بياض الثلج. كانت غرفة لم ترَ الوافدة الجديدة مثلها من قبل في حياتها، فوقفت مترددةً بينما الباب القابل للطي يُغْلَق من خلفها.

وتلعثمَت قائلةً: «مدام بريدا، إنه لطفٌ كبيرٌ منكِ أن توافقي على مقابلتي.»

قالت المدام: «أنا لا أعرف اسمكِ»، ثم فعلَت شيئًا غريبًا؛ رفعت مصباحًا وأمسكته أمام وجه الزائرة مُتفحصةً كل خطٍّ من خطوط قوامها البائس.

«كلارك، أجنس كلارك. أنا أكبر ثلاث شقيقات؛ الأُخريان متزوِّجتان، ربما سمعتِ عن والدي، لقد ألَّف مجموعةً من الأناشيد الجميلة، ونقح ...»

قاطعتها المدام دون أن تُنزِل المصباح: «كم عمركِ؟»

أطلقت مساعدة الكاهن ضحكةً عصبيةً صغيرة. وقالت: «لست عجوزًا؛ لقد تخطيتُ الأربعين من عمري فحسب، حسنًا، لكي أكون صادقة، قاربتُ على السابعة والأربعين.

أشعر في بعض الأحيان أني صغيرة السن، ولا أصدق أني في هذه السن؛ ثم في أوقات أخرى، عندما أكون مُتعبة، أشعر بأني بلغتُ مائة سنة. للأسف! لم تكن سنواتي الماضية ذات فائدة. ولكنَّنا جميعًا على هذا الحال، أليس كذلك؟ أفضل شيء نفعله هو أن نقرر أن نخرج بأقصى استفادة مُمكنة من كل ساعة مُتبقية لنا. ألقى السيد إمبسون في كنيسة سان جود خطبةً رائعةً عن هذا الموضوع الأحد الماضي. قال إننا يجدُر بنا أن ننظر إلى كل دقيقةٍ لا ترحَم على أنها المسافة التي يُمكننا أن نعدوها في خلال ستين ثانية؛ أظن أنه اقتبس تلك الكلمات من قصيدةٍ ما. من المُريع أن نفكر في الدقائق التي لا ترحَم.»

لم يبدُ على المدام أنها كانت مُصغيةً لما يُقال. قالت شيئًا ما للمرأة المُسنة بلغةٍ أجنبية.

سألت الزائرة: «هل يُمكنني أن أجلس؟ لقد سِرتُ لمسافة طويلة اليوم.»

أشارت لها المدام أن تبتعِد عن المقعد الذي كادت أن تجلس عليه. وأشارت إلى أريكة منخفضة بجوار المرأة المُسنة، وقالت: «اجلسي هناك من فضلكِ.»

بدا الإحراج على وجه الزائرة. جلست على طرف الأريكة، وبدت شاحبةً متوترةً مقارنةً بالمرأتَين الهادئتَين، وظلت أصابعها تعبث بعصبيةٍ في يد حقيبتها.

سألتها المدام بنبرة كادت تحمل تهديدًا: «لمَ جئتَ إلى هذا المنزل؟ لا علاقة لنا بكنيستكِ.»

«آه، ولكنكما تعيشان ضمن الأبرشية، وهي أبرشية كبيرة ومرهِقة، ونحتاج إلى مساعدة الجميع. لا يُمكنكما أن تتخيَّلا مدى سوء الأوضاع في الأحياء الفقيرة؛ مدى مرارة الفقر في تلك الأوقات العصيبة، والأمهات المرهَقات والأطفال الصغار المساكين المُهمَلين. إننا نحاول أن نجعل الأبرشية مكانًا أفضل.»

«هل تريدين مالًا؟»

«نحن بحاجةٍ إلى المال طوال الوقت.» حمل وجه مساعدة الكاهن ابتسامة مُتملقة. وقالت: «ولكننا نحتاج أكثر إلى خدمات الأفراد. لطالما قال السيد إمبسون إن خدمة الفرد، وإن كانت ضئيلة، أفضل من التبرعات الضخمة؛ يكون تأثيرها أقوى على روح المُعطي والمتلقِّي.»

«ما الذي تتوقعين أن تحصلي عليه من أوتوايت؟»

«إنها شابةٌ من الريف تعيش وحدَها في لندن. إنها فتاة صالحة، على ما أظن، وأريد أن أجعلها تُكوِّن صداقاتٍ وأن تحصل على متعةٍ بريئة. كما أني بحاجةٍ إلى مساعدتها في أنشطة الكنيسة.»

جفلت الزائرة عندما وجدَت يدَ المرأة المسنَّة على ذراعها. كانت تُمرر أصابعها الطويلة على ذراعها وتضغط عليها. حتى تلك اللحظة لم تكن المرأة المسنَّة قد تحدثت، ولكنها الآن قالت:

«هذه ذراع امرأة شابة. إنها تكذب بخصوص عمرها. لا امرأة في السابعة والأربعين من عمرها تملك مثل هذه الذراع.»

تحول تمرير الأصابع على الذراع إلى قبضةٍ من حديد، فصرخت الزائرة.

وقالت: «آه، من فضلكِ، من فضلكِ، أنت تؤلِمينني. أنا لا أكذب. أنا فخورة بجسدي، قليلًا فقط. أنا مثل أُمي، وقد كانت امرأة بارعة الجمال. ولكن بحقِّ الرب! أنا لستُ شابة. أتمنَّى لو كنتُ كذلك. يؤسِفني أن أقول إنك ستجدينني عجوزًا عندما تَرينني في ضوء النهار.»

أرخت المرأة المسنَّة قبضتها، وتحركت الزائرة نحو الطرف الآخر من الأريكة لتبتعِد عنها. ثم بدأت تبكي بطريقةٍ عاجزة سخيفة كما لو كانت تشعر بالرُّعب. تحدثتِ المرأتان معًا بلغةٍ غريبة، ثم قالت المدام:

«لن أسمح لكِ بالمجيء إلى هنا. لن أسمح لكِ بالتعامُل مع خدمي. كما أني لا أهتمُّ بأمر كنيستكِ على الإطلاق. إذا جئتِ إلى هذا المنزل مجددًا، فسوف تندمين.»

كانت تتحدَّث بغِلظة، وبدت الزائرة وكأنها ستبكي مجددًا. وسلبَها توترها تلك الأناقة الذابلة التي كانت تتمتَّع بها سابقًا، وبدت في تلك اللحظة كائنًا هشًّا مُثيرًا للشفقة، كما لو كانت حاكمةً مُسنَّة تتوسَّل ألا تُعزَل.

زفرت ثم قالت: «أنتِ قاسية. أعتذر لو أنني ارتكبتُ خطأً من وجهة نظرك، ولكني كنتُ أُضمر خيرًا. ظننتُ أنكِ ستُساعدينني، فقد قالت إلسي عنك إنكِ امرأة فطنة وعطوف. ألن تُفكري في أمر إلسي المسكينة؟ إنها صغيرة السن وتعيش بعيدًا عن أهلها. ألا يُمكنها أن تأتي إلى كنيسة سان جود من وقتٍ لآخر؟»

«لدى أوتوايت مهام تؤدِّيها في المنزل، وأنا واثقة من أن لدَيكِ مهام مُماثلة أنتِ أيضًا في منزلك. يا للهراء! لا صبر لدَي على المُسنَّات الإنجليزيات المُزعجات. يقولون إن منزل الإنجليزي هو قلعته، ولكن لا أرى إلا وباءً من عوانس عاقرات يَطُفْن في كل مكانٍ باسم الدين وعمل الخير. اسمعيني. لن أسمح بقدومكِ إلى هذا المنزل. ولن أسمح لكِ بالتحدُّث إلى أوتوايت. لن أسمح لامرأةٍ عاطلة أن تتجسَّس على شئوني.»

مسحت الزائرة عينَيها بطرف منديلها. مدت المرأة المسنة يدَها مجددًا وكادت تضعها على صدْر الزائرة التي هَبَّت من جلستها بعنف. بدت في حالة وسطٍ بين الحزن والخوف. ازدردت ريقها بصوتٍ مسموع قبل أن تتمكن من الحديث، ثم تهدَّج صوتها وهي تتكلم.

«من الأفضل أن أنصرف. لقد تسببتُما لمشاعري بجراح عميقة. أعلم أني لست فطِنة، ولكني أبذل قصارى جهدي ... و... ويؤلِمني أن أُفهَم بالشكل الخاطئ. يؤسِفني أن أقول إنني تصرفتُ دون مراعاة، فاعذُراني. لن آتيَ إلى هذا المنزل مجددًا. وسأدعو الربَّ أن يَلين قلباكما ذات يوم.»

كان يبدو أنها تبذُل جهدًا كبيرًا لاستعادة هدوئها، ومسحت عينَيها للمرة الأخيرة ونظرت بابتسامةٍ خائفة نحو المدام الصارمة التي دقَّت جرسًا كهربائيًّا. أغلقت الباب القابل للطيِّ خلفها برفق كما لو كانت طفلة نادمة أُرسِلَت إلى فِراشها عِقابًا لها. كانت الغرفة الأمامية مُظلمة، ولكن كان ثمة ضوء في الردهة حيث تقِف الآنسة أوتوايت لتُخْرِجها من المنزل.

عند باب المنزل، كانت مساعِدة الكاهن قد تمالكَت نفسها مجددًا.

همست: «إلسي، مدام بريدا لا تُريدني أن آتيَ إلى هنا مجددًا. ولكن يجب أن أُعطيكِ تلك القبعة التي وعدتكِ بها. سأجهزها لكِ مساء الخميس. أخشى أني سآتي في ساعةٍ متأخرة؛ ربما بعد الحادية عشرة مساءً، ولكن لا تنامي قبل أن آتي. سأكون عند الباب الخلفي. إنها قبعة أنيقة جدًّا. أنا واثقة من أنها ستعجبك.»

بمجرد أن خرجت إلى الميدان، تلفَّتَت حولَها في حدةٍ وألقت نظرة خلفَها على المنزل رقم ٤، ثم أسرعت الخطى مبتعدة. كان ثمة رجل يتسكع عند ناصية الشارع تحدثت إليه؛ أومأ الرجل برأسه وحيَّاها بلمسةٍ لقُبعته، وتوقفت سيارة كبيرة، كانت تنتظِر في الظلام على الجانب الآخر من الشارع، عند حافة الرصيف. بدت وسيلة نقل غريبة لمساعِدة الكاهن، ولكنها دخلت السيارة كما لو كانت معتادةً على ذلك، وعندما تحركت السيارة، لم تتَّجِه ناحية شقَّتِها في هامبستيد.

الفصل الثامن عشر

ليلة الأول من يونيو

قضيتُ اليومَين الأخيرَين من شهر مايو في حالةٍ من القلق والإحباط الشديدَين. كانت جميع قنوات اتصالي مع أصدقائي مقطوعة، ولم أكن أعرف كيف يُمكنني إعادة فتحها. أما مِدينا، فبعدما أنهى أعمالَه الكثيرة الأخيرة، بدا أنه أصبح يملك وقت فراغٍ من جديد، ولم يعُد يُبعدني عن ناظرَيه مطلقًا. أكاد أجزم أنني كنتُ سأتمكن من زيارة النادي وترك رسالة هاتفية إلى ماري، ولكني لم أجرؤ على المخاطرة، فقد أصبحتُ مُدركًا أكثر من أي وقتٍ مضى لمدى حساسية الوضع الذي كنتُ فيه، وأن خطوة واحدة خطأ أُقدِم عليها قد تفسد كلَّ شيء. لم يكن الأمر ليحمِل تلك الأهمية الكبيرة لو كنتُ لا أزال أملك أملًا في النجاح، ولكني كنتُ واقعًا تحت تأثير حالة من التشاؤم الشديد. كان يُمكنني أن أعتمِد على ماري في نقل أخباري إلى ماكجيليفراي، وعلى ماكجيليفراي في اتخاذ الخطوات اللازمة لتسريع عملية القبض على العصابة؛ بحلول الثاني من يونيو، سيعود ميركوت بين أصدقائه، وكذلك الآنسة فيكتور، إذا ما تمكَّنَت ماري من معرفة مكانها مجددًا. ولكن مَن الذي كان يُنَظِّم كل ذلك؟ هل كانت ماري تعمل منفردة، وأين ساندي؟ سيصل ميركوت وجاوديان إلى اسكتلندا، وقد يُرسِلان لي برقيةً في أي لحظة، ولن أتمكن من الرد عليهما. كان يتملَّكني شعور مُثير للجنون بأن كل شيءٍ على المحك، وأن احتمالات الخطأ لا نهائية، وأنه ليس في مقدوري فعل شيء. علاوة على كل ما سبق، كان التفكير في ديفيد واركليف يُعذبني. توصلت إلى استنتاج أن الكلمات التي ودعتني بها ماري لم تكن تعني شيئًا؛ في الواقع، لم أعرف كيف يُمكنها أن تعرف أي شيءٍ عن الصبي الصغير، فلم نحصل بعدُ على أي دليلٍ بخصوصه، وكان التفكير فيه يجعل النجاح في تحرير الرهينتَين الأُخريَين أشبه بالفشل. كنتُ أتلقَّى عقابي على طمأنتني المُتعجلة لماري من ناحية مِدينا. اتخذ

رُعبي من الرجل منحًى جديدًا؛ كان يبدو لي منيعًا ضد أي أملٍ في الانقضاض عليه؛ وعلى الرغم من مَقتي له، كنتُ أرتجف منه؛ وتلك تجربة جديدة، فإلى حدِّ الآن كنتُ أجد دومًا أن الكراهية تطرد الخوف.

كان لا يُحتمَل خلال هذين اليومَين؛ لا يُحتمَل ولكن رائع في الوقت نفسه. كان يبدو أنه يُحب رؤيتي، كما لو كنتُ برهانًا مرئيًّا وأثيرًا على قُدرته، وكان يُعاملني مثلما قد يعامل طاغيةٌ شرقي عبدَه المفضل. كنت أمثِّل له الراحة التي عثر عليها بعد مُعاناة روحية طويلة، وجعلني أرى الأمنيات الأثيرة إلى قلبه. أدركتُ مُرتعبًا أنه يعتبرني جزءًا من العالم القبيح الذي أنشأه، وأظن أني أصبحتُ أشعر بالخوف للمرة الأولى منذ بداية المهمة. إذا ما تخيل أني قد أخذُله، فسيتحوَّل إلى وحشٍ مفترس. أتذكَّر أنه كان يتحدث كثيرًا عن السياسة، ولكن، يا إلهي! تغيرت تلك الآراء المُحترمة المحافظة التي كان يُطرِب آذاني بها فيما مضى، كما لو أن توري بُعث من جديدٍ بسبب تأثير النساء وأمور من هذا القبيل! كما قال إنه خلْف جميع المُعتقدات السائدة في العالم، المسيحية، والبوذية، والإسلام، وغيرها، توجَد عبادة قديمة للشيطان، وإنها بدأت تظهر من جديد. وقال إن البلشفية أحد أشكالها، وأرجع نجاح البلاشفة في آسيا إلى إعادة إحياء ما أُطلِق عليه اسم الشامانية؛ أظنُّ أن تلك هي الكلمة التي استخدمها. طبقًا لكلماته، أزالت الحرب تلك القشرة الزائفة التي كانت تُغطي كل شيء، وظهر الوجه الحقيقي لكل شيء. كانت هذه الفكرة تُبهجه، لأن الأديان القديمة لم تكن قوانين أخلاقية، بل أسرار مُتعلقة بالروحانيات، ومنحت فرصة للبشر الذين اكتشفوا السحر القديم. أظن أنه أراد الفوز بكل ما قد تُقدِّمه له الحضارة، ثم يُدمرها، فلم تكن كراهيته لبريطانيا إلا جزءًا من كراهيته لكل ما يُحبه البشر ويُقدرونه. كان الفوضوي العادي أحمق في نظره، لأن مدن ومعابد الأرض بأسرِها لم تكن تضحيةً كافيةً لإرضاء غروره. أصبحتُ أدرك الآن ما يَعنيه القوطي والهوني، وكيف كانت طباع الجلادين على غرار أتيلا وتيمور لَنك. قد تقول إنهم مَجانين. نعم، لا شك في أنهم كانوا مجانين، ولكن كان جنونهم من أكثر أنواع الجنون إقناعًا. كنتُ أُجاهد لكي أُبقي على تركيزي مُنصبًّا على مهمتي، ولأمنع أعصابي عن الانهيار.

خلدتُ للنوم في الليلة الأخيرة من شهر مايو في حالة أقرب إلى اليأس، وأذكر أني ظللتُ أعزِّي نفسي مستخدمًا الكلمات التي قلتُها لماري، أن المرء يجب أن يواصِل العمل حتى النهاية دون أن يفقد الثقة في أن الحظ قد يتغيَّر في الدقائق العشر الأخيرة. فتحتُ

عينَي على صباح رائع، وعندما هبطتُ إلى الطابق الأرضي لأتناول إفطاري، كنتُ أشعر بمعنوياتي مرتفعة إلى حدٍّ ما. عرض عليَّ مِدينا أن أصحبه للعدْوِ في الريف والتنزُّه سيرًا عبر مرتفعاتٍ ما. وقال: «ستفتتح هذه النزهة شهيتنا لعشاء يوم الخميس.» ثم صعد إلى الطابق العلوي ليتلقى مكالمة هاتفية، وكنت في غرفة التدخين أملأ غليوني بالتبغ عندما دخل جرينسليد عليَّ الغرفة بغتةً.

لم أستمع ما كان يقوله، فقد سحبتُ ورقةً وكتبت عليها رسالة: «خُذ هذه الرسالة إلى رئيس حرس النادي وسيُعطيك أي برقية موجهة لي. إذا كانت ثمة برقية من جاوديان، ولا بد من أن واحدةً قد وصلته، فأرسِل له برقيةً مفادها أن ينطلِق على الفور ويذهب مباشرةً إلى جوليوس فيكتور. ثم أرسل برقية إلى الدوق لتُخبره بأن ينتظره هناك. هل فهمت؟ والآن، بمَ تريد أن تخبرني؟»

«لا شيءَ سوى أن زوجتك تقول إن الأمور تسير على خير ما يرام. يجب أن تذهب الليلة إلى حقول جنة عدن في العاشرة والنصف. كما يجِب أن تحصل بطريقةٍ ما على مفتاح هذا المنزل، وأن تتأكَّد من ألا يُغلَق الباب بالسلاسل.»

«هل ثمة شيء آخر؟»

«لا شيء آخر.»

«وماذا عن بيتر جون؟»

كان جرينسليد يستفيض في الحديث عن بيتر جون عندما دخل مِدينا الغرفة. «جئتُ لأخبر السير ريتشارد أن ما حدث لابنه كان إنذارًا كاذبًا. لا شيء سوى حُمَّى الربيع. كان الجرَّاح مستاءً للغاية من أخذه كل هذه المسافة من أجل لا شيء. رأت الليدي هاناي أنه يجدُر به أن يسمع تلك الأخبار مني شخصيًّا حتى يذهب في عطلته مرتاح البال.»

اختصرت الحديث معه حتى يرى مِدينا أن أفكاري لم تعُد منصبةً على أسرتي. بينما كنا نمضي بالسيارة في طريقنا إلى ترينج، تحدثتُ عن العطلة المرتقبة كما لو كنتُ صبيًّا مُتملقًا طُلِبَ منه أن يقضي أسبوع مهرجان الكريكيت مع شخصٍ مُسن. قال مِدينا إنه لم يُحدد المكان، ولكنه سيكون في الجنوب حيث الشمس المشرقة؛ ربما الجزائر وأطراف الصحراء، أو الأفضل أن نذهب إلى مكانٍ ناءٍ على شاطئ المتوسِّط حيث يُمكننا أن نستمتع بأشعة الشمس ومياه البحر الزرقاء. كان يتحدَّث عن الشمس وكأنه أحد عبدة النار. كان يريد أن يغمس أطرافه فيها ويغسل روحه في الضوء، ويسبح في مياه دافئة. كان يتحدَّث بنشوة شاعر، ولكن ما لفَتَ نظري في نشوته الشعرية تلك أنها لم تكن تحمِل أي مشاعر.

كان الجسم البشري تابعًا خانعًا لعقله، ولا أعتقد أنه كان يشعر بأي شهواتٍ جسدية. كان كل ما يُريده هو طريق مضيئة لروحه.

سِرنا طوال اليوم على التلال المُحيطة بقرية أيفنهو، وتناولنا غداءً متأخرًا في حانة القرية. لم يتحدَّث كثيرًا، بل كان يسير على المنحدرات المُغطاة بنبات الزعتر ناظرًا أمامه في ثبات. تحدث مرةً واحدةً عندما كنا نجلس على القمة بعدما أطلق زفرةً وتجهَّم وجهه بشدة للحظة.

ثم سألني بغتة: «ما هي أقصى متعة؟ هل هي تحقيق الهدف؟ لا. بل الزهد.»

علَّقتُ قائلًا: «هذا ما سمعتُ الكهنة يقولونه.»

ولكنه لم ينظر نحوي. «أن تملك كل ما يتوق إليه البشر، ثم تُنحِّيه جانبًا. أن تكون إمبراطور الأرض، ثم تنسلُّ من جنس البشر وترتدي النعال وتُمسك وعاء الصدقات. الإنسان الذي يُمكنه تحقيق ذلك، سيكون قد غزا العالم؛ لن يكون مجرد ملك، بل إله. ولكن يجب أن يكون ملكًا أولًا لكي يتمكن من تحقيق ذلك.»

لا أعتقد أني سأتمكن من وصف الجوِّ العام لذلك المشهد، قمة التل العارية وسط سماء الصيف الزرقاء، وذلك الرجل الذي، حسبما ظن، يقترب من قمة النجاح، ثم يبدأ فجأة بالتشكيك في جميع القِيَم التي وضعها البشر. طوال فترة تعامُلي مع مِدينا، كنتُ مهووسًا بالشعور بالدونية مقارنةً به، بحيث كنت أُشبَّهُ بحصان العربات الأجرة بينما يبدو هو كحصان عربي أصيل، ولكني شعرت الآن بصدمةٍ هائلة. كان ذلك من نوعية ما كان نابليون سيقوله، وسيفعله، لو لم تفشل خُططه. كنت أعلم أني أناضل شيطانًا، ولكني كنت أعلم أيضًا أنه شيطان عظيم.

عُدنا إلى المدينة قبل العشاء بفترة تكفي لتغيير ملابسنا، وعاد قلقي يتأجَّج من جديد بقوة أكبر بألف مرة. كانت تلك ليلة الكارثة، وكنتُ أكره أن أورِّط نفسي في أي شيءٍ طارئ في ساعة متأخِّرة من اليوم. يجِب أن تحدث هذه الأمور في الصباح الباكر. كان الأمر يبدو أشبَهَ بمُعاناة الجنود في فرنسا خلال الحرب، ولكني لم أكن أمانع أن يحدُث في ساعات الفجر، عندما يكون المرء مُكتئبًا ونصف مُستيقظ بالفعل، ولكني كنتُ أنقِم على الهجوم الذي يحدُث في ضوء النهار الساطع، أو في وقت الغروب عندما يرغب المرء في الاسترخاء.

أذكر أني حلقتُ لحيتي في تلك الليلة بعناية، كما لو كنتُ أجهز نفسي لأكون قربانًا. كنتُ أسأل نفسي عما سيكون عليه شعوري عندما أحلق لحيتي المرة القادمة. وكنتُ أتساءل عما كان يفعله ساندي وماري.

لم أكن أعرف ما كان ساندي وماري يفعلانه في تلك اللحظة تحديدًا، ولكن يُمكنني أن أقصَّ عليكم الآن أحداثًا كانت تقع في تلك اللحظة لم أكن أعلم عنها شيئًا. كان ميركوت وجاوديان يشربان الشاي على متن قطار ميدلاند السريع، بعدما كاد عُنقاهما أن ينكسِرا في حادثٍ أثناء انطلاقهما بالسيارة بسرعة جنونية ليلحقا بالقطار المُتَّجه إلى هاويك. كان الأول نظيفًا وحليق الوجه، وصفَّف شعره بعناية، وكان يرتدي بذلةً صوفية جاهزة على مقاسه تمامًا. كانت الشمس قد لوَّحَت بشرته بشدة، وكان متحمسًا للغاية، وكان دائمًا ما يُقاطع قراءة جاوديان لأعمال السير والتر سكوت.

سأله قائلًا: «سيتحرَّر نيوهوفر اليوم. ماذا تظن أنه سيفعل؟»

جاءت الإجابة: «لن يفعل شيئًا؛ لوهلة على الأقل. لقد قلتُ له أمورًا مُحددة. لا يمكنه العودة إلى ألمانيا علنًا، ولا أظن أنه يملك الجرأة ليعود إلى إنجلترا. إنه يخشى انتقام ربِّ عمله منه. سيختفي لبعض الوقت، ثم يظهر ليرتكب جريمةً جديدة باسمٍ جديد ووجه جديد. إنه المحتال الأزلي.»

تهلَّل وجه الشاب في سرور. وقال: «إذا عشتُ إلى سنِّ المائة، لا أظن أني سأستمتِع بأي شيءٍ مثلما استمتعتُ بتلك اللَّكمة التي وجهتها إلى فكه.»

* * *

في غرفةٍ داخل منزل ريفي يقع على الحدود بين ميدلسيكس وباكس كان توربين يتحدَّث إلى فتاة. كان يرتدي ملابس سهرة لم يغفل عن أدقِّ تفاصيلها، وكانت الفتاة ترتدي فستانًا جميلًا أنيقًا بلون أخضر عشبي. كانت تضع الكثير من مساحيق التجميل على وجهها، وكان ثمة تناقُض غريب بين شفتَيها الحمراوَين وحاجبَيها الثقيلَين من ناحية، وبشرتها البيضاء الشاحبة كالموتى من ناحية أخرى. ولكن وجهها كان مختلفًا عن الوجه الذي رأيتُه للمرة الأولى في قاعة الرقص. كانت الحياة قد عادت إليه، ولم تعُد العينان خاويتَين مثل الحصى، بل عادتا نافذتَين للروح. لم يختفِ الخوف والحيرة بالكامل من هاتَين العينَين، ولكنهما عادتا لتكونا عينَين بشريَّتَين، وكانتا تبرقان في تلك اللحظة بحبٍّ جامح.

قالت: «أنا مُرتعبة. يجب أن أذهب إلى ذلك المكان اللعين مع ذلك الرجل اللعين. أرجوك يا أنطوان، أرجوك، لا تتركني. لقد أخرجتني من القبر، ولا يُمكنك أن تتركني أعود إليه مجددًا.»

ضمَّها إليه وداعب شعرها.

وقال: «أعتقد أن هذه هي — ما الكلمة التي يُطلقونها عليها؟ — الجولة الأخيرة. حبيبتي، لا يُمكننا أن نخذل أصدقاءنا. سأُتبعكِ قريبًا. هذا ما قاله لي الرجل الحزين الوجه الذي لا أعرف اسمه، وهو صديق. ستُقِلُّني سيارة بعد نصف ساعةٍ من مُغادرتكِ مع ذلك المدعو أوديل.»

سألته: «ولكن ما الذي يَعنيه كل ذلك؟»

«لا أعرف، ولكني أظن، بل أنا واثقة، من أن هذا كله من ترتيب أصدقائنا. فكِّري في الأمر يا صغيرتي. أحضروني إلى المنزل الذي أنتِ فيه، ولكن سجانيكِ لا يعلمون بوجودي. عندما وصل أوديل، نبَّهني أحدٌ ما، وحبسني في غرفتي. ولم يُسمَح لي أن أخرج منها. لم أحظَ بأي تمارين سوى التدرب على الملاكمة مع ذلك الخادم الإنجليزي الكئيب. لا شك في أنه ودود للغاية، ومكَّنني من الحفاظ على لياقتي. كما أنه جيد في الملاكمة، ولكني تدربتُ على يد جولز، ولم يكن ندًّا لي. ولكن عندما أصبح الوضع آمنًا، سُمِحَ لي برؤيتكِ، ولقد أيقظتكِ من نومكِ يا أميرتي. لذا، كل شيءٍ يسير على خير ما يُرام حتى الآن. أما بشأن ما سيحدُث الليلة، فأنا لا أعرف، ولكني أظنُّ أنها ستكون نهاية معاناتنا. لقد أخبرَني الرجل الحزين الوجه بذلك. إذا عدتِ إلى ذلك المرقص، أظنُّ أنني سأكون في إثركِ، وحينئذ سنعرف ما علينا فعله. لا تخافي يا صغيرتي. كل ما ستفعلينه هو أن تعودي أسيرة، ولكن كمُمثلة تؤدي دورًا، وأنا على يقينٍ من أنكِ ستؤدين دوركِ ببراعة. ولا تسمحي لذلك الرجل أوديل بأن يشكَّ في أمرك. سآتي على الفور، وأعتقد أنَّنا سنُبلَّغ بما علينا فعله، كما آمُل أن نتمكن من عقاب المجرمين.»

دخل الخادم ذو الوجه الخالي من التعبير وأشار للشابِّ الذي قبَّل الفتاة وتبِعَه. بعد بضع دقائق، كان توربين في غرفته وباب الغرفة مُغلق عليه. ثم سُمِع صوت إطارات سيارة في الخارج، وكان ينصت بابتسامةٍ تملأ وجهه. وبينما كان يقف أمام المرآة ليضع اللمسات الأخيرة على شعره الناعم، كان لا يزال يبتسِم، ابتسامةً متوعِّدة.

* * *

كانت أحداث أخرى، لم أكن أعرف عنها شيئًا، تجري في تلك الليلة. من مكتبٍ مُتواضع مُعين بالقرب من تاور هيل، خرج سيدٌ محترمٌ مُتجهًا نحو شقتِه في مايفير. كانت سيارته تنتظِرُه عند ناصية الشارع، ولكنه فوجئ عندما ركِبَها أن شخصًا ما رَكِبَها

أيضًا من الناحية الأخرى، ولم تصل السيارة في نهاية المطاف إلى شارع كلارجيس. كما أن المكتب الذي تركه مغلقًا ومقفلًا بالمزلاج، أصبح الآن مفتوحًا، وكان رجالٌ يعبثون بمحتوياته حتى ساعةٍ متأخرة من الليل، رجال لم يكونوا من موظَّفيه. كان صحفي بارز من أكبر مناصري الشعوب المقهورة في وسط أوروبا يتَّجِه إلى ناديه لتناول عشائه عندما طرأ أمر ما أخَّرَه وجعله يؤجل العشاء. كانت شركة النحاس الإسبانية في طريق لندن وول لا تزال أبوابها مفتوحة بعد ساعات العمل الرسمية، ولكن ليس لتقديم الغداء للعديد من السادة المُحترمين، بل كانت غرفها مُضاءة في تلك الليلة، وكان رجال لا يبدو عليهم أنهم من موظفي البلدية يفحصون وثائقها. وفي باريس، كان كونت فرنسي مُعين ذو ميول ملكية قد حجز مقصورةً في الأوبرا تلك الليلة بعد حفل العشاء الصغير الذي نظَّمه، ولكنه لم يصِل في موعده، الأمر الذي أزعج ضيوفه كثيرًا، ولم يكن أحد يرُد على الهاتف في شقتِه في شارع الشانزليزيه. على الطرف الآخر من الخط كان هناك رجلٌ فظٌّ لا يُحب الحديث. لم يعُد محاسب بارز من جلاسجو، كان أحد زعماء الكنيسة الوطنية الاسكتلندية، ومرشحًا مُحتملًا للبرلمان، إلى أُسرتِه تلك الليلة، وعندما أُبلِغت الشرطة بذلك، كانت إجاباتها غريبة. كان مكتب جريدة ذي كريستيان أدفوكات في ميلووكي، الجريدة ذات نِسَب التوزيع المُنخفضة في إنجلترا، الواقع بالقرب من شارع فليت، مُمتلئًا في حوالي الساعة السادسة بأشخاصٍ صامِتين منشغلِين، وأُخِذ مدير الجريدة، مصعوقًا وذاهلًا، في سيارة أجرة بواسطة رجلَين ضخمي الجثة لم يُحاولا حتى تعريفه بنفسيهما. بدا أن أحداثًا غريبةً تقع في جميع أنحاء العالم. لم تُبحر عدة سفن في موعدها المُحدد بسبب أشخاصٍ مُعينين على قوائم مسافريها؛ وقاطعت الشرطة فجأة اجتماعًا لمصرفيين بارزين في جنوا؛ واحتُلَّت مكاتب بعض من أكثر الناس احترامًا وفُحِصَت بواسطة رجال شرطة عجولين؛ لم تظهر العديد من المُمثلات الأنيقات لإسعاد جمهورهن، وتغيبت أكثر من راقصة جميلة عن مشهد تصفيق الجمهور المعتاد؛ وحُدِّدت إقامة سيناتور في غرب أمريكا، ومسئول كبير في روما، وأربعة نواب في فرنسا، وانخرط كاردينال الكنسية الكاثوليكية في الصلاة بعد تلقِّيه رسالة هاتفية. ووجد أحد أباطرة التعدين في ويستفاليا، والذي كان في زيارة عملٍ إلى أنتويرب، أنه من غير المسموح له أن يلحق بالقطار الذي حجزه. اختار خمسة رجال، جميعهم في مناصب كبيرة، وامرأة واحدة أن يُنهوا حياتهم بأيديهم، دون سببٍ واضح يعرفه أقرباؤهم، ما بين الساعتَين السادسة والسابعة. ووقعت حادثة مؤسفة في إحدى المدن الواقعة على ضفاف

نهر لوار حيث كان رجل إنجليزي، إقطاعي إنجليزي نموذجي معروف بين أوساط الصيد في شروبشاير، في رحلة بالسيارة إلى جنوب فرنسا عندما زاره رجلان فرنسيان من عامة الشعب، وكان حديثهما غير مُستساغ له. فأخرج شيئًا من جيب صديريته ووضعه في فمِه عندما أقدما على التعامُل بعنف معه، ووضعا شيئًا على مِعصَميه ليُكبلاهما.

* * *

كانت ليلة رائعة خالية من الغيوم عندما خرجتُ ومِدينا سيرًا على الأقدام لمسافة نصف ميل إلى شارع ميرفين. كنتُ قد تعرضتُ للكثير من العزلة والمُضايقة على مدار الأسابيع الماضية لدرجة أني نسيتُ اقتراب الصيف. بدا العالم مشرقًا فجأة، وعُبِّقَت الشوارع بتلك الرائحة التي تختلط فيها روائح أنواع عديدة من الزهور، هذا العبق، ورائحة الأرصفة الخشبية الساخنة والأسفلت هما رائحة الصيف المُميزة في لندن. كانت ثمة سيارات تنتظِر أمام أبواب المنزل، وكانت نساء ترتدي ملابس أنيقة تركبها؛ وكان رجال يسيرون في اتجاه حفل العشاء، وتبادلنا التحيَّات مع بعضهم؛ وكانت الأرض بأسرها تبدو وكأنها غارقة في الضحكات والسعادة. ولكني كنتُ بعيدًا كل البُعد عن هذا المشهد. بدوتُ وكأني أعيش على الجانب الآخر من حاجز يفصلني عن هذا العالم السعيد، ولم أتمكَّن من رؤية أي شيءٍ سوى رجل مُسن وحيد ذي وجهٍ حزين ينتظر غلامًا مفقودًا. مرت لحظة عندما كنا عند ناصية ميدان بيركلي عندما دفعتُ مِدينا بخشونة دون قصد، واضطررتُ لأن أُطبق يدَي وأعضَّ على شفتَي لأمنع نفسي عن خنقه في تلك اللحظة.

كانت غرفة الطعام في شارع ميرفين تُطل على جهة الغرب، وشكَّل صراع دائر بين أضواء المساء والشموع المُوزَّعة على المائدة مشهدًا خياليًّا من الزهور وأدوات المائدة. كان عدد المدعوين كبيرًا، خمسة عشر على ما أظن، وبدا أن الطقس الجميل جعل الجميع في حالةٍ معنوية عالية. كنتُ قد نسيت تقريبًا سمعة مِدينا بين الناس العاديين، وعدتُ لأنبهر مجددًا بدلالات شعبيته الواسعة. كان هو رئيس المجموعة في تلك الليلة، ولم أرَ في حياتي رئيسًا لحفل عشاء أفضل منه. كان يقول الكلمات المناسبة لكل واحدٍ من الحضور، وجلسنا حول طاولة كما لو كنَّا مجموعةً من الطلبة الجامعِيِّين يحتفلون بالفوز في مباراة كريكيت.

كنتُ أجلس على يمين الرئيس، بجوار برمينستر، وباليسار ييتس أمامي. كان محور الحديث في البداية حول سباق الخيول والمشاركة في سباق أسكوت، وكان مِدينا مطلعًا اطلاعًا غير عادي في هذا الموضوع. كان يملك الكثير من المعلومات المُسرَّبة من إسطبلات شيلتون، وأظهر لنا نفسه في هيئة الناقد المدقق لهيئاتها، وكذلك كان عليمًا بسلالات خيول السباق، وجعل برمينستر، الذي كان يظن أنه خبير في الأمور نفسها، يفغر فاه من فرط إعجابه. أظن أن عقلًا مثل عقله يمكنه أن يستوعب أي موضوع في لمح البصر، وكان يظن أن هذا النوع من المعرفة سيفيده، فلا أعتقد أن الخيل كانت تمثل له أكثر مما كانت تُمثله القطط.

ذات مرة خلال معركة السوم، ذهبتُ لتناول العشاء في قلعةٍ فرنسيةٍ تقع خلف خطوط العدو، حيث حللتُ ضيفًا على الابن الوحيد لصاحب المنزل. كانت قلعةً عتيقة تحتوي على بِرَك أسماك وشرفات، ولم يكن يعيش فيها سوى شخصَين، كونتيسة عجوز وفتاة في الخامسة عشرة من عمرها تُدعى سيمون. أذكر خلال العشاء أن رئيس الخدم الهَرِم صبَّ لي خمسة أكواب من أنواع مختلفة من النبيذ الأحمر لأنتقي النوع الذي أفضله. بعد ذلك، خرجتُ للتنزُّه في الحديقة مع سيمون تحت أضواء غسق أصفر رائعة، مشاهدًا أسماك الشبوط السمينة في البِرَك، ومنصتًا لصوت طلقات البنادق القادم من بعيد. شعرت في تلك اللحظة بالتناقض الحاد بين الشباب والبراءة والسلام وبين ذلك العالم الذي يتقاتل على بُعد دزينة من الأميال. الليلة انتابني الشعور نفسه، تلك المجموعة السعيدة من الرجال الوضَّائين العمليين المهذبين، والعالم الخفي القبيح المليء بالغموض والجرائم الذي يرأسه الرجل الجالس عند رأس الطاولة. من المؤكد أني لم أكن صحبةً مبهجة، ولكن لحسن الحظ كان الجميع يُحبون الثرثرة، وكنت أبذل أقصى ما في وسعي لأبتسم على ما يقول برمينستر من حماقات.

بعد قليل تحولت دفة الحديث بعيدًا عن الرياضة. كان باليسار ييتس يتحدَّث، وكان لون بشرته الطفولي النضر يتعارَض بصورة غريبة مع عينَيه الحكيمتَين وصوته العميق.

ردَّ على تعليقٍ وجَّهه ليثين قائلًا: «لا يُمكنني فهم ما يحدث. فجأة أصبح الحي التجاري في لندن مُرتعبًا، ولا أرى سببًا لذلك ضمن الحقائق التي وصلتني. كانت ثمة الكثير من حالات بيع الأسهم، بواسطة مُلاك الأسهم الأجانب في الأغلب، ولكن هناك عشرات

التفسيرات لذلك. لا، ثمة خطب، وهو، للأسف، يُشبه ما أذكر أنه حدث في يونيو عام ١٩١٤م. كنتُ ضيفًا على آل ويتنجتون حينئذ، وفجأة وجدنا كل شيءٍ ينهار؛ نعم، قبل عمليات الاغتيال في سراييفو. لعلكم تذكرون انهيار تشارلي إدموند؛ كان ذلك بسبب عدم الشعور بالأمان الذي هزَّ العالَم بأسره. ينتاب الناس من وقتٍ لآخر شعورٌ داخلي بأن أمرًا سيئًا سيحدث. وربما كانوا على حق، وقد بدأ بالحدوث بالفعل.»

قال ليثين: «يا إلهي! لا يُعجبني ذلك. هل ستنشب حرب أخرى؟»

لم يُجبْه باليسار بيتس على الفور. ثم قال: «يبدو ذلك. أقر لك بأن ذلك غير وارد، ولكن في واقع الأمر، جميع الحروب غير واردة حتى تجد نفسك في خضمها.»

صاح مِدينا: «محض هراء! لا يُوجَد أي شيء يدور في العالم قد يؤدي إلى نشوب حرب، فيما عدا تلك الشعوب شبه المُتحضرة التي تعدُّ الحرب وضعها الطبيعي. لقد نسيتم ما تعلمناه منذ عام ١٩١٤م. لن يمكن لفرنسا أن تدخل حربًا من دون أن تندلع فيها ثورة من النوع الذي ينجح، ثورة الطبقة المتوسطة.»

بدت الراحة على وجه برمينستر. وقال: «الحرب القادمة ستكون مريعة. طبقًا لقراءتي للمشهد، ستقل الخسائر بين الجنود كثيرًا، ولكن ستزداد الخسائر بين المدنِيين بصورة هائلة. سيكون أكثر مكان آمن هو الجبهة. سيُحاول الجميع التطوُّع في الجيش لدرجة أننا سنلجأ إلى نظام القرعة العسكرية لنُبقي الناس في الحياة المدنية. وسيُصبح القناصة هم الجنود العاديين.»

أثناء حديثه دخل شخص ما الغرفة، وصُعقتُ عندما وجدت أنه ساندي.

كان يبدو في لياقة بدنية رائعة، وكانت بشرته داكنة مثل التوت. غمغم ببضع كلمات اعتذار عن تأخُّره للرئيس، وربت على صلعة برمينستر، وجلس عند الطرف الآخر من المائدة. ثم وجَّه حديثه إلى النُّدُل قائلًا: «سأتناول الطبق الذي وصلتُم إليه. لا، لا أريد أسماكًا. أريد بعضًا من لحم البقر المشوي على الطريقة الإنجليزية، وإبريقًا من البيرة.»

أخذ الجميع يطرحون أسئلة عليه في نفس الوقت.

فقال: «وصلتُ منذ ساعة واحدة. كنتُ في الشرق، في مصر وفلسطين. وعدت أغلب الطريق إلى هنا على متن طائرة.»

أومأ لي برأسه، وابتسم إلى مِدينا ورفع إبريق البيرة نحو فمه.

كنتُ في مكانٍ يسمح لي بأن أراقب وجه مِدينا، ولكن لم تتغير تعبيرات وجهه حتى هذه اللحظة. كان يكرَه ساندي، ولكنه لم يعُد يخشاه، فقد بدأت خُططه تؤتي ثمارها

على أرض الواقع. كان يتعامل معه بأدب جم، وسأله بأكثر أساليبه ودًّا عن هدفه من الذهاب إلى هناك.

قال ساندي: «الطيران المدني. سأتولى تنظيم رحلات الحج إلى الأراضي المقدسة.» ثم سأل بيو: «هل ذهبتَ إلى مكة من قبل؟» فأومأ أن نعم. «لعلك تذكر زعماء القوافل الذين اعتادوا على تنظيم قوافل من بلاد الرافدَين. حسنًا، سأكون زعيم قافلة واسعة النطاق. وأنا على استعداد لجعل الحج في متناول الفقراء المدقِعين والضعاف الهزيلين. سأكون أكثر المُستفيدين من ديمقراطية الإسلام باستخدام سِربٍ من الطائرات المتداعية وبعضٍ من العشائر التي تعرف الشرق جيدًا. سأُخبركم يا رفاق على الفور بمجرد أن أُشهِر شركتي.» ثم وجه حديثه إلى باليسار بيتس قائلًا: «جون، أريدك أن تتولَّى عملية الإشهار.»

كان واضحًا أن ساندي يخلق جوًّا من الإثارة، ولم يأخُذه أحد على محمل الجد. جلس ساندي في مكانه بوجهه الأسمر البشوش الذي يبدو شابًّا وأنثويًّا بصورةٍ غريبة، بحيث لا يُمكن لأكثر الأشخاص تشككًا أن يرَوا فيه أكثر من مجرد رجلٍ إنجليزي مجنون يعيش من أجل المغامرة والتجارب الجديدة. لم يُوجِّه لي كلمةً واحدة، وكنت سعيدًا بذلك، فقد كنت مشوَّش الذهن تمامًا. ما الذي يَعنيه بظهوره في تلك اللحظة؟ ما الدور الذي يلعبه في أحداث الليلة؟ لن أتمكن من السيطرة على التوتر الذي قد يظهر في صوتي إذا ما اضطررتُ إلى التحدث إليه.

أحضر أحد الخدم رسالة إلى مِدينا الذي فتحها بلا مبالاة وقرأها. ثم قال وهو يضعها في جيبه: «لا رد.» خشيتُ للحظةٍ أنه ربما يكون قد وصلته أخبار عن قبض ماكجيليفراي على عصابته، ولكنه تصرف بطريقةٍ طمأنَتْني.

كان ثمة أشخاص يريدون من ساندي أن يُغير موضوع النقاش، خاصة فوليلاف والسيد الشاب من كامبريدج، نايتنجايل. كانوا يريدون منه أن يُحادثهم عن جنوب الجزيرة العربية، المنطقة التي كان العالم بأسره يتحدث عنها في ذلك الوقت. وكان ثمة رجل آخر، نسيت اسمه، يُحاول أن يُكَوِّن حملة لاستكشافها.

قال، متحدثًا الآن بجدية: «إنه السر الجغرافي الأخير الذي لم يُكشَف بعد. حسنًا، ربما ليس الأخير. قيل لي إنه لا تزال هناك بعض الأسرار في الروافد الجنوبية لنهر الأمازون. ويعتقد مورنينجتون أن ثمة احتمالًا للعثور على بعض قوم الإنكا الذين لا يزالون يعيشون في الوديان الشمالية غير المُكتشفة. ولكن لم تعُد في العالم أماكن غير مكتشفة. منذ بداية هذا القرن، حللنا جميع الألغاز القديمة التي جعلت العالم يستحقُّ العيش فيه. لقد وصلنا

إلى القطبَين، وإلى منطقة لاسا، وإلى جبال القمر. لم نصل إلى قمة جبل إيفرست بعد، ولكننا نعرف كيف تبدو. ومكة والمدينة قديمتان مثل بورنموث. ونعلم أنه لم يعد هناك شيء مذهل في وديان نهر البراهمابوترا. لم يتبقَّ الكثير مما يُثير خيال الناس، وسيكبر أطفالنا في عالمٍ مُملٍّ متقلص. فيما عدا جنوب صحراء الجزيرة العربية العظيم بالطبع.»

سأل نايتنجايل: «هل تظن أنه يمكن عبورها؟

من الصعب الجزم بذلك، والرجل الذي سيحاول أن يفعل سيعرض نفسه لمخاطر جمة. لا أتصور نفسي أعيش حياة كل ما أفعله فيها هو حلب الإبل. إنها كائنات خطرة.»

قال فوليلاف: «لا أعتقد أنه يُوجَد أي شيء هناك فيما عدا ثمانمائة ميل من الرمال الناعمة.»

«لستُ متأكدًا. لقد سمعتُ قصصًا عجيبة. التقيتُ ذات مرة برجل في عُمان سافر غرب واحة مَنَح ...»

قطع حديثه ليتذوَّق خمر ماديرا الذي يُقدمه النادي، ثم وضع الكوب على المائدة ونظر إلى ساعته.

وقال: «يا إلهي! لا بد أن أنصرف. معذرةً، سيدي الرئيس، ولكني شعرت أنه يجب أن أراكم جميعًا مرةً أخرى. هل تمانع تطفُّلي عليكم؟»

كان في منتصف المسافة نحو الباب عندما سأله برمينستر إلى أين هو ذاهب.

فقال: «للبحث عن إبرة في مرعى منعزل. أقصد أنني سأستقل قطار العاشرة والنصف من محطة كينجز كروس. أنا في طريقي إلى اسكتلندا لرؤية والدي. لعلك تذكر أني آخِر من تبقى من عائلة عريقة. إلى اللقاء، جميعكم. سأخبركم بخُططي عندما نلتقي على العشاء المرة القادمة.»

عندما أُغلِق الباب من خلفه، شعرتُ بحالة اكتئاب ووحدة هي الأكثر قتامة على الإطلاق. كان أهم حلفائي، وجاء ورحل كسفينة تحت جنح الليل، من دون أن يوجِّه كلمة واحدة لي. شعرت وكأني وطواط أعمى، ولا بدَّ من أن مشاعري انعكست على تعبيرات وجهي، لأن مدينا رآها، وأكاد أجزم أنه أرجعها إلى مَقتي لساندي. طلب من باليسار ييتس أن يأخذ مكانه. «لن أذهب للحاق بالقطار الاسكتلندي السريع مثل أربوثنوت، ولكني سأذهب في عطلة في القريب العاجل، ولدَي موعد يجِب أن ألتزم بحضوره.» صبَّ ذلك في صالحي، فلم أكن أعرف ما الحجة التي سأقولها له حتى أتمكن من الذهاب إلى حقول جنة عدن. سألني عن موعد عودتي، فقلتُ إنني سأعود في خلال ساعة. فأومأ

برأسه. وقال: «سأكون في المنزل عندما تعود، وسأفتح لك الباب إن كان أوديل قد نام.» ثم مازح برمينستر وانصرف، ولم ينمَّ أسلوبه المرح عن أنه قد تلقى أي أخبارٍ سيئة. انتظرتُ خمس دقائق ثم انصرفتُ أيضًا. وكانت الساعة تشير إلى العاشرة والربع.

* * *

عند مدخل النادي في شارع ويليسلي، توقعتُ أن أواجه صعوبةً في الدخول، ولكن الرجل الجالس في الكشك عند قمة الدرج تركني أمرُّ بعدما ألقى عليَّ نظرةً فاحصة. لم يكن الرجل نفسه الذي كان هناك عندما زرتُ آرتشي رويلانس، ولكن انتابني شعور غريب بأني رأيتُ وجهه من قبل. خطوت إلى داخل قاعة الرقص التي كانت مُعبَّقة بتلك الرائحة الثقيلة وتدقُّ فيها تلك الموسيقى الشيطانية البشعة، وجلستُ إلى طاولة عند أحد الجوانب وطلبت خمرًا.

كان المكان مختلفًا، ولكنِّي لم أتمكَّن من تحديد الاختلاف للوهلة الأولى. بدا كل شيءٍ على حاله؛ وكان الوجه الوحيد الذي أعرفه هو وجه الآنسة فيكتور الذي كان يحمِل نفس الشحوب الذي يُشبه القناع؛ كانت تُراقص صبيًّا بدا وكأنه يحاول التحدث إليها والحصول على بعض الردود. لم أرَ أوديل أو اليهودي ذا اللحية. نظرتُ باهتمامٍ إلى النافذة الصغيرة في الأعلى التي كنتُ أنظر عبرها عندما سطوتُ على متجر التحف. كان عدد رواد المكان الليلة أقلَّ من السابق، ولكن كان يبدو أنهم من الطبقة نفسها.

لا، ليس من الطبقة نفسها تمامًا. كانت النساء من الطبقة نفسها، ولكن الرجال كانوا من طبقةٍ مختلفة. كانوا أكبر سنًّا ويبدون أكثر — كيف أصيغ الوصف؟ — مسئولية، ولم تبدُ على هيئاتهم أنهم شركاء الرقص المحترفون أو الشباب المُسرفون في السُّكْر. كانوا ثقيلي الحركة أيضًا رغم كونهم مؤدِّين جيدِين. انتابني شعورٌ بأن أغلب هؤلاء الرجال ليسوا من الزبائن المُعتادين لمكان من هذا النوع وأنهم أتوا إلى هنا لغرضٍ ما.

بمجرد أن طرأت عليَّ هذه الفكرة، بدأتُ ألاحظ أمورًا أخرى. كان عدد النُّدُل الأجانب أقلَّ من المعتاد، وكان يقلُّ أكثر بصورةٍ ثابتة. كانت المشروبات تُطلَب، ولكنها تتأخَّر حتى تصل، وبدا أن أي خادم كان يُعتقل لأسبابٍ مجهولة بمجرد أن يخرج من القاعة. ثم لاحظتُ شيئًا آخر. كان ثمة وجه يُطل علينا من النافذة الصغيرة في الأعلى؛ تمكنتُ من رؤيته كما لو كان شبحًا يختفي خلف الزجاج المُتسخ.

بعد قليل ظهر أوديل متألقًا مُتأنقًا في زيِّ السهرة، وكان يضع زرًّا ماسيًّا في قميصه، ومنديلًا حريريًّا أحمر اللون في كمِّه الأيسر. كان يبدو ضخمًا ومُخيفًا، ولكنه كان أكثر

بدانةً من ذي قبل، وكانت عيناه الضيقتان تلمعان بشدة. ظننتُ أنه تناول كأسًا أو اثنتَين، فقط ما يكفي لتنشيطه. كان يسير مزهوًّا بين الطاولات الصغيرة، مُلتفتًا من وقتٍ لآخر ليُحدق في الفتاة ذات الثوب الأخضر، ثم خرج من القاعة مُجددًا. نظرت إلى ساعتي ورأيتُ أنها أصبحت تشير إلى الحادية عشرة إلا الربع.

عندما رفعت رأسي، رأيت أن ماري قد وصلت. لم تكن تضع أي مساحيق تجميل أو ترتدي أي ملابس غريبة. كانت ترتدي فستانًا أزرق اللون فاتحًا كانت قد ارتدتْه من قبل في حفل هانت الراقص في شهر مارس، وكان شعرها مصففًا بطريقةٍ بسيطة أعجبتني، أظهرت شدة اللَّمعان والظلال في شعرها الذهبي. دخلت المكان وكأنها ملكة شابة، ومسحت المكان بعينَيها سريعًا، ثم أخفت عينَيها بيدِها وهي تنظر نحو النافذة في الأعلى. لا بد أنها إشارة، فقد رأيتُ يدًا تُلَوِّح.

بينما كانت تقف في مكانها ثابتة وفي وضع استعدادٍ يُشبه العدَّائين، توقفتِ الموسيقى فجأة. وتحدث الرجال القليلون الذين لا يزالون يرقصون إلى شريكاتهم وتحركوا ناحية الباب. رأيتُ اليهودي الملتحي يدخل متعجلًا وينظر حوله. لمس رجلٌ ذراعَه وجرَّه بعيدًا، وكانت تلك آخِر مرة أراه فيها.

ثم ظهر أوديل فجأة. لا بد أنه تلقَّى تحذيرًا تطلَّب منه أن يفعل شيئًا ما على الفور. لن أعرف أبدًا ما هو، ولكن ربما يكون قد تلقَّى أمرًا بجمع أشخاص، والمسار المُتَّبع وصولًا إلى الرهائن. أشار في حزم إلى الآنسة فيكتور وتقدم نحوها كما لو كان سيجرُّها من ذراعها. سمعتُه يقول: «يجب أن تأتي معي»، بينما لفتَ نظري شخصٌ جديد.

كان توربين موجودًا، شابٌّ شاحب مُهندم بحاجبَين معقودين أذكرهما منذ الأوضاع الحرجة التي مررْنا بها في فرنسا. أسرعتِ الفتاة ذات الثوب الأخضر لتقِف بجوار ماري، وتَحرك توربين نحوَها.

وقال: «حبيبتي أديلا، أظن أنه قد حان وقت عودتكِ إلى منزلكِ.»

رأيتُ بعد ذلكَ يدَ الآنسة فيكتور تتعلق بذراعه وأوديل يتقدَّم نحوهما وقد تورَّد وجهه الشاحب.

وكان يقول: «اترك هذه الفتاة. لا شأن لك بها. إنها فتاتي.»

كان توربين يبتسم. وقال: «لا أظن ذلك يا صديقي.» ثم تخلَّى عن ذراع أديلا وأخفاها خلفه، وبحركةٍ مفاجئة، كال لأوديل صفعةً مدوية على وجنتِه براحة يدِه.

اشتعل غضب الرجل بشدة. وأطلق سبابًا سوقيًّا، وقال: «اللعنة! صديقي الذكي، لديَّ شيء من أجلك في قبضتي. إنها حبة منومة.»

كنتُ على استعدادٍ لأن أتخلى عن ثروتي في مقابل أن أكون مكان توربين، فقد كنتُ أشعر أني أحتاج إلى شجارٍ لكي تهدأ أعصابي المرهقة. ولكني لم أهبَّ لنجدته، فقد بدا جليًّا أنها معركته الشخصية، وسرعان ما أدركتُ أنه لا يحتاج إلى مساعدتي.

كان يبتسم ابتسامةً واثقة وهو يدور حول الملاكم الذي رفع قبضتَيه أمام وجهه. وصاح في وجهه قائلًا: «ابتعد عني. صديقي، سأقتلك.»

سرتُ نحو ماري، فقد أردتُ أن أُخرِج النساء من المكان، ولكنها كانت منشغلةً بتهدئة الآنسة فيكتور التي جعلتها ضغوط الليلة على حافة الانهيار. ولذلك، لم أرَ إلا أجزاء من القتال. حافظ توربين على مسافة كافية بينه وبين أوديل، فالقتال من مسافةٍ قريبة معه قد يودي به إلى حتفه، ثم أرهقَه بحركاته السريعة حتى انكشف سوء تدريب الملاكم المحترف وانقطعت أنفاسه. عندما رأى الفرنسي أن خصمَه قد تعب وشحبت وجنتاه، بدأ هجومه. رأيتُ هذا الجزء من العراك، وآمُل أن ماري والآنسة فيكتور لم تفهما لغةَ توربين، فقد كان يتحدث مع نفسه برفقٍ طوال الوقت، ولكنه كان يقول جميع الشتائم التي ابتكرها الجنود الفرنسيون خلال سنوات الحرب الأربع. منحَتْه ذراعُه الطويلة أفضلية، وكان خفيف الحركة وكأنه مبارز، وكانت ذراعاه تلكمان بقوة تُضاهي مطرقةً بخارية. أدركتُ ما لم أعرفه مسبقًا، وهو أن نحافته تلك خادعة، وإذا ما نحَّينا نحافته جانبًا، سنجد أن جسده كتلة ممتازة من الأوتار والعظام. كما أدركتُ أن الرجل الضخم، مهما بدا قويًّا، سيسقط أمام سرعة الحركة والبديهة ورشاقة الشباب، خاصة إن كان غير مُدرب ومخمورًا إلى حدٍّ ما.

استمر العراك بينهما لأكثر بقليلٍ من ست دقائق. كانت أقوى لكمات توربين تضرب جسد أوديل، إلا أن اللكمة القاضية ضربت نقطةً ما من ذقنه. فتكوم الرجل الضخم على الأرض بلا حراك، واصطدمت مؤخرة رأسه بالأرض. لف توربين حفنةً من المناديل حول براجمه التي جُرحت بسبب زر أوديل الماسي، ثم نظر حوله.

وقال: «ماذا نفعل بهذا الحثالة؟»

أجاب أحد الراقصين. «سنتولى أمره يا سيدي. لقد سيطرنا على المكان بأكمله. هذا الرجل مطلوب في الكثير من القضايا.»

سِرت نحو أوديل الطريح أرضًا وأخذت المفتاح من جيب حزامه. كان توربين وأديلا قد انصرفا، بينما وقفت ماري تُراقبني. لاحظتُ أنها كانت شاحبة بشدة.

قلت: «سأتَّجِه إلى شارع هيل.»

فأجابتني قائلة: «سأتبعك لاحقًا. وآمُل أن آتي في أقل من ساعة. سيسمح لك المفتاح بالدخول. وثمة أشخاص هناك سيتركون الباب مفتوحًا من أجلي.»

كان باديًا على ملامحها القلق ونظرة ذاهلة شبيهة بتلك التي كانت تعلو وجه بيتر بينار الراحل أثناء مطاردة طريدة كبيرة. لم يتفوَّه كِلانا بكلمة أخرى. ركبت ماري سيارة كبيرة كانت تنتظرها في الشارع، واتجهتُ سيرًا نحو ميدان رويستون لأركب سيارة أجرة. ولم تكن الساعة قد دقَّت الحادية عشرة بعد.

الفصل التاسع عشر

ليلة الأول من يونيو، في وقتٍ لاحق

في تلك الليلة بعد الحادية عشرة بقليل، كان من يتجول في ميدان بالميرا في تلك الساعة المتأخرة سيرى ظاهرة من النادر حدوثها في هذا الحي القذر. توقفت سيارة كبيرة أمام بوابة المنزل رقم ٧، حيث يسكن معلم الموسيقى الذي كان قد أوى إلى فراشه منذ فترة طويلة. ترجلَت منها امرأة، ترتدي عباءة داكنة وتحمل لفافةً في يدها، ووقفت مكانها للحظات تنظر إلى الجانب الآخر من الشارع إلى حيث تُلقي أشجار الدردار النحيلة في منتصف الميدان بظلالها. بدا أنها وجدت في تلك البقعة ما كانت تتوقَّع رؤيته، فأسرعت الخطى نحو بوابة المنزل رقم ٤. لم تقترب من مدخل المنزل الأمامي، بل ركضت في الممر نحو الباب الخلفي الذي يُستقبل منه الباعة، وبمجرد أن اختفت عن الأنظار، ظهر العديد من الأشخاص من بين الظلال وتحركوا نحو البوابة.

فتحت الآنسة أوتوايت الباب عندما سَمِعَت طرقاتها. وهمست بينما المرأة تمر من جوارها متجهةً إلى المطبخ المظلم: «لقد تأخرتِ يا آنسة.» ثم شهقت عندما رأت التغيرات التي طرأت على مساعدة الكاهن. لم تعد تلك العانس الذابلة التي رأتها سابقًا، بل أصبحت امرأةً مذهلة، ترتدي ملابس أنيقة تُناسبها، وكانت جميلة بشكل ملحوظ.

قالت: «لقد أحضرتُ لك قبعتكِ يا إلسي. إنها قبعة جميلة، وأظن أنها ستعجبكِ. والآن اذهبي على الفور وافتحي الباب الأمامي.»

شهقت الفتاة، قائلةً: «ولكن، المدام ...»

«لا عليكِ من المدام. انتهت علاقتكِ بالمدام.» ثم أعطتها قصاصةً من الورق، وقالت: «ستأتين غدًا للقائي في هذا العنوان. سأتأكد من أنك لن تُعاني. والآن أسرعي يا عزيزتي.»

بدت الفتاة مُنوَّمةً مغناطيسيًّا، واستدارت لتُنفذ الأمر. تبعتها مساعدة الكاهن، ولكنها لم تنتظر في الردهة. بل صعدت الدرَج عدوًا بخفةٍ مرشدةً نفسها باستخدام

مصباح يدوي صغير، وعندما انفتح الباب الأمامي ودخل منه أربعة أشخاص، كانت قد اختفت.

على مدار ربع الساعة التالي، كان أي من المارَّة الفضوليين سيلاحظ الأضواء التي كانت تُضاء ثم تُطفئ في أكثر من غرفة من غرف المنزل رقم ٤. ولربما سمع أيضًا أصوات أحاديث منفعلة خفيضة. وفي نهاية تلك الفترة، كان سيرى مساعِدة الكاهن تهبط الدرج وتدخل السيارة الكبيرة التي تحركت لتقف أمام البوابة. وكانت تحمل شيئًا بين ذراعَيها.

وفي داخل المنزل، كانت امرأة غاضبة تُعاني مع الهاتف الذي لم تتمكن من إجراء أي اتصال منه لأن خطه قد قُطع. وكانت امرأة عجوز جالسة في مقعد بجوار المدفأة تُرغي وتُزبد بوجه كالموت.

عندما وصلتُ إلى شارع هيل، انتظرتُ حتى غادرَت سيارة الأجرة قبل أن أدخل المنزل. كان رجل يقف في شرفة المنزل على الجهة المقابلة من الشارع، وبينما كنتُ أنتظر، مرَّ بي رجل آخر وأومأ لي برأسه. وقال: «مساء الخير، سير ريتشارد»، ورغم أني لم أكن أعرفه، فقد عرفت من أرسله. كانت معنوياتي في أدنى مستوياتها، ولم يتمكن أي شيء من رفعها، حتى تلك الترتيبات. فقد كنتُ أعرف أنه على الرغم من نجاحنا مع الآنسة فيكتور وميركوت، فقد فشلنا مع الحالة الأكثر أهمية. كنتُ سأحاول أن أخيف مِدينا أو أرشوه، وكنتُ أعرف أن محاولة أي من الأمرَين كان مقدرًا لها الفشل، فقد كان إعجابي به لا يزال يُغَلِّف روحي كضبابٍ أسود.

فتحتُ باب المنزل بالمفتاح الذي أخذته من أوديل وتركت الباب الضخم مواربًا. ثم أضأتُ أنوار الدرج وصعدت إلى المكتبة. تركتُ الأنوار مُضاءة، فسيحتاجها من سيتبعونني.

كان مِدينا واقفًا بجوار المدفأة التي وُضِعَت فيها الأخشابُ استعدادًا لحرقها. وكان قد ترك مصباحًا واحدًا مُضاءً كالمعتاد، المصباح الذي على مكتبه. كان يُمسك بورقةٍ في يده، إحدى الورقتَين اللتين كانتا في الدرج العلوي من المكتب، فقد رأيت مكتوبًا عليها التواريخ والخطوط المحذوفة. أظنُّ أنه كان يُحاول الاتصال بلا طائل بالمنزل الكائن في ميدان بالميرا. بدأ شكٌّ كبير يتسلَّل إلى نفسه، وكان يُحاول أن يعرف ما عليه فعله. كنتَ ستنخدع سريعًا بمظهره الهادئ؛ فقبل دقيقةٍ واحدة كنتُ مقتنعًا بأنه كان شديد الانشغال.

بدت الدهشة على وجهه عندما رآني.

فقال: «مرحبًا! كيف دخلت؟ لم أسمعك تدقُّ الجرس. لقد أخبرتُ أوديل بأن يذهب للنوم.»

كنتُ أشعر بضعف وخمول شديدَين وكنت بحاجة إلى الجلوس، فألقيتُ جسدي على مقعدٍ خارج دائرة الضوء الصادر عن المصباح.

وقلت: «نعم. أوديل نائم بالفعل. لقد فتحتُ باب المنزل بمفتاحه. لقد رأيت ذلك الملاكم القوي يفقد وعيَه بعدما تلقَّى لكمة في ذقنه من توربين. لعلك تعرفه، ماركيز لا تور دو بين».

كنت جالسًا في موقع استراتيجي جيد، مكَّنَني من رؤية وجهه بوضوحٍ ولكنه لم يكن يرى إلا مُحيط وجهي الخارجي فقط.

قال: «بحقِّ السماء ما الذي تتحدَّث عنه؟»

«تلقَّى أوديل لكمةً أفقدته الوعي. وأعاد توربين الآنسة فيكتور إلى والدها.» ثم نظرتُ إلى ساعتي. وقلت: «ومِن المفترض أن يكون اللورد ميركوت في لندن الآن، إلا إذا تأخَّر قطار اسكتلندا السريع.»

لا بدَّ أن موجة هائلة من الأفكار عصفت بعقله في تلك اللحظة، ولكن لم يبدُ على وجهه أي دلالة على ذلك. أصبح وجهه متجهمًا، ولكنه حافظ على رباطة جأشِه مثل قاضٍ.

وقال: «إنك تتصرَّف وكأنك جُننت. ما الذي حدث لك؟ لا أعلم شيئًا عن اللورد ميركوت؛ هل تعني ابن ألسيستر؟ ولا أعلم شيئًا عن الآنسة فيكتور.»

قلتُ في إرهاق: «أوه، نعم، بل تعرف.» لم أكن أعرف من أين أبدأ، فقد كنتُ أريد أن أعرفه بحقيقة كل ما يحدُث دفعةً واحدة. «إنها قصة طويلة. هل تُريدني أن أقصها عليك رغم أنك تعرفها كاملة؟» أعتقد أنني تثاءبت وكنت مرهقًا لدرجة أني تمكنتُ بالكاد من تكوين جُمَل مترابطة.

جاء رده: «أُصر على أن توضح لي هذا الهراء.» كان ثمة شيء واحد لا بد أنه أدركه في تلك اللحظة، أنه لم يعُد يملك أي سيطرةٍ عليَّ، فقد زم فمه وقطب جبينَه، وكأنه لم يكن ينظر إلى تابعٍ له، بل إلى عدوٍّ ونِد.

«لقد اختطفت وأصدقاؤك ثلاثة رهائن لأهداف تخصُّكم، وأصبحت مهمتي الأهم هي تحريرهم. تركتك تعتقد أن الهراء الذي مارسته عليَّ قد مكنكَ من السيطرة عليَّ، ما فعلته في هذه الغرفة، ونيوهوفر، ومدام بريدا، والمرأة العجوز الكفيفة، وكل هذه الأمور. عندما ظننتَ أنني مُخدَّر ومشوش، كنتُ في الحقيقة واعيًا تمامًا. كنتُ مُضطرًا لأن أسيء استغلال ضيافتك لي، قد تقول إني مارستُ عليك لعبة دنيئة، ولكني كنتُ أتعامل مع مُحتال.

ذهبتُ إلى النرويج بينما كنتَ تظنُّني طريح الفراش في فوسي، وعثرتُ على ميركوت، وأظنُّ أن نيوهوفر يشعر في هذه اللحظة أنه وضيع. وعثرتُ كذلك على الآنسة فيكتور. لم يكن العثور عليها صعبًا بمجرد أن عثرنا على حقول جنة عدن. أنت رجل بارع يا سيد مِدينا، ولكن لم يكن يجدُر بك أن تلقي قصائد ركيكة. اسمع نصيحتي والتزم بالشعر الراقي.»

لا بد أن الموقف بحلول هذا الوقت كان قد أصبح واضحًا له وضوح الشمس، ولكني لم أرَ اختلاجًا في أيٍّ من قسمات وجهه. أرفع قُبعتي احترامًا لأبرع مُمثل التقيتُه في حياتي، ثاني أبرع مُمثل بعد الكونت الألماني المدفون في مزرعة في جافريل. قال بصوتٍ هادئ مُتعقل خالف ما يُطل من عينَيه من مشاعر: «لا بد أنك جُننت.»

«أوه، لا! كم أتمنَّى لو كنتُ جُننت. كم أكره أن أفكر في أنه يمكن أن يوجد شيء بمِثل دناءتك في العالم. رجل خارق الذكاء مثلك لا يشغله في حياته إلا نشر غروره الفاسد! يجب أن تُدَمَّر مثل أفعى.»

اعتقدتُ فرحًا لوهلة أنه سيُهاجمني، فقد كنتُ أرحب في تلك اللحظة بالعراك أكثر من أي شيءٍ آخر في العالم. ربما راودَتْه هذه الفكرة، ولكنه كبحَها سريعًا. أطلَّت من عينَيه نظرة حزن وتأنيب.

ثم قال: «لقد أحسنتُ إليك، وعاملتك كصديق. وهكذا تكافئني. إن التفسير الوحيد الذي يُريحني هو أنك قد فقدت عقلك. ولكن من الأفضل أن تخرج من هذا المنزل.»

«ليس قبل أن تسمع ما أريد قوله لك. لديَّ عرض من أجلك يا سيد مِدينا. لا تزال ثمة رهينة ثالثة بين يدَيك. إننا على علم بالتحالُف الذي تتعاون معه، شركة المكسرات في برشلونة، والكونت اليعقوبي، وصديقك الصياد الشهير في شروبشاير. لقد أحاطت شرطة سكوتلاند يارد بقبضتها حول المجموعة منذ شهور، والليلة ستُحكِم عليهم هذه القبضة. لقد أُغلق هذا المتجر إلى الأبد. والآن، اسمعني، فلديَّ عرض من أجلك. لديك طموح الشيطان نفسه، وقد صنعت لنفسك اسمًا عظيمًا بالفعل. لن أفعل شيئًا من شأنه أن يلطخ سمعة هذا الاسم. وأقسم لك بأغلظ الأيمان أني سأحفظ السر. سأترك إنجلترا إن أردتَ. سأدفن ذكرى الشهور الماضية، ولن يُستخدَم ما عرفته عنك لعرقلتك عن تحقيق أهدافك. كما أنك ستحتاج إلى المال، لأن حلفك انهار. حسنًا، سأعطيك مائة ألف جنيه. وفي مقابل صمتي ومالي، أريد منك أن تُعيد ديفيد واركليف سليمًا مُعافًى. وأعني بسليم مُعافى أن تلغِي أي شيء فعلته لهذا المسكين.»

كنتُ قد قررتُ أن أقدم له هذا العرض بينما كنت آتيًا في سيارة الأجرة. كان المبلغ كبيرًا، ولكني أملك من المال أكثر من حاجتي، كما أن بلنكيرون يملك الملايين وسيساعدنا.

لم يُظهِر أي رد فعل على وجهه، أو يُبدي اهتمامًا، فقط تلك النظرة المتجهمة الحزينة.

قال: «يا لك من مسكين! أنت أكثر جنونًا مما ظننت.»

كان إعيائي ينحسر، وبدأت أشعر بالغضب.

فقلت: «إذا لم تقبل العرض، فسأُشَهِّر بك في العالم المتحضر بأسره. ما الفائدة التي ستعود على إنجلترا من خاطف ومبتز ودجال؟»

ولكني أدركتُ أثناء حديثي أن تهديداتي حمقاء. ارتسمت على شفتَيه ابتسامة تنمُّ عن الحكمة والشفقة، جعلت جسدي يرتجف من فرط الغضب.

وقال بهدوء: «لا، أنت من سيظهر أمام الناس مبتزًّا. فَكِّر في الأمر. أنت تتَّهِمني باتهاماتٍ فظيعة. لا أفهم تمامًا ما تقصده، ولكن من الجلي أنها اتهامات فظيعة، ولكن ما الأدلة التي لديك لتدعمها؟ أحلامك. من سيُصدقك؟ أنا محظوظ بأن لديَّ الكثير من الأصدقاء، وهم أصدقاء أوفياء.» كانت ثمَّة لمحة من الندم في صوته. «سيسخر الجميع من قصتك. لا شك في أن الناس سيشعرون بالأسى عليك، فأنت على قدرٍ معقول من الشهرة. سيقولون إن جنديًّا صالحًا، يشتهر بالشجاعة أكثر من الذكاء، قد جُن، وسيتحدثون كثيرًا عن الأضرار الطويلة الأمد للحرب. لا بد أن أحمي نفسي بالطبع. إذا أسأت لي، فسأقاضيك بسبب التشهير وسأطلب إخضاع قواك العقلية للفحص.»

كان مُحقًّا تمامًا. لا أملك أي دليل سوى كلامي. كنتُ أعلم أنه من المستحيل أن أربط بين مِدينا وما فعله التحالف، لقد كان ماهرًا للغاية ولم يتورط في أعمالهم. ستفضل والدته الكفيفة أن تموت على أن تتفوَّه بكلمة تُدينه، وأدواته لن يخونوه، لأنهم مجرد أدوات ولا يعرفون شيئًا. سيسخر العالم منِّي إذا قلتُ أي شيء. في تلك اللحظة، أظن أني وصلت إلى إدراكي الأول الكامل لمدى براعة مِدينا. كنت أمام رجل عرف للتو أن خططه المفضلة قد أُفسِدَت، وجُرِحَت كبرياؤه بعُمق بعدما عرف كيفية خداعي له، ولكنه كان لا يزال قادرًا على استخدام ما تبقى من ألعابٍ بكل هدوءٍ ودقة. لقد اصطدمتُ بخصمٍ لا مثيل له.

سألته: «ماذا عن المائة ألف جنيه إذن؟ هذا ما أعرضه في مقابل ديفيد واركليف.»

قال ساخرًا: «أنت بارع للغاية. كنت سأشعر بالإهانة لولا أنني أعرف أنك مجنون.»

جلستُ في مكاني أحدق في الجسد المحاط بهالة من ضوء المصباح الوحيد، والذي كان يتعاظم كلما أطلت النظر إليه، ويزداد شرًّا ألف مرة. رأيت رأسه المستدير القبيح،

وعينيه العديمتَي الرحمة، وتساءلت، كيف كنتُ أراه وسيمًا فيما مضى. ولكن الآن بعدما أُفسِدَ أغلب لعبته، لم يزدد إلا عظمةً وثقة. ألا تُوجَد لدَيه نقاط ضعف؟ كانت فيه مكامن خلل، والدليل على ذلك تلك القصيدة السخيفة التي منحتني الدليل الأول ضده. ألا تُوجَد أي نقاط ضعف في ذلك الردع الكامل المُحيط به يُمكنني استغلالها؟ هل يمكنني إخافته أو تهديده بالإيذاء الجسدي؟

نهضتُ واقفًا وأنا أنوي أن أُنهي مواجهتنا الآن. أدرك نيتي، فأظهر لي شيئًا في يده كان يلمع ببريق خافت. وقال: «احذر. من حقي أن أدافع عن نفسي لو هاجمني مجنون.»

قلت في يأس: «ضعه جانبًا. لن أهاجمك. يا إلهي، آمل أن يكون الجحيم حقيقيًّا.» شعرتُ بضعفٍ شديد وكأني طفل رضيع، ولم يزل التفكير في الصبي الصغير يدفعني إلى الجنون.

* * *

فجأة، رأيت عينَي مدينا تنظران إلى شيءٍ خلفي. لقد دخل شخص ما الغرفة، وعندما استدرتُ وجدت أنه خاراما.

كان يرتدي ملابس سهرة، وعمامة، وبدا وجهه الكالح القبيح في الضوء الخافت وكأنه تجسيد للسخرية من عجزي. لم أرَ كيفية استقبال مدينا لوصوله، فقد بدا لي فجأة وكأن شيئًا قد انهار في رأسي. لم أكن أشعر تجاه الرجل الهندي بأي إعجابٍ مثلما كنتُ أشعر تجاه الرجل الآخر، بل كنت أشعر تجاهه بكراهية متأجِّجة استحوذت عليَّ بالكامل. لم أحتمِل فكرة أن يظلَّ ذلك الشرقي القذِر يرتكِب شرورَه من دون رادع. نسيتُ أمر مُسدس مدينا وكل شيءٍ آخر، واندفعت نحوه كالثور الهائج.

تفاداني، وقبل أن أُدرك ما يحدث، كان قد خلع عمامته وألقاها في وجهي.

وقال: «لا تكن غبيًّا يا ديك.»

وقفتُ مكاني ألهثُ غاضبًا وقد اتسعت عيناي. كان الصوت الذي سمعته هو صوت ساندي، كما كانت الهيئة هيئتَه. وكذلك كان الوجه وجهه عندما تمكنت من التمعُّن فيه. كان قد غيَّر شكل أطراف حاجبَيه وغطَّى جفنَيه بالكحل، إلا أن العينَين اللَّتَين لم أرهما مفتوحتَين بالكامل إطلاقًا، كانتا عيني صديقي.

ضحك محاولًا ضبط شعره غير المُرتب: «يا لي من فنان لم يجُد العالَم بمثله!»

ثم أومأ لِمدينا. وقال: «ها نحن نلتقي مجددًا في وقتٍ أبكر مما توقعنا. لقد فوتُّ قطاري، وجئتُ أبحث عن ديك. أزِح هذا المسدس جانبًا من فضلك. أنا أيضًا مسلح، كما ترى. لا يحتاج الأمر إلى إطلاق نار على أية حال. هل تُمانع لو دخَّنت؟»

ألقى بجسده على مقعدٍ وثير وأشعل سيجارة. عدت لأدرك ما حولي مجددًا، فحتى هذه اللحظة، كما يبدو، كنتُ كالتائه في الصحراء. صفَت عيناي وبدأ عقلي يعمل مُجددًا. ورأيتُ الغرفة الشاسعة بأرفُفها المكدَّسة بالكتب التي كان بعضها لامعًا وبعضها مُعتمًا؛ كان ساندي يجلس في راحةٍ على مقعده يُحدق بهدوء في وجه مِدينا؛ وكان مِدينا يزمُّ شفتَيه ولكن كان الاضطراب باديًا في عينَيه؛ نعم، للمرة الأولى أرى أمارات الحيرة في هاتَين العينَين.

قال ساندي بهدوء: «أظن أن ديك كان يحاول أن يكلمك بالمنطق. وأنت قلت له إنه مجنون، أليس كذلك؟ أنت مُحق. إنه كذلك. لقد وضحتَ له أن قصته تقوم على دليلٍ غير مدعوم لن يُصدقه أحد، فهي قصة لا تُصَدَّق، والحق يُقال. لقد حذرتَه أنه إذا ما فتح فمه، فستُخرِسه بحجةِ أنه مجنون. هل هذا صحيح يا ديك؟»

استطرد في حديثه ناظرًا إلى مِدينا ببرود: «حسنًا، كان ذلك تصرفًا طبيعيًّا من قِبَلِك. ولكنك ارتكبتَ خطأً صغيرًا بالطبع. دليلُه سيتلقى دعمًا.»

ضحك مِدينا، ولكنها كانت ضحكةً عصبية. وقال: «من هم المجانين الآخرون؟»

«أنا أحدهم. لقد أثرتَ اهتمامي يا سيد مِدينا منذ فترة طويلة. يجدُر بي أن أعترف أن أحد أسباب عودتي إلى الوطن في مارس هو أن أتشرَّف بمعرفتك. ولقد تكبدت الكثير لأفعل. فقد تتبعت دراساتك، ولو كنَّا في ظروف أفضل، لوددتُ، بلا أدنى شك، أن أتبادل الملاحظات معك بوصفي باحثًا زميلًا. لقد تتبعتُ عن كثب مَسيرتك المهنية في آسيا الوسطى وأماكن أخرى. وأظن أنني أعرف عنك أكثر مما يعرف أيُّ شخصٍ آخر في العالم.»

لم يقُل مِدينا شيئًا. كانت الأدوار تتبدَّل، وكان يُثبت عينَيه على الجسد النحيل الجالس على المقعد.

واصل ساندي حديثه قائلًا: «كل هذا مُثير للاهتمام للغاية، ولكن لا علاقة له بالموضوع المطروح بين أيدينا. خاراما، الذي يتذكَّره كِلانا وهو في أوج فخاره، قد تُوفي العام الماضي. حُفظ هذا الأمر سرًّا لأسباب واضحة؛ سمعة عملِه كانت قيمة للغاية وكانت تعتمد على بقائه حيًّا، ولم أعرف بذلك إلا بمحض الصدفة. فاستعرتُ اسمَه يا سيد مِدينا.

عندما تقمَّصتُ شخصية خاراما، تشرفتُ بأن أكون حافظ أسرارك. قد تقول إنها خدعة دنيئة، وأتفق معك على ذلك، ولكن في أمرٍ مثل هذا، لا يملك المرء رفاهية اختيار سلاحه. لقد فعلتَ ما هو أكثر من إفشاء أسرارك لي. لقد ائتمنتني على الآنسة فيكتور والماركيز لا تور دو بين، عندما كان من المُهم أن يكونا في الحفظ والصون. أملك من الأدلة ما يكفي لدعم ديك.»

قال مِدينا: «كلام فارغ! مجنونان كلامهما غير منطقي. أُنكِرُ كل ما قلتَ من هراء.»

قال ساندي مسرورًا: «كلام شاهدَين أو ثلاثة.» هناك شاهد ثالث. ثم صاح قائلًا: «لافاتر، ادخل، نحن مُستعدون لك.»

دخل الرجل ذو الوجه الحزين المكتئب الذي رأيته خلال زيارتي الأولى إلى هنا، وفي المنزل خلف شارع ليتل فاردل. لاحظتُ أنه سار مباشرة إلى المقعد حيث يجلس ساندي، ولم ينظر نحو مِدينا.

«أظن أنك بالفعل تعرف لافاتر. كان صديقًا لي فيما مضى، وعادت صداقتنا من جديد. كان تابعًا لك لبعض الوقت، ولكنَّه تخلى عن هذا الشرف حاليًّا. يمكن أن يُخبر لافاتر العالم بالكثير عنك.»

تجمَّد وجه مِدينا كالقناع، وشحب بشدة. ربما كان ثمَّة بركان يثور في عقله، ولكن مظهره الخارجي ظلَّ باردًا كالثلج. خرج صوته من بين شفتَيه لاذعًا وساخرًا كقطرات ماءٍ مثلج.

قال: «ثلاثة مجانين. أنا أُنكر كل كلمةٍ مما تقولون. لن يُصدِّقكم أحد. إنها مؤامرة من مجانين.»

قال ساندي: «لنتحدَّث في العمل على أية حال. ستُدان دون شك إذا ما قاضيناك، ولكن لنرَ كيف سينظر العالَم للأمر. النقطة الوحيدة التي في صالحك هي أن الناس لا يُحبون أن يعترفوا بأنهم كانوا حمقى. لقد كنت رجلًا ذا شعبيةٍ جارفة يا سيد مِدينا، وسيكره أصدقاؤك الكُثُر أن يعتقدوا أنك مُحتال. لديك سياج يحوط سمعتك، وسيحميك. أُكرِّر مجددًا أن قصتنا مريعة لدرجة أن المواطن الإنجليزي العادي سيراها غير معقولة، فنحن أمة تفتقر إلى الخيال. كما أننا لن نحصل على أي مساعدةٍ ممن عانوا من أفعالك. يمكن أن تقص الآنسة فيكتور واللورد ميركوت قصةً مُريعة عن الاختطاف، ما سيؤدي بأوديل إلى السجن مدى الحياة، وكذلك نيوهوفر إذا ما قُبض عليه، ولكن هذا لا يُورِّطك معهما. سيقف هذا عقبةً أمام أغلب القضاة الذين لا يعرفون شيئًا عن العلوم الخفية

مثلما نفعل أنا وأنت. تلك هي نقاط قوتك. ولكن فكر فيما يُمكننا أن نُقدِّمه من الناحية الأخرى. أنت عبقري في الدعاية، وأخبرتُ ديك بذلك ذات مرة، ويُمكنني أن أفسر كيف خدعت العالم، أفعالك مع دينيكين وأمورًا من هذا القبيل. ثم يُمكن لثلاثتنا أن نروي قصة لَعِينة، وأن نرويها وجهًا لوجه. قد يبدو الأمر جامحًا، ولكن من المعروف عن ديك أنه يملك منطقًا سليمًا، ويظن الكثير من الناس أنني لست أحمق. وفي نهاية المطاف، لدَينا شرطة سكوتلاند يارد في صفنا، وهي تقبض حاليًّا على جميع شركائك، ويدعمنا كذلك جوليوس فيكتور، وهو صاحب نفوذ. لا أقول إن بوسعنا إرسالك إلى السجن، على الرغم من أني أرى أن هذا مُحتمَل، ولكن يمكننا أن نثير الشكوك حولك، وستظل رجلًا مشكوكًا في أمره حتى نهاية حياتك. وأنت تعرف جيدًا أن هذا يعني لك الفشل الذريع، فلكي تحقق النجاح، يجب أن تظل تنعم بمجد ثقة الجماهير بك.»

رأيتُ أن مِدينا تأثر أخيرًا. وقال ببطء: «يُمكنك أن تُدمرني بأكاذيبك، ولكني سأرد لك الصاع صاعَين. لن تجدني لقمة سائغة.»

ردَّ عليه ساندي قائلًا: «لا شكَّ لدَي في ذلك. أنا وأصدقائي لا نريد النصر، بل نريد النجاح. نريد ديفيد واركليف.»

لم يتلقَّ ساندي ردًّا، فواصَلَ حديثه.

«إننا نُقدِّم لك عرضًا. سيُبقي ثلاثتنا كل ما نعرفه سرًّا. وسنُلزِم أنفسنا بألا نتفوَّه بكلمةٍ واحدة عن الأمر، ويُمكننا أن نُوقِّع على وثائق نُقرُّ فيها بأننا أخطأنا إذا أردت. يمكنك أن تُصبح ذات يوم رئيس وزراء بريطانيا أو رئيس أساقفة كانتربري، أو أي شيء تريد. نحن لا نحبك، ولكننا لن نتدخل في حب الآخرين لك. سأعود إلى الشرق مجددًا مع لافاتر، وسيدفن ديك نفسه في حياة الريف في أوكسفورد شاير. وفي المقابل، نطلب منك أن تسلمنا ديفيد واركليف بكامل قواه العقلية.»

لم يُجِب مدينا بشيء.

ثم ارتكب ساندي خطأً في النهج الذي كان يتَّبعه. قال: «أعتقد أنك متعلق بوالدتك. إذا قبِلت عرضنا سنُعفيها من المُضايقات. وإلا ... في الواقع، هي شاهد مهم.»

طُعِنَ كبرياء الرجل في مقتل. يبدو أن والدتَه كانت تُمثل له ملاذًا داخليًّا، شيئًا منفصلًا عن أهم طموحاته وأكثر منها قداسة، منبع غروره الوحشي ومثواه. أيقظ استخدامها في التفاوض في داخله شيئًا عميقًا وبدائيًّا، ويجدُر بي القول إنه شيء أسمى وأفضل مما تخيلت. أحرق غضب بشري أراه للمرة الأولى ذلك القناع الجامد وأزالَه عن وجهه وكأنه منديل ورقي.

صرخ بصوتٍ مبحوح من فرط الغضب: «أيها الحمقى! أيها البلهاء! سأجعلكم تتعرقون دمًا على هذه الإهانة.»

قال ساندي من دون أن تختلِج عضلة واحدة في جسده: «إنه عرض عادل. هل أفهم من ذلك أنك ترفض؟»

وقف مِدينا على سجادة المدفأة وكأنه حيوان محاصر، ولم يسعني إلا الإعجاب به. فقد كانت الثورة المُرتسِمة على وجهه ستُخيف أغلب الناس.

«فلتذهبوا إلى الجحيم، جميعكم! اخرجوا من هذا المنزل! لن تسمعوا مني كلمةً أخرى حتى تأتوا إليَّ متوسِّلين الرحمة. اخرجوا ...»

* * *

لا بد أن عينَي مدينا قد أعماهما الغضب لأنه لم يرَ ماري تدخل. كانت قد اتجهت مباشرة إلى حيث يجلس ساندي قبل أن أراها. وكانت تحمِل شيئًا بين ذراعَيها، شيئًا حملته بحرصٍ كما لو كانت أمًّا تحمِل طفلها.

كانت تحمل الفتاةَ الصغيرةَ الغريبة المظهر من المنزل في ميدان بالميرا. كان شعرها قد ازداد طولًا وسقطت خصلاته على حاجبَيها ووجنتَيها الشاحبتَين اللتَين لطَّخَتهما الدموع. كانت فتاة صغيرة مُثيرة للشفقة، وكانت عيناها كليلتَين لا تريان، بدَتَا وكأنهما تُعانيان من رُعبٍ هائل. كانت لا تزال ترتدي ذلك الثوب الكتَّاني الغريب، وكانت ساقاها وذراعاها النحيلةُ الصغيرة عارية، وكانت أصابعها الرفيعة مُتشبِّثة بفستان ماري.

ثم رآها مِدينا، فاختفى ساندي من الوجود بالنسبة له. ظلَّ يُحدِّق فيها للحظاتٍ في غير فهم، حتى تحوَّل الشغف البادي على وجهه إلى ذُعر. فصرخ وهو يندفع إلى الأمام: «ماذا فعلتِ بها؟»

ظننتُ أنه سيهاجم ماري، فعرقلتُه. انبطح مِدينا على الأرض، ولأنه بدا وكأنه فقد السيطرة على نفسه تمامًا، رأيتُ أنه من الأفضل أن أُثَبِّته أرضًا. نظرتُ نحو ماري التي أومأت برأسها نحوي. وقالت، وهي تناولني قماش عمامة خاراما الراحل: «قيِّدْه من فضلك.»

قاوَمَ كنمر أسير، ولكني تمكنتُ أنا ولافاتر، وبقليلٍ من المساعدة من ساندي، من تقييده جيدًا بالعمامة وبأحد حبال الستائر. وأجلسناه على أحد المقاعد.

ظلَّ يصرخ، وهو يُدير رأسه حوله محاولًا النظر إلى ماري: «ماذا فعلتِ بها؟»

لم أتمكن من فَهم السبب في قلقه الجنوني على الفتاة الصغيرة حتى أجابته ماري، وحينئذٍ أدركتُ من كان يعني بقوله «بها».

«لم يمس أحد والدتك. إنها في المنزل في ميدان بالميرا.»

ثم وضعَت ماري الطفلة برفقٍ شديد على المقعد الذي كان يجلس عليه ساندي قبل أن ينهض لمواجهة مِدينا.

وقالت: «أريد منك أن تُعيد لهذا الغلام عَقلَه.»

من المُفترَض أن المفاجأة كانت ينبغي أن تهبط عليَّ كالصاعقة، ولكن ذلك لم يحدُث، على الأقل ليس بسبب كلماتها، رغم أني لم أكن أملك أدنى فكرة مُسبقة عن حقيقة الأمر. كانت الدهشة التي شَعرتُ بها بأكملها تتعلق بماري. كانت تقف ناظرةً إلى الرجل المُقيَّد، ووجهها شاحب بشدة، وعيناها عطوفتان، وفمها فاغر كما لو كانت تترقَّب ما سيحدث. ومع ذلك كانت تبدو قويةً للغاية، وعنيدة للغاية، وكنَّا ثلاثتنا وكأننا غير مرئِيِّين مقارنةً بها. هيمن حضورها على كلِّ شيءٍ، وجعلتها رشاقة جسمها والحزن الوديع في عينَيها تبدو أكثر مهابة. أصبحتُ أعرف الآن كيف كانت تبدو جان دارك عندما كانت تقود قواتها إلى المعركة.

كررَت ما قالته: «هل تسمعني؟ لقد سلبتَ هذا الغلام روحه، ويُمكنك أن تُعيدها له. هذا كل ما أطلبُه منك.»

اختنقت الكلمات في حلقِه قبل أن يجيب. «أي غلام؟ أؤكد لكِ أني لا أعرف شيئًا. جميعكم مجانين.»

«أعني ديفيد واركليف. لقد حرَّرنا الرهينتَين الأخرَيَين بالفعل، ويجب أن يتحرَّر الليلة. يجب أن يتحرَّر ويستردَّ عقله ليعود كما كان عندما خطفتَه. لا شك في أنك تفهم ما أعني.»

لم يقل مِدينا شيئًا.

«هذا كل ما أطلبُه منك. إنه مجرد غلام صغير. وبعد ذلك سنرحل.»

تدخلتُ صائحًا. قلت: «عرضُنا لا يزال قائمًا. افعل ما تطلُبه منك، ولن نفتح أفواهنا أبدًا بكلمة عما حدث الليلة.»

لم يكن يسمع ما أقول، وكذلك ماري. كانت مواجهةً ثنائية بينهما وحدهما، وبينما كانت تنظر إليه، كانت ملامح وجهه تزداد عنادًا وجمودًا. إن كان قد شعر بالكراهية تجاه أحدٍ في حياته، فقد كان ذلك تجاه هذه المرأة؛ إذ كان الأمر عبارة عن صراع بين قُطبَين مُتضادَّين في الحياة، عالمان يتقاتلان قتالًا أبديًّا.

«قلتُ لكِ إنني لا أعرف شيئًا عن الغلام ...»

أوقفَتْه رافعةً يدَها أمام وجهه. وقالت: «أرجوك، لا تُضَيِّع المزيد من الوقت. لقد فات وقت الجدال. إذا نفَّذتَ ما أطلبه منك، سنرحل، ولن نزعجك مرةً أخرى أبدًا. أعدُك بذلك، جميعنا نعدُك. وإن لم تفعل، فثق أننا سنُدمرك.»

أظن أن نبرة صوتها الواثقة هي التي أثارته.

فقال بصوتٍ أقرب للصراخ: «أنا أرفض. لا عِلم لي بما تقصدين. أنا أتحداكِ. يُمكنكِ أن تُخبري العالم كلَّه بأكاذيبكِ. لن يُمكنكِ تدميري. أنا أقوى منكِ بكثير.»

كان من السهل معرفة نهاية هذا التحدي. وجال في خاطري أنه سيضع الخاتمة لكل شيء. يُمكننا أن نُلَطِّخ سمعة الرجل بكل تأكيد، ونظفر بالنصر؛ ولكننا سنكون قد فشلنا، لأنه سيكون قد انتهى بنا المطاف ومعنا هذا الغلام الصغير المسكين مسلوب العقل. لم تتغيَّر ملامح وجه ماري.

وقالت بصوتٍ رقيقٍ كصوت أُم: «إن رفضت، فيجب أن أُجرِّب طريقةً أخرى. لا بد أن أعيد ديفيد واركليف إلى والده.» ثم التفتت نحوي، وقالت: «ديك، أشعل النار من فضلك.»

أطعتُها دون أن أعرف ما تنوي فعله، ولم تمر دقيقة إلا وكانت النار تستعر في قطع الحطب الجافة مطلِقةً دخانها عبر المدخنة، ومضيئةً وجوهنا ووجه الطفل الذاهل على المقعد.

قالت ماري: «لقد دمَّرتَ روحًا، وترفُض إصلاح ما اقترفَت يداك. سأُدمرُ جِسمَك، ولن يستطيع أحد إصلاحه أبدًا.»

فهمتُ ما كانت تَعنيه، وصرخنا أنا وساندي. لم يعِش أيٌّ منَّا حياةً تجعلنا سريعي التأثر، ولكن ما كانت تنوي فعلَه كان فوق طاقتنا على الاحتمال. ولكن وُئِدَت اعتراضاتنا في مهدِها بنظرةٍ واحدة من ماري. كانت زوجتي، ولكني لم أجرؤ في تلك اللحظة على أن أُعارضها كما لو كنتُ ذلك الغلام الذاهل المسكين. بدا أن روحها تسمو فوق أرواحنا جميعًا وتُشِع بسيطرة لا تلين. كانت تقف في بساطةٍ وأناقة، نموذجًا للأمومة والشفقة وليس الإرهاب. ولكني لم أعرفها؛ كانت المرأة التي تقف هناك غريبةً عني، إلهة قاسية تُطلِق صواعق البرق من يدَيها. لا شك في أنها كانت تعني كل كلمة قالتها، وبدا من صوتها الهادئ وكأنها تُصدر حكمًا بحيادٍ وموضوعية وكأنها القدَر نفسه. رأيتُ ظلال الرُّعب تزحف على وجه مِدينا المتجهِّم.

كانت تقول: «أنت رجل يائس. ولكني أكثر يأسًا بكثيرٍ منك. لن يحول شيء على وجه الأرض بيني وبين إنقاذ هذا الطفل. أنت تعرف هذا، أليس كذلك؟ جسد في مقابل روح، روح في مقابل جسد، أيهما سيتحقَّق؟»

انعكس الضوء عن مُذكيات النار المصنوعة من الصلب، ورآه مِدينا وارتجف.

«قد تعيش طويلًا، ولكنك ستُضطر أن تعيش في عزلة. لن تنظر إليك امرأة أبدًا إلا في رِعدة. سيُشير إليك الناس ويقولون: «هذا هو الرجل الذي شوهته امرأة، في مقابل روح طفل.» ستحمِل معك قصتك مكتوبةً على وجهك ليقرأها العالم ويضحك عليها ويلعنها.»

كانت قد ضربت الوتر الحساس لغرورِه، فلم يكن يرغب في الإنجازات بقدْر ما كان يرغب في المجد الشخصي المُصاحِب لها. لم أجرؤ على النظر نحوها، ولكني تمكنتُ من النظر نحوه، ورأيتُ جميع مشاعر الرعب تتسابق على قسمات وجهه. حاول أن يتكلَّم، ولكن الكلمات اختنقت في حلقه. بدا وكأنه يُجبر روحه كلها على النظر إليها، وأن ترتجِف مما رأى.

أدارت رأسها لتنظر إلى الساعة الموضوعة على رفِّ المدفأة.

وقالت: «يجب أن تُقرِّر قبل أن يُشير عقرب الدقائق إلى ربع الساعة. بعد ذلك لن يكون الندم مُمكنًا. جسدٌ في مقابل روح، أو روحٌ في مقابل جسد.»

ثم أخرجت من حقيبة يدِها الحريرية السوداء زجاجةً خضراء غريبة الشكل. وأمسكتها في يدِها وكأنها جوهرة ثمينة، وابتلعتُ ريقي في رُعب.

«هذا هو إكسير الموت؛ الموت حَيًّا، يا سيد مِدينا. إنه يحوِّل الوسامة إلى أضحوكة. سيحرق اللحم والعظم ويُحولهما إلى كتلة أشكالٍ قبيحة، ولكنه لا يقتل. أوه لا؛ لا يقتل. جسدٌ في مقابل روح، أو روحٌ في مقابل جسد.»

أظنُّ أن هذا ما قضى على مقاومته. لم تكدِ الدقَّات الثلاث، التي كانت تُعلِن عن وصول الساعة إلى ربعها، تبدأ إلا وخرج من حَلقه الجاف صوتٌ يُشبه نقيق الدجاج. قال بصوته المبحوح الغريب البعيد الذي بدا وكأنه لا يصدر منه: «موافق.»

قالت وكأن شخصًا قد فتح بابًا لها: «شكرًا لك. ديك، اجعل السيد مِدينا في وضعيةٍ مريحة أكثر، من فضلك.»

لم تُغَذَّ النارُ بالمزيد من الحطب، وسرعان ما خبَتِ النارُ المشتعلةُ في الحطب الجافِّ السريع الاحتراق. عادت الظلال تملأ الغرفة مجددًا، فيما عدا البقعة التي يُضيئها المصباح الوحيد خلف رأس مِدينا.

لا يُمكنني أن أصف ذلك المشهد الأخير، فلا أظن أن رؤيتي كانت واضحة، وأعلم أن رأسي كان يدور. جلس الصبي في حِجرِ ماري مركزًا بصرَه على الضوء. «أنتِ جيردا ... أنتِ تشعرين بالنعاس ... أنتِ الآن نائمة»؛ لم أتابع تلك الثرثرة، فقد كنتُ أحاول أن أفكر في أمورٍ مألوفة تُحافظ على وعيي يقظًا. كنتُ في المقام الأول أفكر في بيتر جون.

كان ساندي جالسًا على مقعدٍ قصير بجوار المدفأة. لاحظتُ أنه يضع يدَيه على ركبتَيه، وبرز من إحداهما شيءٌ مُستدير وداكن، كما لو كان فوهة مسدس. لم يكن ليترك شيئًا للظروف، ولكن كان ما يفعله طيشًا، فقد كنَّا في حضرة أسلحةٍ أكثر فاعلية بكثير. لم يكن ثمة شعور بالمهانة أقوى من ذلك منذ بدء الخليقة. ارتجف جسدي من هذه السفالة. أدى مِدينا طقوسه الشيطانية، ولكن تأثيرها علينا نحن المُشاهدين لم يكن أكثر من مجرد تمثيلٍ مصطنع. جلست ماري على الأخص تُراقِب ما يحدُث في لامبالاة شخصٍ يُراقب أطفال حضانة يلعبون. بدا الرجل فجأة وكأنه دجَّال تحت هاتَين العينَين اللتَين لا تعرفان الخوف.

استمرت الأصوات، الرجل يطرح أسئلة، والطفل يجيب بصوتٍ غير طبيعي ضعيف. «أنت ديفيد واركليف ... لقد ضللتَ طريقك أثناء عودتك من المدرسة ... كنتَ مريضًا ونسيتَ ... أنت في حالٍ أفضل الآن ... أنت تتذكَّر هافرام وطيور الطيطوي الحمراء السيقان التي تُعشش بجوار النهر ... أنت تشعر بالنعاس ... أظن أنك تريد النوم مجددًا.»

تحدث مِدينا. وقال: «يُمكنكم إيقاظه الآن. افعلوا ذلك برفق.»

نهضتُ من جلستي وأضأتُ بقية الأنوار. كان الغلام نائمًا في هدوءٍ بين ذراعي ماري التي انحنت وقبَّلَتْه. وقالت: «تحدَّث إليه يا ديك.»

قلتُ بصوتٍ عالٍ: «دايفي. دايفي، لقد حان وقت عودتنا إلى المنزل.»

فتح الغلام عينَيه وجلس. وعندما وجد نفسه جالسًا على رُكبَة ماري، بدأ يحاول النزول على الأرض. لم يكن مُعتادًا على الجلوس في حِجر النساء، وشعر ببعض الإحراج.

قلتُ مجددًا: «دايفي. سيملُّ والدك من انتظارنا. ألا تظن أنه ينبغي أن نعود إلى البيت؟»

قال الغلام واضعًا يده في يدي: «نعم، يا سيدي.»

* * *

لن أنسى ما حييتُ المرة الأخيرة التي رأيتُ فيها تلك المكتبة؛ النار المُستعرة التي جعلت الكتب، التي لم أكن رأيتها من قبل إلا خلف الظلال، تلمع مثل بساط حائط حريري، والنار المُشتعلة في الحطب التي كانت على وشك أن تخبو في المدفأة، والرجل الغارق في المقعد الوثير. قد يبدو ما سأقوله غريبًا بعد كلِّ ما حدث، ولكن أكثر ما كنت أشعر به تجاهه كان الشفقة. نعم، الشفقة! كان يبدو أكثر خلق الربِّ وحدة. في الواقع لم يكن لديه أي أصدقاء إلا نفسه، وصنعت طموحاته حاجزًا بينه وبين جميع البشر. والآن، بعد أن دُمِّرَت طموحاته خسر كل شيء، ولم يتبقَّ في البراري الموحشة لأحلامه المحطَّمة إلا البرد والرجفة.

أسندت ماري ظهرها إلى مقعد السيارة.

وقالت: «أرجو ألا أفقد وعيي. أعطني الزجاجة الخضراء من فضلك.»

صحت قائلًا: «يا إلهي!»

قالت: «لا تكن سخيفًا. إنه مجرد عطر.»

ثم ضَحِكَت ضحكةً بدت وكأنها تُعيدها إلى طبيعتها إلى حدٍّ ما، رغم أنها كانت لا تزال تبدو شاحبة كالموتى. عبثَتْ بيدِها داخل حقيبة يدها وأخرجت مقصًّا كبيرًا.

وقالت: «سأقصُّ شعر دايفي. لا يُمكنني أن أُغير له ملابسه، ولكن على أيِّ حال يُمكنني أن أعيد رأسه ليبدو مثل رأس صبيٍّ من جديد، حتى لا يُصدَمَ والده.»

«هل يعلم أننا قادمون إليه؟»

«نعم. اتصلتُ به بعد العشاء، ولكني بالطبع لم أقل شيئًا عن دايفي.»

قَصَّت شعرَ الصبي بكدٍّ، وعندما وصلنا إلى ميدان بيمليكو حيث يعيش السير آرثر واركليف، كانت تقص الخصلات الطويلة، وأصبح الرأس الذي تقص شعره شاحبًا ونحيلًا، ولكنه عاد ليكون رأس صبيٍّ مُجددًا. سألَنا، بادي السرور: «هل سأعود إلى والدي؟»

رفضتُ الدخول، فلم أكن في حال تسمح لي بالتعرُّض لأي صدمات أخرى، لذا بقيتُ جالسًا في السيارة بينما دخلت ماري وديفيد المنزل الصغير. عادت ماري بعد حوالي ثلاث دقائق. كانت تبكي وتبتسِم في الوقت نفسه.

«جعلتُ ديفيد ينتظر في الردهة وذهبتُ إلى مكتب السير آرثر بمفردي. كان يبدو مريضًا، ومسنًّا ومرهقًا للغاية كذلك. قلتُ له: «لقد أحضرتُ دايفي. لا تهتمَّ بما يلبسه. إنه بخير!» ثم أدخلتُه إلى والده. ديك، كانت معجزة. بدا وكأن ذلك الرجل العجوز المسكين

قد دَبَّت فيه الحياة مجددًا. لم يلقِ أيٌّ منهما نفسَه بين ذراعَي الآخر ... لقد تصافحا ... ثم أحنى الصبيُّ الصغير رأسه إلى الأسفل، وقبَّل السير آرثر قمَّتَها، وقال: «يا رأس الفأر العزيز، لقد عدتَ إليَّ.» ثم تسللتُ خارجة.

* * *

كان ثمة مشهد آخر في تلك الليلة أديتُ دورًا فيه بعدما وصلنا إلى شارع كارلتون هاوس تيراس. لا يُمكنني تذكُّر ما حدث هناك بوضوح. ولكني أذكر جوليوس فيكتور وهو يُقبل يد ماري، والدوق يُصافحني بحرارة بدت لي وكأنه سيظل يُصافحني إلى الأبد. كما أذكر ميركوت الذي بدا معافًى ووسيمًا على غير العادة، وكان يرفع نخبًا من الشمبانيا في صحتي، وأديلا فيكتور تجلس إلى البيانو وتُغني لنا بصوتٍ ملائكي. ولكن أبرز ما أذكره هو ذلك النبيل الفرنسي وهو يجعل مهندسًا ألمانيًّا مرموقًا يلفُّ حول نفسه بينما يرقصان معًا رقصة ارتجالية سعيدة.

الفصل العشرون

ماتشراي

بعد أسبوع، وبعد الكثير من المشاورات مع ساندي، أرسلتُ خطابًا إلى مِدينا. نشَرَت الصحف أنه سافر إلى الخارج في عطلةٍ قصيرة، وأمكنني أن أتخيَّل العذاب الذهني الذي كان يُكابده في أحد خلجان البحر المتوسط. كنا قد قرَّرنا أن نسعد بنجاحنا. كان الانتصار يعني حملةً طويلة في المحاكم والصحافة، لم يكن ثمة شك في أننا سنفوز بها، ولكني لم أكن سأتحمَّلها بأي حالٍ من الأحوال. كان الأمر برمَّته كابوسًا كنتُ أتوق لأن أضع خاتمةً له؛ لقد كسرنا أنيابه، ولم يكن يُهمني أن يُواصل عمله في السياسة ويبهر العالم بمواهبه، شريطة أن يبتعد عن الجريمة. أرسلتُ له خطابًا أُخبره فيه بذلك؛ أخبرتُه أن ثلاثة أشخاص يعرفون كل ما اقترف سيلتزمون الصمت، ولكنهم يحتفظون بالحق في إفشاء السر إذا ما أظهر أيَّ أمارةٍ على أنه قد يعود إلى ارتكاب الجرائم. لم أتلقَّ منه ردًّا ولم أكن أتوقَّع أن يفعل. اختفت من نفسي كل الكراهية تجاه الرجل، والغريب أن كلَّ ما أصبحتُ أشعر به تجاهه هو التعاطف. نحن معشر البشر، حتى أفضلنا، مغرورون ومخادعون لأنفسنا، ومن دون ساترٍ مريح من خداع الذات، كنا سنتجمَّد وسط عواصف واقع الحياة القاسية وتحدِّياتها. ارتجف جسدي عندما تخيلتُ ذلك البائس وانهياره حينما تداعى عالَمُه الهش كاشفًا عن ضعف شخصيته الحقيقية. شعرت أن السعي لتحقيق المزيد من النصر سيكون خطأً أخلاقيًّا.

لا بدَّ أنه قد تلقَّى رسالتي، فقد عاد إلى عمله في شهر يوليو، وألقى خطبةً في مظاهرةٍ سياسيةٍ ضخمة استقبلتها الصحف بحفاوة بالغة. أما عن تعاملاته الاجتماعية، فلا أعرف عنها شيئًا، فقد كان ساندي في اسكتلندا وأنا في فوسي، ولم نكن ننوي مغادرة أيٍّ منهما. في الوقت نفسه، كان عمل ماكجيليفراي يجري على قدَمٍ وساق، وكانت الصحافة مليئةً بالقضايا الغريبة التي لم يفكر أحد في أن ثمة صلةً تربط بينها. فهمت من ماكجيليفراي

أنه على الرغم من أن التحالف قد دُمِّر عن بَكرة أبيه، فإنه لم يتمكن من القبض على جميع المُجرمين الذين أراد القبض عليهم. في إنجلترا، ظهرت ثلاث فضائح مالية كبيرة تلتْها أحكام بالسجن مدى الحياة؛ وفي باريس ذاع خبر فضيحة سياسية ضخمة أعقبها العديد من الأحكام؛ وفي ولايات الغرب الأوسط الأمريكية حُكم على ناشطٍ عمالي وأحد أباطرة تجارة النحاس بالسجن مدى الحياة، وفي تورين كان خبر القبض على عصابة الاغتيالات الشهيرة. ولكن ماكجيليفراي ورفاقه كانوا قد حققوا النجاح وليس النصر، مثلي تمامًا؛ وصِدقًا لا أظن أنه يمكن للمرء تحقيق الغايتَين معًا في هذا العالم؛ وأن عليك أن تختار إحداهما.

التقَينا ميركوت في الحفل الراقص الذي أقامه «البرلمان» في أوكسفورد، ولم تؤثر عليه مُغامراته بالسلب، بل جعلته في حالٍ أفضل، فقد أصبح الآن رجلًا وليس صبيًّا مسلوبَ العقل. وفي أوائل شهر يوليو، ذهبتُ وماري إلى باريس لحضور حفل زفاف أديلا فيكتور، وكان أجمل حفلٍ حضرته في حياتي، وتشرفتُ بتقبيل العروس وتلقِّي قبلةٍ من العريس. أحضر السير آرثر واركليف ديفيد إلى فوسي لزيارتنا، حيث كان الصبي يذهب لصيد الأسماك من شروق الشمس حتى غروبها، وبدأ وزنه يزداد. وصل آرتشي رويلانس أيضًا، ووجد الاثنان اتفاقًا في هواياتهما، فانطلق ثلاثتهم إلى النرويج ليراقبوا طيور جزيرة فلاكسهولم.

كنت خلال تلك الأسابيع منشغلًا بتعويض بعض الأمور المتأخرة في فوسي، فقد تسبَّب غيابي الطويل في إفساد البرنامج الصيفي بالكامل. ذات يوم، بينما كنتُ في هوم ميدو أُخطط مَنفذًا جديدًا لإحدى البرك، ظهر ساندي أمامي مُعلنًا أنه يجب أن يتحدَّث إليَّ وأنه لا يملك إلا عشرين دقيقة فقط.

سألني: «متى ستبدأ فترةُ استئجارك لماتشراي؟»

«إنها سارية حاليًّا؛ بدَأَت منذ شهر أبريل. إن أسماك السلمون البحري تظهر مبكرًا هناك.»

«هل يُمكنك أن تذهب إلى هناك متى أردت؟»

«نعم. إننا نُفكر في أن ننطلِق في الخامس من أغسطس.»

فقال: «اسمع نصيحتي واذهب الآن.»

سألته عن السبب رغم أني كنتُ قد خمنتُه.

فقال: «لأني لا يُعجبني بقاؤك هنا. لقد أهنتَ أحد أكثر الرجال غرورًا وذكاءً في العالم. ولا تحسبنَّ أنه سيتقبَّل ذلك بصدرٍ رحب. كن على يقينٍ من أنه يسهر الليالي

مُخططًا لكيفية أخذ ثأره منك. إنه بالأساس لا يفكر إلا بك. يعتبرني منافسًا في مجال العمل نفسه؛ يودُّ أن يُدمِّرني، ولكنه سيتحيَّن الفرصة المناسبة. كان لافاتر عبدًا له وفَرَّ منه، ولكنه مَهما يَكن من أمرٍ أقر بسيطرته. أما أنت فقد خدعتَه من البداية وحتى النهاية، وتركتَ في كبريائه جرحًا داميًا لا يندمل. لن تهنأ بحياتك إلا بعدما ينتقِم منكما؛ أنت وزوجتك.»

صِحت: «وبيتر جون!»

هز رأسه نفيًا. وقال: «لا، لا أظن ذلك. إنه لن يُحاول أن يسلك ذلك المسار مجددًا، ليس الآن على الأقل. ولكنه سيكون سعيدًا للغاية لو لقيتَ حتفك، يا ديك.»

كانت هذه الفكرة تدور في ذهني منذ أسابيع، وكانت تؤرقني كثيرًا. إنه لَشعورٌ كريه أن تعيش وحياتك في خطر، وأن تتحرك متوقعًا باستمرار أن تسقط صريعًا. فكرتُ في الأمر بتمعُّن شديد، واستنتجتُ أني لن أتمكن من فعل شيءٍ سوى محاولة نسيان الخطر. فإذا تركتُ نفسي أفكر فيه، فسيُسمم ذلك حياتي بأكملها. كان الأمر بغيضًا بلا شك، ولكن العالم مليء بالمخاطر على أية حال. قلت ذلك لساندي.

قلت: «أنا مُدرك جدًّا للخطر. ولطالما رأيتُ أن هذا جزء من الثمن الذي عليَّ دفعه مقابل النجاح. ولكني لن أسمح لهذا الرجل بأن ينال مني لدرجة أن يفسد عليَّ حياتي.»

قال ساندي: «إنك تملك الكثير من الجَلَد، يا صديقي، ولكنك لا تزال مدينًا لأسرتك وأصدقائك. يمكنك بالطبع أن تطلب من ماكجيليفراي حماية الشرطة، ولكن ذلك سيكون إزعاجًا كبيرًا لك، وعلاوةً على ذلك، ما نوعية الشرطة التي يُمكنها أن تحميك من عدوٍّ خبيث مثل مِدينا؟ لا، أريدك أن تسافر بعيدًا. أريدك أن تذهب إلى ماتشراي الآن، وأن تبقى هناك حتى نهاية أكتوبر.»

«ما الفائدة من ذلك؟ يُمكنه أن يتبعني إلى هناك إن أراد، كما أن الخطر برمته سيعود مجددًا مع عودتي.»

قال: «لا أعرف. ربما يُشفى كبرياؤه الجريح في خلال تلك الأشهر الثلاثة. إن الثأر الشخصي منك ليس جزءًا من لعبته الشاملة، ولن يدفعه لذلك إلا غضب نابع من كبرياء جريحة. بعد قليل سيختفي هذا الغضب، وسيدرك اهتماماته الحقيقية. أما فيما يخصُّ ماتشراي، فإن غابة غزلان اسكتلندية تُعدُّ أفضل مكانٍ في العالم للاختباء. لن يمكن لأحدٍ أن يصعد ذلك الوادي الطويل دون أن تَعرِف، ولا يمكن لأحد أن يتحرك على التلال دون أن تتبعه نصف دزينة من أعيُن الحراس والصيادين اليقظة. تلك هي الحماية الشرطية الصحيحة. أريدك من أجلنا جميعًا أن تذهب إلى ماتشراي على الفور.»

قلت معترضًا: «يبدو ذلك جُبنًا.»

«لا تكن غبيًّا. هل يُوجَد إنسان عاقل على وجه الأرض يمكن أن يُشكك في شجاعتك؟ أنت تعرف يقينًا أنه من واجب الشجعان في بعض الأحيان أن يهربوا.»

فكرتُ قليلًا فيما قال. ثم قلت: «لا أظن أنه سيستأجر مُجرِمين ليغتالوني.»

«لماذا؟»

«لأنه تحدَّاني إلى مبارزة. اقترح مكانًا في جبال البرانس، وعرض أن أختار أنا الحكَمَين.»

«ماذا كان ردك؟»

«أرسلتُ له برقيةً تقول: «لا تكن غبيًّا». بدا وكأنه يريد أن يحتفظ لنفسه بمهمة إنهاء حياتي.»

«هذا مُحتمَل جدًّا، ولكنه لا يحل المسألة. أُفضِّل أن أواجه نصف دزينة من القتَلة على مواجهةِ مِدينا. إن ما قلتَ يدعم حُجتي.»

كنت مُجبرًا على الإقرار بأن كلام ساندي كان عقلانيًّا، وبعدما انصرف، فكرتُ في الأمر مليًّا وقررتُ أن آخُذ بنصيحته. بطريقةٍ ما كان عرضه لشكوكي في صورة كلماتٍ قد زادها قوةً، وعدتُ أشعر مجددًا بشعور المُطارَد الكريه. لم يكن الشعور خوفًا، فأنا أظنُّ أنه لو تطلَّب منِّي الأمر أن أبقى لبقيتُ في فوسي وأديتُ عملي بإصرار. ولكن كان السلام الذي ينعم به بيتي سيتكدَّر. إذا ما انطلقَت رصاصة في أي وقتٍ من مَكمن ما — كانت تلك هي الطريقة الرئيسية التي تخيلتُ بها الخطر — فوداعًا لسحر مُرُوجي الصيفية.

نتج عن تفكيري أني أخطرت توم جرينسليد بأن يستعد لأخذ عطلته، وبحلول العشرين من يوليو، كنتُ وهو وماري وبيتر جون جالسين في منزلٍ صغير مكسو بالثلج مُختفٍ وسط تلٍّ مُغطًّى بأشجار البتولا، ناظِرين إلى النهر المنحسر والسماء الخالية من السحب، داعين أن تهطل الأمطار.

خلال الطقس الهادئ، تكون ماتشراي أكثر مكانٍ منعزل على سطح الأرض، أكثر عزلةً وهدوءًا من مزرعة بوير منسية في أحد أودية السهول الجنوب أفريقية. كانت الجبال ترتفع عموديةً وشاهقة لدرجة يبدو معها أن الطيور فقط هي التي يُمكنها الفرار منها، ولم تكن الطريق الآتية من البحيرة المالِحة الواقعة على بُعد عشرة أميال سوى شريطٍ رملي مُغطًّى بالعشب يبدو وكأنه سينتهي بعد ميلٍ واحدٍ تحت سفوح التلال الشديدة الانحدار. ولكن عندما تهبُّ العواصف، وتضرب الأمطار سقف المنزل، ويهدر النهر عند

طرف الحديقة، وتتمايل أشجار البتولا والروان بفِعل الرياح، تشعر وكأنك تسمع ألف صوتٍ يتحدَّث، وأنك تعيش في عالَمٍ صاخب لدرجة تصمُّ الآذان ويكتسب صوتك حشرجةً حادة من كثرة الصياح في العاصفة.

مررنا بعددٍ قليل من العواصف، وكان الأسبوع الأخير من شهر يوليو محاكاةً قريبة الشبَهِ للغاية من المناطق الاستوائية. كانت التلال مُغطَّاة بالضباب الناتج عن حرارة الجو، وكان نهر آيسيل عبارة عن سلسلةٍ من البِرَك اللامعة التي لا تحتوي إلا على القليل من أسماك السلمون الحمراء المُختبئة تحت ضفافها، وكانت الجداول لا تزال هزيلة، واستخرجَتِ الشمس روائح ساخنة من العشب والميرقية الحلوة، وكانت الحركة مُرهِقة لكل من البشر والحيوانات. كانت هذه هي الحال خلال النهار، ولكن عند حوالي الساعة الخامسة من كل مساء، كانت تهبُّ ريح خفيفة من الغرب، تُبدِّد الضباب وتترك الأرض سابحةً في ضوء كهرماني بارد. ثم كنتُ أنطلِق وماري وتوم جرينسليد إلى التلال، ونعود قبل منتصف الليل لنتناول وجبة عشاء كبيرة مُستحَقة. في بعض الأحيان، خلال أوقات الظهيرة الحارة، كنت أخرج وحيدًا، مع أنجوس المُسن، كبير المتعقِّبين، وقبل أن يبدأ موسم الصيد بفترة طويلة، كنتُ قد أصبحت أعرف دروب الغابة جيدًا.

على القارئ أن يتحمَّلني بينما أصف تضاريس المنطقة. تمتدُّ غابة ماتشراي على مساحة عشرين ألف هكتار على جانبي وادي آيسيل، ولكن أغلب هذه المساحة يمتدُّ نحو الجنوب. ناحية الغرب توجَد بحيرة ماتشراي المالحة، حيث توجَد التلال المُنخفضة الخضراء التي هي في الغالب مراعٍ للأغنام. وناحية الشرق، عند منبع النهر، توجَد غابة جليبايسيل، التي يقع نُزُلها خلف مصب النهر عند شاطئ بحيرة مالحة أخرى، وعلى الأرض الواقعة في ناحيتنا من المرتفع الفاصل، لا يُوجَد إلا كوخ متعَقِّبٍ واحد. كانت غابة جليبايسيل مكانًا شاسعًا، وأكبر بكثير من أن تكون غابة واحدة. كان اللورد جلينفينان، أحد أعمام آرتشي رويلانس، قد ظل مستأجِرًا للغابة لسنوات، ولكنه كان رجلًا مسنًّا ضعيفًا تخطَّى السبعين من عمره، لم يتمكن إلا من اصطياد أيل واحد عندما هبطت الأيائل إلى السهول في شهر أكتوبر. نتج عن ذلك أن المكان كان يعج بالطرائد، وكان الطرف الغربي كله، الملاصق لماتشراي، يُعد مخبأً جيدًا. كانت تلك الغابة مصدرًا كبيرًا لإزعاجنا، فقد كان من المُستحيل تعقُّب الطرائد في منطقة الصيد الشمالية إلا عندما تهب الرياح الجنوبية الغربية، إلا إذا أردتَ أن تُغير وجهة الغزلان ناحية غابة جليبايسيل،

وكانت منطقة الصيد تلك تحتوي على أفضل أماكن الرعي التي بدا أنها تجتذِب أفضل الطرائد.

لم تكن غابة هاريبول ناحية الغرب كبيرة للغاية، ولكني أظن أنها كانت أكثر الأراضي وعورةً في اسكتلندا. كانت ماتشراي تحتوي على مناطق صيد جيدة جنوبي وادي آيسيل وصولًا إلى مصبِّ النهر، وكذلك حلبتَين جليديتَين رائعتَين، حلبة نا سيد الجليدية، وحلبة إيسيان الجليدية. خلف مصبِّ النهر، كان يُوجَد وادي نهر ريسكويل الذي تقع على جانبيه أراضي غابة هاريبول. كانت جميع مرتفعات منطقة ماتشراي تتخطَّى الثلاثة آلاف قدَم ارتفاعًا، ولكنها كانت مُكورة ومِن السهل تسلُّقها، ولكن كانت مرتفعات هاريبول خلف النهر جبالًا صخريةً مُخيفة؛ جبل بان، وجبل كوير إيسان، وجبل سجور مور؛ مكونةً سلسلة من أصعب جبال الجزر البريطانية في تسلُّقها. كانت أكبر وأصعب قمة من حيث التسلُّق هي قمة جبل ريسكويل؛ سجور ديرج، بقمَّتَيه العاليتَين، وشُعَبه الثلاث، والهاوية العميقة التي تقع عند سفحه الشرقي. كانت ماتشراي تلتقي مع هاريبول عند قمة هذا الجبل، ولكن لم يكن أي من متعقِّبينا يذهب في هذا الاتجاه. فقد كان الجزء العلوي من جبل ريسكويل بالكامل عبارة عن سلسلة من الجروف والهوَّات، وكان من النادر أن تجد غزلانًا حمراء هناك، فهي لم تكن تستطيع تسلُّق الصخور. أما عن بقية أماكن الصيد الأربعة الجنوبية الخاصة بنا، فكانت ثمة منطقة صيد من أروع ما رأيتُ في حياتي، وكان يُمكن للسيدات أن يتابعن عملية التعقُّب باستخدام مناظير كبيرة من نافذة المكتبة في النُّزُل. كانت غابة ماتشراي مناسبة للشباب، فقد كانت التلال تنحدِر صعودًا من مستوى سطح البحر، وقد تضطر أن تصعد وتهبط ارتفاعًا يصل إلى ثلاثة آلاف قدم عدة مرات في اليوم الواحد. أما غابة هاريبول، أو الأجزاء الشمالية والشرقية منها على الأقل، فكانت مناسبة للرياضيين فقط، وبدا أنه مقدر لها أن يستأجرها أشخاص لا يستطيعون الاستفادة منها على النحو الأمثل. فخلال الأعوام القليلة الماضية، استأجرها تِباعًا مُسنٌّ سِكِّير، ومتسابق خيول سِكِّير لم يفز في أي سباق، ورجلٌ بدين من أباطرة السكك الحديدية الأمريكيين. وهي حاليًّا مؤجَّرة لصاحب مصنع كهل من ميدلاند، هو اللورد كلايبودي، الذي جنى ثروته بسهولةٍ ولقب نبالته بسهولةٍ أكبر خلال الحرب. قال أنجوس: «يا إلهي، سيموت. لن يُمكنه تسلُّق مائة قدمٍ من هاريبول إلا ويلقى حتفه.» وهكذا، وجدت نفسي مجددًا مُبتلًى بموقف لم أختره، في مكانٍ كان يفترض به أن يكون ملاذًا آمنًا.

كان أنجوس مُستاءً للغاية من ذلك. كان رجلًا نحيلًا دائم القلق تخطى الخمسين بقليل، ذا وجهٍ يُشبه الأيل، وكان سريعًا للغاية في تسلق التلال، ومُتسلق جبالٍ من طراز رفيع، ويتمتَّع بكل ما يتَّصف به سكان المرتفعات من دماثة. أما كينيدي، المُتعَقِّب الآخر، فكان من سكان الأراضي المنخفضة؛ وجاء والده إلى الشمال من جالواي خلال الفترة التي شهِد فيها مجال تربية الأغنام ازدهارًا سريعًا، وظلَّ يعمل حارسًا عندما انهارت أسعار الغنم. كان شابًّا قويًّا، غالبًا ما يُعاني على المُنحدرات في الأيام الحارة، ولكنه كان قويًّا كثَور، وكان أكثر ذكاءً من أنجوس فيما يتعلق بحلول مشكلات الطقس والرياح. رغم أنه كان يتحدَّث الغاليَّة، فقد كان من سكان الأراضي المُنخفضة المتأصِّلين، فكان يتحدَّث بلُغتهم ويملك رباطة جأشهم. كان الرجلان مثالًا على التناقُض بين الجيلَين الجديد والقديم، فقد خدم كينيدي في الجيش أثناء الحرب وتعلَّم أمورًا أكثر بكثيرٍ مما يعرفها أبناء جلدته. فقد كان يعرف، على سبيل المثال، كيف يُحوِّل انتباهك إلى حيث يريد، وكان قادرًا على إعطاء تعليماتٍ مدروسة، كما لو كان رقيبًا في سرية مدفعية، بينما كان كل ما يقوله أنجوس: «هل ترى تلك الصخرة هناك؟ نعم، ولكن هل ترى صخرة أخرى؟» وهكذا دون توقف. وعندما كنا نجلس لنرتاح، كان كينيدي يدخن سيجارة في مَبسم، بينما كان أنجوس يُشعل بقايا تبغ في غليون قديم كريه الرائحة.

خلال الأسبوعين الأوَّلَين من شهر أغسطس، كانت الأمطار تهطل يومًا ويومًا، وكانت سيولًا غزيرةً لا ترحم، وارتفع مستوى نهر أيسيل مما سمح بدخول الأسماك إليه من البحر. لم تكن أعداد السلمون البحري كبيرة تلك السنة، ولكن كانت ثمة أعداد كبيرة من أسماك السلمون النهري. اصطاد جرينسليد سمكته الأولى، وبحلول نهاية الأسبوع، كان قد أكمل الدزينة، بينما اصطادت ماري أربع سمكاتٍ في يومٍ واحد بصنارتها بعدما حاباها الحظ الذي يبدو أنه عادةً ما يُحابي النساء اللاتي لا يُمارسن الصيد. كانت أيامًا مُبهجة، رغم أننا كنا نمرُّ بفترات رَواحٍ كئيبة عندما كان الهاموش يُهاجمنا بضراوة تفوق الناموس الاستوائي. كنتُ أُحب الأوقات التي كان فيها النسيم العليل يهبُّ تحت أشعة الشمس الحارة، ونتناول طعامنا جميعًا على ضفة النهر. أخذنا معنا ذات مرةٍ قِدرًا حديديًّا، وأشعلنا نارًا، وسلَقْنا سمكةَ سلمون طازجة «في مرقها»، وهي طريقة طهي أنصحُ بها أي أحدٍ يرغب في تذوُّق طعم هذه السمكة العظيمة كاملًا.

وصل آرتشي رويلانس في السادس عشر من أغسطس تتملكه رغبة جامحة للصيد. أخبرنا أنهم لم يرَوا شيئًا ذا قيمةٍ بين طيور جزيرة فلاكسهولم، إلا أن ديفيد واركليف

استمتع كثيرًا بصيد أسماك السلمون البحري. قال: «إنه فتًى رائع. صياد من طرازٍ رفيع، وجعلتني رؤيته ووالده معًا أرغب في الزواج على الفور. شعرتُ أنه كان كئيبًا إلى حدٍّ ما عندما كان في فوسي، ولكن بحر الشمال أصلح مزاجَه، وتركتُه وهو في غاية السعادة. بالمناسبة، ماذا ألمَّ به خلال الصيف؟ فهمتُ أنه كان مريضًا أو شيئًا من هذا القبيل، ووالده لا يستطيع أن يترُكه يغيب عن ناظرَيه. لنستدعِ أنجوس، ونتحدَّث عن صيد الغزلان.»

كان أنجوس على استعدادٍ للتحدث عن صيد الغزلان لساعات. كنت قد حددتُ اليوم الحادي والعشرين من أغسطس موعدًا لبدء موسم الصيد، رغم أن الطرائد وصلت إلى حالةٍ ممتازة حتى إننا كان يمكن أن نبدأ قبل ذلك الموعد بأربعة أيام. قال أنجوس إنه رأى بالفعل عدة أيائل اكتمل نمو قرونها. ولكنه كان حزينًا بسبب جيراننا.

قال آرتشي: «لم يعُد الدعاء لعمي ألكسندر يُفيد. لقد أصبحت غابته محور حياته، ولن يستقبلني هناك في بداية الموسم، فهو يقول إنني أفتقِر إلى الكفاءة في تقييم حالة الطرائد كما أنه يأبى أن يستمع إلى ما يقوله المُتعقِّبون. وكان يُراقبني عن كثبٍ في شهر أكتوبر. ورفض أن يُقتَل أي أيل إلا إذا كان بلا قرون أو كان هَرِمًا مريضًا. ونتج عن ذلك أن الغابة أصبحت تعجُّ بالأيائل الرائعة التي بدأت تعود إلى الغابة ولن تموت إلا بالشيخوخة. إن فكرة عمي ألكسندر عن قطعان الأيائل مَعيبة. ماذا عن هاريبول؟ من يستأجرها هذا العام؟»

عندما سمع بمن استأجرها، صاح جذلًا. «أعرف كلايبودي العزيز. صديق قديم طيب بطبيعته، وسخي للغاية. كما أنه عبقري غريب الأطوار! قَدَّمَني ذات مرة لابنه على أني «جونسون كلايبودي المُبجل». إنه يستمتع بنبالته كثيرًا. لعلك تعرف أنه أراد أن يأخذ لقب لورد أوكسفورد لأن لدَيه ابنًا سيلتحق بالكلية المجدلية، ولكن حتى كلية المُبشرين أعربت عن استيائها من ذلك. لن يتمكن من تسلُّق تلال هاريبول تلك أبدًا. فهو بدين مُسن. لم تعد ساقاي كما كانتا سابقًا، ولكني غزالٌ مقارنةً به.»

قال أنجوس: «ربما سيستقبل ضيوفًا.»

«بالطبع سيفعل. سيملأ النُّزُل بالشبَّان، فثمة الكثير من بنات كلايبودي المبجل. ولكن لا أظنُّ أنهم هم أيضًا سيكونون بارعين جدًّا في تسلُّق التلال.»

قال أنجوس بحزن: «لن يكونوا جيدين يا سير أرتشيبالد. يُحتَمَل أن يكون بعضهم قد أقدم على استكشاف التلال بالفعل. لن يكونوا أفضل حالًا من السياح.»

يجدُر بي أن أذكر أن «السياح» هم أكثر ما يكره أنجوس. يطلق هذا الاسم على الأشخاص الذين يعبرون غابات الغزلان أثناء موسم التعقب أو قبله بفترة قصيرة، ولا يتمتعون بأخلاق حسَنة تجعلهم يُبلِغونه بمرورهم أو يطلبون إذنه. كان يُفَرِّق بشدة بينهم وبين من يُطلَق عليهم اسم «متسلقو الجبال»، وهي فئة كان يحترمها، فقد كانوا أناسًا مُهذَّبين ومتحضرين، يأتون عادةً حامِلين الحبال وفئوس الثلوج في بداية فصل الربيع، وكانوا مُعتادين على أكل اللحم والبيض الذي يُعده أنجوس ويدفئون أطرافهم قرب النار التي يُشعلها أنجوس. وإذا ما أتوا في موسمٍ آخر، فإنهم يفعلون ذلك بعدما يُناقشون مساراتهم مع أنجوس. كانوا يذهبون إلى حيث لا تذهب الغزلان، ويقضون وقتَهم، على حدِّ تعبيره «في حشر أنفسهم في الأماكن الضيقة.» أما «السياح»، فكانوا متبجحين وأغبياء وغير مُهذبين على الإطلاق. كانوا يتسكعون عادةً في أراضي الغزلان، وإذا ما مُنِعوا، كانوا يتعاملون بعدوانية. وكان يمكن أن يتسبب فرد واحد منهم في تخريب عملية التعقب في مناطق الصيد لعدة أيام. قال أنجوس: «إذا رأيتُ أحدهم في ماتشراي، سأُدحرج حجرًا ضخمًا من فوق التل على رأسه.» اتضح أن بعض ضيوف هاريبول من هؤلاء المُزعجين، وكانوا يتجولون على غير هدًى في جميع أنحاء الغابة، ومن ثَم كانوا يخربون جولة صيدهم، وجولتنا.

قال أنجوس: «سيكسرون قلب آلان ماكنيكول. كان آلان يقول إنهم سيئون جدًّا في التصويب. فكانوا يطلقون النار على صخرة كبيرة ولا يصيبونها. كما سيركبون خيولًا صغيرة نحو القمة، فهم غير بارعين في المشي أيضًا. كم أتمنى أن يسقطوا من علٍ وتُكسَر أعناقُهم.»

قال آرتشي: «من غير المعقول أن يكونوا جميعًا غير بارعين في التصويب. بالمناسبة، نسيتُ أن أخبرك بشيءٍ يا ديك. هل تعرف مِدينا، دومينيك مِدينا؟ أخبرتني ذات مرة أنك تعرفه. لقد قابلتُه على متن السفينة، وقال إنه سيقضي أسبوعًا مع العجوز كلايبودي.»

نزل عليَّ هذا الخبر كالصاعقة. إذا كان مِدينا في هاريبول، فمن شِبه المؤكد أنه أتى لغرَض في نفسه. لم أكن قد أوليتُ اهتمامًا بالأمر منذ وصولي إلى ماتشراي، فقد كان المكان أشبهَ بمُعتكَف منيع، وكنت قد بدأت أرتضي بحياتي الحالية. كنت قد انخرطت في حالة من السعادة والانغماس التام في الطقوس المبهجة الحماسية للصيد في البراري. ولكن في تلك اللحظة اختفت راحتي بالكامل. رفعت بصري نحو ذلك الجدار الكئيب من التلال ناحية غابة هاريبول وتساءلتُ عن الشرور التي تُدَّبر خلفه.

حذرت أنجوس وكينيدي والصيادين إلى أن ينتبهوا إلى المُتسللين. وفي حال ما رأوا أيًّا منهم، كان عليهم أن يُوجهوا مناظيرهم نحوه ويراقبونه ويبلغوني بشكله وبما يفعله. ثم خرجتُ وحدي لأصطاد زوجًا من طيور الطيهوج لطعامنا، وفكرت في الأمر برمته مليًّا. أنبأتني غريزتي بأن مِدينا جاء إلى هذه الأنحاء من أجل تصفية حسابه معي، وكنت مصرًّا على عدم التهرب منه. لم أكن أستطيع العيش في ظل ذلك التهديد؛ وكان يجب أن أواجهه وأن أتوصل إلى تسوية. لم أتمكن من إخبار ماري بأي شيء بالطبع، ولم أرَ فائدة تُرجى من إخبار آرتشي أو جرينسليد. كانت تلك هي جنازتي أنا، مجازيًّا وربما حرفيًّا. ولكني لم أخرج لصيد السمك في صباح اليوم التالي. بقيتُ في المنزل بدلًا من ذلك، ودونتُ بالتفصيل ما حدث خلال تلك المهمة حتى وصول مِدينا إلى هاريبول، ودوَّنت صراحةً ما اعتقدتُ أنه هدفه. فعلتُ ذلك تحسبًا لأن أخرج ذات يومٍ ولا أعود. بعدما انتهيت من الكتابة، وضعتُ المستند في حقيبتي لحفظ الأوراق، وشعرت وكأن حملًا انزاح من على صدري، مثلما يشعر رجل انتهى من كتابة وصيتِه. كان أمَلي الوحيد ألا يطول وقت الانتظار.

كان يوم الحادي والعشرين يومًا صافيًا ورائعًا، ونمَّ الضباب الصباحي عن حرارةٍ متوقَّعة في الجو. كانت الرياح التي تهبُّ جنوبية شرقية، فأرسلتُ آرتشي إلى منطقة الصيد في حلبة إيسيان الجليدية، وذهبت أنا مع أحد الصيادين، إلى كلاتش جلاس، القمة الغربية على الضفة الشمالية لنهر آيسيل. تدربتُ على تعقُّب الطرائد بنفسي، وبحلول هذا الوقت، أصبحت أعرف المنطقة جيدًا بحيث أؤدي التعَقُّب بصورةٍ آمنة. رأيتُ أيلَين مناسبين للصيد، وتمكنتُ من الاقتراب بما يكفي من أحدهما، ولكني أبقيتُ على حياته من أجل منفعة الغابة، فقد كان لا يزال حديث السنِّ ولم يكن قد اكتمل بعد نموُّ قرونه. مر يومي سعيدًا وهادئًا، وارتحتُ عندما أدركتُ أني لستُ قلقًا حيال المستقبل. بدا وكأن الهواء النقي والمساحات الشاسعة قد أسبغا عليَّ ذلك الإيمان الهادئ بالقضاء والقدَر الذي يملكه العرب.

عندما عدت، استقبلتني ماري بخبر أن آرتشي قد اصطاد أيلًا، وأنها تابعت أغلب عملية التعقُّب التي قام بها عبر منظارٍ ضخم. وصل آرتشي نفسه قبل موعد العشاء، وكان سعيدًا وثرثارًا للغاية. قال إن ساقه العرجاء جعلته بطيئًا، ولكنه أعلن أنه لم يكن متعَبًا على الإطلاق. وبينما كنا نتناول العشاء، قصَّ علينا جميع تفاصيل يومِه، واختلفنا

حول وزن الحيوان، وفازت ماري بالتحدِّي. قال لي المزيد بعد ذلك عندما جلسنا في غرفة التدخين.

«لقد كان أولئك المُتأنِّقون من هاريبول في الخارج اليوم. لا بد أنهم سيئون في التصويب للغاية. فعندما كنا نتناول الغداء، مرت طلقة طائشة تصفر فوق رءوسنا؛ ومن المؤكد أنها أُطلقت من مسافةٍ بعيدة، ولكني أطلق على ما حدث أداءً سيئًا للغاية. ليتك سمعتَ سباب أنجوس باللغة الغالية. اسمع يا ديك، أُفكر جديًّا في التحدُّث مع العجوز كلايبودي وأطلب منه أن يُنبه ضيوفه. لا شك في أن احتمالية أن يُسببوا أي ضررٍ ضئيلة للغاية، ولكنها لا تزال قائمة. شعرتُ اليوم وكأن الحرب قد اندلعت مجددًا.»

رددتُ عليه قائلًا إنه إذا تكرَّر ما حدث اليوم، فلا شك في أني سأعترض، ولكني تظاهرتُ بأني آخُذ الأمر ببساطة، على أنه شيء غير مُمكن الحدوث إلا في ظل نوعية الرياح تلك. ولكني أصبحتُ الآن أعرف ما كان يُخطط له مِدينا. لقد كان يتجول في أنحاء هاريبول ليتعرَّف على تضاريس المنطقة، وكنت أعلم أنه يملك عين صياد طرائد كبيرة يُمكنها التعرف على التضاريس بسهولة. لقد غرس فكرة إطلاق النار بحرية في عقول ضيوف هاريبول، وربما تَقدَّمهم جميعًا في إطلاق النار الجامح. وكانت الطلقة التي مرَّت مصفرةً فوق رأس آرتشي دليلًا على ذلك، ولكنه كان يتحيَّن فرصة إطلاق طلقةٍ لا تخطئ هدفها. إذا ما حدثت تلك المأساة، فسيعتقد الجميع أنه مجرد حادث عرضي، وستكون هناك الكثير من الاعتذارات الحزينة، وعلى الرغم من أن ساندي وشخصًا آخر أو شخصَين قد يُخمنون حقيقة ما حدث، فلن يُمكنهم إثبات أي شيء، ولن يساعدني ذلك بأية حال. بالطبع لم يكن يُمكنني إلا أن أُلاحِق الطرائد في مناطق الصيد شمال ماتشراي فحسب، ولكني نفضتُ الفكرة عن ذهني بمجرد أن خطرت لي. يجب أن أنهي هذا الترقُّب الفظيع. يجب أن أقبل تحدِّي مِدينا وأُسوي الأمور معه بشكلٍ أو بآخر.

عندما جاء أنجوس ليتلقى أوامره منِّي، أخبرتُه بأني سأذهب لتعقب الطرائد في منطقة الصيد في حلبة نا سيد الجليدية بعد غدٍ، وطلبت منه أن يبعث برسالةٍ سرية إلى آلان ماكنيكول في هاريبول يخبره بذلك.

صاح أنجوس: «لا فائدة من ذلك يا سيدي. لن يستمع الضيوف لما يقوله آلان.»

ولكني أخبرته بأن يُرسل الرسالة على أية حال. كنتُ أريد أن أمنح مِدينا الفرصة التي ينتظِرها. كنت أريد أن أجتذب طلقاته نحوي.

في اليوم التالي تسكعنا واصطدنا الأسماك. وبعد الظهر، صعدتُ تلًّا صغيرًا يُدعى كلاتش جلاس، والذي تمكنتُ من فوقه من أن أحصل على مشهدٍ عام للأراضي ناحية الجانب الجنوبي من آيسيل. كان يومًا صافيًا هادئًا، وكانت الرياح تهبُّ بسرعةٍ ثابتةٍ نحو الجنوب الشرقي، وكانت منبئةً بأن تستمر على هذا المنوال. كانت البقعة المُسطحة الخضراء الكبيرة لحلبة نا سيد الجليدية منبسطةً بكل ما تحمِله الكلمة من معنًى؛ فقد بدا الجزء الأكبر منها أشبه بملعب تنس، ولكني كنت أعلم أن ما يبدو سهلًا منبسطًا ظاهريًّا، كان في الحقيقة مساحة من شجيرات عنب الغاب المتشابكة والجلاميد الخفية، وأن الأماكن الأدكن عبارة عن أجم سراخس وأعشاب بارتفاع صدر الإنسان. لم أتمكن من رؤية حلبة إيسيان الجليدية، فقد كانت مختفيةً خلف نتوءٍ طويل من جبل بِين فهادا الذي تُطل عليه القمة المشقوقة لجبل سجور ديرج. استطلعتُ المنطقة بالكامل باستخدام نظارتي المقربة، وحددتُ أماكن قطعان عديدة من إناث الأيائل، وعدد قليل من الوعول الشابة، ولكن لم يكن هناك أي دلالة على أي نشاط بشري. ولكن بدا لي أن هناك إطلاق نار من بندقية في غابة جلينايسيل، فقد سمعت صوت طلقتَين من ناحية الشمال الشرقي. رقدتُ طويلًا بين شُجيرات السرخس، وكان النحل يطنُّ من حولي وطيور الجنشة يُنادي بعضها بعضًا، ومن وقتٍ لآخر كنت أرى طائر باز أو شاهين يحوم فوق رأسي في السماء الزرقاء، وكانت تدور في ذهني الأفكار نفسها التي كانت تشغل ذهني في فرنسا قبل يومٍ من معركة كبرى. لم أكن أشعر بالتوتر نفسه الذي كنت أشعر به حينئذ، ولكني كنت أشعر كما لو أن أساسات كل شيء قد تزعزعت، وأن العالم لم يعد آمنًا على الإطلاق، وأنه من الأفضل أن أسدل الستار على الأمل والتخطيط لأي شيء، وأن أتحول إلى لوحٍ خشبي. كنت واثقًا تمامًا من أن اليوم التالي سيأتي حاملًا المِحنة بين يدَيه.

لم أكن أريد، بالطبع، أن تشك ماري في أي شيء، ولكني نسيت أن أنبه آرتشي لذلك، وفي تلك الليلة، بينما كنا نتناول العشاء، لسوء الحظ، ذَكَر أن مِدينا موجود في هاريبول. رأيتُ القلق يطلُّ من عينَيها، فقد كنت أتوقَّع أنها تشعر بنفس القلق الذي كنتُ أشعر به على مدار الأسابيع الماضية، ولكنها كانت أكثر عنادًا من أن تعترِف بذلك. عندما ذهبنا لننام، سألتني مباشرةً عما يَعنيه ذلك. فقلت: «لا شيء على الإطلاق. إنه مُتَعَقِّب بارع وأحد أصدقاء عائلة كلايبودي. لا أظن أنه يعرف أني هنا من الأساس. لقد انتهى الأمر برمَّته على أية حال. إنه لن يعترِض طريقنا إذا كان بوسعه أن يفعل. إن أكثر ما يتمنَّاه هو أن يتجنَّبنا.»

بدت راضية بما قلت، ولكني لا أعلم إن كانت نامت تلك الليلة أم لا. لم أستيقظ حتى السادسة صباحًا، ولكن عندما فتحتُ عينَي، شعرت بحملٍ ثقيل على قلبي منعني من البقاء في فراشي، فنزلتُ إلى مسبح الحديقة وسبحت. أنعشتني السباحة، كما أنه كان من الصعب أن أظلَّ مكتئبًا في ذلك الصباح الرائع، فقد كان الضباب لا يزال مُتشبثًا بقمم الجبال العالية، وكان الوادي بأكمله يُصدِر لحنًا جميلًا من تغريد الطيور وخرير المياه. لاحظتُ أن اتجاه الرياح، أو ما تبقى منها، قد تغير ليهُب أكثر نحو الشرق، الناحية التي تُوجَد بها منطقة الصيد في حلبة نا سيد الجليدية.

كان أنجوس وكينيدي ينتظران خارج غرفة التدخين، وألان الطقس الرائع تشاؤم كبير المُتَعَقِّبين. قال أنجوس ببطء: «أظنُّ أننا سنصطاد وعلًا. كان هناك وعل ضخم على جبل بِين فهادا بالأمس، لقد رآه كينيدي، كان عملاقًا، ربما يزِن تسعة عشر ستونًا، ولكن لم يرَ كينيدي رأسه. يجدُر بنا أن نتحرك يا سيدي.»

همست ماري في أذني. «ألا تُوجَد مخاطرة يا ديك؟ هل أنت متأكد؟» لم أسمع صوتها يحمل مثل هذا القدر من القلق من قبل.

ضحكتُ قائلًا: «إطلاقًا. سيكون يوم صيد سهل، وسوف أعود لأتناول الشاي معكِ في موعده. كما أنكِ ستُراقِبينني طوال الوقت عبر المنظار الكبير.»

انطلقنا في التاسعة. بينما كنت أغادر، لمحتُ جرينسليد جالسًا على أحد مقاعد الحديقة مشغولًا بطُعم ذباب، وكان آرتشي يدخن غليونه ويقرأ عددًا من جريدة التايمز صدر منذ ثلاثة أيام، وبيتر جون يلعب مع مُربيته، وماري تُراقبني بعينَين ملؤهما الجزع. ومن خلفهم، كان الدخان يتصاعد من المداخن عموديًّا ليشق الهواء الساكن، وكانت العصافير تُغرد بين أزهار الأمير تشارلي. أرعبني هذا المشهد. فقد لا أعود إلى مملكتي الصغيرة تلك مجددًا. لم يكن يمكن لزوجتي أو أصدقائي أن يساعدوني: كانت مشكلتي ويجب أن أحلَّها بمفردي.

عبرنا الجسر، وبدأنا نسير صعودًا عبر غابة من أشجار البندق. وهكذا بدأتُ أغربَ يومٍ مرَّ عليَّ في حياتي.

الفصل الحادي والعشرون

كيف لاحقتُ طريدةً أكثر بريةً من الغزلان

(١) من التاسعة صباحًا إلى الثانية والربع عصرًا

كان جليًّا أنني لم أستطع وضع خطة، ولم تكن تدور في ذهني أي أفكار عن نوعية التسوية التي أريد أن أتوصل لها مع مِدينا. كنت واثقًا من أنه يجدر بي أَن أعثر عليه في مكانٍ ما من التل، وأنه إذا ما سنحت له الفرصة لقتْلي، فسيفعل. لم تكن احتمالات النجاح تصبُّ في صالحه بالطبع، ولكني لم أكن أفكر في الهرب، بل يجب أن أتخلَّص من هذا التهديد إلى الأبد. لا أظن أني أردتُ قتلَه، ولكني لم أحاول أبدًا أن أُحلل مشاعري. كنت أتبع حدسي بلا تفكير، وأترك نفسي أسبح مع تيار القدر.

كانت حلبة نا سيد الجليدية تقع ناحية الشمال ويفصل بينها وبين وادي آيسيل حاجزٌ من الصخور والركام كان فيما مضى الركام المتبقي من جبل جليدي، وكانت مياه نهر ألت نا سيد تنهمر من عليه مكونةً سلسلةً رائعةً من الشلالات. كان المنحدر شديدًا لدرجة أن الأسماك لم تكن تستطيع تسلق النهر، ومن ثم كان هناك عدد كبير من أسماك السلمون الكبيرة عند قاعدته، وفي داخل الحلبة الجليدية نفسها، لم تكن هناك أي أسماك سوى بعض الأسماك الصغيرة الداكنة اللون. كان الجو دافئًا للغاية بينما نتسلَّق تلك الكومة من الصخور والجلاميد حيث كانت هناك طريق هزيلة ومُتعرجة شُقَّت من أجل تسهيل إنزال جُثث الغزلان من حلبة نا سيد إلى موقع يسهل الوصول إليه. لم يكن يُمكن لأي خيولٍ الصعود إلى ذلك المكان إلا أقوى أنواع الخيول فقط. على الرغم من أننا كنا لا نزال في ساعة مبكرة من الصباح، فإن الحرَّ كان شديدًا، وكان الوادي من خلفنا يسبح

في بريقٍ زجاجي. مسح كينيدي، كعادته، جبهته وزفر، إلا أن أنجوس الرشيق كان يسير أمامنا كما لو كنا نسير على أرضٍ منبسطة.

عند حافة الحلبة الجليدية، توقفنا لنستطلِع. كانت المنخفضات العميقة تجتذِب الرياح، وبدا أن تيارات الهواء الخفيفة التي شعرت بها تأتي من خلفنا يسارًا من ناحية الشمال الشرقي. ولكن كان أنجوس واثقًا من أنه على الرغم من أن الرياح الجنوبية قد توقفت، فإن الرياح التي تهبُّ شرقية، ولا علاقة لها بالشمال، وأصر على أننا، عندما نصعد إلى ارتفاعٍ أكبر من الحلبة الجليدية، ستضرب الرياح وجوهنا من ناحية اليسار. لم يطل انتظارنا للعثور على طرائد. كان ثمة قطيع كبير من الوعول على الضفة اليُمنى من الجدول، ومجموعة أخرى، تضم عددًا قليلًا من الوعول الصغيرة، على الضفة اليسرى، على ارتفاعٍ معقول من سفح جبل بِين فهادا. ولكن لم يكن أي منها يصلح للصيد.

قال أنجوس: «الوعول الكبيرة ستكون فوق القمم العالية. علينا أن نصعد إلى القمم المُحيطة بالجدول.»

كان الكلام أسهل كثيرًا من التنفيذ؛ إذ كانت هناك وعول علينا الالتفاف من حولها، لذا كان علينا أن ندور في دائرة كبيرة مرورًا من فوق تلٍّ يُدعى كلونليت، يقع عند الطرف الغربي البعيد من ماتشراي جنوبي نهر آيسيل. كان المسار وعرًا، فقد صعدنا إلى ارتفاع ثلاثة آلاف قدم، ثم عبرنا جانب التل من تحت الشريط العلوي من التل مباشرةً. بعد قليل أصبحنا نطلُّ على التكوين الصخري الذي يُشبه الكوب الذي يشكل رأس الحلبة الجليدية، ومن فوق الهوة، رأينا قمة جبل ستوب كوير إيسيان وحافة جبل ستوب بان، وكلاهما كان ضمن نطاق هاريبول وخلف جبل ريسكويل. أجرينا استطلاعًا آخر، ورأينا مجموعتَين أُخرَيَين من الوعول الصغيرة على الجانب الآخر من ألت نا سيد. كانت الوعول على مسافةٍ بعيدة للغاية ولم نتمكَّن من رؤيتها بوضوح، ولكن بدا وعل أو اثنان منها مناسبَين، وقررتُ أن نقترب منها.

كان علينا أن نهبط جانب التل بحذَر تحسبًا لوجود غزلان مختبئة بين الصخور، فقد كان المكان مليئًا بالأخاديد. قبل أن نصل إلى منتصف المسافة نحو الأسفل صوبت منظاري نحو إحدى المجموعتَين، ورأيت وعلًا ضخمًا ذا قرون رديئة، وكان من الجلي أنه غير مناسب للصيد. وافقني أنجوس، بدأنا نهبط جدار الوادي مُتخفِّين لنصل إلى ضفة الجدول. جعلتني رؤية الطرائد أنسى كل شيءٍ آخر، وطوال الساعة والنصف التالية، لم أفكر في أي شيءٍ في العالم سوى كيفية الاقتراب من الطريدة بما يكفي لصيدها. جميع

عمليات التعقُّب متشابهة جدًّا، لذا لن أصفها. جاءت العقبة الوحيدة في صورة وعلٍ صغير من خلفنا جاء من فوق تل كلونليت والتقط رائحتنا على جانب التل. جعله ذلك يتوتر وينطلِق بأقصى سرعة نحو شمال الجدول. ظننتُ في البداية أن الحيوان سيعدو صعودًا جبل بِين فهادا ويصطحب القطيع معه، ولكنه توقف فجأة وغيَّر رأيه وبدأ يعدو نحو حدود غابة هاريبول والهوة.

بعد ذلك كانت الأمور سهلة، ودون عوائق تُذكَر. تسلقنا صاعدين الضفة اليمنى من نهر ألت نا سيد، التي كانت مكانًا ممتازًا للاختباء، ثم انحرفنا بموازاة أخدود فرعي آتٍ من جبل بِين فهادا. لا شك في أن الأمر كله كان بسيطًا للغاية لدرجة لا تُثير اهتمام أحد، فيما عدا الرجل الذي يحمل البندقية. عندما قدرتُ أنني تقريبًا على نفس ارتفاع الوعل الذي أريد صيده، زحفتُ خارج الجدول ووصلت إلى ربوةٍ جعلتني أحصل على رؤية واضحة له. كما توقعت، لم تكن قرونه جيدة؛ تسع نقاط فحسب، ولكنها كانت صلبةً وسميكة ومن نوعية قرون وعول الأراضي المرتفعة القديمة، ولكن كان الجسم ثقيلًا، وكان من الواضح أنه مُسن. بعدما انتظرتُ عشرين دقيقة أو نحوها، نهض ومنحَني فرصةً لإطلاق النار عليه من مسافة مائتي ياردة تقريبًا، فأسقطتُه بطلقة واحدة في العنق، فقد كانت الجزء الوحيد الظاهر منه.

كان هذا أول وعل أصطاده في الموسم، ولطالما كانت تلك اللحظة مبهجة عندما تسترخي أعصابك وتشعل غليونك وتجلس تنظر حولك. بمجرد انتهاء ملاحقة الطريدة، اقترحتُ أن نتناول غداءنا، وعثرنا لهذا الغرض على زاوية مُنعزلة صغيرة بجوار نبع صغير. كنا نبعد بضع مئات من الياردات عن حدود هاريبول، المنطقة التي لا توازي مصبَّ النهر، بل تعبر الحلبة الجليدية جنوبي الهوة بمسافة نصف ميل تقريبًا. في الأيام الخوالي، حينما كانت الأغنام ترعى هنا، كان يُوجَد سور، واستدللنا على ذلك من تلك الدعامات المُهترئة التي يمكن رؤيتها بالقُرب من الممرِّ الجبلي. بين السور والممر الجبلي، كانت هناك منطقة شديدة الوعورة ينبع منها نهر ألت نا سيد، أرض وعرة وغير مستوية ويصعب اجتيازها لدرجة أنه كان مُستحيلًا، دون الصعود مسافة كبيرة على التل، أن نرى بوضوح حَيْدَ مُستجمعات المياه.

التهمتُ الكعك المحشوَّ الذي أعطته لي ماري، وكذلك بسكويت الزنجبيل، وشربتُ بعضًا من الويسكي وماء النبع، بينما تناول أنجوس وكينيدي غداءهما على بُعد ياردات قليلة من نار التدفئة. كنتُ على وشك إشعال غليوني عندما سمعتُ صوتًا جمَّدني في

مكاني وعود الثقاب في يدي. صوت طلقة بندقية تمرُّ بصفيرٍ من فوق رأسي. لم تكن الطلقة قريبة من رأسي، بل كانت على ارتفاع حوالي خمسين قدمًا، ونحو اليسار قليلًا.

سمعت أنجوس يصيح: «السياح اللعينون.»

كنتُ واثقًا من أن مطلِق النار هو مِدينا كما لو كنتُ قد رأيته بعيني. كان متواريًا في مكانٍ ما في الأرض الوعرة بين تخوم هاريبول والفج، وربما كان أقرب إلى الفج، لأن صوت الدويِّ بدا آتيًا من مسافةٍ بعيدة. من المؤكد أنه لم يكن يُصوِّب نحوي، فقد كنتُ متواريًا عن مجال رؤيته تمامًا، ولكن لا بد أنه كان قد رآني عندما كنتُ ألاحِق الوعل. وقرَّر أن فرصته لم تحِن بعد، وكانت تلك الطلقة تمويهًا، من أجل تأكيد إشاعة إطلاق النار العشوائي في هاريبول.

صاح أنجوس: «لا بد أنهم كانوا يُطلقون النار على الوعل الذي عبر التخوم. يا لهم من سيَّاح لعِينين، يُطلقون النار على ذلك الحيوان الصغير السن!»

اتخذت قراري فجأة. سأمنح مِدينا الفرصة التي كان يتحيَّنها. سأذهب للبحث عنه.

فنهضت ومددتُ ساقَي. وقلت لأنجوس: «سأُجرب ملاحقة وعل بمفردي. سأذهب إلى حلبة إيسيان الجليدية. من الأفضل أن تستدرجا هذا الحيوان إلى ضفة الجدول، ثم تُحضِرا الحصان. يجدُر بكما أن ترسِلا هوجي والحصان الآخر إلى غابة جلينايسيل نحو ماد بيرن. إذا ما عثرتُ على وعلٍ، فسأُلاحقه وأجعله يتَّجه ناحية الجدول بطريقةٍ ما، لذا، أخبرا هوجي بأن ينتظر إشارتي. سألوح بمنديل أبيض. الرياح تعود لتهبَّ شمالًا يا أنجوس. ستكون حلبة إيسيان الجليدية مناسِبة إذا دخلتها من الجنوب.»

قال أنجوس: «من الأفضل أن تدخلها من ناحية جبل سجور ديرج، ولكنها مسافة بعيدة للغاية. هل معك خراطيش يا سيدي؟»

قلت رابتًا على جيبي: «معي الكثير. أعطني هذا الحبل الإضافي يا كينيدي. سأحتاجُه لجرِّ الوعل، إذا ما تمكنتَ من صيده.»

وضعتُ بندقيتي الصغيرة من عيار ٠٫٢٤٠ في غطائها، وأومأت لهما، وسرت بمحاذاة الأخدود حتى وصلتُ إلى مجرى النهر الرئيسي. لم أكن أنوي الظهور على جانب التلِّ العاري لفترةٍ طويلة، فقد كان من المُحتمل أن أكون في مجال مِدينا فيطلق عليَّ النار. ولكني سرعان ما وصلتُ إلى حافةٍ حَجَبَت الرؤية من اتجاه أراضي هاريبول، ثم صعدتُ منحدرًا على سفح جبل بِين فهادا.

كانت ماري قد أمضت القسم الأكبر من ذلك الصباح أمام المنظار الكبير ناظرةً عبر نافذة المكتبة. رأتنا نصِل إلى حافة الحلبة الجليدية ولكننا غِبنا عن نظرها عندما صعدنا

جانب تل كلونليت. عادت لترانا مجددًا عندما أصبحنا فوق الحلبة الجليدية، وشاهدتِ الملاحقة وموتَ الوعل. ثم ذهبت لتناول الغداء، ولكنها عادت مسرعةً دون أن تُنهيه لتراني أتحرك وحدي بين ركام جبل بِين فهادا. كانت مطمئنةً في البداية لأنها حسبت أنني في طريق عودتي إلى المنزل. ولكن عندما أدركت أنني أصعد الجبل لارتفاع أعلى وأنني مُتجه نحو حلبة إيسيان الجليدية، أصابها الذعر، وعندما غبت عن ناظرَيها، لم تكن قادرة على فعل شيءٍ سوى التجول في أرجاء الحديقة في تعاسة.

(٢) من الثانية والربع عصرًا إلى حوالي الخامسة مساءً

كان الجو شديد الحرارة عند جبل بِين فهادا، فلم تكن ثمة رياح، ولكن عندما وصلتُ إلى الحافة وأصبحت أُطل على حلبة إيسيان الجليدية، وجدتُ نسيمًا عليلًا، كان اتجاه هبوبه بلا شك أقرب إلى الشمال منه إلى الشرق. لم تكن هناك سحابة واحدة في السماء، وكانت جميع القمم على مرمى البصر ظاهرة بوضوح، فيما عدا قمم هاريبول التي كانت متوارية خلف الجزء الأعلى من الحافة التي كنت أقف عليها. كانت حلبة إيسيان الجليدية تقع في الأسفل، ولم تكن واسعة على شكل كوب مثل حلبة نا سيد، بل كانت شقًّا عميقًا وسط التلال، وكانت مائلة بزاوية بدت معها مياه الينبوع داخلها بيضاء. كان هذا الينبوع يُسمى ماد بيرن؛ أظن أن اسمه باللغة الغالية هو ألت-آ-مويلين، وفي منتصف المسافة نحو الأعلى وفي الجهة المقابلة لي مباشرةً، كان يوجَد رافد، هو ريد بيرن، يهبط نزولًا عن جروف جبل سجور ديرج. تمكنتُ من رؤية القمة الشمالية لهذا الجبل، وكانت قمةً صخرية مخروطية جميلةً تبرز من الركام الجليدي المُحيط بها مثل قمة جبل ماترهورن.

فكرت في أنَّ مِن المحتمل أن يكون مدينا قد رآني أصعد جبل بِين فهادا وسيفترِض أني مُتجه إلى حلبة إيسيان الجليدية. ربما يُعاود عبور الفج ويتَّجه نحو جانب هاريبول من الممر الجبلي الذي يؤدي من هذه الحلبة الجليدية إلى ريسكويل. كنتُ أريد أن أُحافظ على وجودي فوق أرضٍ مرتفعة، حيث يُمكنني متابعة تحركاته، لذا كان هدفي الرئيسي هو الوصول إلى حَيْد مُستجمعات المياه الذي يطل على هاريبول قبله. كانت الرياح مزعجة، فقد كانت تهبُّ من نفس اتجاهي، وربما تتسبَّب في تحرُّك أي غزال نحوه، مما سيدله على مكاني. لذا، فكرتُ أنه بمجرد أن أُحدد مكانه، يجب أن أذهب إلى الجانب الخفي عنه. في تلك اللحظة، خطرت على ذهني فكرة مشوشة عن توجيهه نحو ماتشراي.

تحركتُ بأقصى سرعة مُمكنة بمحاذاة الجانب الشرقي من جبل بِين فهادا نحو الممر الجبلي؛ الذي كان عبارة عن صدع عميق في الحاجز الصخري الرمادي يمكن للغزلان المرور عبره. كان الشعور الوحيد الذي يعتريني هو الحماسة، على نحوٍ لم أشعر به من قبل خلال أي عملية تعقب. تسللت عبر الصدع ورقدت بين الصخور وزحفت بين الركام، ومررت مرةً أو اثنتين حول الحافة الخلفية للجروف، ولكن في خلال حوالي عشرين دقيقة، وصلت إلى الموضع الذي تلتقي فيه هضبة جبل بِين فهادا مع حَيْد مستجمعات المياه. كان الطريق السهل الآن هو الصعود على الحافة، ولكني لم أجرؤ على الظهور وخلفي السماء، فتحركت في رحلة مرهقة بمحاذاة الجانب القريب من جدار الحافة، وكنت في بعض الأحيان أسير بمحاذاة منحدرات شديدة، ولكني كنت أعلق في الكثير من الأحيان وسط الكثير من الصخور السائبة التي كانت عبارة عن ركام متساقط من الصخور في الأعلى. اضطررت إلى النزول إلى ارتفاع منخفض للغاية، ووصلتُ أخيرًا إلى الممر الجبلي الذي يمرُّ من تحت القمة بحوالي خمسمائة متر.

عندما وصلتُ إلى القمة، وجدت أنه لا يمكنني رؤية وادي ريسكويل؛ لم أرَ إلا حلبةً جليدية رفيعة محجوبة بطرف التل والقمة العارية لجبل ستوب كوير إيسيان من خلفه. كان يجب أن أجد بقعةً أحصل منها على رؤية للمنطقة، فانعطفتُ نحو الشرق بمحاذاة حَيْد مستجمعات المياه في اتجاه جبل سجور ديرج. كنتُ في ذلك الوقت أشعر بالدفء، فقد كنت مضطرًا للتحرك بسرعة؛ كنت أحمل بندقية، وألفُّ حبل أنجوس حول كتفَي مثل مرشد سياحي سويسري؛ وكنت أرتدي بذلةً رمادية قديمة جعلتني، مع الجورب الأصفر، خفيًّا تمامًا على جانب التل. بعد قليل بينما كنتُ أتسلق الحافة، بالطبع مع مراعاة عدم ظهور السماء من خلفي، وصلت إلى مكانٍ تمكنت فيه، بعد إزالة بعض الصخور، من تفادي النتوءات الصخرية والإطلال على مساحة ميل أو نحوه من وادي ريسكويل.

كان المكان وسط خط الأفق، عاريًا من دون أي مكانٍ للاختباء، وزحفت حتى وصلتُ إلى الحافة لأحصل على رؤيةٍ أفضل. تحتي، بعد بضع مئاتٍ من الياردات من الصخور والركام، رأيتُ أثرًا طويلًا بين أجم السراخس والعشب يصل حتى النهر. تأكدت من أن مِدينا كان هناك في مكانٍ ما يراقب الحافة. قدَّرت أنه بعدما عبر الفج عند حلبة نا سيد الجليدية وتحرُّكه حول الطرف الجنوبي لجبل بين فهادا، لم يكن يملك ما يكفي من وقتٍ ليصل إلى الممر الجبلي، أو حتى قريبًا من الممرِّ الجبلي، قبلي، ولا بد أنه لا يزال هناك في الأسفل. كنتُ آمُل أن ألمحه، فعلى الرغم من أني كنتُ واثقًا من أنه يبحث عني، لم يكن من المُمكن أن يعرف أني كنتُ أبحث عنه، وربما أتمكن من مباغتته.

ولكني لم أرَ أثرًا لأي كائنٍ حي في تلك المساحة الخضراء والأرجوانية، التي تتخلَّلها بعض الصخور الرمادية، التي تغمرها أشعة الشمس. فحَصتُ المنطقة بنظارتي المُقرِّبة ولم أرَ أي حركةٍ سوى طيور الجنشة وطائر كروان بجوار مُستنقع. ثم خطر لي أن أُظهِر نفسي. كان يجِب أن يعرف أني قبلتُ تحدِّيَه.

وقفتُ فوق حافة المنحدَر، وقررتُ أن أظل واقفًا حتى أنتهى من العدِّ إلى خمسين. يجدُر بي القول إنه كان تصرفًا جنونيًّا، ولكني كنتُ مصرًّا على تسريع وتيرة الأمور. عددتُ حتى واحد وأربعين دون أن يحدث شيء. ثم جعلني شعور غريزي فُجائي أنحني وأخطو جانبًا. وكان في تلك الحركة نجاتي. سمعتُ صوتًا أشبَهَ برنينِ وترِ كمان، ومرَّت طلقةٌ فوق كتفي الأيسر. شعرت بالهواء الصادر عنها على خدي.

بعد ثانيةٍ كنت راقدًا على ظهري متواريًا تحت خط الأفق. وبمجرد أن نهضتُ واقفًا، بدأتُ أعدو وتسلقتُ الحافة عن يساري لأحصل على رؤيةٍ من أرضٍ أكثر ارتفاعًا. قدَّرتُ أن الطلقة أُطلِقَت من ارتفاعٍ أكثر انخفاضًا بكثيرٍ وناحية الشرق قليلًا من المكان الذي كنتُ أقف فيه قبلئذ. عثرتُ على نتوءٍ صخري آخر وزحفت حتى حافته لأتمكن من النظر من بين صخرتَين على الوادي في الأسفل.

كان المكان لا يزال هادئًا تمامًا. كان عدُوِّي مُختبئًا هناك، ربما على مسافةٍ لا تتخطَّى نصف ميل، ولكن لم يكن هناك أي دليل يكشف مكانه. نثرت الريح الخفيفة نبات قطن المُستنقع، وطار صقر صغير عابرًا جبل ستوب كوير إيسيان، ونعق غراب من بين الصخور، ولكن لم تكن هناك أصوات أخرى. لم يكن هناك حتى أثر لغزلان.

رأيت عبر نظارتي المُقرِّبة عند منتصف المسافة نحو الأسفل نعجة تأكل، واحدة من تلك الحيوانات الحزينة التي ضلَّت طريقَها إلى داخل الغابة من مرعى الأغنام المجاور وتعيش منذ ذلك الحين حياةً محفوفةً بالمخاطر بين الصخور، نحيلة ومُتلبدة الشعر وبرِّية، حتى يذبحها أحد الصيادين. إنها أحدُّ بصرًا وأقوى سمعًا من الوعول، وتُمثل مصدر إزعاج بالغ للمُتعقِّبين. كانت النعجة تأكل العشب بالقُرب من مساحة شاسعة مُغطاة بأجم السرخس، ورأيتها ترفع رأسها فجأة وتُحدق في شيءٍ ما. كانت المرة الأولى على الإطلاق التي أشعر فيها بالحُب تجاه واحدةٍ من الأغنام.

كانت تُحدق بفضولٍ في شيءٍ ما في الأخدود الضحل الذي يُتاخم أجم السرخس، وكذلك فعلتُ أنا. ثبَّتُّ نظارتي المقرِّبة عليها، ورأيتها تهز رأسها القذر، وتضرب الأرض بقدمها، ثم سمعتُها تطلق صفيرًا عبر أنفها. كانت هذه النعجة عقبةً لم يحسب لها مِدينا

حسابًا. كان جليًّا أنه كان في ذلك الفج، وكان يشقُّ طريقَه صعودًا إلى مخبأ تلك النعجة الصغيرة، غير عالِمٍ بأنها ستكشف أمره. قلتُ لنفسي إنه يريد ولا شك أن يصل إلى الأرض المرتفعة في أسرع وقتٍ مُمكن. كان قد رآني واقفًا على الحافة، ولا بد أن يستنتج بطبيعة الحال أني قد تراجعتُ بسرعة. لذلك كان أول ما يجدُر بي فعله هو أن أجعله يطمئن.

أخرجتُ بندقيتي من غطائها، الذي حشرته في جيبي. كانت هناك مساحة صغيرة مكسوة بالحصى عند حافة الأخدود، وقدَّرتُ أنه سيظهر بجوارها متواريًا خلف الصخرة المُغطَّاة بشُجيرات عنب الغاب. كان تخميني صائبًا ... فقد رأيت أولًا ذراعًا، ثم كتفًا تخرج من بين الشجيرات، ثم وجهًا يطل من أعلى التل. رأيتُ عبر نظارتي المقربة أن هذا الوجه وجه مِدينا، وكان شديد التَّوَرُّد، ومتسخًا بسبب احتكاكه بالتربة المكسوة ببقايا النباتات. مد يدَه ببطءٍ إلى نظارته المقربة، وبدأ يمسح المرتفعات بنظره.

لم أعلم هدفي في تلك اللحظة، إن كان لدي أي هدف من الأساس. أظن أني لم أكن أنوي قتله، رغم شعوري بأن الأمور قد تئول إلى ذلك. انتابني شعورٌ غامضٌ بأنه يجدُر بي أن أُخرجه من المشهد، أن أغرس خشية الربِّ في قلبه، وأن أجعله يتقبَّل الهزيمة. ولم أُفكر في أي عواقب أخرى. لكن في تلك اللحظة كان لدَي مقصد واحد؛ أن أجعله يُدرك أني قبلتُ تحدِّيه.

أطلقت طلقةً تقريبًا نحو منتصف تلك المساحة المكسوة بالحصى، ثم وجهت نظارتي المُقرِّبة نحوها. كان يعرف جيدًا كيف تؤدَّى هذه اللعبة. ففي ثانية، كان قد عاد إلى داخل الأخدود مثل النمس.

فكرتُ أن فرصتي قد حانت. فمشيتُ على الحافة، وأنا أتسلق سريعًا، مراعيًا ألا أظهر أمام خط الأفق. كنتُ أريد أن أصل إلى الجانب الخفي عنه ومن ثم أتمكن من مُراقبته من أعلى، وفكرت أنه أصبحت لدي فرصة لأن ألتفَّ من حول قمة جبل ريسكويل عبر واحدةٍ من الحلبات الجليدية الشديدة الانحدار التي تهبط من جبل سجور ديرج. عندما أستعيد الآن تلك الذكرى، أجِد أن كل ما فعلتُه كان مشوشًا وغير مُتقَن، فماذا كنتُ أريد أن أفعل، حتى إن وصلتُ إلى الجانب الخفي، غير قتله أو جرحه؟ كما أن فرصتي لفعل ذلك كانت ستظل قائمة ما دمتُ مسيطرًا على الأرض المرتفعة. ولكن في خِضمِّ إثارة المطاردة، لا يتناول العقل الأفكار من منظورٍ أبعد، وكنتُ مفتونًا بالمتعة الجنونية لهذه المطاردة. لم أكن أشعر بالخوف لأني لم أكن أُفكر في العواقب.

سرعان ما وصلتُ إلى الجزء الأعلى من الحافة ورأيتُ الجانب الصخري الهائل لجبل سجور ديرج يجثم عَلَيَّ من أعلى. كما رأيت شيئًا كنتُ نسيت أمره. لم يكن هناك سبيل لصعود هذا الجبل من على الحافة مباشرة، فقد كان جانبه يرتفع بزاوية قائمة مثل جدار المنزل. وحتى يتمكن المرء من الوصول إلى القمة، عليه أن يتحرك في أيٍّ من الجانبَين؛ إما جانب ماتشراي عبر منحدر مكسو بالركام، وإما جانب هاريبول عبر الأخدود العميق الذي يشكل قمة الحلبة الجليدية التي كنتُ أُطل عليها الآن. على الجانب الآخر من تلك الحلبة الجليدية، كانت هناك الدعامة الأولى من الدعائم العملاقة التي تمتدُّ بطول جبل سجور ديرج نزولًا حتى وادي ريسكويل. كان هذا جبل بيناكل الشهير (كما أطلق عليه متسلِّقو الجبال)؛ كنت قد تسلقتُه قبل ثلاثة أسابيع وكان تسلُّقه شاقًّا للغاية؛ ولكني حفظتُ الطريق إلى الحافة بدايةً من قاع الوادي، ولم أجد أيَّ طريق صالحة على جانب الحلبة الجليدية الذي كان عبارة عن جلاميد وصخور هشة، في حين كانت الشقوق القليلة تحتوي على نتوءات سيئة.

رقدتُ على بطني لأستطلِع. ما الذي يمكن أن يفعله مِدينا؟ بعد الطلقة التي أطلقتها، لم يكن يستطيع أن يتابع ما يحدث فوق الحافة؛ لم تكن هناك أماكن اختباء كثيرة على المنحدرات العليا. فكرت في أنه سيواصل المُضي على الأرض الوعرة والوادي حتى يصل إلى هذه الحلبة الجليدية، وسيحاول العثور على طريق إلى أرضٍ أكثر ارتفاعًا إما عبر الحلبة الجليدية نفسها وإما عبر أحد جوانب الجبل. في تلك الحالة، سيكون عَلَيَّ أن أنتظره. ولكني فكرت أولًا أنه من الأفضل أن أضع مشط طلقاتٍ جديدًا في خزانة البندقية، فقد كانت الطلقة التي أطلقتُها هي الطلقة الأخيرة في مشط الطلقات القديم.

عندئذٍ اكتشفتُ أمرًا صاعقًا. كنتُ قد رَبَّتُّ على جيوبي وأخبرتُ أنجوس بأني لدي الكثير من الخراطيش. وكان هذا صحيحًا، ولكنها لم تكن تناسِب عيار البندقية التي كنتُ أحملها. تذكرتُ أنني قبل يومَين، كنت قد أعرت آرتشي بندقيتي من عيار ٠٫٢٤٠، ومنذ ذلك الحين كنتُ أستخدم البندقية من نوع مانليتشر. وكانت أمشاط الذخيرة في جيبي تخصُّ بندقية مانليتشر منذ ذلك اليوم. يُمكنني أن أتخلص من بندقيتي، فلم تعُد فائدتها تتخطى فائدة سيخ حديدي.

صُعقت في البداية من فداحة الأمر. فها أنا ذا، مُنخرط في صراع على جبل وسط البراري مع أحد أبرع الرماة في العالم، وقد فقدتُ سلاحي! كان المسار العقلاني هو أن أعود أدراجي. وكنتُ أملك الكثير من الوقت لأفعل، وقبل وقتٍ طويل من وصول مِدينا

إلى الحافة، سيُمكنني أن أتوارى داخل وادي ماد بيرن الضيق. ولكني لم أفكر في طريق الهرب هذا على الإطلاق. لقد حددتُ هدفي، وقررتُ أنَّ اللعبة يجب أن تنتهي هنا والآن. ولكن أعترف بأني كنتُ يائسًا تمامًا ولم أتمكن من وضع خطة. أظن أنني شعرتُ بأن ثمة بصيص أملٍ في أني سأتمكن من إرجاء المواجهة حتى يُخيم الظلام، ثم أستعين بمهاراتي في تسلُّق الجبال لأحرمه من أفضليته، ولكني كنت أشعر بشعور مقبض بأنه من المستبعد أن يتكرم بمنحي تلك المهلة الطويلة.

أجبرتُ نفسي على التفكير، وقررتُ أن مِدينا إما سيصعد الحلبة الجليدية وإما جانب الجبل الشديد الانحدار الذي يُكوِّن الجانب الأيمن منه ويمتدُّ نزولًا حتى وادي ريسكويل. من شأن الطريق الثاني أن يمنحه ساترًا، ولكنه قد يؤدِّي به إلى قتالٍ مباشر مفاجئ إذا ما تمكنتُ من تشتيت انتباهه، فقد أُباغته من على مسافةِ أربع ياردات من فوق أيٍّ من هذه الأراضي المرتفعة. لهذا السبب، ربما يُفضل الحلبة الجليدية التي كانت تقطعها الكثير من الصخور، وتتخلَّلها وِهاد، وفي الوقت نفسه، تعطي رؤية جيدة لجميع الأراضي الأعلى ارتفاعًا.

كنتُ مختبئًا خلف جُمة من عشبة القمل واضعًا نظارتي المقربة على عينَي؛ وسُررت عندما رأيت غزلانًا ترعى في منتصف المسافة تقريبًا نحو الوادي في الأسفل في الجهة اليُمنى. لم يكن مِدينا سيتمكَّن من صعود الحلبة الجليدية من دون أن يزعِج هذه الغزلان؛ وكانت مجموعة مكونة من حوالي ثلاثين وعلًا، خمسة منها صغار، واثنان كبيران بعض الشيء. لذلك كنتُ محميًّا من تلك الجهة، ولم يتبقَّ لي إلا الحافة لأُراقبها.

ولكني فكرتُ في خطةٍ أخرى بينما كنت راقدًا في مكاني. كنت واثقًا من أن مِدينا سيحاول تسلق الحلبة الجليدية أولًا، ولن يرى الغزلان إلا بعدما يدخلها، فقد كانت تقف على أرضٍ أشبه بالمنصة تخفيها عن الناظر من أسفل. وفي الجهة المُقابلة منِّي عبر الحلبة الجليدية الضيقة، كان الجدار الأسود المهيب لجبل بيناكل ريدج ينتصِب شاهقًا، وكانت الرياح تهب من ناحيتي في اتجاهه. تذكرت حيلة كان قد علَّمها لي أنجوس؛ كيف يمكن للمُتَعَقِّب أن يستخدم الرياح التي تهب من ناحيته في اتجاه جبل مقابل، ثم ترتدُّ منه وتعود نحو المُتَعَقِّب مجددًا، وبهذا يشم الغزال الذي أسفله رائحته ويبتعِد عنها ولكن صعودًا في اتجاه المُتَعَقِّب. إذا تركتُ الرياح تحمل رائحتي إلى جبل بيناكل ريدج وترتد عنه، فقد تُحَرِّك الغزلان نحوي على المنصة فوق الحلبة الجليدية. قد تكون ريحًا خفيفة، ومن ثم قد تتحرك الغزلان ببطءٍ مبتعدةً عنها؛ وبالطبع نحو الفجوة تحت جانب جبل

سجور ديرج العمودي الذي يؤدي إلى حلبة جليدية صغيرة عند رأس ريد بيرن. لم نتعقب الغزلان في هذه الحلبة الجليدية من قبل، فقد كان من المُستحيل إخراج وعلٍ منها من دون تقطيعِه إربًا إربًا، ومن ثم كان المكان ملاذًا تلجأ إليه الغزلان المضطربة.

وقفتُ وخلفي خط الأفق واثقًا من أن مِدينا لا يمكن أن يكون في مجال الرؤية بعد، وتركت الرياح، التي كانت حينئذٍ أقوى وتهب نحو الشمال تقريبًا، تمر عبر شعري. ظللتُ على هذه الحال خمس دقائق تقريبًا، ثم رقدتُ على الأرض لأشاهد نتيجة ما فعلتُ مُثبتًا نظارتي المقربة على الغزلان. رأيت الغزلان تقلق؛ إذ رفعت الوعول الكبيرة رءوسها أولًا ثم تبعِتها الوعول الصغيرة لتنظُر نحو جبل بيناكل ريدج. سرعان ما تحرك وعل صغير بضع ياردات نحو أعلى التل؛ ثم تبِعه زوج من الوعول؛ ثم حرَّك دافع مفاجئ ومُتزامنٌ القطيعَ بأكملِه نحو أعلى الحلبة الجليدية. كانت مسيرة هادئة وثابتة السرعة؛ فلم تكن الغزلان خائفة، بل مُتشككة قليلًا. رأيت برضًا أن هدفهم كان الفجوة المؤدِّية إلى ريد بيرن.

لا بد أن يرى مِدينا الغزلان ويفترِض أنه من المستحيل أن أكون أمام الغزلان. قد يبحث عني عند الجانب الآخر، لكن الأرجح أن يتبع الغزلان ليصل إلى الأرض المُرتفعة. بمجرد أن يصِل إلى هناك، سيتمكن من رؤية تحرُّكاتي، سواء كنتُ على منحدرات جبل بيناكل ريدج، أو في الأسفل عند الوادي على جانب ماتشراي. لا شكَّ في أنه سيفكر في أن مهارته في الرماية أفضل بكثيرٍ من مهارتي مما سيجعله يظنُّ أن مجرد تحديد مكاني وسط التضاريس سيكون كافيًا للقضاء عليَّ.

لم أكن أعرف ما أنوي فعله تحديدًا. راودَتني فكرة أن أختبئ وأُباغته، ولكن كانت احتمالات نجاح ذلك واحدًا إلى مِليون، وحتى لو واجهتُه من مسافةٍ قريبة، فهو مُسلح وأنا أعزل. تحركتُ نحو اليمين قليلًا حتى أُبعِد رائحتي عن الغزلان، وجلستُ أنتظر وقشعريرة تتسلَّل إلى روحي. أخبرتني ساعتي أن الساعة الخامسة تمامًا. ربما كانت ماري وبيتر جون يتناولان الشاي الآن بين أزهار الأمير تشارلي، وجرينسليد وآرتشي قادمان من النهر. لا بد أن ماتشراي تُشبه الفردوس الآن بين الخُضرة ونسيم المساء العليل. كان المكان من حولي رائعًا أيضًا، من نبات صائد الحشرات الذي يشبه النجوم وعشب بارناسوس بجوار رءوس الآبار، إلى قِمم جبل سجور ديرج المَهيبة التي تحمِل لون العاصفة في مقابل السماء التي بلونٍ فيروزي فاتح. ولكني كنتُ أعلم الآن أن جمال الأرض يعتمد على عين الناظر، فقد صار العالَم المُحيط بي فجأةً كئيبًا وخانقًا.

(٣) من الخامسة مساءً إلى حوالي السابعة والنصف مساءً

مرت ساعة كاملة قبل أن يصل. كان تخميني صائبًا، وكان قد توصَّل بالفعل إلى الاستنتاج الذي أملتُ أن يستنتِجه. كان يتبع الغزلان نحو الفجوة، مفترضًا أني موجود ناحية ماتشراي. كنتُ مختبئًا في حفرة مكسوة بالعشب عند مكان التقاء الحافة الرئيسية وجانب الجبل الذي ذكرتُه سابقًا، وتمكنتُ من رؤيته بوضوح وهو يشقُّ طريقه بحذرٍ شديد إلى أعلى الحلبة الجليدية مُستخدمًا كل مكانٍ يصلح للاختباء يمرُّ به. وبمجرد أن يصل إلى قمة مُستجمع المياه، سأمتلك أفضليةً عليه من الأرض الأعلى وستكون الرياح في صالحي. أصبح لديَّ أمل الآن، فقد كان عليَّ أن أُبقِيَه فوق التل حتى مغيب الشمس، فحينئذٍ ستكون معرفتي الأفضل بالمنطقة نقطة تفوُّقي. فكرتُ أنه لا بد من أنه أصبح مرهقًا، فقد سار مسافةً أكبر بكثيرٍ مما فعلتُ أنا. أما أنا فكنت أشعر بأني قادر على مواصلة السير إلى الأبد.

كانت الأمور ستسير كما أردتُ تمامًا لولا تدخُّل غنمة ثانية. لطالما اشتُهر جبل سجور ديرج باحتوائه على بعض الأغنام حتى على أعلى أجزائه؛ أغنام لعينة مارقة في حالة يُرثى لها، شاردة في الأساس عن قطيع جيد، ولكنها أصبحت حاليًّا نوعًا جديدًا تمامًا لم يُصَنِّفه العلم بعد. لم أكن أعرف كيف كانت تعيش وتتكاثر، ولكن ثمة حكايات عن الكثير من عمليات الملاحقة الجيدة التي أفسدَتها بمكرها الشيطاني. سمعت صوتًا وسطًا بين الزمجرة والصفير آتيًا من خلفي، وعندما أدرتُ رأسي لأنظر إلى مصدره، رأيت إحدى هذه الحيوانات المُزعجة تقف على صخرةٍ وتنظر نحوي. كانت قادرة على رؤيتي بوضوح، فمن هذه الناحية لم يكن ثمة مكان للاختباء.

كنتُ راقدًا مثل الفأر أُراقب مِدينا. كان على بُعد نصف ميل تقريبًا مني، وكاد يصل إلى قمة الحلبة الجليدية، وكان قد توقَّف ليستريح ويستطلِع ما حوله. دعوت بكلِّ جوارحي ألا يرى الغنمة.

ولكنه سمِعها. فقد بدأت تصفر وتسعل، ولم يكن الأمر يحتاج إلى خبير ليُدرك أنها كانت تشكُّ في وجود شيءٍ ما وتعرف أين يكون. رأيتُه يُوجه نظارته المُقربة نحو مَكمني، ولكن من حيث يقف، لن يرى شيئًا سوى شُجيرات. ثم بدا وكأنه يُراجِع نفسه واختفى فجأةً عن مجال رؤيتي.

عرفتُ ما كان ينوي فعله. كان قد قفز داخل جرف، سيُوصله إلى أرض مرتفعة في مستوى الأفق ويمكنه من القفز عليَّ مِن أعلى، بينما سيكون بعيدًا تمامًا عن مجال رؤيتي.

لم يكن ثمة ما يُمكنني فعله سوى الابتعاد عن هذا المكان. بدا أن جانب الجبل الذي يهبط حتى وادي ريسكويل هو أفضل فرصة أمتلِكها، فانطلقتُ رابضًا وزاحفًا لألتفَّ حول طرفه وأسلك جانب الجبل الشديد الانحدار المؤدي إلى الوادي. تطلَّب مني الأمر عملًا شاقًّا حتى التففتُّ حول ناصية جانب الجبل، فقد كنتُ أتوقَّع أن أُصاب بطلقةٍ في ظهري طوال الوقت. ولكن لم يحدُث شيء، وسرعان ما انزلقتُ على بعض الجلاميد لأصل إلى حواف مُتقلقلة مُغطاة بالعشب. أنا مُتسلق جبال متمرِّس، ومُحب للصخور، ولكني لا أُحب النباتات المُختلطة بمسارات التسلُّق، وكنتُ أواجه الكثير منها حاليًّا. كنتُ لا أزال على ارتفاع ألف قدَمٍ على جانب الجبل، وأظن أنه لا بد وأن يُسَجَّل باسمي الرقم القياسي في سرعة التسلُّق نزولًا. توقفتُ لاهثًا تُغطيني الكدمات والخدوش على مساحةٍ مكسوة بالركام، ومن تحتي جبل ريسكويل القصير، ومن خلفه على بُعد رُبع ميل، الجروف السوداء لجبل بيناكل ريدج.

ولكن، ماذا ستكون خطوتي التالية؟ لقد انقلبت الأدوار. أصبح مِدينا على أرضٍ مرتفعةٍ ومعه بندقية، وكان سلاحي عديم الفائدة. بمجرد أن يكتشف الطريق الذي سلكته، سيأتي في إثري بسرعة البرق. لم تكن ثمة فائدة من النزول عن جدار الوادي؛ ففي الأرض المفتوحة، ستُتاح له الفرصة لأن يُطلق عليَّ عشرين طلقة. ولم تكن ثمة فائدة من البقاء على جانب الجبل أو الحافة المجاورة؛ فلم تكن ثمة الكثير من أماكن الاختباء. لم أتمكن من الاختباء لفترة طويلة في الحلبة الجليدية. ثم نظرت نحو جبل بيناكل ريدج، وفكرت أنه بمجرد أن أصل إلى تلك الممرَّات الضيقة السوداء، سأكون في أمان. تقول المزامير: «أَرْفَعُ عَيْنَيَّ إِلَى الْجِبَالِ، مِنْ حَيْثُ يَأْتِي عَوْنِي»؛ ولكني أفضل أن أرفعها إلى الصخور.

كانت أمامي مسافة ربع ميل من الأرض المفتوحة لعبورها، ومسافة أكبر من بعدها إذا ما أردتُ أن أصل إلى الجبل عند نقطة من السهل تسلقها. كانت هناك شقوق أمامي، حفر عميقة سوداء، ولكني تذكرتُ أنها بدت شديدة الصعوبة في تسلُّقها، وكانت مُمتلئة بالنتوءات. ماذا لو دخلتُ أحدَها وعلقت فيه. سيتمكن مِدينا منِّي بأمانٍ تام. ولكن لم

يكن بمقدوري الانتظار والتفكير. دخلتُ جدار الوادي وشربتُ من إحدى البرك وشعور بغيض كئيب يتملك روحي. ثم سرتُ مع اتجاه سريان مجرى النهر، مُراعيًا أن أظلَّ على الضفة اليُمنى التي كانت، لحُسن الحظ، عاليةً وتحتوي على تجمُّعاتٍ لشجيرات الروان. بينما كنت أمضي قُدُمًا، كنتُ أُدير رأسي من وقتٍ لآخر لأنظر خلفي ولأعلى لأرى الخطر المُحدِق بي.

أظنُّ أن مِدينا، الذي لم يكن يعلم بأمر بندقيتي، قد شَكَّ في وجود فخ، فقد كان يتحرك ببطء، وعندما لمحتُه، لم يكن على جانب الجبل الذي هبطت عبره، بل كان لا يزال فوق الحلبة الجليدية. أدركتُ أمرَين في تلك اللحظة. الأول أني لم أكن لأصل إلى الطرف السهل التسلق من جبل بيناكل ريدج من دون أن أكشف نفسي أثناء عبور مساحة أرض مكشوفة. والثاني أنه كان يوجَد عن يساري في الجبل أخدودٌ عميقٌ يبدو أنه من المُمكن تسلُّقه. علاوةً على ذلك، كان سفح هذا الأخدود يبعُد عن الوادي مسافة تقلُّ عن مائة ياردة، وكان عميقًا للغاية لدرجة أن المرء يمكن أن يجد فيه ملاذًا بمجرد دخوله.

في ذلك الوقت لم أستطع رؤيةِ مِدينا، ولا أظن أنه كان قد رآني بعد. كان هناك ماء قليل يَقْطُر من الأخدود إلى الوادي، ومنحني هذا مكانًا جيدًا للاختباء. غَرَسْتُ أنفي في الطحالب، وتركتُ الماء يقطر على عنقي بينما شققتُ طريقي صعودًا داعيًا بجميع جوارحي أن تَعمى عينا عدوِّي عني.

أظن أني كنتُ قد وصلت إلى منتصف المسافة عندما أدرتُ رأسي واستطلعتُ الحلبة الجليدية، ورأيتُ مِدينا واقفًا ينظر في اتجاهي. لحُسن الحظ، لم يكن حذائي الطويل الرقبة مرئيًّا، وكان رأسي أكثر انحناءً بقليلٍ من كتفَي، لذلك أظن أنه كان من الصعب أن يراني وسط الرمال والحصى والشجيرات. إن كان قد استخدم منظاره، فلا بد أنه قد رآني، ولكني لست واثقًا من ذلك. رأيته يُمعن النظر. رأيته يرفع بندقيته إلى كتفه، وسمعت قلبي يدق بعُنف. ثم خفض سلاحه مجددًا، واختفى عن ناظرَي.

بعد دقيقتَين، أصبحتُ داخل الأخدود.

كان المكان عبارة عن كهف ذي أرضية رملية، ثم كان هناك منحدر صخري حاد، بينما ضاقت الجوانب مكونةً شقًّا عموديًّا. لم يكن تسلُّقه شديد الصعوبة. أرجحتُ نفسي نحو الأعلى، ووجدتُ أن الشقَّ كان عميقًا لدرجة أن جِداره الخلفي يبعُد ثلاثة ياردات عن الفتحة، فتسلقتُ داخله في عتمة تامَّة وأمانٍ تام من أن يَراني أحد. استمرَّ تسلُّقي لمسافة

حوالي أربعين قدمًا، وبعد أن تسلقتُ صخرة عالقة بين جانبَي الشق، وصلتُ إلى تشعُّب. بدا التفرع نحو اليسار ميئوسًا منه، بينما بدا أن التفرُّع نحو اليمين يُنبئ بفُرص جيدة. ولكني توقفتُ لأفكر، فقد تذكرتُ أمرًا ما.

تذكرتُ أن هذا هو الشقُّ الذي رأيتُه منذ ثلاثة أسابيع عندما تسلقتُ جبل بيناكل ريدج. كنتُ قد رأيتُه من أعلى، واستنتجتُ حينئذٍ أنه على الرغم من أن التفرُّع الأيسر يمكن تسلُّقه، فإن تسلق التفرع الأيمن مُستحيل أو شِبه مستحيل، فعلى الرغم من أنه يبدأ بطريقةٍ واعدة، فإنه ينتهي عند صدع مخيف على جانب الجرف، ولا يعود شقًّا سهل التسلق مجددًا إلا بعد مائة قدمٍ من أحجار الجرانيت الهشَّة التي لا يمكن تسلُّقها.

فجربتُ التفرع الأيسر الذي لم يَبدُ واعدًا على الإطلاق. كانت العقبة الأولى التي واجهتني هي صخرة عالقة بين جانبي الشق، وتمكنت من التسلق من حولها، ثم اتسعت المسافة بين جانبي الشق اللعين وأصبح يصعد عموديًّا. تذكرتُ أني كنت قد اعتقدتُ أنه يمكن العثور على طريق عبر تسلق الجانب الأيمن من الشق، وفي خِضَم إثارة تسلق الصخور، نسيتُ جميع إجراءاتي الاحترازية. لم أفكر أن هذا الجانب قد يجعلني عرضةً لأن تراني العينان التي يجب أن أتجنَّبهما مهما كلفني الأمر.

لم يكن الأمر سهلًا، فلم تكن هناك الكثير من الفتحات التي يُمكنني استخدامها في التسلُّق. ولكني كنتُ قد تسلقتُ جبالًا أسوأ في الماضي، ولو لم أكن أحمل بندقيتي (لم تكن معي حمالة)، ربما لم أكن سأعتبر الأمر على هذا القدْر من الصعوبة. سرعان ما عبرت الجزء الأسوأ، ورأيتُ طريقي يلتف عائدًا إلى الشق الذي عاد مجددًا ليكون من السهل تسلقه. توقفت للحظات لأستطلِع الطريق، مثبتًا قدمي على حافة ثابتة ومحيطًا بذراعي اليُمنى نتوءًا صخريًّا ومادًّا يدي اليسرى، التي تحمل البندقية، بحيث تتحسس أصابعي مدى ثبات الفتحات التي سأتعلق بها.

فجأة شعرت بقوة هذه الأصابع تخور. بدا أن الصخرة تهشمت وتطايرت شظاياها داخل عيني. سمعتُ أصداءً مدويةً، غطت على الجلبة التي أحدثها سقوط بندقيتي إلى عُمق الهاوية. أتذكر تحديقي في يدي التي أسندتُها مفتوحة الأصابع على الصخور متسائلًا لِمَ كانت تبدو غريبة الشكل.

كانت الشمس قد بدأت للتوِّ في المغيب، وكان هذا يعني أن الساعة اقتربت من السابعة والنصف.

(٤) من السابعة والنصف مساءً فصاعدًا

لو أنَّ شيئًا من هذا القبيل كان قد حدث لي خلال رحلة تسلُّق جبال عادية، فلا شك في أني كنتُ سأفقد توازُني من فرط الصدمة وسأسقط. ولكن بما أني كنتُ مُلاحَقًا، فأظن أن أعصابي كانت مُستنفَرةً للغاية، لذا لم تزلَّ قدمي. لقد أنقذني خوفي من أن تُطلَق عليَّ طلقةٌ ثانية. في لمح البصر، كنت قد عدت لتسلُّق الشق، واصطَدَمَت الطلقة الثانية بصخور الجرانيت دون أي ضررٍ يُذكر.

لحُسن الحظ، كان التسلق الآن أسهل؛ مجرد تحميل على الركبتَين والظهر؛ الأمر الذي كنتُ قادرًا على فعله على الرغم من أصابع يدي المحطمة. تسلقتُ بكد والعرقُ الباردُ يتجمع على حاجبَي، ولكن كانت كل عضلة من عضلاتي تؤدي المطلوب منها، وكنت واثقًا من أني لن أرتكب أي أخطاء. كان الشق عميقًا، وأَخفَتْني حافة من الصخور عن أعين عدوي القابع في الأسفل. بعد قليلٍ كنت أحشر نفسي عبر إحدى الفجوات، وأؤرجِح جسدي مستخدمًا يدي اليمنى وركبتَي لأصعد إلى رَفٍّ صخري، ورأيتُ أن الجزء الصعب قد وَلَّى. كان أمامي أخدود ضحل مليء بالركام يؤدي إلى قمة الحافة. كان هذا هو المكان الذي نظرتُ إليه من علٍ قبل ثلاثة أسابيع.

فحصْتُ يدي اليسرى التي كانت في حالة سيئة للغاية. كانت العقلة العلوية من إبهامي مخلوعة، وكان المِفصلان العلويان لأصبعَي الوسطى والبنصر مُحطَّمَين تمامًا. لم أكن أشعر بأي ألَم في أصابعي، على الرغم من الدم الذي يقطر منها، ولكني كنتُ أشعر بخدَر غريب في كتفي اليسرى. تمكنتُ من ربط يدي بمنديل، فكوَّن ربطةً دامية. ثم حاولتُ أن أستعيد هدوئي.

كان مِدينا قادمًا يتسلق الشق خلفي. وكان يعرف أني لا أملك بندقية. كنتُ قد سمعت أنه خبير في تسلُّق الجبال، كما كان يصغرني بعشر سنوات على الأقل. فكرتُ في أول الأمر أن أصعد على الفور إلى الجزء العلوي من جبل بيناكل ريدج، وأن أحاول أن أختبئ أو أراوغه بطريقةٍ ما حتى يُخيم الظلام. ولكنه كان سيتمكن من تتبعي في ذلك الليل الشمالي الصافي، وسرعان ما ستخور قواي بسبب الدم الذي فقدتُه. لم يكن لديَّ أدنى أمل في أن أسبقه بمسافةٍ آمنة، وكان يحمل بندقيته القاتلة. ويُمكنه أن يُصيبني في أي وقتٍ خلال الليل أو عند شروق الشمس. لا، يجب أن أبقى حيث أنا وأقاتل.

هل ألزم الشق؟ لم أكن أملك أي سلاح سوى الصخور، ولكن ربما أتمكن من منعه من الصعود باستخدام تلك الصخور الوفيرة. مَهْما يَكُن مِن أمرٍ داخل الشق كان يوجَد

ساتر، ولن يتمكن من استخدام بندقيته. ولكن هل سيسلك طريق الشق؟ لِمَ لا يلتف حول المنحدرات الأقصر لجبل بيناكل ريدج ويُباغتني من أعلى؟

كان خوفي من طلقاته هو ما حملني على اتخاذ قراري. كان هدفي الوحيد هو الاختباء. ربما تمكنتُ من جعله يدخل في مكانٍ لا تكون فيه بندقيته مُجدية وتتوفر لي فرصة استخدام قوتي العضلية الأكبر. لم أكن أهتمُّ لما قد يحدث لي ما دامت ستطوله يداي. فخلف كل خوفي وارتباكي وألمي، كانت هناك فورة غضب تستعر في أعماقي.

لذا انزلقتُ داخل الشق مجددًا، ونزلته حتى وصلت إلى مكانٍ انحرفتُ عنده نحو اليسار قليلًا مرورًا بنتوء صخري. تواريتُ في هذا المكان عن الأنظار، وتمكنتُ من النظر إلى أعماق ذلك الممر الضخم التي كانت تزداد إظلامًا.

ملأ ضباب أرجواني الحلبة الجليدية، وأصبحت قمم تلال ماتشراي أشبه بأحجار جمشت كئيبة. كانت السماء زرقاء ملبدة بالغيوم وترصعها النجوم، واختلط آخر ما تبقى من احمرار الغروب مع الموجة الأولى من أضواء الشفق. لأول وهلة كان كل شيء هادئًا في الأخدود. وسمعتُ الجلبة الخافتة التي تحدثها الصخور الدائمة السقوط في مكان كهذا، وكذلك نعيق غراب جائع. هل كان عدوي هناك؟ هل كان يعرف طريقًا أسهل لتسلُّق جبل بيناكل ريدج؟ ألم يفترض أن الشق الذي تمكنتُ من تسلقه سيكون من السهل عليه أن يتسلقه، وهل يخشى من رجل لا يملك سلاحًا وبيد مكسورة؟

ثم أتى من مسافة بعيدة في الأسفل صوتٌ أعرفه جيدًا؛ مسامير نعل تصطدم بالصخور. بدأت أجمع الصخور السائبة وصنعتُ كومةً صغيرةً من هذه الذخيرة بجواري. أدركتُ أن مِدينا بدأ تَسلُّق الأجزاء السفلية من الشق. كان كل صوت يشقُّ الصمت واضحًا تمامًا؛ أصوات الاحتكاك الثابتة داخل الشق، وسقوط شظايا الصخور أثناء تسلُّقه الصخرة السفلية العالقة بين جانبي الشق، ثم أصوات الاحتكاك مرة أخرى أثناء دفع نفسه للخروج إلى الجدار الخارجي. لا بد أن الظلام كان دامسًا، ولكن الطريق كانت سهلة. لم أكن أراه بالطبع، إذ كان ثمة انبعاج في الصخور يَحجُبه عني، ولكن أطلعتني أذناي على كل ما يحدث. ثم عَمَّ صمتٌ تام. أدركتُ أنه وصل إلى المكان الذي يتفرع عنده الشق.

كانت صخوري جاهزة، فقد كنتُ آمُل أن أنال منه عندما يُصبح على الجانب المليء بالنتوءات، البقعة التي كنتُ عندها عندما أطلق عليَّ النار.

بدأت الأصوات تصلني مجددًا، وانتظرتُ في صمتٍ يائسٍ خانق. ستحل الكارثة في خلال دقيقة أو دقيقتَين. أذكر أن أضواء الشفق كانت تعلو قمم ماتشراي وتلقي بضوءٍ خافتٍ على الحلبة الجليدية في الأسفل. وفي داخل الشق، كان لا يزال هناك ضوء يُشبه الغسق الخافت. توقعتُ أني سأرى في أي لحظة شيئًا مُعتمًا يتحرك أسفل منِّي بمسافة خمسين قدمًا، والذي سيكون رأس مِدينا.

ولكن لم يحدث ذلك. كانت أصوات شظايا الصخور مستمرة، ولكن لم يبدُ أنها تقترب. ثم أدركتُ أني قد أسأتُ تقدير الموقف. كان مِدينا قد سلك التفرع الأيمن. كان من البديهي أن يفعل، فلم يكن قد أجرى استطلاعًا مسبقًا مثلما فعلتُ أنا. لا بد أن الطريق التي سلكتها بدت له في الضوء الخافت مستحيلةً تمامًا.

كانت الاحتمالات الآن تصبُّ في صالحي. لم يكن ثمة أمل لأي أحد، في ذلك الظلام الذي كان يُخيم سريعًا، في أن يتسلق جانب الجرف ويعود إلى الشق مجددًا بعد انقطاعه. سيمضي قُدمًا حتى يَعلَق؛ ثم لن يكون التراجُع أمرًا يسيرًا. عدتُ أتسلق صاعدًا الشق الذي كنتُ فيه، فقد خطر لي أنه يجدُر بي أن أقطع المسافة بين الفرعَين، وأعثر على موقعٍ متميز أرى منه ما يحدث.

وببطء وألَم شديدَين، لأني كنتُ قد بدأتُ أشعر بألمٍ حارقٍ في ذراعي اليسرى وبخدرٍ غريبٍ في كتفي اليسرى وعنقي، سرتُ مترنحًا عبر الجانب المنحدر حتى عثرت على نتوءٍ يُشبه برجًا صخريًّا ينحدر الجرف من بعده دون توقُّف حتى شفا التفرع الآخر. كان الأخدود الكبير في تلك اللحظة حفرةً معتمةً، ولكن الشفق كان لا يزال يُلقي بضوئه على هذا الجزء العلوي واستطعتُ أن أرى بوضوح مكان الشق الذي يتسلَّقه مِدينا، وأين يضيق وأين ينتهي. ثَبَّتُّ نفسي جيدًا حتى لا أسقط، فقد كنت أخشى أن أصاب بدوار. ثم تذكرتُ حبل أنجوس، ففردته، وربطت جزءًا منه حول خصري، ولففت عقدة حول البرج الصخري.

سمعتُ صرخةً مكتومةً آتيةً من الأسفل، ثم تبعها فجأة رنين اصطدام معدنٍ بالحجارة، ثم جلبة شيء يسقط. عرفت ما كان يعنيه ذلك. لقد لاقت بندقية مِدينا نفس مصير بندقيتي، وأصبحَت ترقد الآن بين الصخور عند قاع الشق. أخيرًا صارت فُرَصنا متساوية، ورغم ذهني المشوَّش، رأيتُ أنه لم يعد ثمة ما يحول بيننا وبين التوصُّل إلى تسوية للأمر.

بدا لي أنني رأيتُ شيئًا يتحرك في الضوء الخافت. إذا كان هذا الشيء هو مِدينا، فقد غادر الشق وبدأ يُحاول تسلُّق جانب الجبل. كنتُ أعلم أنه من المحال المضي في هذه الطريق. سيكون مجبرًا على التراجُع، ومن المؤكد أنه لن يمضي وقتٌ طويل قبل أن يُدرك الخطأ الذي ارتكبه وسيتسلَّق نحو الأسفل. بعدما فقدَ بندقيته، انحسرت كراهيتي له. أصبحتُ أشعر وكأني أُراقب مُتسلِّق جبالٍ زميلًا في ورطة.

لا بد أنه لم يكن يبعُد عني بمسافةٍ تزيد عن أربعين قدمًا، فقد كنت أسمع صوت لهاثه. كان يحاول باستماتة أن يعثر على أي ثقوبٍ يتشبث بها، ولا شك في أن الصخور كانت مهترئة، فقد كنتُ أسمع صوتًا مستمرًّا لسقوط أجزاء منها، وسمعتُ مرةً واحدةً صوت صخرةٍ كبيرةٍ تسقط إلى قاع الممر.

صِحتُ غريزيًّا: «عُد يا رجل. عُد إلى الشق. لن يُمكنك التقدُّم أكثر في هذه الطريق.»

أظن أنه سمعني، فقد بذل المزيد من الجهد المحموم، وخُيل لي أني رأيتُه يتمدَّد عند موطئ قدم فَوَّتَه، ثم يُؤرجِح جسده مُعتمِدًا على يدَيه. بدا جليًّا أن قواه كانت تخور، فقد سمعت شهقةً تدل على الإرهاق. إن لم يتمكن من العودة إلى الشق، فسيسقط من ارتفاع ثلاثمائة قدمٍ وسط الصخور في القعر.

صحتُ قائلًا: «مِدينا، معي حَبل. سأُدَلِّيه لك. ضَع ذِراعك داخل الأنشوطة.»

صنعتُ أنشوطةً عند طرف الحبل بأسناني ويدي اليُمنى بانفعالٍ محموم.

صِحت: «سأُلقِيه نحوك مباشرةً. أمسِك به عندما يسقط إليك.»

كان إلقائي للحبل جيدًا، ولكنه تركه يمرُّ بجواره، وتدلَّى الحبل في الهاوية السحيقة.

فصرخت: «اللعنة، يا رجل، يُمكنك أن تثِق بي. سنسوِّي الأمور بيننا بعدما أُخرجك إلى برِّ الأمان. ستسقط وتنكسِر رقبتُك إن ظللتَ معلقًا في مكانك.»

ألقيتُ الحبل مجددًا، وانشدَّ فجأة. لقد صَدَّق تعهُّدي، وأظن أن تلك كانت أفضل مجاملةٍ تلقيتُها طوال حياتي.

صِحت قائلًا: «لقد أمسكتُ بك. لقد ثبتُّ الحبل من ناحيتي. حاول أن تتسلَّق عائدًا إلى الشق.»

فهِم ما أعنِيه وبدأ يتحرك. ولكن لا بد أن ذراعَيه وساقَيه أصابهما الخدر بسبب الإرهاق، فقد حدث فجأة ما كنتُ أخشاه. كان هناك انزلاق واندفاع جامِحَين، ثم رأيتُه يتأرجح عند الطرف الآخر من الحبل بلا حراك مُفوتًا تمامًا الشقَّ عند الجدار السهل التسلُّق من الجرف.

لم يكن أمامي خيار سوى أن أرفعه. كنتُ أعرف حبال أنجوس جيدًا، وهو ما جعلني لا أثق فيها على الإطلاق، كما أنني لم أكن أملك سوى يدٍ واحدةٍ سليمة. مَرَّرتُ الحبل عبر تجويفٍ صخري كنت قد غَطَّيتُه بمعطفي، وأمِلتُ أن أتمكن من رَفعِه بذراعٍ واحدةٍ عبر رفعه ببطء.

صِحت قائلًا: «سأرفعك، ولكن بحقِّ الرب ساعِدني. لا تتعلق بالحبل أكثر مما تحتاج.»

كانت الأنشوطة التي صنعتُها كبيرة، وأظن أنه مرَّر ذراعَيه الاثنتَين عبرها. كان ثقيل الوزن للغاية ومنهكًا وهامدًا مثل جوال، فعلى الرغم من أني كنتُ أشعر به يخمش جانب الجرف ويركُله، كانت الصخور ملساء للغاية من دون أي شقوق. أمسكتُ بالحبل مُثبتًا قدمَي في الصخور، وطفقتُ أرفع حتى تأوَّهَت عضلاتي. كنتُ أسحبه بوصةً تلوَ الأخرى حتى أدركتُ أن ثمة خطرًا.

كان الحبل يحتكُّ بحافة حادة خلف الشق وقد ينقطع في أي لحظة بسبب تلك الحافة الحادة كنصل السكين.

لا بد أن صوتي كان أشبَهَ بعواء حيوان بري وأنا أصرخ قائلًا: «مِدينا، هذا خَطِر للغاية. سأُدلِّيك نحو الأسفل قليلًا حتى يُمكنك الرجوع. ثمة حافة هناك. أرجوك، تعامل بحذَر مع هذا الحبل.»

ففككتُ طرف الحبل المُثبت في البرج الصخري، وكم كان هذا صعبًا. ثم هبطت قليلًا نحو الأسفل حتى وصلتُ إلى منصةٍ صغيرةٍ بالقرب من الشق. منحنى ذلك حوالي ست ياردات إضافية.

صحتُ قائلًا، بعدما تركته ينزلق نحو الأسفل: «الآن، على مسافة قريبة على يسارك. هل تلمستَ الحافة؟»

لا بد أنه عثر على موطئ لقدمه، فللحظة، ارتخى الحبل المشدود. تأرجح الحبل إلى اليمين في اتجاه الشق. وبدأتُ أرى بصيص أمل.

صحتُ قائلًا: «طِب نفسًا. بمجرد أن تصل إلى الشق، ستكون في أمان. ابعث لي بإشارةٍ عندما تصل إليه.»

كانت الإجابة الوحيدة التي تلقيتُها من وسط الظلام هي شهقة. أظن أنه أصيب بالدوار، أو ربما بضمور العضلات الذي يُعَد أحد مخاطر تسلق الجبال. فجأةً، ألهب الحبل أصابعي وجُرِرْتُ فجأةً من خصري الذي ربطت الحبل حوله إلى شفا الهاوية.

ما زلتُ أعتقد أنني كنتُ سأتمكن من إنقاذه لو كنتُ قادرًا على استخدام كلتا يدَي، لأنني كنتُ سأتمكن من توجيه الحبل بعيدًا عن تلك الحافة الحادة. كنتُ أعلم أن الأمر كان ميئوسًا منه، ولكني استنفرت كل ما أملك من قوة وإرادة لأؤرجح الحبل وما يحمل نحو الشق. لم يُساعدني على الإطلاق، لأنه، حسبما أظن وآمُل، كان فاقدًا للوعي. بعد ثانيةٍ واحدةٍ، انقطعت جدائل الحبل، وسقطتُ على ظهري وسمعتُ صوتًا أُصلي للرب ألا أسمعه ثانيةً أبدًا؛ صوتًا مُدويًا لجسدٍ يرتطم بصخرةٍ تلو الأخرى، ثم هديرًا طويلًا خافتًا للركام يُشبِهُ صوتَ انهيارٍ جليدي.

* * *

تمكنتُ من الزحف بضع ياردات حتى وصلتُ إلى البرج الصخري وثبَّتُّ نفسي عنده قبل أن أفقد الوعي. وهناك، في الصباح، عثر عليَّ ماري وأنجوس.

هنـــداوي